مسائل الرازي وأجوبتها

من غرائب آي التنزيل

يحتوي على ١٢٣٨ سؤالاً وجواباً

تأليف

محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

تحقيق

إسلام الجلدي

مدرس العلوم العربية بالأزهر الشريف

مكتبة جزيرة الورد

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : مسـائل الـرازي وأجـوبتـهـا

المـــؤلــف : محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي

تحـقـيـق : إسـلام الجلـدي

صـف وإخـــراج فنـي : مركز الصفا للكمبيوتر

رقم الايداع ٢٠١٧/١١٢٨٣

الترقيم الدولى / ٣-١-٠٠-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبـعة الأولـى ٢٠١٦م

مكتبة جزيرة الورد

ميدان حليم خلف بنك فيصل الرئيسي

شـارع ٢٦ يـوليـو مــن ميـــدان الأوبـــرا

ت : ٢٧٨٧٧٥٧٤ م : ٠١٠٠٠١٠٤١١٥ - ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين الذى أنزل القرآن وخلق الإنسان وعلمه البيان ، والصلاة والسلام على النبى الكريم صاحب المقام المحمود الذى بعثه الله عز وجل بخاتم الرسالات وأعظم المعجزات معجزة القرآن الكريم ليكتمل التحدى والإعجاز .

ما فتئ أعداء الإسلام والحاقدون عليه يبثون أحقادهم فى كل عصر ومصر يلبسون على البسطاء دينهم ، ويشككونهم فى ثوابته ، ولكن الله يقيض كل حين علماء يحفظون للأمة دينها ويجلون عظمة الإسلام وإعجاز القرآن ، وهؤلاء العلماء لم تخل منهم أمتنا قط.

ومن نماذج الدفاع عن الإسلام هذا المصنِّف الرازى - وهو ليس الرازى المفسر - وهذا المصنَّف - غرائب آى التنزيل - فقد استقصى فيه المؤلف كل الشبهات التى استطاع حصرها حول آيات الذكر الحكيم التي قد يثيرها المشككون ورد عليها بعقلية وعلم وافرين ، وتلمس فى ردوده العلم الغزير فى علوم الشريعة واللغة وتلحظ الذكاء الحاضر والبديهة اللامعة .

وما زالت المكتبة القرآنية والحديثية تحتاج لمصنفات من هذا النوع تردُّ بها على المشككين الذين يظهرون من جحورهم ينتظرون رياحًا أن تدمغهم فيصيروا زاهقين مدحورين مخذولين .

الله أسأل أن يغفر لصاحب هذا الكتاب العظيم ولكل من أعان على نشره وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

إسلام الجلدى

مدرس العلوم العربية بالأزهر الشريف

التعريف بالمؤلف

محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى [١]

هو محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازىّ ، لقبه : زين الدين ، نشأ فى مدينة الرىّ ، وهى أصله ، واجتهد فى تحصيل العلوم المتنوعة : اللغة والفقه والتفسير والحديث والأدب والتصوف وكان مولعًا بالقراءة وأصبر الناس على المطالعة ، لا يملّ من ذلك . لم يقدم المترجمون بدقة سنة ولادته ، ولا سنة وفاته.

يُعرف من أخباره القليلة أنه دخل مصر وأقام بها زمنًا ، وجال فى ربوعها، وأخذ عن بعض مشايخها ، كما أخذ عن بعض طلبتها ، ثم قصد إلى دمشق والشام ، وطاف فى أرجائها ، ودخل بلاد الأناضول وأقام بها فى قونية ، وفيها صحب العالم المحقق صدر الدين القونوى وسمع منه كثيرًا من التأليف .

تنوّعت آثار الرازى بين كتبٍ لغوية وأدبية وتفسير وحديث ، منها : "هداية الاعتقاد" فى شرح بدء الأمالى ، و "التوحيد" ، و "غرائب القرآن" الذى ذكر فيه أن طلبة العلم وحملة القرآن سألوه أن يجمع لهم تفسير غريب القرآن ؛ فأجابهم ، ورتبه ترتيب صحاح الجوهرى ، وضم إليه شيئًا من الإعراب والمعانى ، وألف "كنوز البراعة" فى شرح مقامات الحريرى ، وله تاريخ لطيف يتناول أول الخلافة الإسلامية حتى القرن الثامن .

من تصانيفه : "روضة الفصاحة" ، و "حدائق الحقائق" فى الوعظ ، و "دقائق الحقائق" فى التصوف ، و "معانى المعانى" وهو مختارات شعرية ، و "كنز الحكمة" فى الحديث النبوى الشريف .

---

(١) الرازى هنا ليس الرازى المفسر فلينتبه .

والمعروف من كتب الرازى فى المكتبة العربية مما هي بين أيدى الناس كتاب "أسئلة من غرائب آى التنزيل"، و "كتاب الأمثال والحكم"، وهو مختصر جمع فيه مؤلفه ما تفرّق من الأبيات المفردة وأنصاف الأبيات التى ما زال الفضلاء يتمسكون بها فى مكاتباتهم ومخاطباتهم، وفيها جوامع الكلم العقلية والنقلية.

ومن خير مؤلفات الرازى كتاب "مختار الصّحاح" فى اللغة، وبه عُرِف واشتهر، وهو مختصر من "صّحاح الجوهري"، وعلى ترتيبه. ومع أنه أباح أن يتصرّف - بعد تجريد الصحاح من الشواهد وإيجازه - فإن الأمانة العلمية دفعته إلى أن يشير إلى هذا التصرف فى مقدمته فذكر قيمة كتاب الصحاح وأنه أحسن أصول اللغة ترتيبًا، وأوفرها تهذيبًا، وأسهلها تناولاً، وأكثرها تداولاً، ثم بين منهجه بوضوح فقال: "اقتصرت فيه على ما لا بد لكل عالم فقيه، أو حافظ، أو محدث، أو أديب من معرفته وحفظه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن، مما هو الأهم فالأهم، خصوصًا ألفاظ القرآن العزيز والأحاديث النبوية، وتيسيرًا على طلاب العلم اجتنبت فيه الغريب وعويص اللغة".

لا يُعلم على وجه الدقة تاريخ وفاته، إلا أنه بعد عام ٦٦٨هـ بقليل جدًا.

وهذا الكتاب - الذي بين يديك - من أجلِّ الكتب، صنفه استجابة لبعض طلبة العلم لبيان غريب القرآن للرد على المفترين والمشككين.

اللهم اغفر لصاحبه وانفع بعلمه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ / إسلام الجلدى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

قال الفقير إلى رحمة ربه ومغفرته : محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى ، عفا الله عنه ، وغفر له ولجميع المسلمين :

الحمد لله رب العالمين ، هذا مختصر جمعت فيه أنموذجًا يسيرًا من أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها ؛ فمنه ما نقلته من كتب العلماء ، إلا أنى نقحته ولخصته ، ومنه ما فتح الله تعالى على به بسبب مذاكرة أخ لى من إخوان الصفاء فى دين الله ومحبة كتابه ، وكان صالحًا تقيًا سليم الفطرة وقّاد الذهن، جامعًا لجملة من مكارم الأخلاق وصفات الكمال الإنسانى ، أنعم الله تعالى علىّ بصحبته ومذاكرته فى معانى كتابه ، وكان شديد العناية بها كثير البحث والسؤال عنها قد هداه الله إليها وفتح عليه فيها بغرائب لم نسمعها من العلماء ولا رأيناها فى كتبهم ، فحملتنى فكرته القادحة ونيته الصالحة على جمع هذه الصبابة، وهى تزيد على ألف ومائتى سؤال : وإن كانت بالنسبة إلى ما فى القرآن من العجائب والغرائب كالقطرة من الدماء [(١)] ، والسها [(٢)] من نجوم السماء ، ولكن قصدت اختصار هذا الأنموذج منها وتقريبه إلى الأفهام ، ليكثر الانتفاع به ولا يهجر لدقته وغموضه .

وأما الأسئلة التى تتعلق بوجوه الإعراب ، وبالمعانى التى هى أدق على الأفهام وأخفى ، فإنى وضعت لها مختصرًا آخر ، وأودعته أنموذجًا منها أيضًا فليلطب ثمة ، وبالله أستعين ، وعليه أتوكل ، وإليه أتضرع فى أن يجعل علمى وعملى خالصًا لوجهه الكريم ، ويتغمدنى وأخى الصالح بمغفرته ورحمته إنه غفور رحيم .

---

(١) فى إحدى النسخ الدأماء أى من البحر ، يقال : تأدم الماء الشيء إذا غمره .

(٢) السها : كوكب تصعب رؤيته .

سورة فاتحة الكتاب

١ - فإن قيل : الرحمن أبلغ في الوصف بالرحمة من الرحيم بالنقل عن الزجاج [١] وغيره ، فكيف قدمه ؟ وعادة العرب فى صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحرير ، لأن ذكر الأعلى أولاً ، ثم الأدنى لا يتجدد فيه بذكر الأدنى فائدة ، بخلاف عكسه ؟

قلنا : قال الجوهرى [٢] وغيره : إنهما بمعنى واحد كنديم وندمان ، فعلى هذا لا يرد السؤال ، وعلى القول الأول إنما قدمه ، لأن لفظ «الله» اسم خاص بالبارى تعالى لا يُسمّى به غيره ، لا مفردًا ولا مضافًا فقدمه ، والرحيم يوصف به غيره مفردًا ومضافًا فآخره ، والرحمن يوصف به غيره مضافًا ، ولا يوصف به مفردًا إلا الله تعالى فوسطه .

٢ - فإن قيل : كيف قدم العبادة على الاستعانة ، والاستعانة مقدمة ، لأن العبد يستعين بالله على العبادة فيعينه الله تعالى عليها ؟

قلنا : الواو لا تدل على الترتيب ، أو المراد بهذه العبادة التوحيد ، وهو مقدم على الاستعانة على أداء سائر العبادات ، فإن من لم يكن موحدًا لا يطلب الإعانة على أداء العبادات .

٣ - فإن قيل : المراد بالصراط المستقيم الإسلام أو القرآن أو طريق الجنة كما قيل بالنقل ، والمؤمنون مهتدون إلى ذلك ؛ فما معنى طلب الهداية لهم بقولهم : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] إذ فيه تحصيل الحاصل ؟

---

(١) الزجاج : هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي اللغوى ولد ببغداد ٢٤١هـ وتوفى سنة ٣١١هـ .

(٢) الجوهرى : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى سنة ٣٩٣هـ .

قلنا : معناه ثبتنا عليه وأدمنا على سلوكه خوفًا من سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك ، كما تقول العرب للواقف ، قف حتى آتيك ، معناه : دم على وقوفك واثبت عليه ، أو معناه : طلب زيادة الهدى كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد:١٧] وقال عز وجل : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦] .

٤ – فإن قيل : ما فائدة دخول «لا» فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقوله : ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ والضالين كاف في المقصود ؟

قلنا : فائدته تأكيد النفي الذي دل عليه «غير».

*** *** ***

سورة البقرة

٥ - **فإن قيل** : كيف قال: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة:٢] على سبيل الاستغراق، وكم ضالٍ قد ارتاب فيه ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة:٢٣] ؟

قلنا : المراد أن ليس محلاً للريب، أو معناه : لا ريب فيه عند الله ورسوله والمؤمنين ، أو هو نفى معناه النهى : أى لا ترتابوا فيه : إنه من عند الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الحج:٧] .

٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والمتقون مهتدون فكأن فيه تحصيل الحاصل ؟

قلنا : إنما صاروا متقين بما استفادوا منه من الهدى ، أو أراد أنه ثبات لهم على الهدى وزيادة فيه ، أو خصهم بالذكر لأنهم هم الفائزون بمنافعه حيث قبلوه واتبعوه كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات:٤٥] أو أراد الفريقين من يتقى ومن لم يتق ، واقتصر على أحدهما كقوله تعالى : ﴿ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ ﴾ [النحل:٨١] .

٧ - **فإن قيل** : المخادعة إنما تتصور فى حق من يخفى عليه الأمور ليتم الخداع فى حقه ، يقال : خدعه إذا أراد به المكروه من حيث لا يعلم ، والله تعالى لا يخفى عليه شيء ، فكيف قال : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة:٩] ؟

قلنا : معناه يخادعون رسول الله ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح:١٠] وقوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] أو سمى نفاقهم فسادًا خداعًا لشبهه بفعل المخادعة .

٨ - فإن قيل : كيف حصر الفساد في المنافقين بقوله : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ ﴾ ومعلوم أن غيرهم مفسد ؟

قلنا : المراد بالفساد الفسادُ بالنفاق وهم كانوا مختصين به .

٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة:١٥] والاستهزاء من باب العبث والسخرية وهو قبيح ، والله تعالى منزه عن القبيح ؟

قلنا : سمى جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى:٤٠] فالمعنى الله لا يجازيهم جزاء استهزائهم .

١٠ - فإن قيل : ما الفائدة في قوله تعالى : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة:١٩] ومعلوم أن الصيب لا يكون إلا من السماء ؟

قلنا : فائدته أنه ذكر السماء معرفة وأضافه إليها ليدل على أنه من جميع آفاقها لا من أفق واحد ، إذ كل أفق يسمى سماء ، قال الشاعر :

وَمِنْ بُعدَ أرضٍ بَيْنَنَا وَسَمَاءُ (١)

١١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٢] مع أن المشركين لم يكونوا عالمين أنه لا ند له ولا شريك له ، بل كانوا يعتقدون أن له أندادًا وشركاء؟

قلنا : معناه وأنتم تعلمون أن الأنداد لا يقدرون على شيء مما سبق ذكره في الآية ، أو وأنتم تعلمون أنه ليس في التوراة والإنجيل جواز اتخاذ الأنداد.

١٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة:٢٤] فعرْف النار هنا

---

(١) البيت لأبي الجراح وتمامه :

فأوه من الذكرى إذا ما ذكرتها   وَمِنْ بُعدَ أرضٍ بَيْنَنَا وَسَمَاءُ

ونكّرها فى سورة التحريم[1] ؟

قلنا : لأن الخطاب فى هذه مع المنافقين ، وهم فى أسفل النار المحيطة بهم : فعرّفت بلام الاستغراق أو العهد الذهنى ، وفى تلك مع المؤمنين ، والذى يعذب من عصاتهم بالنار يكون فى جزء من أعلاها ، فناسب تنكيرها لتقللها .

وقيل : لأن تلك الآية نزلت بمكة قبل هذه الآية ، فلم تكن النار التى وقودها الناس والحجارة معروفة فنكرها ، ثم نزلت هذه الآية بالمدينة فعرفت إشارة بها إلى ما عرفوه أولاً .

١٣ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ [البقرة:٤٢] ليسا فعلين متغايرين فينهوا عن الجمع بينهما ، بل أحدهما داخل فى الآخر ؟

قلنا : هما فعلان متغايران ، لأن المراد بتلبيسهم الحق بالباطل كتابتهم فى التوراة ما ليس منها ، وبكتمانهم الحق قولهم: لا نجد فى التوراة صفة محمد ﷺ

١٤ - **فإن قيل** : قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٢٤] ما فائدة الثانى ، والأول يدل عليه ويقتضيه ؟

قلنا : قوله : ﴿ مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ أى : ملاقو ثواب ربهم وما وعدهم على الصبر والصلاة ، وقوله : ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ أي : موقنون بالبعث ، فصار المعنى أنهم موقنون بالبعث وبحصول الثواب الموعود ، فلا تكرار فيه .

١٥ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [البقرة:٥٩] وهم لم يبدلوا غير الذى قيل لهم ، لأنهم قيل لهم : قولوا حطة ،

---

(١) المقصود قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]

فقالوا : حنطة ؟

قلنا : معناه فبدل الذين ظلموا قولاً قيل لهم ، وقالوا قولاً غير الذى قيل لهم.

١٦ - فإن قيل : قوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠] العثو : الفساد ، فيصير المعنى ، ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين .

قلنا : معناه ولا تعثوا فى الأرض بالكفر ، وأنتم مفسدون بسائر المعاصى.

١٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة:٦١] وطعامهم كان المنّ والسلوى، وهما طعامان ؟

قلنا : المراد أنه دائم غير متبدل وإن كان نوعين .

١٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة:٦١] وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق ؟

قلنا : معناه الحق فى اعتقادهم ، ولأن التصريح بصفة فعلهم القبيح أبلغ فى ذمهم وإن كانت تلك الصفة لازمة للفعل كما فى عكسه كقوله : ﴿قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢] لزيادة معنى فى التصريح بالصفة ، ولأن قتل النبى قد يكون بحق ، كقتل إبراهيم . صلوات الله على نبينا وعليه . ولده لو وجد لكان بحقٍّ .

١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة:٦٥] وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس فى وسعهم ؟

قلنا : إن هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب ، فهو من قبيل قوله عز وجل : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] .

٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ عَوَانٌ[1] بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٦٨] ولفظة «بين» تقتضي شيئين فصاعدا ، فكيف جاز دخولها على ذلك ، وهو مفرد ؟

قلنا : ذلك يشار به إلى المفرد والمثنى والمجموع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس:٥٨] وقوله تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٦] وقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [آل عمران:١٤] فمعناه عوان بين الفارض والبكر ، وسيأتي تمامه في قوله عز وجل ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥] إن شاء الله تعالى .

٢١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ﴾ [البقرة:٧٤] كلاهما بمعنى واحد ، فما فائدة الثاني؟

قلنا : التفجر يدل على الخروج بوصف الكثرة ، والثانى يدل على نفس الخروج ، وهما متغايران ، فلا تكرار .

٢٢ - فإن قيل : ما الفائدة فى قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة:٧٩] والكتابة لا تكون إلا باليد ؟

قلنا : فائدته تحقيق مباشرتهم ذلك التحريف بأنفسهم ، وذلك زيادة في تقبيح فعلهم ، فإنه يقال : كتب فلان كذا ، وإن لم يباشره بنفسه ، بل أمر غيره به من كاتب له ونحو ذلك .

٢٣ - فإن قيل : التولى والإعراض واحد ، فكيف قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [البقرة:٨٣] ؟

---

(١) العوان : المتوسط من السنين .

قلنا : معناه : ثم توليتم عن الوفاء بالميثاق والعهد ، وأنتم معرضون عن الفكر والنظر فى عاقبة ذلك .

٢٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ [البقرة:٩٦] ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وهم من جملة الناس ؟

قلنا : إنما خصوا بالذكر بعد العموم ، لأن حرصهم على الحياة أشد لأنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث .

٢٥ - فإن قيل : قوله عز وجل : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ [البقرة:١٠٢] يدل على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين ، فلم يكن حرامًا ؟

قلنا : العمل به حرام ، لأنهما كانا يعلمان الناس السحر ، ليجتنبوه كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة:١٠٢] نظيره لو سأل إنسان : ما الزنى ؟ لوجب بيانه له ليعرفه فيجتنبه .

٢٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٢] كيف أثبت لهم العلم أولا مؤكدًا بلام القسم ، ثم نفاه عنهم .

قلنا : المثبت لهم أنهم علموا علمًا إجماليًا أن من اختار السحر ما له فى الآخرة من نصيب ، والمنفى عنهم أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصيرون إليه من تحسر الآخرة ، ولا يكون لهم نصيب منها ، فالمنفى غير المثبت ، فلا تنافى.

٢٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:١٠٣] وإنما يستقيم أن يقال : هذا خير من ذلك ، وإذا كان فى كل واحد منهما خير ، ولا خير فى السحر ؟

قلنا : خاطبهم على اعتقادهم أن فى تعلم السحر خيرًا ، نظرًا منهم إلى حصول مقصودهم الدنيوى به .

٢٨ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ [البقرة:١٢٦] وقال فى سورة إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [إبراهيم:٣٥] ؟

قلنا : فى الدعوة الأولى كان مكانًا فقرًا فطلب منه أن يجعله بلداً وآمنًا؛ وفى الدعوة الثانية كان بلدًا غير آمن فعرفه وطلب له الأمن ، أو كان بلدًا آمنًا فطلب له ثبات الأمن ودوامه ، وكون هذه السورة مدنية وسورة إبراهيم مكية لا ينافى هذا ، لأن الواقع من إبراهيم صلوات الله عليه بلغته على الترتيب الذى قلنا ، والإخبار عنه فى القرآن على غير ذلك الترتيب ، أو أن المكى منه ما نزل قبل الهجرة فيكون المدنى متأخرًا عنه ، ومنه ما نزل بعد فتح مكة فيكون متأخرًا عن المدنى ، فلم قلتم : إن سورة إبراهيم عليه السلام من المكى الذى نزل قبل الهجرة .

٢٩ - فإن قيل : أى مدح وشرف لإبراهيم صلوات الله عليه فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ مع ما له من شرف الرسالة والخلة .

قلنا : قال الزجاج : المراد بقوله : ﴿ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أى من الفائزين .

٣٠ - فإن قيل : الموت ليس فى وسع الإنسان وقدرته حتى يصح أن ينهى عنه على صفة أو يؤمر به على صفة، فكيف قال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران :١٠٢] ؟

قلنا : معناه اثبتوا على الإسلام حتى إذا جاءكم الموت متم على دين الإسلام ، فهو فى المعنى أمر بالثبات على الإسلام والدوام عليه أو نهى عن تركه.

٣١ - **فإن قيل** : قوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ [البقرة:٣٧] إن أريد به الله تعالى فلا مثل له ، وإن أريد به دين الإسلام فلا مثل له أيضًا ، لأن دين الحق واحد .

قلنا : كلمة «مثل» زائدة ، معناه : فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ، يعنى بمن آمنتم به وهو الله تعالى ، أو بما آمنتم به ، وهو دين الإسلام ، ومثل قد تزادُ فى الكلام كما فى قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى:١١] وقوله تعالى : ﴿ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام:١٢٢] ومثل بمعنى واحد ، وقيل : الباء زائدة كما فى قوله تعالى : ﴿ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي مثل إيمانكم بالله أو بدين الإسلام .

٣٢ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة:١٤٣] وهو لم يزل عالمًا بذلك ؟

قلنا : قوله لنعلم ، أي لنعلم كائنًا موجودًا ما قد علمناه أنه يكون ويوجد، أو أراد بالعلم التمييز للعباد كقوله تعالى : ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال:٣٧] .

٣٣ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ﴾ [البقرة:١٤٤] وهذا يدل على أنه « لم يكن راضيًا بالتوجه إلى بيت المقدس ، مع أن التوجه إليه كان بأمر الله تعالى وحكمه؟

قلنا : المراد بهذا الرضا المحبة بالطبع ، لا رضا التسليم والانقياد لأمر الله تعالى .

٣٤ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ﴾ [البقرة:١٤٥] ولهم قبلتان، لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟

قلنا : لما كانت القبلتان باطلتين مخالفتين لقبيلة الحق فكانتا بحكم الاتحاد في البطلان قبيلة واحدة أي .

٣٤ - كيف يكون للظالمين من اليهود أو غيرهم حجة على المؤمنين حتى قال : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٥٠] .

قلنا : معناه إلا أن يقولوا ظلمًا وباطلاً ، كقول الرجل لصاحبه : ما لك عندي حق إلا أن تظلم أو تقول الباطل ، وقيل : معناه : والذين ظلموا منهم، فإلا هنا بمعنى واو العطف كما في قوله تعالى :﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل:١٠، ١١] وقيل: « إلا » فيهما بمعنى لكن . وحجتهم أنهم كانوا يقولون لما توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت المقدس : ما درى محمد أين قبلته حتى هديناه ، وكانوا يقولون أيضًا : يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قبلتنا ، فلما حوله الله تعالى إلى الكعبة انقطعت هذه الحجة ، فعادوا يقولون : لم تركت قبلة بيت المقدس ؟ إن كانت باطلة فقد صليت إليها زمانًا ، وإن كانت حقًا فقد انتقلت عنها ، فهذا هو المراد به قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ [البقرة:١٥٠] وقيل : المراد به قولهم: ما ترك محمد قبلتنا إلا ميلاً لدين قومه وحبًا لوطنه ، وقيل المراد به قول المشركين : قد عاد محمد إلى قبلتنا لعلمه أن ديننا حق، وسوف يعود إلى ديننا ، وإنما سمى الله باطلهم حجة لمشابهته الحجة في الصورة، كما قال الله تعالى : ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ [الشورى:١٦] أي باطلة، وقال : ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣] .

٣٥ - فإن قيل : ما الفائدة في قوله : ﴿ وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ بعد قوله : ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ والشكر نقيض الكفر ، فمتى وجد الشكر انتفى الكفر ؟

قلنا : قوله : ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ معناه استعينوا بنعمتي على طاعتي ، وقوله : ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ معناه : لا تستعينوا بنعمتي على معصيتي ، وقيل : الأول أمر

بالشكر ، والثانى أمر بالثبات عليه .

٣٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة:١٦١] وأهل دينه لا يلعنونه إذا مات على دينهم ؟

قلنا : المراد بالناس المؤمنون فقط ، أو هو على عمومه ، وأهل دينه يلعنونه فى الآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت:٢٥] وقال : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف:٣٨] .

٣٧ - **فإن قيل** : ما الفائدة فى قوله : ﴿ إِلَـٰهٌ ﴾ فى : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [البقرة:١٦٣] فهلا قال : وإلهكم واحد ، فكان أخصر وأوجز ؟

قلنا : لو قال : وإلهكم واحد لكان ظاهره إخبارًا عن كونه واحدًا فى الإلهية، يعنى لا إله غيره ، ولم يكن إخبارا عن توحهه فى ذاته ، بخلاف ما إذا كرر ذكر الإله ، والآية إنما سيقت لإثبات أحديته فى ذاته ، ونفى ما يقوله النصارى : إنه واحد ، والأقانيم ثلاثة : أى الأصول ؛ كما أن زيدًا واحد أعضاؤه متعددة ، فلما قال : ﴿ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ دل على أحدية الذات والصفة ولقائل أن يقول: قوله : ﴿وَٰحِدٌ﴾ يحتمل الأحدية في الذات ، ويحتمل الأحدية فى الصفات ، سواء كرر ذكر الإله أو لم يكرر ، فلا يتم الجواب .

٣٨ - **فإن قيل** : ما وجه صحة التشبيه فى قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ [البقرة:١٧١] وظاهره تشبيه الكفار بالراعى ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، ومثلك يا محمد مع الكفار كمثل الراعى أو الأنعام ، أو تقديره : ومثل الذين كفروا كمثل بهائم الراعى، أو ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الناعق بالبهائم ، أو ومثل الذين كفروا فى دعائهم الأصنام كمثل الراعى .

٣٩ - فإن قيل : كيف خص المنعوق بأنه لا يسمع إلا دعاء ونداء ، مع أن كل عاقل كذلك أيضًا لا يسمع إلا دعاء ونداء ؟

قلنا : المراد بقوله لا يسمع ، أنه لا يفهم كقولهم : أساء سمعًا فأساء إجابة أى أساء فيهما .

٤٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [البقرة:١٧٤] وقال فى موضع آخر : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣] ؟

قلنا : المنفى كلام التلطف والإكرام ، والمثبت سؤال التوبيخ والإهانة فلا تنافى .

٤١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [البقرة:١٧٨] أى فرض والقصاص ليس بالفرض ، بل الولى مخير فيه ، بل مندوب إلى تركه ؟

قلنا : المراد به فرض على القاتل التمكين ، لا أنه فرض على الولى الاستيفاء.

٤٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ عطف الأقربين على الوالدين وهما أقرب الأقربين، والعطف يقتضى المغايرة ؟

قلنا : الوالدان ليسا من الأقربين ، لأن القريب من يدلى إلى غيره بواسطة كالأخ والعم ونحوهما ، والوالدان ليسا كذلك ، ولو كانا منهم لكان تخصيصهما بالذكر لشرفهما كقوله تعالى : ﴿ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾.

٤٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وصوم هذه الآية ليس كصوم أمة موسى وعيسى عليهما السلام ؟

قلنا : التشبيه فى أصل الصوم لا في كيفيته ، أو فى كيفية الإفطار ، فإنه كان فى أول الأمر الإفطار مباحًا عن غروب الشمس إلى وقت النوم فقط ، كما كان فى صوم من قبلنا ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾ [البقرة:١٨٧] الآية، أو فى العدد أيضًا على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : فرض على النصارى صوم رمضان بعينه ، فقدّموا عشرة أو أخروا عشرة لئلا يقع فى الصيف وجبروا التقديم والتأخير بزيادة عشرين فصار صومهم خمسين يومًا بين الصيف والشتاء .

٤٤ – فإن قيل : ما فائدة قوله : ﴿ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥] بعد قوله : ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ؟

قلنا : ذكر أو لا أنه هدى ، ثم ذكر أنه بينات من الهدى ، أى من جملة ما هدى الله به عبيده ، وفرق به بين الحق والباطل من الكتب السماوية الهادية الفارقة بين الحق والباطل ، فلا تكرار .

٤٥ – فإن قيل : ما الفائدة من إعادة ذكر المريض والمسافر ؟

قلنا : فائدته أن الآية المتقدمة نسخ مما فيها تخيير الصحيح ، وكان فيها تخيير المريض والمسافر أيضًا ، فأعيد ذكرهما لئلا يوهم أن تخييرهما نسخ كما نسخ تخيير الصحيح .

٤٦ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:٨٦] يدل على أنه يجيب دعاء الداعين ، ونحن نرى كثيرًا من الداعين لا يستجاب لهم .

قلنا : روى عن النبى ﷺ أنه قال : **" ما من مسلم دعا الله بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل**

دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها "(١)
ولأن قبول الدعاء شرطه الطاعة لله تعالى وأكل الحلال وحضور القلب وقت الدعاء ، فمتى اجتمعت هذه الشروط حصلت الإجابة ولأن الداعى قد يعقد مصلحته فى الإجابة ، والله تعالى يعلم أن مصلحته فى تأخير ما سأل ، أو فى منعه ، فيجيبه إلى مقصوده الأصلى وهو طلب المصلحة فيكون قد أجيب وهو يعتقد أنه منع عنه .

٤٧ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة:١٩٦] ومعلوم أن ثلاثة وسبعة عشرة ، ثم ما فائدة قوله : ﴿ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة:٦] والعشرة لا تكون إلا كاملة ، وكذا جميع أسماء الأعداد لا تصدق على أقل من المذكور ولا على أكثر منه ؟

قلنا : فائدة قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ أن لا يتوهم أن الواو بمعنى «أو» كما فى قوله : ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:٣] وألا تحل التسع جملة ، فنفى قوله : ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ ﴾ ظن وجوب أحد العددين فقط ، إما الثلاثة فى الحج أو السبعة بعد الرجوع ، وأن يعلم العددين من جهتين جملة وتفصيلاً فيتأكد العلم به ونظيره فذلكة الحساب ، وتصنيف الكتاب ، وأما قوله تعالى : ﴿كَامِلَةٌ﴾ فتأكيد كما فى قوله تعالى : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] أو معناه كاملة فى الثواب مع وقوعها بدلا عن الهدى أو فى وقوعها موقع المتتابع من تفرقها ، أو فى وقوعها موقع الصوم بمكة مع وقوع بعضها فى غير مكة ، فالحاصل أنه كمال وصفًا لا ذاتًا .

٤٨ - **فإن قيل** : ما فائدة تكرار الأمر بالذكر فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنَ

---

(١) صحيح : رواه أحمد في مسنده (١٠٧٠٩) وابن أبى شيبة (٧/ ٢٤) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٣٦٣) .

عَرَفَٰتٍ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ [البقرة:١٩٨]؟

قلنا : إنما كرره تنبيهًا على أنه أراد ذكرًا مكرراً ، لا ذكرًا واحدًا ، بل مرة بعد أخرى ، ولأنه زاد فى الثانى فائدة أخرى ، وهى قوله تعالى : ﴿ كَمَا هَدَىٰكُمۡ ﴾ يعنى : اذكروه بأحديته كما ذكركم بهدايته ، أو إشارة إلى أنه أراد بالذكر الأول : الجمع بين الصلاتين بمزدلفة ، وبالثانى الدعاء بعد الفجر بها فلا تكرار .

٤٩ – فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٍ﴾ [البقرة:١٩٨] إلى أن قال : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ [البقرة:١٩٩] وأراد به الإفاضة من عرفات بلا خلاف ، وبعد المجيء إلى المزدلفة والذكر فيها مرتين كما فسرنا كيف يفيضون من عرفات ؟

قلنا : فيه تقديم وتأخير تقديره ، من ربكم ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ، فإن أفضتم من عرفات .

٥٠ – فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة:٢٠٣] ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمى إذا لم يكن عليه إلا إثم لا يكون عليه المتأخر الآتى بالرمى كاملاً ؟

قلنا : كان أهل الجاهلية فريقين منهم من جعل المتعجل آثمًا ، ومنهم من جعل المتأخر آثمًا ، فأخبر الله تعالى بنفى الإثم عنهما جميعًا ، أو معناه لا إثم على المتأخر فى تركه الأخذ بالرخصة مع أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه ، أو أن معناه أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة أو العزيمة فى الرمى ، ثم قيل : المراد به تقوى المعاصى فى الحج ، وقيل : تقوى المعاصى بعد الحج فى بقية العمر بالوفاء بما عاهد الله تعالى عليه بعرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والإنابة ، والمشكل فى هذه الآية قوله

تعالى : ﴿ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [البقرة:٦] والتعجيل المرخص فيه إنما هو التعجيل في اليوم الثاني من أيام التشريق ، فكيف ذكر لفظ اليومين وأراد بهما اليوم الثاني فقط .

٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ وهو يدل على أنها كانت إلى غيره كقولهم : رجع إلى فلان عبده ومنصبه ؟

قلنا : هو خطاب لمن كان يعبد غير الله وينسب أفعاله إلى سواه ، أخبرهم أنه إذا كشف لهم الغطاء يوم القيامة ردوا ما أضافوه لغيره بسبب كفرهم وظلمهم ، ولأن «رجع» يستعمل بمعنى «صار» و«وصل» كقولهم : رجع على من فلان مكروه ، قال الشاعر :

وَمَا المَرءُ إلاَّ كالشِّهَابِ وضوئِهِ   يحُورُ مَادًا بَعدَ إذ هُوَ ساطعُ

ولأنها كانت إليه قبل خلق عبيده ، فلما خلقهم ملكهم بعضها خلافة نيابة، ثم رجعت إليه بعد هلاكهم ، ومنه قولهم تعالى : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر:٦] وقوله تعالى : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ﴾ [الفرقان:٢٦] وإنما قال : ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠] ولم يقل إليه وإن كان قد سبق ذكره مرة ، لقصد التعميم والتعظيم ، وذلك فى الإيجاز والاختصار .

٥٢ - فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة:٢١٥] فإنهم سألوا عن بيان ما ينفقون وأجيبوا عن بيان المصرف ؟

قلنا : قد تضمن قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ [البقرة:٢١٥] بيان ما ينفقونه وهو كل خير ، ثم زيد على الجواب بيان المصرف ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِىَ عَصَاىَ ﴾ [طه:١٧، ١٨] الآية ، وقوله عليه

الصلاة والسلام وقد سئل عن الوضوء بماء البحر : «هو الطهور ماؤه الحل ميتته» (١) .

٥٣ - فإن قيل : كيف جاء : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ ثلاث مرات بغير واو : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ـ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ـ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ثم جاء ثلاث مرات بالواو : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ـ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ـ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ ؟

قلنا : لأن سؤالهم عن الحوادث الأول وقع متفرقًا ، وعن الحوادث الأُخر ، وقع في وقت واحد ، فجيء بحرف الجمع دلالة على ذلك .

٥٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٢٧] وعزمهم الطلاق مما يعلم ، لا مما يسمع ؟

قلنا : الغالب أن العزم على الطلاق وترك الفيء لا يخلو عن مقاولة ودمدمة(٢) وإن خلا عنها ، فلابد له أن يحدّث نفسه ويناجيها بما عزم عليه ، وذلك حديث لا يسمعه إلا الله تعالى كما يسمع وسوسة الشيطان .

٥٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٢٢٨] ولا حق للنساء فى الرجعة ، و " أفعل " يقتضى الاشتراك ؟

قلنا : المراد أن الزوج إذا أراد الرجعة وأبت وجب إيثار قوله على قول لأن لها حقًا فى الرجعة .

٥٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ﴾ [البقرة:٢٢٨] والزوج أحق بالرجعة سواء أراد الإصلاح أو الإضرار بها بتطويل

---

(١) صحيح : أبو داود (٨٣) ، والترمذي (٦٩) ، وصححه الألباني .

(٢) دمدمة : من دمدم أى غضب ، والدمدمة : الكلام الذى يزعج ، لسان العرب (٢٠٦/١٢) .

العدة ؟

قلنا : المراد أن الرجعة أصوبُ وأعدلُ إن أراد الزوج الإصلاح ، وتركها أصوب وأعدل إن أراد الإضرار .

٥٧ - **فإن قيل** : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ ؟

قلنا : المراد بالآية الأولى أمانة العقوبة مع بقاء الأجل ، وبالآية الثانية الإماتة بانتهاء الأجل ، نظيره قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ لأنها كانت إماتة عقوبة ، أو كان إحياؤهم آية لنبيهم على ما عرف في قصتهم ، فصار كإحياء العزيز حين مر على قرية وآيات الأنبياء نوادر مستثناة، فكان المراد بالآية الموتة التى ليست بسبب آية نبى من الأنبياء أو إحياء قوم موسى آية له أيضًا ، فكان هذا جوابًا عامًا ، مع أن فى أصل السؤال نظرًا لأن الضمير فى قوله : ﴿ لَا يَذُوقُون ﴾ للمتقين وقوله : ﴿ فِيهَا ﴾ للجنات ، على ما يأتى بيانه فى سورة الدخان إن شاء الله تعالى على وجه يندفع به السؤال من أصله.

٥٨ - **فإن قيل** : كيف قال: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ ﴾ والله تعالى لا يؤتى ملكه أحدًا؟

قلنا : المراد بهذا الملك السلطنة والرئاسة التى أنكروا إعطاءها لطالوت ، وليس المراد بأنه يعطى ملكه لأحد ، لأن سياق الآية يمنعه .

٥٩ - **فإن قيل** : كيف قال فى الماء : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾ [البقرة:٢٤٩] ولم يقل: ومن لم يشربه ، والماء مشروب لا مأكول ؟

قلنا : طعم بمعنى أكل وبمعنى ذاق ، والذوق هو المراد هنا وهو يعم .

٦٠ – **فإن قيل** : كيف خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر فى قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ ﴾ [البقرة:٢٥٣] الآية ؟

قلنا : لما أوتيا من الآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة مع الكتابين العظيمين المشهورين .

٦١ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ﴾ [البقرة:٢٥٤] وفى يوم القيامة شفاعة الأنبياء وغيرهم بدليل قوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء:٢٨] وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ:٢٣] ؟

قلنا : هذه الآيات لا تدل على وجود الشفاعة يوم القيامة ، بل تدل على أنه لا توجد ولا تنفع من غير إذنه ، ولا توجد لغير مرضىّ عنده ، وهذا لا ينافى نفى وجودها ، بل المنافى له الإخبار عن وجودها لا الإخبار عن إمكان وجودها، ولو سلم ، فالمراد به نفى شفاعة الأصنام والكواكب التى كانوا يعتقدونها ، ولهذا عرّض بذكر الكفار بقوله تعالى : ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ وقيل : المراد أنه لا شفاعة فى إثم ترك الواجبات ، لأن الشفاعة فى الآخرة فى زيادة الفضل لا غير ، والخطاب مع المؤمنين فى النفقة الواجبة وهى الزكاة .

٦٢ – **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُون ﴾ [البقرة:٢٥٤] على وجه الحصر ، وغيرهم ظالم أيضًا ؟

قلنا : لأن ظلمهم أشد ، فكأنه لا ظالم إلا هم ، نظيره : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] .

٦٣ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧] بلفظ المضارع ، ولم يقل أخرجهم بلفظ الماضى والإخراج قد وجد ، لأن الإيمان قد وجد ؟

قلنا : لفظ المضارع فيه دلالة على استمرار ذلك الإخراج من الله تعالى فى الزمان والمستقبل فى حق من آمن بزيادة كشف الشبه ومضاعفة الهداية ، وفى حق من لم يؤمن ممن قضى الله أنه سيؤمن بابتداء الهداية ، وزيادتها أيضًا ، ولفظ الماضى لا يدل على هذا المعنى .

٦٤ - **فإن قيل** : متى كان المؤمنون فى ظلمات الكفر ، والكافرون فى نور الإيمان ليخرجوا من ذلك ؟

قلنا : الإخراج يستعمل بمعنى المنع عن الدخول ، يقال : لمن امتنع عن الدخول فى أمر : خرج منه وأخرج نفسه منه ، وإن لم يكن دخل فيه ، فعصمة الله تعالى المؤمنين على الدخول فى ظلمات الضلال إخراج لهم منها، وتزيين قرناء الكفار لهم الباطل الذى يصدونهم به عن الحق إخراج لهم من نور الهدى ولأن إيمان رؤساء أهل الكتاب بالنبى عليه الصلاة والسلام قبل أن يظهر كان نورًا لهم ، وكفرهم به بعد ظهوره خروج منه إلى ظلمات الكفر، ولأنه لما ظهرت معجزاته عليه الصلاة والسلام كان موافقه ومتبعه خارجًا من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومخالفه خارجًا من نور العلم إلى ظلمات الجهل .

٦٥ - **فإن قيل** : كيف انتقل إبراهيم ﷺ إلى حجة أخرى وعدل عن نصرة الأولى ، مع أنه لم ينقطع بما عارضه به نمرود من قتل أحد المحبوسين وإطلاق الآخر ، فإن إبراهيم ﷺ ما أراد هذا الإحياء والإماتة ؟

قلنا : إما لأنه رأى خصمه قاصر الفهم عن إدراك معنى الإحياء والإماتة التى أضافها إبراهيم إلى الله حيث عارض معارضة لطيفة وعمى عن اختلاف

المعنيين ، أو لأن علم أنه فهم الحجة ، لكنه قصد التمويه والتلبيس عن اتباعه وأشياعه ، فعدل إبراهيم إلى أمر ظاهر يفهمه كل أحد ، ولا يقع فيه تمويه ولا تلبيس .

٦٦ - **فإن قيل** : كيف طبع الله على قلبه فلم يعارضه بالعكس فى طلوع الشمس؟

قلنا : لأنه لو عارض به لم يأت الله بها من المغرب ، لأن ذلك أمارة قيام الساعة فلا يوجد إلا قريبًا من قيامها ، ولأنه وأتباعه كانوا عالمين أن طلوعها من المشرق سابق على وجوده ، فلو ادعاه لكذبوه .

٦٧ - **فإن قيل** : كيف قال عزيز عليه السلام منكرًا مستبعدًا : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [البقرة:٢٥٧] وهو نبى، والنبي لا تخفى عليه قدرة الله تعالى على إحياء قرية خربة وإعادة أهلها إليها؟

قلنا : ما قاله منكرًا مستبعدًا لعظيم قدرة الله تعالى ، بل متعجبًا من عظيم قدرته تعالى ، أو طلبًا لرؤية كيفية الإعادة ، لأن : ﴿ أَنَّىٰ ﴾ بمعنى «كيف» أيضًا: وقد نقل عن مجاهد : أن المارّ على القرية القائل ذلك كان رجلاً كافرًا شاكًا فى البعث، وإن كان الأول وهو المشهور .

٦٨ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة:٢٦٠] وقد علم أنه أثبت الناس إيمانًا ؟

قلنا : ليجيب بما أجاب به ، فتحصل به الفائدة الجليلة للسامعين من طلبه لإحياء الموتى .

٦٩ - **فإن قيل** : كيف يجوز أن يكون النبى غير مطمئن القلب بقدرة الله على إحياء الموتى حتى قال إبراهيم : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة:٢٦٠] مع

أن قلبه مطمئن بقدرة الله على الإحياء؟

قلنا : معناه ليطمئن قلبى بعلم ذلك عيانًا كما اطمأن به برهانًا ، أو ليطمئن بأنك اتخذتنى خليلاً ، أو بأنى مستجاب الدعوة ، ولقائل أن يقول على الوجه الأول كيف يزداد يقينًا بالمشاهدة ، وقد روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : «**لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا لله** » وإبراهيم صلوات الله عليه وسلامه أعظم رتبة وأجل ، وجوابه أن عليًا أراد بذلك قوة يقينه قبل العيان ، حتى كأن الزيادة الحاصلة له بالعيان يسيرة لا يعتد بها .

٧٠ - **فإن قيل** : فما فائدة قوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة:٢٦٠] أى فضمهن ، ولفظ الأخذ مغن عنه ؟

قلنا : الفائدة فيه تأملها ومعرفة أشكالها وصفاتها ، لئلا يلتبس عليه بعد الإحياء فيتوهم أنه غيرها .

٧١ - **فإن قيل** : كيف مدح الله التيقن بترك المنّ ، ونهى عن المن أيضًا مع أنه وصف نفسه بالمنان فى نحو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٤] ؟

قلنا : من : بمعنى أعطى ، ومنه المنان فى صفات الله تعالى ، وقوله : ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ ﴾ [ص:٣٩] وقوله : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٦٤] أى أنعم عليهم ، وقوله : ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ ﴾ [محمد:٤] أى إنعامًا بالإطلاق من غير عوض ، ومنّ بمعنى اعتد بالنعمة وذكرها واستعظمها وهو المذموم .

٧٢ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [الحجرات:١٧] من القسم الثانى .

قلنا : ذلك اعتداد بنعمة الإيمان ، فلا يكون قبيحًا، بخلاف نعمة المال؛

ولأنه يجوز أن يكون من صفات الله تعالى ما هو مدح فى حقه ذم فى حق العبد كالجبار والمتكبر والمنتقم ونحو ذلك .

٧٣ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ [البقرة:٢٦٦] ثم قال : ﴿ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة:٢٦٦]؟

قلنا : لما كان النخيل والأعناب أكرم الشجر وأكثرها منافع خصهما بالذكر وجعل الجنة منهما ، وإن كان فيها غيرهما تغليبًا لهما وتفصيلاً .

٧٤ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة:٢٧٣] يدل بمفهومه على أنهم كانوا يسألون الناس برفق، فكيف قال : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة:٢٧٣] ؟

قلنا : المراد به نفى السؤال والإلحاف جميعًا كقوله تعالى : ﴿ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة:٧١] وكقول الأعشى [(١)] :

لا يغمز الساق من أين ولا وصب

معناه ليس بساقه أين[(٢)] ولا وصب[(٣)] فغمزها .

٧٥ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا ﴾ [البقرة:٢٧٥] الآية ، ألحق الوعيد بآكله مع أن لابسه ومدخره وواهبه أيضًا فى الإثم سواء ؟

قلنا : لما كان أكثر الانتفاع والهمم بالمال إنما هو الأكل لأنه مقصود لا غناء عنه ولابد منه ، عبر عن أنواع الانتفاع بالأكل كما يقال : أكل فلان ماله كله ، إذا أخرجه فى مصالح الأكل وغيره .

---

(١) هو الأعشى ميمون بن قيس من كبار الشعراء .

(٢) أين : تعب .

(٣) وصب : مرض .

٧٦ - **فإن قيل** : كيف خص الآكل بذكر الوعيد دون المطعم ، وكلاهما آثم؟

قلنا : لأن انتفاعه الدنيوى بالربا أكثر من انتفاع المطعم .

٧٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا ﴾ [البقرة:٢٧٥] ، والكلام إذ ذاك فى الربا ومقصودهم تشبيهه بالبيع ، فقياسه «إنما الربا مثل البيع»فى حله؟

قلنا : جاؤوا بالتمثيل على طريق المبالغة ، وذلك أنه بلغ من اعتقادهم استحلال الربا أنهم جعلوه أصلاً فى الحل والبيع فرعًا كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفه ، إذ أرادوا المبالغة .

٧٨ - **فإن قيل** : كيف قلتم : إن أهل الكبائر لا يخلدون فى النار ، وقد قال الله تعالى فى حق آكل الربا: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥]؟

قلنا : الخلود يستعمل بمعنى طول البقاء وإن لم يكن بصفة التأبيد ، يقال: خلد الأمير فلانًا فى الحبس إذا أطال حبسه ، أو أن قوله : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ﴾ إشارة إلى ما عاد إلى استحلال الربا بقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة:٢٧٥] بعد نزول آية التحريم ، وذلك يكون كافرًا، والكافر مخلد فى النار .

٧٩ - **فإن قيل** : إنظار المعسر فرض بالنص ، والتصدق عليه تطوع ، فكيف قال : ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨٠] ؟

قلنا : كل تطوع كان محصلاً للمقصود من الفرض بوصف الزيادة كان أفضل من الفرض ، كما أن الزهد فى الحرام فرض وفى الحلال تطوع والزهد فى الحلال أفضل كما بينا كذلك هنا .

٨٠ – **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ بِدَيْنٍ ﴾ [البقرة:٢٨٠] وقوله تعالى : ﴿تَدَايَنتُم ﴾ [البقرة:٢٨٠] مغن عنه؟

قلنا : فائدته رجوع الضمير إليه فى قوله تعالى : ﴿ فَاكْتُبُوه ﴾ [البقرة:٢٨٠] إذا لو لم يذكره لقال: فاكتبوه الدين ، فالأول أحسن نظمًا ، أو لأن التداين مشترك بين الإقراض والمبايعة وبين المجازاة ، وإنما يميز بينهما بفتح الدال وكسرها ومنه قوله تعالى : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة:٤] أى الجزاء : ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الذاريات:١٢] ، فذكر الدين ليتعين أى المعنيين هو المراد .

٨١ – **فإن قيل** : كيف شرط السفر فى الارتهان بقوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:٢٨٣] الآية، وجواز الرهن لا يختص بالسفر ؟

قلنا : لم يذكره لتخصيص الحكم به ، بل لما كان السفر مظنة عوز الكاتب ، والشاهد الموثوق بهما أمر على سبيل الإرشاد لحفظ مال المسافرين بأخذ الرهان.

٨٢ – **فإن قيل** : ما فائدة ذكر القلب فى قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة:٢٨٣] مع أن الجملة هى الموصوفة بالإثم ، لا القلب وحده ؟

قلنا : كتمان الشهادة هو أن يضمرها ولا يتكلم بها ، فلما كان ذلك إثمًا مقترنًا بالقلب ومكتسبًا له أسند إليه ، لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التى يعمل بها أبلغ : كما يقال : هذا ما أبصرته عينى ، وسمعته أذنى ، ووعاه قلبى .

٨٣ – **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٤] وما يحدث به الإنسان نفسه لا يأثم به ما لم يفعله؛ إما لأنه لا يمكن الاحتراز عنه فى الوسع والطاقة ، أو بالحديث المشهور فيه ؟

قلنا : قيل : أريد بالآية للعموم ، ثم نسخ بقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:٢٨٦] وقيل : لا نسخ فيه لأنه خبر لا أمر أو نهى ، بل العموم غير مراد ، وإنما المراد ما يمكن الاحتراز عنه ، وهو العزم القاطع والاعتقاد الجازم ، لا مجرد حديث النفس والوسوسة ، ولأنه أخبر عن المحاسبة لا عن المعاقبة ، فهو يوم القيامة يخبر العباد بما أبدوا وما أخفوا ليعلموا إحاطة علمه بجميع ذلك ، ثم يغفر لمن يشاء فضلاً ، ويعذب من يشاء عدلاً ، كما أخبر في الآية .

٨٤ - **فإن قيل** : أىّ شرف للرسول فى مدحه بالإيمان مع أنه فى رتبة الرسالة ودرجتها ، وهى أعلى من درجة الإيمان ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

قلنا : فائدته أن يبين للمؤمنين زيادة شرف الإيمان حيث مدح به خواصه ورسله ، ونظيره فى سورة الصافات قوله تعالى فى خاتمة ذكر كل نبى : ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:٨١] .

٨٥ - **فإن قيل** : روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ : " **ملائكته وكتابه** " فسئل عن ذلك، فقال : كتاب أكثر من كتب ، فما وجهه ؟

قلنا : قيل فيه ، إنه أراد أن الكتاب جنس والكتب جمع ، والجنس أكثر من الجمع لأن حقيقته فى الكل على ما ذهب إليه بعضهم ، ويرد على هذا أن يقال : الكلام فى الجمع المضاف ، والمفرد المضاف للاستغراق عرفا وشرعًا كقوله لعبده: أكرم أصدقائى ، وأهن أعدائى ، وقوله : زوجاتى طوالق وعبيدى أحرار، بخلاف قوله : صديقى وعدوى ، وعبد وامرأتى ، فظهر أن الجمع المضاف أكثر .

٨٦ - **فإن قيل** : قوله : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة:٢٨٥] كيف قال ذلك مع أن : ﴿بَيْنَ﴾ [البقرة:٦] لا تضاف إلا إلى اثنين فصاعدا ، فكيف

قال : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥] ؟

قلنا : ﴿ أَحَد ﴾ هنا بمعنى الجمع الذى هو آحاد كقوله تعالى : ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [الحاقة:٤٧] فإنه ثم بمعنى الجمع بدليل قوله تعالى : ﴿حَـٰجِزِينَ﴾ فكأنه قال : لا نفرق بين آحاد من رسله ، كقولك : المال بين آحاد الناس ، ولأن : أحدًا يصلح للمفرد المذكر والمؤنث ، وتثنيتهما وجمعهما نفيًا وإثباتًا ، تقول : ما رأيت أحدًا إلا بنى فلان ، أو إلا بنات فلان سواء ، وتقول : إن جاءك أحد بكتابى فأعطه وديعتى ، يستوى فيه الكل ، فالمعنى لا نفرق بين اثنين منهم أو بين جماعة منهم ، ومنه قوله تعالى: ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ ﴾ [الأحزاب:٣٢] .

٨٧ - فإن قيل : من أين دل قوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة:٢٨٦] على أن الأول فى الخير ، والثانى فى الشر ؟

قلنا : قيل هو من كسبت واكتسبت ، فإن الأول للخير والثانى للشر ، وليس بدليل ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ [النساء:١١٢] وقوله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر:٣٨] وقوله : ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ [الشورى:٣٤] وقوله : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ [الشورى:٢٣] والاقتراف والاكتساب بمعنى واحد ، وقيل : هو من اللام وعلى ، وليس بدليل أيضًا لقوله تعالى:﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٥] وقوله تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء:٧] وقوله تعالى : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ [البقرة:١٥٧] اللهم إلا أن يدعى أن اللام و على عند الإطلاق يقتضيان ذلك ، أو لأنهما يستعملان لذلك عند تقاربهما كما فى هذه الآية لا نفرق بين ذكر الحسنة والسيئة ، أو الحسن والقبيح ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾ أطلقه وأراد به الشر ، بدليل ما بعده، وقولهم : الدهر يومان، يوم لك ويوم عليك ، وقولهم : فلان يشهد لك

وفلان يشهد عليك ، ويقول الرجل لصاحبه : هذا الكلام حجة عليك لا لك قال الشاعر :

على أنني راضٍ بأن أحملَ الهوى وأخلص منه لا عَليّ ولا لِيا

وأما قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت:٤٦] وإن كان مقيدًا إلا أن فيه دلالة أيضًا من جهة «اللام» و «على» لأن القيد شامل لطرفيه.

*** *** ***

سورة آل عمران

٨٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران:٦] ثم قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران:٣] ؟

قلنا : لأن القرآن أنزل منجماً ، والتوراة والإنجيل نزلا جملة واحدة ، كذا أجاب الزمخشرى وغيره ، ويرّد عليه قوله تعالى ، بعد ذلك : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران:٤] فإن الزمخشرى [(١)] قال : أراد به جنس الكتب السماوية لا الثلاثة المذكورة خصوصًا، أو أراد به الزبور ، أو أراد به القرآن ، وكرر ذكره تعظيماً ، ويرد عليه قوله تعالى عليه أيضًا قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧] وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة:٤] وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان:٣٢] والذى وقع لى فيه ، والله أعلم أن التضعيف في نزل والهمزة فى أنزل كلاهما للتعدية ، لأن نزل فعل لازم فى نفسه ، وإذا كانا للتعدية لا يكونان لمعنى آخر ، وهو التكثير أو نحوه ، لأنه لا نظير له ، وإنما جمع بينهما والمعنى واحد وهو التعدية جريًا على عادة العرب فى افتنانهم فى الكلام وتصرفهم فيه على وجوه شتى ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ وقال فى موضع آخر : ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد:٧] .

٨٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ ﴾ [آل عمران:٧]

---

(١) هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى اللغوى المتضلع فى علوم النحو والبلاغة والتفسير ، وكان على مذهب المعتزلة وله تآليف عديدة أشهرها الكشاف ، وهو فى تفسير القرآن .

ومن التبعيض ، وقال فى موضع آخر : ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود:١] وهذا يقتضى كون جميع آياته محكمة ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] أى : ناسخات : ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] أى : منسوخات ، وقيل : المحكمات العقليات ، والمتشابهات الشرعيات ، وقيل : المحكمات ما ظهر معناها، والمتشابهات ما كان فى معناها غموض ودقة ، والمراد بقوله : ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُه﴾ [هود:١] أن جميع القرآن صحيح ثابت ، مصون عن الخلل والزلل ، فلا تنافى .

٩٠ - **فإن قيل** : كيف قال هنا : ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] جعل بعضه متشابهًا وقال فى موضع آخر : ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣] وصفه كله بكونه متشابهًا ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران:٧] ما سبق ذكره ، والمراد بقوله : ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣] أنه يشبه بعضه بعضًا فى الصحة وعدم التناقض وتأييد بعضه بعضًا ، فلا تنافى .

٩١ - **فإن قيل** : ما فائدة إنزال المتشابهات بالمعنى الأخير ، والمقصود من إنزال القرآن إنما هو البيان والهدى ، والغموض والدقة فى المعانى ينافى هذا المقصود أو يبعده ؟

قلنا : لما كان الكلام للعرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعًا ولا يحتمل غير ظاهره ، وإلى ما هو مجاز وكناية وإشارة وتلويح : والمعانى فيه متعارضة متزاحمة، وهذا القسم هو المستحسن عندهم والمستبدع فى كلامهم ، نزل القرآن بالنوعين تحقيقًا لمعنى الإعجاز ، كأنه قال : عارضوه بأى النوعين شئتم فإنه جامع لهما ، وأنزله الله عز وجل محكمًا ومتشابهًا ليختبر من يؤمن بكله ، ويُردّ علم ما تشابه

منه على الله فيثيبه ، ومن يرتاب فيه ويشك وهو المنافق فيعاقبه ، كما ابتلى عباده بنهر طالوت وغيره ، أو أراد أن يشتغل العلماء بردّ المتشابه إلى المحكم ، بالنظر والاستدلال والبحث والاجتهاد فيثابون على هذه العبادة ، ولو كان كله ظاهرًا جليًا لاستوى فيه العلماء والجهال ، ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط ، فإن نار الفكر إنما تقدّح بزناد المشكلات ، ولهذا قال بعض الحكماء : عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخاطر ، وفضيلة الفقر أنه يبعث على إعمال الفكر واستنباط الحيل فى الكسب .

٩٢ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ﴾ [آل عمران:١٣] أى: ترى الفئة الكافرة الفئة المسلمة مثلى عدد نفسها ، أو بالعكس على اختلاف القولين ؛ وكيفما كان فهو منافٍ لقوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال:٤٤] لأنه يدل على أن الفئتين تساوتا فى استقلال كل واحدة منهما للأخرى ، فكل منهما ترى الأخرى قليلة ؟

قلنا : التقليل والتكثير فى حالين مختلفين ، قلل الله المشركين فى نظر المؤمنين أولاً ، والمؤمنين فى نظر المشركين حتى اجترأت كل فئة على قتال صاحبتها ، فلما التقتا كثر الله المؤمنين فى نظر المشركين ، حتى جبنوا وفشلوا فغلبوا ، وكثر الله المشركين فى نظر المؤمنين أو أراهم إياهم على ما هم عليه ، وكانوا فى الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى وكانوا فى الحقيقة أكثر من المؤمنين ليعلموا صدق ما وعدهم الله تعالى بقوله : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [الأنفال:٦٦] الآية ، فإن المؤمنين غلبوهم فى هذه الغزاة وهى غزاة بدر ، مع أنهم كانوا أضعاف عدد المؤمنين وقيل : أرى الله المسلمين المشركين مثل عدد المسلمين ، وكانوا ثلاثة أمثالهم لكنه قللهم فى أعين المسلمين ، وأراهم

إياهم بقدر ما أعلمهم أنهم يغلبونهم لتقوى قلوبهم بما سبق من الوعد أن المائة من المؤمنين يغلبون المائتين منهم .

٩٣ – **فإن قيل** : ما الفائدة تكرار قوله : ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:٦] في قوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨] ؟

قلنا : الأول: قول الله عز وجل ، والثانى حكاية قول الملائكة وأولى العلم، وقال جعفر الصادق (١) رحمه الله تعالى ، الأول : وصف ، والثانى تعليم أى قولوا واشهدوا كما شهدت .

٩٤ – **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ فى قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران:٢٣] والتولى والإعراض واحد كما سبق فى البقرة ، فلم جمع بينهما ؟

قلنا : معناه ، يتولون عن الداعى ويعرضون عما دعاهم إليه ، وهو كتاب الله ، أو يتولون بأبدانهم ويعرضون عن الحق بقلوبهم ، أو كلتا : الذين تولوا علماؤهم والذين أعرضوا أتباعهم .

٩٥ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ﴾ [آل عمران:٢٦] خص الخير بالذكر وبيده تعالى الخير والشر والنفع والضر أيضًا ؟

قلنا : لأن الكلام إنما ورد ردًا على المشركين فيما أنكروه مما وعد الله تعالى به نبيه ﷺ ، على لسان جبريل عليه السلام مع فتح بلاد الروم وفارس ووعد

---

(١) هو أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب لقب بالصادق لأنه لم يعرف بالكذب قط .

النبى ﷺ الصحابة بذلك ، فلما كان الكلام فى الخير خصه بالذكر باعتبار الحال ، أو أراه الخير والشر فاكتفى بأحدهما لدلالته على الآخر ، كقوله تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ وإنما خص الخير بالذكر ، لأنه المرغوب فيه المطلوب للعباد من الله تعالى .

٩٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [الحج:٦١] وإيلاج الشىء فى الشىء يقتضى اجتماع حقيقتهما بعد الإيلاج ، كإيلاج الخيط من الإبرة والإصبع فى الخاتم ونحوهما ، وحقيقة الليل والنهار لا يجتمعان ؟

قلنا : الإيلاج قد يكون كما ذكرتم ، وقد يكون مع تبدل صفة أحدهما بغلبة صفة الآخر عليه مع بقاء ذاته فيه ، كإيلاج يسير من خبز في لبن كثير أو بالعكس ، فإن الحقيقتين مجتمعتان ذاتا وصفة إحداهما غالبة على الأخرى، كذلك الليل والنهار إذا كان الليل أربع عشرة ساعة بالنسبة إلى زمن الاعتدال ، ففيه من النهار ساعتان قطعا ، وكذا على العكس ، أو معناه يولج زمن الليل فى زمن النهار وبالعكس ، أو يولج الليل فى النهار وبالعكس باعتبار أن ليل قوم هو نهار آخرين ، وبالعكس ، أو معناه أنه خلق ليلاً صرفًا خالصًا ، وخلق ما هو ممتزج منهما وهو ما قبيل طلوع الشمس . وقبيل غروبها والجواب الثالث والرابع يعمان جميع السنة .

٩٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:٣٦] وهو معلوم من غير ذكر؟

قلنا : فائدته اعتذارها عما قالته ظنًا ، فإنها ظنت أن ما فى بطنها ذكر ، ولهذا نذرت أن تجعله خادمًا لبيت المقدس ، وكان من شريعتهم صحة هذا النذر فى الذكور خاصة ؛ فلما وضعت أنثى استحيت حيث خاب ظنها ولم يتقبل نذرها،

فقالت ذلك معتذرة ، تعنى ليست الأنثى بصالحة لما يصلح له الذكر فى خادمة المسجد ، لا أنها أرادت أن الأنثى ليست كالذكر صورة أو قوة أو نحو ذلك ، فلما قالت ذلك منكرة خجلة من الله عليها بتخصيص مريم بقبولها فى النذر دون غيرها من الإناث فقال تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ [آل عمران:٣٧].

٩٨ - فإن قيل : المستعمل فى مثله إدخال حرف النفى على القاصر ، وحرف التشبيه على الكامل كقولهم : ليس كالذهب الفضة ، وليس العبد كالحر، فوزانه ، وليس الأنثى كالذكر .

قلنا : لما كان جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً فى التشبيه فى حالة الإثبات يقتضى المبالغة فى المشابهة كقولهم : القمر كوجه زيد ، والبحر ككفه كان يجعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً فى حالة النفى يقتضى نفى المبالغة فى المشابهة لا نفى المشابهة ، وذلك هو المقصود هنا ، لأن المشابهة واقعة بين الذكر والأنثى فى أعم الأوصاف وأغلبها ، ولهذا يقاد أحدهما بالآخر ، وإنما أرادت أم مريم نفى المشابهة بينهما فى صحة النذرية خادمًا للبيت المقدس لا غير ، فلذلك عكس ، الثانى : أن ذلك قوله تعالى ، والمعنى ليس الذكر الذى طلبت أن يكون خادمًا للكنيسة كالأنثى التى وهبت لما علم الله من جعلها وابنها آية للعالمين ، وهو تفسير للتعظيم والتفخيم المجمل فى قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ [آل عمران:٣٦] وهى لا تعرف مقدار شرفه ، واللام فى الذكر والأنثى للعهد ، هذا كله قول الزمخشرى وتمامه فى الكشاف .

وقال الفقيه أبو الليث [١] رحمه الله تعالى قال بعضهم : هذا قول الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام ، أى وليس الذكر كالأنثى يا محمد ، وقال بعضهم: هو من كلام أم مريم .

(١) هو نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى من أئمة الأحناف توفى فى ٣٧٣ .

٩٩ - **فإن قيل** : كيف نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب وأجابها وهو فى الصلاة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي ﴾ [آل عمران:٣٩] الآية ؟

قلنا : المراد بقوله يصلى : أى يدعو كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ أى بدعائك .

١٠٠ - **فإن قيل** : ما فائدة تخصيص يحيى عليه السلام بقوله : ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:٣٩] وكل واحد من المؤمنين مصدق بجميع كلمات الله تعالى؟

قلنا : معناه مصدقًا بعيسى الذى كان وجوده بكلمة من الله تعالى ، وهو قوله : ﴿ كُن ﴾ [آل عمران:٦] من غير واسطة أب فى الوجود ، وكان تصديق يحيى بعيسى أسبق من تصديق كل أحد فى الوجود أو فى الرتبة .

١٠١ - **فإن قيل** : زكريا سأل الولد بقوله : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران:٣٩] والله تعالى بشره بيحيى عليه السلام على لسان الملائكة ، فكيف أنكر بعد هذا كله قدرة الله تعالى على إعطائه الولد حتى قال : ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران:٤٠] ؟

قلنا : إنما قاله على سبيل الاستفهام والنعجب من عظيم قدرته تعالى ، لا على طريق الإنكار والاستبعاد ، أو اشتبه عليه كيف يعطى الولد وهو شيخ وامرأته عاقر ، أو تزول عنهما هاتان الصفتان لكشف الحال وتقديره ، أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ، ولقائل أن يقول : آخر الآية لا يناسب هذا الجواب .

١٠٢ - **فإن قيل** : ما فائدة تكرار ذكر الاصطفاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ؟

قلنا : الاصطفاء الأول ، العبادة التى هى خدمة البيت المقدس وتخصيصها بقبولها فى النذر مع كونها أنثى ، والاصطفاء الثانى ، لولادة عيسى عليه السلام، أو أعيد ذكر الاصطفاء ليفيد بقوله : ﴿ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٤٤] فيندفع بأنها مصطفاة على الرجال .

١٠٣ - فإن قيل : كيف نفى حضور النبى عليه الصلاة والسلام فى زمن مريم بقوله : ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ [آل عمران:٤٤] الآية ، وذلك معلوم عندهم لاشك فيه ، وترك نفى استماعه ذلك الخبر من حفاظه ؛ وهو الذى كانوا يتوهمونه ؟

قلنا : كان معلومًا أيضًا عندهم علمًا يقينًا أنه ليس من أهل القراءة والرواية، وكانوا منكرين للوحى فلم يبق إلا المشاهدة والحضور ، وهى فى غاية الاستحالة ، فنفيت على طريق التهكم بالمنكرين للوحى مع علمهم أنه لا قراءة له ولا رواية ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ﴾ [القصص:٤٤] ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ ﴾ [القصص:٤٦] .

١٠٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ والخطاب مع مريم، وهى تعلم أن الولد الذى بشرت به يكون ابنها .

قلنا : لأن الأبناء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فأعلمت بنسبه إليها أنه يولد من غير أب ، فلا ينسب إلا إلى أمه .

١٠٥ - فإن قيل : أى معجزة لعيسى عليه الصلاة والسلام فى تكليم الناس كهلا وأى خصوصية له فى هذا حتى قال : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران:٤٦]؟

قلنا : معناه ويكلم الناس فى هاتين الحالتين بكلام الأنبياء من غير تفاوت

بين حال الطفولية وحال الكهولية التى يستحكم فيها العقل وينبأ فيها الأنبياء فكأنه قال : ويكلم الناس فى المهد كما يكلمهم كهلاً ، وقال الزجاج : هل خرج مخرج البشارة لمريم أنه عليه الصلاة والسلام سيبقى إلى زمن الكهولة فهو بشارة لها بطول عمره ، وقيل : المقصود منه أن الزمان يوثر فيه كما يؤثر فى غيره ،وينقله من حال إلى حال ، ولو كان إلهاً لم يجز عليه التغيير .

١٠٦ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] والله تعالى رفعه ولم يتوفه؟

قلنا : لما هدده اليهود بالقتل بشره الله بأنه إنما يقبض روحه بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تفيد الترتيب ، فلا يلزم من الآية موته قبل رفعه .

الثانى : أن فيه تقديماً وتأخيرًا ، أى أنى رافعك ومتوفيك.

والثالث : أن معناه: قابضك من الأرض تامًا وافيًا فى أعضائك وجسدك ، لم ينالوا منك شيئًا ، من قولهم : توفيت حقى على فلان ، إذا استوفيته تامًا وافيًا .

الرابع : أن معناه : إنى متوفيك فى نفسك بالنوم من قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر:٤٢] ورافعك إلى . وأنت نائم حتى لا تخاف ، بل تستيقظ ، وأنت فى السماء.

١٠٧ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران:٥٩] وآدم خلق من التراب وعيسى خلق من الهواء ، وآدم خلق من غير أب وأم وعيسى خلق من أم .

قلنا : المراد به التشبيه فى وجوده بغير واسطة أب ، والتشبيه لا يقتضى المماثلة من جميع الوجوه ، بل من بعضها .

١٠٨ – **فإن قيل** : كيف خص أهل الكتاب بأن منهم أمينًا وخائنًا بقوله :

﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ ﴾ [آل عمران:٧٥] الآية، والمسلمون وغيرهم من أهل الملل كذلك، منهم الأمين والخائن؟

قلنا: إنما خصهم باعتبار واقعة الحال، فإن سبب نزول الآية أن عبد الله ابن سلام أودع ألفًا ومائتى أوقية من الذهب فأدى الأمانة فيها، وفنحاص بن عازوراء أودع دينارًا فخانه، ولأن خيانة أهل الكتاب المسلمين تكون عن استحلال بدليل آخر الآية، بخلاف خيانة المسلم المسلم فلذلك خصهم بالذكر.

١٠٩ - فإن قيل: كيف قال: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [آل عمران:٨٣] وأكثر الجن والإنس كفرة؟

قلنا: المراد بهذا الاستسلام الانقياد لما قضاه الله عليهم وقدره من الحياة والموت والمرض والصحة والشقاء والسعادة، ونحو ذلك.

١١٠ - فإن قيل: كيف قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ ﴾ [آل عمران:٩٠] ومعلوم أن المرتد وإن ازداد ارتداده كفرًا فإنه مقبول التوبة؟

قلنا: الآية نزلت فى قوم ارتدوا، ثم أظهروا التوبة بالقول لستر أحوالهم والكفر فى ضمائرهم، قاله ابن عباس، وقيل: نزلت فى قوم تابوا من ذنوبهم غير الشرك، وقيل معناه: لن تقبل توبتهم وقت حضور الموت.

١١١ - فإن قيل: كيف قال: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ [آل عمران:٩٦] وكم من بيت بنى قبل الكعبة من زمن آدم إلى زمن إبراهيم عليه السلام.

قلنا: معناه إن أول بيت وضع قبله للناس ومكان عبادة لهم، أو وضع

مباركًا للناس ، أو لأن ابن عباس قال : أول ما بناه آدم عليه السلام لما هبط من السماء أوحى الله تعالى إليه ، ابن لى بيتًا فى الأرض ، واصنع حوله نحو ما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى ، فبناه وجعل يطوف حوله .

١١٢ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ [آل عمران:١١٠] ولم يقل : أنتم خير أمة ؟

قلنا : معناه كنتم فى سابق علم الله أو كنتم يوم أخذ الميثاق على الذرية فأراد الإعلام بكون ذلك صفة أصلية فيهم لا عارضة متجددة ، أو معناه خلقتم ووجدتم ، فهى كان التامة [1] ، وخير أمة نصب على الحال ، وتمام الكلام فى ﴿كَانَ﴾ يذكر فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا ﴾ .

١١٣ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ ولا يصح أن يقال : هذا خير من ذلك إلا إذا كان فى كل واحد منهما خير، مع أن غير الإيمان لا خير فيه حتى يقال : إن الإيمان خير منه؟

قلنا : معناه إيمانهم بمحمد ﷺ مع إيمانهم بموسى وعيسى عليهما السلام، خير من إيمانهم بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فقط .

١١٤ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران:١١٧] الآية ، والمقصود تشبيه نفقة الكفار وأموالهم فى تحصيل المفاخر وطلب الصيت والسمعة ، أو ما ينفقونه فى الطاعات مع وجود الكفر ، أو ما ينفقونه فى عداوة رسول الله ﷺ بالزرع الذى أصابته ريح شديدة البرد فأهكلته فضاع ولم ينتفع به ، والتشبيه فى الحقيقة بالزرع وفى لفظ الآية بالريح ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر ، أو مثل ما ينفقون كمثل مهلك ريح ، ونظيره فى قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ

(١) أى تكتفي بمرفوعها ويعرب فاعلاً مثل : أجلس حيث يكون الهدوء .

أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة:٢٦١] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ [آل عمران:١٧١] الآية ، وقال ثعلب [(١)] : فيه تقديم وتأخير تقديره : كمثل حرث قوم ظلموا أنفسهم أصابته ريح فيها صر فأهلكته.

١١٥ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل عمران:١٢٠] فوصف الحسنة بالمس والسيئة بالإصابة ؟

قلنا : المسّ مستعار بمعنى الإصابة توسعة فى العبارة ، وإلا فكان المعنى واحدًا ، ألا ترى إلى قوله تعالى فى الفريقين : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٥] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [آل عمران:٦] .

١١٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ ﴾ [آل عمران:١٣٣] والنبى عليه أفضل التحية يقول : «**العجلة من الشيطان والتأنى من الرحمن**» [(٢)] ؟

قلنا : قد استثنى النبى ﷺ خمسة مواضع فقال : «**ألا فى التوبة من الذنب ، وقضاء الدين الحال ، وتزويج البكر البالغ ، ودفن الميت وإكرام الضيف إذا نزل**» [(٣)] والمسارعة المأمور بها فى الآية هى المسارعة إلى التوبة وما فى معناها من أسباب المغفرة .

١١٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٦٥] عطف عليه بكلمة «أو» وفعل الفاحشة داخل فى ظلم النفس،

---

(١) هو العباس أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في النحو واللغة وسمى ثعلبًا لأنه كان عند إجابته للمسائل يجيب عنها من كل الوجوه .

(١) **ضعيف الإسناد** : رواه الترمذي (١٩٣٥) وأبو يعلى في مسنده (٣/ ١٥٥٤) والبيهقي في الكبرى (١/ ١٠٤) .

(٣) **إسناده ضعيف** : الحلية (٨/ ٧٨) .

بل هو أبلغ أنواع ظلم النفس ؟

قلنا : أريد بالفاحشة نوع من أنواع ظلم النفس وهو الزنى أو كل كبيرة فخص بهذا الاسم تنبيهًا على زيادة قبحه ، وأريد بظلم النفس ما وراء ذلك من الذنوب .

١١٨ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:١٣٥] وقال فى موضع آخر : ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى:٣٧] وقال : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُوا ﴾ [الجاثية:١٤] ؟

قلنا : معناه ومن يستر الذنوب من جميع الوجوه إلا الله ، ومثل هذا الغفران لا يوجد إلا من الله .

١١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾ [آل عمران:١٤٤] وهلا اقتصر على قوله : ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ ﴾ وكان القتل يدخل فيه فإنه موت؟

قلنا : القتل وإن كان موتًا لكن إذا أطلق الميت فى العرف لا يفهم منه المقتول ، فلذلك عطف أحدها على الآخر .

١٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران:١٦١] وقال فى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤] ؟

قلنا : معناه يأتى به مكتوبًا فى ديوانه ، أو يأتى به حاملاً إثمه ، ومعنى فرادى : متفردين عن الأموال والأهل ، أو عن الشركاء فى الغى ، أو عن الآلهة المعبودة من دون الله ، وتمام الآية يشهد للكل .

١٢١ - فإن قيل : قد جاء فى الصحيحين عن النبى ﷺ **" أن الغال يأتى يوم القيامة حاملاً عين ما غله على عنقه ،صامتًا كان أو ناطقًا "** [(١)] ، هذا معنى

(١) صحيح ابن حبان (١١/ ١٨٤) .

الحديث ، فاندفع الجواب ؟

قلنا : على هذا يكون المراد بالآية الأخرى فرادى عن مال وأهل يعتزون بهما ويستنصرون ، ويشهد بصحته تمام الآية .

١٢٢ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٢٣] والعبيد ليسوا نفس الدرجات ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، هم ذوو درجات ، أو أهل درجات ، فحذف المراد لعدم الإلباس ، وقيل : المراد بالدرجات الطبقات ، فلا يكون فيه إضمار ، معناه أنهم طبقات عند الله متفاوتون كتفاوت الدرجات .

١٢٣ - **فإن قيل** : كيف يجعل لكل الفريقين درجات وأحد الفريقين لهم دركات لا درجات ؟

قلنا : الدرجات تستعل فى الفريقين بدليل قوله تعالى فى سورة الأحقاف بعد ذكر الفريقين : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأحقاف:١٩] وتحقيقه أن بعض أهل النار أخف عذابًا ، فمكانه فيها أعلى ، وبعضهم أشد عذابًا ومكانه فيها أسفل ، ولو سلم اختصاص الدرجات بأهل الدرجات كان قوله : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ راجعًا إليهم خاصة تقديره ، أفمن اتبع رضوان الله وهم درجات عند الله كمن باء بسخط من الله وهم دركات ، إلا أنه حذف البعض لدلالة المذكور عليه .

١٢٤ - **فإن قيل** : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران:١٨٠] كانوا فى زمن النبى ﷺ ، قالوا ذلك لما سمعوا قوله تعالى : ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة:٢٨٥] فكيف قال : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ ﴾ [آل عمران:١٨١] أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، وهم لم يقتلوا نبيًا قط ؟

قلنا : لما رضوا بقتل أسلافهم الأنبياء كأنهم باشروا ذلك فأضيف إليهم ،

وقد تكرر هذا المعنى فى القرآن كثيرًا .

١٢٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [آل عمران:١٨٢] وظلام صيغة مبالغة من الظلم ، ولا يلزم من نفى الظلام نفى الظالم ، وعلى العكس يلزم ، فهلا قال: ليس بظالم ليكون أبلغ فى نفى الظلم عن ذاته المقدسة؟

قلنا : صيغة المبالغة مجيء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف:٤٩] وقال : ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ ﴾ [الأنعام:٧٣] و ﴿ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨] لما أفرد المعمول لم يأت بصيغة المبالغة ، ونظيره قولهم : زيد ظالم لعبده ، وعمرو ظلام لعبيده ، فهما فى الظلم سيان ، وكذلك قال الله تعالى : ﴿ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ [الفتح:٢٧] فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل ، أو الصيغة هنا للنسب أى لا ينسب إليه ظلم ، فالمعنى ليس بذى ظلم .

الثانى : أن العذاب من العظيم القدر ، الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل ، فيطلق عليه اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره ، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة ذات الفعل ، وتارة باعتبار صفته ، ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبيده ، باعتبار زيادة وصف القبح ؛ ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب:٧٢] على ما يأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

١٢٦ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ ﴾ [آل عمران:٨٤] من حق الجزاء أن يتعقب الشرط ،وهذا سابق له ؟

قلنا : جواب الشرط محذوف ، إذ لا يصلح قوله : ﴿ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن

قَبْلِكَ﴾ [آل عمران:١٨٤] جوابًا لأنه سابق عليه ، ومعناه : وإن يكذبوك فتأس بتكذيب الرسل قبلك ، وضعًا للسبب، وهو تكذيبهم موضع المسبب ، وهو التأسي بهم .

١٢٧ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ في قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧] والأول مغن عن الثاني؟

قلنا : معناه ليبيننه في الحال ، ويدومون على ذلك البيان ، ولا يكتمونه في المستقبل ، والثاني أن الضمير الأول للكتاب ، والثاني لنعت النبي ﷺ وذكره، فإنه قد سبق ذكر النبي ﷺ قبيل هذا .

١٢٨ - فإن قيل : متى بينوا الكتاب لزم من بيانه بيان صفة النبي ﷺ وذكره ، لأنه من جملة الكتاب الذي هو التوراة والإنجيل ، فقوله بعد ذلك لا يكتمونه تكرار.

قلنا : على هذا يكون تأكيدًا .

١٢٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران:١٩٢] وقال في موضع آخر : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨] ويلزم من هذا أن لا يدخل المؤمنين النار ، كما قالت المعتزلة والخارجية ؟

قلنا : أخزيته بمعنى أذللته وأهنته من الخزي وهو الذل والهوان ، وقوله : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم:٨] من الخزاية وهي النكال والفضيحة فكل من يدخل النار يذل ، وليس كل من يدخلها ينكل به ويفضح، أو المراد بالآية الأولى إدخال الإقامة والخلود ، لا إدخال تحلّة القسم المدلول عليها بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:٧١] أو إدخال

التطهير الذى يكون لبعض المؤمنين بقدر ذنوبهم ، وقيل : إن قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ﴾ [آل عمران:٦] كلام مبتدأ غير معطوف على ما قبله .

١٣٠ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ سَمِعْنَا مُنَادِيًا ﴾ [آل عمران:١٩٣] والمسموع نداء المنادى ، لا نفس المنادى ؟

قلنا : لما قال ـ مناديًا ينادى ـ صار تقديره : نداء مناد ، كما يقال : سمعت زيدًا يقول كذا ، أى سمعت قول زيد ، فمناديًا مفعول سمع ، وينادى حال دالة على محذوف مضاف للمفعول .

١٣١ – **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ [آل عمران:١٩٣] وتكفير السيئات داخل فى غفران الذنوب ؟

قلنا : المعنى مختلف ، لأن الغفران مجرد فضل ، والتكفير محو السيئات بالحسنات .

١٣٢ – **فإن قيل** : ما فائدة قولهم : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران:١٩٣] مع أنهم لا ينفعهم توفيهم مع الأبرار ، بل النافع لهم كونهم من الأبرار ، سواء توفاهم معهم أو قبلهم أو بعدهم ؟

قلنا : معناه وتوفنا مخصوصين بصحبتهم ، معدودين فى جملتهم ، كما يقال: أعطانى الأمير مع أصحاب الخلع الجوائز ، أى جعلنى من جملتهم ، وإن تقدم إعطاؤه عنهم أو تأخر .

١٣٣ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ [آل عمران:١٩٤] أى: على لسان رسلك دعوه بإنجاز الوعد مع علمهم ، وقولهم أيضًا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ؟

قلنا : الوعد من الله تعالى على ألسنة الرسل للمؤمنين عام يحتمل أن يراد به

الخصوص ، كما فى أكثر عمومات القرآن ، فسألوا الله تعالى أن يجعلهم من الداخلين فى حكم الوعد ، الثانى أنهم سألوا تعجيل النصر الذى وعدوا ، فإنه تعالى وعدهم النصر على أعدائهم غير مؤقت بوقت خاص .

١٣٤ - **فإن قيل** : كيف يجوز أن يغتر الرسول بنعم الذين كفروا حتى نهى عن الاغترار بقوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [آل عمران:١٩٦] أى تصرفهم فيها بالتجارات متنعمين ؟

قلنا : معناه لا يغرنكم أيها المؤمنون ، فإن رئيس القوم ومقدمهم يخاطب بشيء ، والمراد به أتباعه وجماعته ، الثانى أنه عليه الصلاة والسلام كان غير مغتر بحالهم ، فقيل له ذلك تأكيدًا وتثبيتًا على الدوام عليه ، كما قيل له : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [القصص:٨٦] ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:١٤] ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم:٨] .

١٣٥ - **فإن قيل** : كيف ينهى عن التقلب وهو مما ليس ينهى عنه ؟

قلنا : معناه لا تغتر بتقلبهم ، فيكون تقلبهم قد غرك ، وهذا من تنزيل السبب منزلة المسبب ، لأن تقلبهم لو غره لاغتر به فمنع السبب وهو غرور تقلبهم إياه ، ليمتنع المسبب وهو اغتراره بتقلبهم .

١٣٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [آل عمران:١٩٦] ولم يقل : لا يغرنك نعمهم وأموالهم ، والذى يحتمل أن يغر الرسول والمؤمنين النعم والأموال لا التقلب فى البلاد ؟

قلنا : المراد بتقلبهم تصرفهم فى التجارات والنعم والتلذذ بالأموال ، والفقير إنما يتألم وينكسر قلبه إذا رأى الغنى يتقلب فى النعمة ويتمتع بها فلذلك ذكر التقلب ، وقيل معناه : لا يغرنك تقلبهم فى المعاصى غير مأخوذين بذنوبهم .

١٣٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩٩] مع أن قوله : ﴿ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ موضع البشارة بالثواب ، وسرعة الحساب إنما تذكر فى موضع التهديد والعقاب؟

قلنا : معناه لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً خوفًا من حسابه ، فإنه سريع الحساب ، فهو راجع إلى ما قبله .

*** *** ***

سورة قصة النساء

١٣٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ﴾ [النساء:١] إذا كانت حواء مخلوقة من آدم، ونحن مخلوقون منه أيضًا ، تكون نسبة حواء إلى آدم نسبة الولد لأنها متفرعة منه، فتكون أختا لنا لا أمًا ؟

قلنا : قال بعض المفسرين : ﴿ مِّن ﴾ [النساء:٦] لبيان الجنس لا للتبعيض ، معناه : وخلق من جنسها زوجها كما في قوله تعالى : ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [التوبة:١٢٨] .

الثاني : وهو الذى عليه الجمهور أنها للتبعيض ، ولكن خلق حواء من آدم لم يكن بطريق التوليد كخلق الأولاد من الآباء ، فلا يلزم منه ثبوت البنتية والأختية فيها .

١٣٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ ﴾ [النساء:٢] واليتيم لا يعطى ماله حتى يبلغ اتفاقًا ؟

قلنا : المراد به إذا بلغوا ، وإنما سموا يتامى لقرب عهدهم بالبلوغ باعتبار ما كان ، كما تسمى الناقة عشراء بعد الوضع ، وقد يسمى البالغ يتيمًا باعتبار ما كان ، كما يسمى الحى ميتًا والعنب خمرًا باعتبار ما يكون ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر:٣٠] وقال : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرًا ﴾ [يوسف:٣٦] ومنه قولهم للنبى عليه الصلاة والسلام بعد ما نبأه الله : يتيم أبى طالب .

١٤٠ - فإن قيل : أكل مال اليتيم حرام وحده ومع أموال الأوصياء ، فلم ورد النهى مخصوصًا عن أكله معها لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [النساء:٢] أى معها ؟

قلنا : لأن أكل مال اليتيم مع الاستغناء عنه أقبح ، فلذلك خص بالنهى لأنهم كانوا يأكلونه مع الاستغناء عنه ، فجاء النهى عن ما وقع منهم .

١٤١ - فإن قيل : لما قال : ﴿ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾ [النساء:٧] دخل فيه الكثير والكثير، فما فائدة قوله : ﴿ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ﴾ [النساء:٧] ؟

قلنا : إنما قال ذلك على جهة التأكيد والإعلام أن كل تركة تجب قسم لئلا يتهاون بالقليل من التركات ويحتقر ، فلا يقسم ، وينفرد به بعض الورثة .

١٤٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [النساء:١١] مع أنه لو كان الولد بنتًا فللأب الثلث ؟

قلنا : الآية وردت لبيان الفرض دون التعصيب ، وليس للأب أو البنت بالفرض إلا السدس .

١٤٣ - فإن قلنا : كيف قطع على العاصى الخلود فى النار بقوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء:١٤] ؟

قلنا : أراد به من يعصي الله برد أحكامه وجحودها وذلك كفر ، والكافر يستحق الخلود فى النار .

١٤٤ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ ﴾ [النساء:١٥] والتوفى والموت بمعنى واحد، فصار كأنه قال: حتى يميتهن الموت ؟

قلنا : معناه حتى يتوفاهن ملائكة الموت ، الثانى معناه : حتى يأخذهن ملائكة الموت وتتوفى أرواحهن .

١٤٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١٧] ولم يقل : إنما التوبة على العبد ، مع أن التوبة واجبة على العبد ؟

قلنا : معناه إنما قبول التوبة على الله بحذف المضاف .

الثانى: أن معنى التوبة من الله رجوعه على العبد بالمغفرة والرحمة ، لأن التوبة فى اللغة الرجوع .

١٤٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ [النساء:١٧] ولو عمله بغير جهالة ثم تاب قبلت توبته منه؟

قلنا : معناه بجهالة بقدر قبح المعصية وسوء عاقبتها ، لا بكونها معصية أو ذنبًا ، كل عاص جاهل بذلك حال مباشرة المعصية ، معناه أنه مسلوب كمال العلم به بسبب غلبة الهوى وتزيين الشيطان .

١٤٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾ [النساء:٦] مع أنهم لو تابوا بعد الذنب من بعيد قبلت توبتهم ؟

قلنا : ليس المراد بالقريب مقابل البعيد إذ حكمها واحد ، بل معناه قبل معاينة سلطان الموت ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، بقرينة قوله : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء:١٨] .

١٤٨ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [النساء:٢٠] الآية، مع أن حرمة الأخذ ثابتة وإن لم يكن قد أعطاها المهر ، بل كان فى ذمته أو فى يده ؟

قلنا : المراد بالإيتاء الضمان والالتزام كما فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم﴾ [البقرة:٢٣٣] أى : ما غنمتم والتزمتم .

١٤٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا ﴾ [النساء:٢٠] وأخذ مهر المرأة ظلم وليس ببهتان ، لأن البهتان الكذب ؟

قلنا : ابن عباس وابن قتيبة قالا : المراد بالبهتان الظلم ، وقال الزجاج : إن

المراد به الباطل ، والمشهور فى كتب اللغة أن البهتان أن يقول الإنسان على غيره ما لم يفعله ، قالوا : فالمراد به أن الرجل ربما رمى امرأته بتهمة ليتوهم بذلك إلى أن يأخذ منها مهرها ويفارقها ، وقيل : المراد به إنكاره أن لها مهرًا فى ذمته .

١٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢] نهى عن المستقبل ، وإلا ما قد سلف ماض ، فكيف يصح استثناء الماضى والمستقبل؟

قلنا : قيل إن : ﴿ إِلَّا ﴾ هنا بمعنى «بَعْدَ» كما فى قوله تعالى : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان:٥٦] وقيل : هو استثناء من محذوف تقديره : فإنكم تعذبون به إلا ما قد سلف ، وقيل : فيه تقديم وتأخير تقديره : إنه كان فاحشة إلا ما قد سلف .

١٥٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾ [النساء:٢٢] بلفظ الماضى ، مع أن منكوحة الأب فاحشة فى الحال وفى الاستقبال إلى يوم القيامة؟

قلنا : «كان» تارة تستعمل للماضى المنقطع كقوله: كانت زيد غنيًا وكان الخزف طينًا ، وتارة تستعمل للماضى المستمر المتصل للحال كما أبى جندب الهذلى :

وكُنت إذا جارى دعا لمضوفه أشمر حتى ينصف الساق مئزري

أى وإنى الآن ، لأنه إنما يمتدح بصفة ثابتة له فى الحال زائلة ذاهبة ، والمضوفة بالفاء : الأمر الذى يشفق منه ، والقاف تصحيف ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢٧، ٤٠] أشبه ذلك ، وما نحن فيه من هذا القبيل ، وسيأتى الكلام فى «كان»بعد هذا إن شاء الله فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء:١٠٣] .

١٥٣ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم ﴾ [النساء:٢٣] قيد التحريم بكون الربيبة فى حجر زوج أمها ، والحرمة ثابتة مطلقًا ، وإن لم تكن فى حجره ؟

قلنا : أخرج ذلك مخرج العادة والغالب ، لا مخرج الشرط والقيد ، ولهذا نفى فى موضع الإحلال بنفى الدخول فى قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء:٢٣] فتأمل .

١٥٤ - **فإن قيل** : لما قال : ﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [النساء:٢٣] ثم قال فى آخر الآية : ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ ﴾ [النساء:٢٤] علم من مجموع ذلك أن الربيبة لا تحرم إذا لم يدخل فما فائدة قوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء:٢٣] ؟

قلنا : فائدته أن لا يتوهم أن قيد الدخول خرج مخرج العادة والغالب خروج الشرط كما فى الحجر .

١٥٥ - **فإن قيل** : كيف قال فى نكاح الإماء : ﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء:٢٥] والمهر ملك المولى ، وإنما يجب تسليمه إلى المولى لا إلى الأمة ؟

قلنا : لما كانت الأمة وما فى يدها ملك المولى كان أداؤها إليها كأدائه إلى المولى ، الثانى أن معناه : وآتوا مواليهن أجورهن بطريق حذف المضاف .

١٥٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُم ﴾ [النساء:٢٥] وجواز نكاح الأمة ثابت من غير خوف العنت عند بعض العلماء ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، ذلك الصواب وأصلح لمن خشى العنت منكم فيكون شرطًا لما هو الأرشد والأصلح ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ

فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:٣٣] .

١٥٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء:٢٦] والإرادة إنما تقرن بأن يقال: يريد أن يفعل ، وقال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء:٢٨] ؟

قلنا : قد ورد فى الكتاب العزيز اللام بمعنى «أن» كثيرًا قال الله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [النساء:٦] وقال الله تعالى : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٦٧١] وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ ﴾ [الصف:٨] فكذلك هذا .

١٥٨ - فإن قيل : كيف خص التجارة بالذكر فى قوله تعالى : ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء:٢٩] مع أن الهبة والصدقة والوصية والضيافة وغيرها تقتضى الحل أيضًا كالتجارة .

قلنا : إنما خصها بالذكر ، لأن معظم تصرف الخلق فى الأموال إنما بالتجارة، أو لأن أسباب الرزق أكثرها متعلق بها .

١٥٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء:٤٢] قالوا : معناه أنهم يتمنون أن يجعلوا يوم القيامة ترابًا كما جاء فى آخر سورة النبأ ، وظاهر اللفظ أنهم يتمنون أن نجعل الأرض مثلهم ناسًا ، كما تقول : سويت زيدًا بعمر ، ومعناه جعلت زيدًا وهو المسوى مثل عمرو وهو المسوى به .

قلنا : قولهم : سويت هذا بهذا له معنيان ، أحدهما إجراء حكم الثانى على الأول كقولك : سويت زيدًا بعمرو ، وكما تقول : ساويت .

والثانى : أن المسوى مفعولاً والمسوى به آلة كقولك : سويت القلم بسكين والثوب بالمقراض ، بمعنى أصلحته به ، قلنا : فقوله : ﴿ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ

ﭐلۡأَرۡضُ ﴾ [النساء:٤٢] يحمل وجهين : أن يكون بمعنى ساويت ويكون من المقلوب : أى لو يسوون بالأرض بجعلهم ترابًا كقوله تعالى : ﴿ لَتَنُوٓأُ ﴾ [القصص:٧٦] قوله : ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾ [المائدة:٦] في قول من لم يجعل الباء زائدة كقولهم : أدخلت الخاتم فى إصبعى ونحوه ، وأن يكون بمعنى الآلة، معناه : ودوا لو تمهد بهم الأرض وتوطد ، بأن يجعلوا ترابًا ويبعثوا فى وهادها وحضيضها لتساوى بقاعها وآكامها ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمۡتًا ﴾ [طه:١٠٧] انخفاضًا ولا ارتفاعًا ، وإن كان يدل على أن الأرض يوم القيامة متساوية بالسطوح ، فجعلها متساوية السطوح إن كان قبل البعث ، فإذا بعث الموتى من قبورهم خلت منهم قبورهم وحفرهم ، فحصل فى الأرض تفاوت ، وإن كان بعد البعث فيجوز أن يكون هذا التمنى سابقًا على جعلها متساوية السطوح .

١٦٠ – فإن قيل : قولنا هذا خير من ذلك ، يقتضى أن يكون فى كل واحد منهما خير حتى يصح تفضيل أحدهما على الآخر ، لأن خير فى الأصل أفعل تفضيل، فكيف قال : ﴿ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ ﴾ [النساء:٤٦] بعد ما سبق من قولهم فى أول الآية ؟

قلنا : المراد بالخير هاهنا الخير الذى هو ضد الشر ، لا الذى هو أفعل تفضيل كما تقول : فى فلان خير .

١٦١ – فإن قلنا : كيف قال : ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾ [النساء:٤٧] والمفعول مخلوق ، وأمر الله وقوله غير مخلوق؟

قلنا : ليس المراد بهذا الأمر ما هو ضد للنهى ، بل المراد به ما يحدث من الحوادث ، فإن الحادثة تسمى أيضًا أمرًا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرًا ﴾ [الطلاق:١] وقوله ﴿ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارًا ﴾ [يونس:٢٤] .

١٦٢ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨] مع أن شرك الساهى والمكره والتائب مغفور ؟

قلنا : المراد به شرك غير هؤلاء المخصوص من عموم الآية بأدلة من خارج، أو تقول : قيد المشيئة متعلق بالفعلين ، المنفى والمثبت ، كأنه قال : إن الله لا يغفر الشرك لمن يشاء ويغفر ما دونه لمن يشاء .

١٦٣ - **فإن قيل** : هذا الآية تدل على أن غير الشرك من الذنوب لا يقطع بانتفاء مغفرته ، بل ترجى مغفرته ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [النساء:١٦٨، ١٦٩] يدل على القطع بانتفاء المغفرة فى الكفر والظلم وهما غير الشرك ، فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الشرك ، قال مقاتل[(١)] : والشرك يسمى ظلماً قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣] فكأنه قال : إن الذين أشركوا ، الثانى أن قوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨] ليس قطعًا بالمغفرة لغير المشرك وهو تعليق للمغفرة له بالمشيئة ؛ ثم بين بالآية الأخرى أن الكافر ليس داخلا فيمن يشاء المغفرة له ، فيتعين دخوله فيمن لا يغفر له لأنه لا واسطة بينهما ، الثالث : أنه عام خص بالآية الثانية كما خص قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر:٥٣] بالآية الأولى ، ويؤيد هذا إجماع الأمة على أن الكافر والمشرك سواء فى عدم المغفرة والتخليد فى النار ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [البينة:٦] .

١٦٤ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ ذمهم على ذلك ، وقال أيضًا : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

(١) هو أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدى أحد مشاهير المفسرين توفى ١٥٠هـ.

ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم:٣٢] وقد زكى النبى ﷺ نفسه فقال : «والله إنى لأمين فى السماء وأمين فى الأرض» (١) ، ويوسف عليه السلام قال : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف:٥٥] ؟

قلنا : إنما قال ذلك حين قال المنافقون : اعدل فى القسمة ، تكذيبًا لهم حيث وصفوه بخلاف ما كان عليه من العدل والأمانة ، وأما يوسف عليه السلام فإنه إنما قال ذلك ليتوصل به إلى ما هو وظيفة الأنبياء ، وهو إقامة العدل وبسط الحق وإمضاء أحكام الله تعالى ، ولأنه علم أنه لا أحد فى ذلك الوقت أقوم منه بذلك العمل ، فكان متعينًا عليه ، فلذلك طلبه وأثنى على نفسه ، ومع ذلك كله فإنه روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل : اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنه أخر ذلك سنة» (٢) .

١٦٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء:٥١] إلى أن قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ حصر لعنته فيهم لأن هذا الكلام للحصر ، وليست لعنة الله منحصرة فيهم ، بل هى شاملة لجميع الكفار .

قلنا : قوله : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ [النساء:٦] إشارة إلى القائلين للذين كفروا : ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء:٥١] وهذا القول موجود من جميع الكفار ، فكانت اللعنة شاملة للجميع .

١٦٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

(١) البزار (٣٨٦٣) والطبراني (٩٨٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٢٢١٧) عن أبي رافع .

(٢) ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٢٩) .

لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦] أخبر أنه يعذب جلودهم التى لم تعص مكان الجلود العاصية ، وتعذيب البرىء ظلم ؟

قلنا : الجلود المجددة وإن عذبت فالألم بتعذيبها إنما يحصل للقلوب ، وهى غير مجددة ، بل هى العاصية باعتقاد الشرك ونحوه .

الثانى : أن المراد بتبديلها إعادة النضج غير نضيج ، والجلود هى الجلود بعينها ، وإنما قال غيرها باعتبار صفة النضيج وعدمه ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨] وأراد تبديل الصفات لا تبديل الذات ، وكما قال الشاعر :

وما الناسُ بالناسِ الذين عهدتهم وما الدارُ بالدار التى كنت أعهدُ

١٦٧ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء:٥٧] وليس فى الجنة شمس ليكون فيها حر يحتاج بسببه إلى ظل ظليل أو غير ظليل ؟

قلنا : هو مجاز عن المستقر المستلذ المستطاب ، جريًا على المتعارف بين الناس ، لأن بلاد الحجاز شديدة الحر ، فأطيب ما عندهم موضع الظل ، فخطابهم بما يعقلون ويفهمون ، كما قال عز وجل : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢] وليس فى الجنة طلوع شمس ولا غروبها فيكون فيها بكرة وعشيا ، لكن لما كان فى عرفهم تمام نعمة الغذاء وكمال وظيفته أن يكون حاضرًا مهيأ فى طرفى النهار عبر عن حضوره وتهيئته بذلك .

١٦٨ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩] وهذا مدح لمن يطيع الله والرسول، وعادة العرب فى صفات المدح الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، وهذا عكسه لأنه نزول من الأعلى إلى الأدنى ؟

قلنا : هذا ليس من الباب الذى ذكرتموه ، بل هو كلام المقصود منه الإخبار عن كون المطيعين لله ورسوله يكونون يوم القيامة مع الأشراف والخواص ، ثم كأن سائلاً سأل من الأشراف والخواص ، ففصلوا له زيادة فى الفائدة بعد تمام المعنى المقصود بالذكر بقوله : ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [النساء:٦٩] وأتى فى تفصيلهم بذكر الأشرف فالأشرف والأخص فالأخص ، إذ هو الغالب فى تعديد الأشرف والخواص كما فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء:٥٩] وقوله : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران:١٨] الآية ، الدليل على أن المراد من الآية الإخبار جملة لا تفصيلاً ، أنه لما علم عباده أن يسألوه هذا المعنى ، أرشدهم إلى طلبه مجملاً بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة:٦، ٧] .

١٦٩ – فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء:٧٦] وقال فى كيد النساء: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف:٢٨] ومعلوم أن كيد الشيطان أعظم من كيد النسوان ؟

قلنا : المراد أن كيد الشيطان ضعيف فى جنب نصرة الله وحفظ لأوليائه المخلصين من عباده ، كما قال الله تعالى﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢] وقال حكاية عن إبليس : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٤٠] والمراد بذلك الأخرى أن كيد النسوان عظيم بالنسبة إلى الرجال ، لثانى القائل: إن كيدكن عظيم هو عزيز مصر ، لأن الله تعالى ، فلا تناقض ولا معارضة .

١٧٠ – فإن قيل : كيف عاب على المشركين والمنافقين قولهم : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ [النساء:٧٨] وردّ عليهم ذلك بقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٧٨] ثم قال

بعد ذلك : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩] وأخبره بعين قولهم المردود عليهم ؟

قلنا : قيل إن الثانى حكاية قولهم أيضًا ، وفيه إضمار تقديره : ﴿ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٧٨] فيقولون: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ [النساء:٧٩] الآية.

وقيل معناه : ما أصابك أيها الإنسان من خسنة ، أى رخاء ونعمة فمن فضل الله ، وما أصابك من سيئة ، أى قحط وشدة فبشؤم فعلك ومعصيتك لا بشؤم محمد عليه الصلاة والسلام كما زعم ، المشركون ، ويؤيد قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [االشورى:٣٠] .

١٧١ – فإن قيل : كيف قيل : إن الشر والمعصية بإرادة الله ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء:٧٩]؟

قلنا : ليس المراد بالحسنة والسيئة الطاعة والمعصية ، بل القحط والرخاء والنصر والهزيمة على ما اختلف فيه العلماء ، ألا ترى أنه قال : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ ﴾ ولم يقل ما علمت من سيئة .

١٧٢ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] السؤال فيه من وجهين : أحدهما أن يدل من حيث المفهوم على أن فى القرآن اختلافًا قليلاً ، وإلا لما كان للتقليد بوصف الكثرة فائدة ، مع أنه لا اختلاف فيه أصلاً ، الثانى أنه إنما يدل عدم الاختلاف الكثير فى القرآن على أنه من عند الله ، أن لو كان كل كتاب من عند غير الله فيه اختلاف كثير ، وليس الواقع كذلك ، لأن المراد من الاختلاف إما الكذب والتباين فى نظمه ، وإما التناقض فى معانيه ، أو التفاوت بين بعضه وبعضه من الجزالة والبلاغة والحكمة وكثرة الفائدة ؟

قلنا : الجواب عن السؤال الأول أن التقييد بوصف الكثرة للمبالغة فى إثبات الملازمة ، فكأنه قال : لو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا فضلا عن القليل ولكنه عند الله فليس فيه اختلاف كثير ولا قليل فكيف يكون من عند غير الله ، فهذا هو المقصود من التقييد بوصف الكثرة لأن القرآن مشتمل على اختلاف قليل ،وعن السؤال الثانى أن كل كتاب فى فن من العلوم إذا كان من عند غير الله يوجد فيه اختلاف ما بأحد التفاسير المذكورة لا محالة ، يعرف ذلك بالاستقراء ، والقرآن جامع لفنون من علوم شتى، فلو كان من عند غير الله لوجد فيه بالنسبة إلى كل فن اختلاف ما ، فيصير مجموع الاختلاف اختلافًا كثيرا .

١٧٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:١٨٣] استثنى القليل على التقدير انتفاء الفضل والرحمة ، مع أنه لولا فضله بالهداية والعصمة ورحمته لاتبع الكل الشيطان من غير استثناء ؟

قلنا : الاستثناء راجع إلى ما تقدم ، تقديره : أذاعوا به إلا قليلا ، وقيل: لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا ، وقيل معناه : ولولا فضل الله عليكم بإرسال الرسل لاتبعتم الشيطان فى الكفر والضلال ، إلا قليلا منكم كانوا يهتدون بعقولهم إلى معرفة الله تعالى وتوحيده ، كقس بن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما قبل بعث النبى عليه الصلاة والسلام .

١٧٤ - فإن قيل : على الجواب الأخير إذا كان المراد أن من لوازم نفى الفضل والرحمة بالطريق الخاص ، وهو بإرسال الرسل ، اتباع الشيطان ، ونفى الفضل والرحمة بالطريق الخاص معلوم فى حق الرسول ، لأنه لم يرسل إليه رسول ومع هذا لم يتبع الشيطان .

قلنا : لا نسلم لأنه لم يرسل إليه رسول ، بل أرسل إليه الملك وأنه رسول .

الثانى : التقييد فى الفضل والرحمة بتعيين الطريق يكون فى حق الأمة أما فى حق الرسل ومن آمن بغير رسول يكون اللفظ باقيًا على ظاهره .

١٧٥ – **فإن قيل** : هذه الآية تقتضى وجود فضله ورحمته المانع من اتباع أكثر الناس للشيطان مع أنّ الواقع خلافه ، فإن أكثر الناس كفرة ؛ يؤيده قوله ﷺ : «**الإسلام فى الكفر كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود**»(١) .

قلنا : الخطاب فى هذه الآية للمؤمنين لا لكل الناس .

١٧٦ – **فإن قيل** : إذا كان الخطاب خاصًا للمؤمنين ، فما معنى الاستثناء ، فإنه إن كان المراد به اتباعه فيما يدعو إليه ويوسوس من المعاصى فأكثر المؤمنين متبعون له فى ذلك ولو فى العمرة مرة واحدة فى بعض الكبائر ، وإن كان المراد به اتباعه فى دعائه إلى الكفر فأحد من المؤمنين لم يتبعه فى الكفر .

قلنا : معناه : ولولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون ورحمته بالهداية بالرسول ، لاتبعتم الشيطان فى الكفر وعبادة الأصنام وغير ذلك ، إلا قليلاً منكم كقس ابن ساعدة وورقة بن نوفل ونحوهما ، فإنهم لولا الفضل والرحمة بالرسول لما اتبعوا الشيطان لفضل ورحمة خصهم الله تعالى بها غير إرسال الرسول وهو زيادة الهداية ونور البصيرة .

١٧٧ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء:٨٧] مع أنه لا تفاوت بين صدق وصدق فى كونه صدقًا كما فى القول والعلم ، لا يقال هذا القول أقول ولا هذا العلم أعلم ولا هذا الصدق أصدق لأن الصدق عبارة عن الإخبار المطابق للواقع ، ومتى ثبت أنه مطابق للواقع لا يحتمل الزيادة والنقصان ؟

قلنا : أصدق هنا صفة للقائل لا صفة للقول ، والقائلان يتفاوتان فى

---

(١) البخاري (٤٧٤١) ، ومسلم (٢٢١) .

الصدق فى نفس الأمر وإن تساويا فى قصة واحدة أخبرا بها وكان كل واحد منهما صادقًا فيها ، وحاصله أن هذا استفهام معناه النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥] ومعناه : لا أحد يغفرها إلا الله ، فمعناه هنا ، لا أحد أصدق فى حديثه من الله ، فيكون ترجيحًا للمحدث على المحدث فى الصدق ، لا ترجيحًا لأحد الصدقين على الآخر ، ولاشك أنه لا أحد أصدق فى حديث من الله لأن غيره يجوز عليه غير الصدق عقلاً ، ويقع منه أيضًا ولو نادرًا ، والله تعالى منزه عن الأمرين جميعًا .

١٧٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾ [النساء:٩١] يقال : ركسه وأركسه ، أى : رده ، فيصير معناه كلما ردوا إلى الفتنة ردوا فيها وهو تكرار .

قلنا : جوابه أن الفاعل مختلف فانتفى التكرار وصار المعنى : كلما دعاهم قومهم إلى الشرك ردهم الله إليه وقلبهم بشؤم نفاقهم ، فالرد الأول بمعنى الدعاء ، والركس بمعنى الرد والنكس .

١٧٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢] مع أنه ليس له أن يقتله خطأ ؟

قلنا : إلا بمعنى "ولا" وكما فى قوله تعالى : ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل:١٠، ١١] وقوله تعالى : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٥٠]، الثانى معناه أنه ليس له أن يقتله مع تيقن إيمانه، بل له أن يقتله إذا غلب على ظنه أنه ليس بمؤمن ، وهو فى صف المشركين وإن كان فى نفس الأمر مؤمنًا .

١٨٠ - فإن قيل : كيف يقال : إن أهل الكبائر من المؤمنين لا يخلدون فى النار والله تعالى يقول : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] ؟

قلنا : معناه متعمدًا قتله بسبب إيمانه ، والذى يفعل ذلك يكون كافرًا .

الثانى : أن المراد بالخلود طول المكث ، لأن الخلود إذا لم يكن بالأبدية يطلق على طول المكث ، كما يقال : خلد السلطان فلانًا فى الحبس ، إذا أطال حبسه .

١٨١ – فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ [النساء:٩٥] ثم قال : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ ﴾ [النساء:٩٥، ٩٦] ؟

قلنا : المراد الأول التفضيل على القاعدين عن الغزاة بعذر ، فإن لهم فضلاً لكونهم مع الغزاة بالهمة والعزيمة والقصد الصالح ، ولهذا قال : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء:٩٥] يعنى الجنة ، أى من المجاهدين والقاعدين بعذر ، والمراد بالثانى التفضيل على القاعدين عن الغزاة بغير عذر ، وأولئك لا فضل لهم ، بل هم مقصرون ومسيئون ، فظهر فضل الغزاة عليهم بدرجات لانتفاء الفضل لهم .

١٨٢ – فإن قيل : كيف صح قولهم : ﴿ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء:٩٧] جوابًا لقول الملائكة : ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾ مع أنه ليس مطابقًا للسؤال ، والجواب المطابق أن يقولوا: كنا فى كذا أو لم نكن فى شىء ؟

قلنا : معنى فيم كنتم : التوبيخ بأنهم لم يكونوا فى شىء من الدين حيث قدروا على المهاجرة ولم يهاجروا ، فصار قوله : ﴿ فِيمَ كُنتُمْ ﴾. مجازًا عن قوله : لم تركتم الهجرة ؟ فقالوا : كنا مستضعفين ، اعتذار عما وبخوا به تعللا ، فردت عليهم الملائكة ذلك بقولهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ [النساء:٩٧] يعنى أنكم إن كنتم عاجزين عن الهجرة إلى المدينة لبعدها عليكم كنتم قادرين على الخروج من مكة إلى بعض البلاد القريبة منكم التى تقدرون فيها على إظهار دين الإسلام .

١٨٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١٠٠] أى وجب ، والعبد لايستحق على مولاه أجراً، لأنه ليس بأجير له ، إنما هو عبد قنّ؟

قلنا : معناه وجب من جهة أنه وعد عباده أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، والخلف فى وعده عز وجل محال ، فالوجوب من هذه الجهة ، مع أن ذلك الوعد ابتداء فضل منه .

١٨٤ - فإن قيل : كيف شرط فى إباحة القصر للمسافر خوف العدو بقوله: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النساء:١٠١] الآية ، والقصر جائز مع أمن المسافر ؟

قلنا : خرج ذلك مخرج الغالب لا مخرج الشرط ، وغالب أسفار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وأصحابه لم تخل من خوف العدو ، فصار نظير قوله تعالى : ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور:٢٣] .

الثانى : أن الكلام قد تم عند قوله تعالى : ﴿أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ وقوله : ﴿ إِنْ خِفْتُمْ﴾ كلام مستأنف ، وجوابه محذوف تقديره ، فاحتاطوا أو تأهبوا .

الثالث : أن المراد به القصر من شروطها وأركانها حالة اشتداد الخوف بترك الركوع والسجود والنزول عن الدابة واستقبال القبلة ونحو ذلك ، لا من عدد الركعات، وذلك القصر مشروط بالخوف .

١٨٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] وكان لفظ دالاً على المعنى ، والصلاة فى الحال وإلى يوم القيامة أيضًا على المؤمنين فرض مؤقت ؟

قلنا : ﴿ كَانَ ﴾ فى القرآن العزيز على خمسة أوجه : كان بمعنى الأزل والأبد كما فى قوله تعالى : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٤] ، وكان بمعنى المضىّ المنقطع كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ [النمل:٤٨] وهو الأصل فى معانى كان كما تقول: كان زيد صالحًا أو فقيرًا أو مريضًا ونحو ذلك،

وكان بمعنى الحال كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء:١٠٣] . وكان بمعنى الاستقبال كما فى قوله تعالى: ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان:٧] . وكان بمعنى : صار كما فى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [النساء:١٠٤] .

١٨٦ – فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء:١٠٤] والكافرون أيضًا يرجون الثواب فى محاربة المؤمنين ، لأنهم يعتقدون أن دينهم حق ، وأنهم ينصرون دين الله ويذبّون عنه ، ويقاتلون أعداءه ، كما يعتقد المؤمنون ، فالرجاء مشترك ؟

قلنا : قيل : إن الرجاء هنا بمعنى الخوف كما فى قوله تعالى : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح:١٣] وقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية:١٤] .

وقول الشاعر :

* إذا لسعتْه النحلُ لمْ يرجُ لسْعَها [1] *

وعلى قول من قال إنه بمعنى الأمل تقول : قد بشر الله المؤمنين فى القرآن ووعدهم بإظهار دينهم على الدين كله ، ومثل هذه البشارة والوعد لم يوجد فى سائر الكتب فافترقا ، وقيل : الرجاء ما يكون مستندًا إلى سبب صحيح ومقدمات حقه ، والطمع ما يكون مستندًا إلى خلاف ذلك ، فالرجاء للمؤمنين، وأما الكافرون فلهم طمع لا رجاء .

١٨٧ – فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بعد قوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ [النساء:١١] وظلم النفس من عمل السوء ، فلم لم يقتصر على

(١) أي لم يهتم بلسعها .

الأول مع أن الثانى داخل فيه ؟

قلنا : أو بمعنى الواو فمعناه ويظلم بذلك السوء حيث دساها بالمعصية ، وقيل : المراد بعمل السوء التلبس بها دون الشرك ، وبظلم النفس الشرك ، وقيل: المراد بعمل السوء الذنب المتعدى ضرره إلى الغير ، وبظلم النفس : الذنب المقتصر ضرره على فاعله .

١٨٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء:١١٣] ظاهره نفى وجود الهم منهم بإضلاله ، والمنقول فى التفاسير أنهم هموا بإضلاله ، وزادوا على الهم الذى هو القصد القول المضل أيضًا يعرف ذلك من تفسير أول القصة وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:١٠٥، ١٠٦] ؟

قلنا : قوله : ﴿ لَهَمَّت ﴾ ليس جواب : ﴿ لَوْلَا ﴾ بل هو كلام مقدم على لولا ، وجوابها فى التقدير مقول على طريق القسم ، وجواب: ﴿ لَوْلَا ﴾ محذوف تقديره : لقد همت طائفة منهم أن يضلوك ولولا فضل الله عليك ورحمته لأضلوك.

١٨٩ - **فإن قيل** : النجوى فعل ومن اسم ، فكيف صح استثناء الاسم من الفعل فى قوله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ﴾ [النساء:١١٤]؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : إلا نجوى من أمر بصدقة ، فيكون استثناء الفعل من الفعل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ﴾ [البقرة:١٧٧] تقديره : برّ من آمن بالله .

١٩٠ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَمَرَ ﴾ [النساء:١١٤] ثم قال :

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ [النساء:١١٤] ؟

قلنا : ذكر الأمر بالخير ليدل على خيرية الفاعل بالطريق الأولى ، ثم ذكر الفاعل ووعده الأجر العظيم إظهارًا لفضل الفاعل المؤتمر على الآمر ، الثانى أنه أراد : ومن يأمر بذلك ، فعبر عن الأمر بالفعل كما يعبر به عن سائر أنواع الفعل ، وإذا كان الآمر موعودًا بالأجر العظيم كان الفاعل موعودًا به بطريق الأولى .

١٩١ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [النساء:١١٧] أى ما يعبدون ، من دون الله إلا اللات والعزى ومناة ونحوها وهى مؤنثة ، ثم قال : ﴿وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا﴾ [النساء:١١٧] أى ما يعبدون إلا الشيطان ؟

قلنا : معناه أن عبادتهم للأصنام هى فى الحقيقة عبادة للشيطان ، إما لأنهم أطاعوا الشيطان فيما سول لهم وزين من عبادة الأصنام بالإغواء ، والإضلال ، أو لأن الشيطان موكل بالأصنام يدعو الكفار إلى عبادتهم شفاها ويتزيا للسدنة فيكلمهم ليضلهم .

١٩٢ - **فإن قيل** : كيف يقال : إن العبد يحكم بكونه من أهل الجنة بمجرد الإيمان ، والله تعالى شرط لذلك العمل الصالح بظاهر قوله : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [النساء:٥٧] وقوله : ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النساء:١٢٤] وإلا لما كان للتقييد فائدة ؟

قلنا : قيل : إن المراد بالعمل الصالح الإخلاص فى الإيمان ، وقيل : الثبات عليه إلى الموت ، وكلاهما شرط فى كون الإيمان سببًا لدخول الجنة .

١٩٣ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]

والتائب المقبول التوبة غير مجزى بعمله ، وكذلك عن عمل سيئة ثم أتبعها حسنة ، لأنها مذهبة لها وماحية بنص القرآن؟

قلنا : المراد من يعمل سوءًا ويمت مصرّا عليه ، فإن تاب منه لم يجز به ، والثانى أن المؤمن يجازى فى الدنيا بما يصيبه فيها من المرض وأنواع المصائب ، والمحن كما جاء فى الحديث ، والكافر يجازى فى الآخرة .

١٩٤ - فإن قيل : كيف خص المؤمنين الصالحين بأنهم لا يظلمون بقوله : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾[النساء:١٢٤] الآية مع أن غيرهم لا يظلم أيضًا؟

قلنا : قوله : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤] راجع إلى الفريقين : عمال السوء وعمال الصالحات لسبق ذكر الفريقين .

الثانى : أن يكون من باب الإيجاز والاختصار فاكتفى بذكره عقب الجملة الأخيرة عند ذكر أحد الفريقين لدلالته على إضماره عقب ذكر الفريق الآخر ، ولا يظلم المؤمنون بنقصان أعمالهم ، ولا الكافرون بزيادة عقاب ذنوبهم .

الثالث : أن المراد بالظلم نفى نقصان ثواب الطاعات ، وهذا مخصوص بالمؤمنين ، لأن الكافرين ليس لهم على أعمالهم ثواب ينقص منه.

١٩٥ - فإن قيل : طلب الإيمان من المؤمنين تحصيل حاصل ، فكيف قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [النساء:١٣٦] الآية ؟

قلنا : معناه : يا أيها الذين آمنوا بعيسى آمنوا بالله ورسوله محمد .

وقيل معناه : يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق آمنوا الآن .

وقيل معناه : يا أيها الذين آمنوا علانية آمنوا سرًا .

١٩٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾ [النساء:١٤١] لم سمى ظفر

المؤمنين فتحا وظفر الكافرين نصيبًا ؟

قلنا : تعظيماً لشأن المؤمنين وتحقيرًا لحظ الكافرين ، لأن ظفر المسلمين أمر عظيم ، لأنه متضمن نصرة دين الله وعزة أهله و تفتح له أبواب السماء، حتى ينزل على أولياء الله ، وظفر الكافرين ليس إلا حظًا دنيئًا وعرضًا من متاع الدنيا يصيبونه وليس بمتضمن شيئًا مما ذكرنا .

١٩٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ لَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء:١٤١] وقد نصر الكافرين على المؤمنين يوم أحد ، وفي غيره أيضًا إلى يومنا هذا ؟

قلنا : المراد به السبيل بالحجة والبرهان ، والمؤمنون غالبون بالحجة دائماً .

١٩٨ - **فإن قيل** : كيف كان المنافق أشد عذابًا من الكافر حتى قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء:١٤٥] مع أن المنافق أحسن حالاً من الكافر ، بدليل أنه معصوم الدم وغيره محكوم عليه بالكفر ، ولهذا قال الله تعالى فى حقهم : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ فلم يجعلهم مؤمنين ولا كافرين ؟

قلنا : المنافق وإن كان فى الظاهر أحسن حالاً من الكافر إلا أنه عند الله فى الآخرة أسوأ حالاً منه لأنه شاركه فى الكفر وزاد عليه الاستهزاء بالإسلام وأهله والمخادعة لله وللمؤمنين .

١٩٩ - **فإن قيل** : الجهر بالسوء غير محبوب لله تعالى أصلاً ، بل المحبوب عنده العفو والصفح والتجاوز فكيف قال : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء:٦] ، أى إلا جهر من ظلم .

قلنا : معناه ولا جهر من ظلم ، فإن بمعنى : ﴿ وَلَا ﴾ قد سبق نظيره

وشاهد فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء:٩٢] .

٢٠٠ - **فإن قيل** : كيف يجوز دخول «بين» على «أحد» فى قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [النساء:١٥٢] وبين تقتضى اثنين فصاعدا ، يقال : فرقت بين زيد وعمر وبين القوم، ولا يقال : فرقت بين زيد ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى قوله تعالى : ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٦٨] وفى آخر سورة البقرة أيضًا .

٢٠١- **فإن قيل** : ما فائدة إعادة الكفر فى الآية الثانية بقوله تعالى : ﴿وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء:١٥٦] بعد قوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٥] الآية .

٢٠٢ - **فإن قيل** : لأنه قد تكرر الكفر منهم ، فإنهم كفروا بموسى وعيسى عليهما السلام ، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام ، فعطف بعض كفرهم على بعض.

٢٠٣ - **فإن قيل** : اليهود كانوا كافرين بعيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة ، فكيف أقروا أنه رسول الله ﷺ بقولهم : ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧] ؟

قلنا :.قالوه على طريق الاستهزاء كما قال فرعون : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء:٢٧] .

٢٠٤ - **فإن قيل** : كيف وصفهم ، بالشك بقوله : ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [النساء:١٥٧] ثم وصفهم بالظن بقوله : ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ [النساء:١٥٧] والشك تساوى الطرفين ، والظن رجحان أحدهما ،

فكيف يكونون شاكين ظانين ، وكيف استثنى الظن من العلم وليس الظن فردًا من أفراد العلم بل هو قسيمه ؟

قلنا : استعمل الظن بمعنى الشك مجازًا لما بينهما من المشابهة فى انتفاء الجزم، وأما استثناء الظن من العلم فهو استثناء من غير الجنس ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ﴾ [مريم:٦٢] وقيل لأن المراد بالشك هنا ما يشمل الظن ، واستثناء الظن من العلم فى الآية منقطع ، فـ «إلاّ» فيها بمعنى "لكن" كما فى قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة:٢٥، ٢٦] وما يشابهه .

٢٠٥ – فإن قيل : كيف يكون الناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه لهم من الأدلة العقلية الموصلة إلى معرفته حتى قال : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥] ؟

قلنا : الرسل والكتب منبهة من الغفلة ، وباعثة على النظر فى أدلة العقل، ومفصلة لمجمل الدنيا وأحوال التكليف التى لا يستقل العقل بمعرفتها، فكان إرسالهم إزاحة للعلة وتتميمًا لإلزام الحجة ، لئلا يقولوا : ﴿ لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ [طه:١٣٤] فيوقظنا من سنة الغفلة وينبهنا لما وجب الانتباه له .

٢٠٦ – فإن قيل : كيف قال : ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء:١٦٦] ولم يقل : أنزله بقدرته أو بعلمه وقدرته، مع أن الله تعالى لا يفعل إلا عن علم وقدرة ؟

قلنا : معناه أنزله متلبسًا بعلمه : أى عالمًا به ، أو وفيه علمه ، أى معلومه ، أو معلمه من الشرائع والأحكام ، وقيل معناه : أنزله عليك بعلم منه ، وأنك أولى بإنزاله عليك من سائر خلقه .

٢٠٧ – فإن قيل : كلام الله صفة قديمة قائمة بذاته ، وعيسى عليه الصلاة والسلام مخلوق ، فكيف صح إطلاق الكلمة عليه فى قوله تعالى : ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾ [النساء:١٧١]؟

قلنا : معناه أن وجوده فى بطن أمه كان بكلمة الله تعالى ، وهو قوله : ﴿كن﴾ من غير واسطة أب ، بخلاف غيره من البشر سوى آدم ، وقيل : المراد بالكلمة الحجة .

٢٠٧ - فإن قيل على الوجه الأول : لو كان صحة إطلاق الكلمة على عيسى صلوات الله على نبينا وعليه لهذا المعنى لصح إطلاقها على آدم عليه الصلاة والسلام ، لأن هذا المعنى فيه أتم وأكمل ، لأنه وجد بهذه الكلمة من غير واسطة أب ولا أم أيضًا .

قلنا : لا نسلم أنه لا يصح إطلاقها عليه لهذا المعنى ، بل يصح .

٢٠٨ - فإن قيل : لو صح إطلاقها عليه لجاء به القرآن كما جاء فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام .

قلنا : خص ذلك بعيسى لأن المجىء فى حق عيسى عليه الصلاة والسلام إنما كان للرد على من افترى عليه وعلى أمه ونسبه إلى أب ، ولم يوجد من المعنى فى حق آدم عليه الصلاة والسلام لاتفاق الناس كلهم على أنه غير مضاف إلى أب ولا إلى أم .

*** *** ***

سورة المائدة

٢٠٩ – **فإن قيل** : كيف الارتباط والمناسبة بين قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة:١] وقوله : ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة:١] ؟

قلنا : المراد بالعقود عهود الله عليهم فى تحليل حلاله وتحريم حرامه ، فبدأ بالمجمل ثم أتبعه بالمفصل من قوله : ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة:١] وقوله بعده : ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة:٣] الآية .

٢١٠ – **فإن قيل** : ما أكله السبع وعدم وتعذر أكله ، فكيف يحسن فيه التحريم ، حتى قال : ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ [المائدة:٣] ؟

قلنا : معناه وما أكل منه السبع ، يعنى الباقى بعد أكله .

٢١١ – **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣] يدل من حيث المفهوم عرفًا على أنه لم يرض لهم الإسلام دينًا قبل ذلك اليوم ، وليس كذلك ،فإن الإسلام لم يزل دينًا مرضيًا للنبى ﷺ وأصحابه عند الله منذ أرسله عليه الصلاة والسلام ؟

قلنا : قوله : ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ ظرف للجملتين الأوليين لا للجملة الثالثة ، لأن الواو الأولى للعطف والثانية للابتداء ، فالجملة الثالثة مطلقة غير مؤقتة .

٢١٢ – **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمۡۖ قُلۡ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة:٤] كيف صلح جوابًا لسؤالهم والطيبات غير معلومة ولا متفق عليها لأنها تختلف باختلاف الطباع والبقاع ؟

قلنا : المراد بالطيبات هنا الذبائح ، والعرب تسمى الذبيحة طيبًا ، وتسمى الميتة خبيثًا ، فصار المراد معلومًا ، لكنه عام مخصوص كغيره من العمومات .

٢١٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله : ﴿ مُكَلِّبِينَ ﴾ بعد قوله : ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ ﴾ [المائدة:٤] والمكلب هو المعلم من كلاب الصيد .

قلنا : قد جاء فى تفسير المكلب أيضًا أنه المضرى للجارح والمغرى له ، فعلى هذا لا يكون تكرارًا ، وعلى القول الأول يقول : إنما عمّ ثم خصص فقال مكلبين بعد قوله : ﴿وَمَا عَلَّمْتُم ﴾ لأن غالب صيدهم كان بالكلاب، فأخرجه مخرج الغالب الواقع منهم .

٢١٤ - فإن قيل : ظاهر قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ يقتضى إباحة الجوارح المعلمة وهى حرام.

قلنا : فيه إضمار وتقديره ، مصيد ما علمتم من الجوارح ، ويؤيده ما فى تمام الكلام من قوله : ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

٢١٥ - فإن قيل : المؤمن به هو الله لقوله تعالى:﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٦] فالمكفور به يكون هو الله أيضًا ، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٢٨] وإذا ثبت هذا فكيف قال:﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [المائدة:٥] مع أنه لا يصح أن يقال آمن بالإيمان فكذلك ضده.

قلنا : المراد به ، ومن يرتد عن الإيمان ، يقال كفر فلان بالإسلام إذا رأى عنه ، فكفر بمعنى ارتد لأن الردة نوع من الكفر ، والباء بمعنى "عن" كما فى قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج:١] وقوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان:٥٩] وقيل : المراد هنا بالإيمان المؤمن به تسمية للمفعول بالمصدر، كما فى قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ أى مصيده ، وقولهم : ضرب الأمير ونسج اليمن .

٢١٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٩] ولم يقل : وعملوا السيئات ، مع أن الغفران يكون لفاعل السيئات لا لفاعل الحسنات ؟

قلنا : كل واحد لا يخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة ، وإن كان ممن يعمل الصالحات ، وهى الطاعات ، والمعنى : أن من آمن وعمل الحسنات غفرت له سيئاته ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] .

٢١٧ - فإن قيل : كيف قال فى آخر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ الآية : ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة:١٢] مع أن الذى كفر قبل ذلك فقد ضل سواء السبيل ؟

قلنا : نعم ولكن الضلال بعد ما ذكر من النعم أقبح ، لأن قبح الكفر بقدر عظيم النعم المكفورة ، فلذلك خصه بالذكر .

٢١٨ - فإن قيل: كيف قال: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ﴾ [المائدة:١٤] ولم يقل ومن النصارى؟

قلنا : لأن هؤلاء كانوا كاذبين فى دعواهم أنهم نصارى ، وذلك أنهم إنما سموا أنفسهم نصارى ادعاء لنصرة الله تعالى ، وهم الذين قالوا لعيسى : نحن أنصار الله ، ثم اختلفوا بعده نسطورية ويعقوبية وملكانية أنصارًا للشيطان ، فقال ذلك توبيخًا لهم .

٢١٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [المائدة:١٥] مما كتمتموه من الكتاب فلا يظهره ولا يبين كتمانكم إياه ، فكيف يجوز للنبى ﷺ أن يمسك عن إظهار حق كتموه مما فى كتبهم ؟

قلنا : إنما لم يبين البعض لأنه كان يتبع الأمر ولا يفعل شيئًا من الأمور الدينية من تلقاء نفسه بل اتباعًا للوحى ، فما أمر ببيانه بينه ، وما لم يؤثر ببيانه أمسك عنه إلى وقت أمره ببيانه ، وعلى هذا الجواب يكون لفظ العفو مجازًا عن الترك ، فيكون قد أعلمه الله به وأطلعه عليه ولم يأمره ببيانه لهم فترك تبيانه لهم ، الثانى أن ما كان فى بيانه إظهار حكم شرعى كصفته ونعته والبشارة به ، وآية الرجم ونحوها بينه ، وما لم يكن فى بيانه حكم شرعى ، ولكن فيه افتضاحهم وهتك أستارهم فإنه عفا .

الثالث : أن عقد الذمة اقتضى تقريرهم على ما بدلوا وغيروا من دينهم ، إلا ما كان فى إظهاره معجزة له وتصديقًا لنبوته من نعته وصفته ، أو ما اختلفوا فيه فيما بينهم وتحاكموا إليه فيه ، كحكم الزنى ونحوه .

٢٢٠ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة:١٥، ١٦] مع أن العبد ما لم يهده الله أولا لا يتبع رضوانه فيلزم الدور ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : يهدى به الله من علم أنه يريد أن يتبع رضوانه، كما قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ أى : والذين أرادوا سبيل المجاهدة فينا لنهدينهم سبل مجاهدتنا .

٢٢١ - **فإن قيل** : لم نر ولم نسمع أن قوما من اليهود والنصارى قالوا : نحن أبناء الله، فكيف أخبر الله تعالى عنهم بذلك ؟

قلنا : المراد بقولهم : أبناء الله خاصة الله ، كما يقال : أبناء الدنيا وأبناء الآخرة، وقيل فيه : إضمار تقديره : أبناء أنبياء الله .

٢٢٢ - **فإن قيل** : كيف يصح الاحتجاج عليهم بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة:١٨] مع أنهم ينكرون تعذيبهم بذنوبهم ، ويدعون أن

ما يذنبون بالنهار يغفر بالليل ، وما يذنبون بالليل يغفر بالنهار ؟

قلنا : هم كانوا مقرين أنه يعذبهم أربعين يومًا ، وهى مدة عبادتهم العجل فى غيبة موسى عليه السلام لميقات ربه ، ولذلك قالوا : ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] وقيل : أراد به العذاب الذى أوقعه ببعضهم فى الدنيا من مسخهم قردة كما فعل أصحاب السبت ، وخسف الأرض كما فعل بقارون ، وهذا لا ينكرونه ، وعلى هذا الوجه يكون المضارع بمعنى الماضى فى قوله : ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ [المائدة:٦] والإضافة إليهم بمعنى الإضافة إلى آبائهم ، كأنه قال : فلم عذب آباءكم .

٢٢٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة:١٨] إن أريد به يغفر لمن يشاء منكم أيها اليهود والنصارى ، ويعذب من يشاء ، يلزم جواز المغفرة لهم ، وإنه غير جائز لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وإن أريد به يغفر لمن يشاء من المؤمنين ويعذب من يشاء من لا يصلح جوابًا لقولهم؟

قلنا : المراد به يغفر لمن يشاء منهم إذا تاب من الكفر ، وقيل : يغفر لمن يشاء ممن خلق ، وهم المؤمنون ، ويعذب من يشاء وهم المشركون .

٢٢٤ - فإن قيل : كيف قيل : ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة:٢٠] ولم يكن قوم موسى عليه السلام ملوكًا؟

قلنا : المراد جعل فيكم ملوكًا ، وهم ملوك بنى إسرائيل ، وهم اثنا عشر ملكًا ، لاثنى عشر سبطًا ، لكل سبط ملك ، وقيل : المراد به أنه رزقهم الصحة والكفاية والزوجة الموافقة ، والخادم والبيت ، فسماهم ملوكًا لذلك ، وقيل : المراد به أنه رزقهم المنازل الواسعة التى فيها المياه الجارية .

٢٢٥ - فإن قيل : من أين علم الرجلان أنهم الغالبون حتى قالا : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ﴾ [المائدة:٢٣] ؟

قلنا : من جهة وثوقهم بإخبار موسى ﷺ بذلك بقوله : ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٢١] وقيل : علما ذلك يغلبه الظن ، وما عهداه مع صنع الله تعالى بموسى عليه الصلاة والسلام فى قهر أعدائه .

٢٢٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة:٢٣] يدل على أن من لم يتوكل على الله لا يكون مؤمنًا ، وإلا لضاع التعليق، وليس كذلك ؟

قلنا : "إن" هنا بمعنى إذا ، فتكون بمعنى التعليل كما فى قوله تعالى : ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] .

٢٢٧ - فإن قيل : كيف التوفيق بين قوله تعالى : ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة:٢١] وبين قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٢٦]؟

قلنا : معناه كتبها لكم بشرط أن تجاهدوا أهلها ، فلما أبوا الجهاد قيل : فإنها محرمة عليهم .

الثانى : أن كل واحد منهما عام أريد به الخاص ، فالكتابة للبعض وهم المطيعون ، والتحريم على البعض وهم العاصون .

الثالث : أن التحريم موقت بأربعين سنة ، والكتابة غير موقتة ، فيكون المعنى أن بعد مضى الأربعين يكون لهم ، وهذا الجواب تام على قول من نصب الأربعين بمحرمة ، وجعلها ظرفًا ، فأما من جعل الأربعين ظرفًا لقوله : ﴿يَتِيهُونَ﴾ [المائدة:٢٦] مقدمة عليه ، فإنه جعل التحريم مؤبدًا ، فلا يتأتى على قوله هذا الجواب ، لأن التقدير عنده، فإنها محرمة عليهم أبدًا يتيهون فى الأرض

أربعين سنة ، وهو موضع قد اختلف فيه المفسرون ، والفراء من جملة من جوز نصب الأربعين بمحرم ويتيهون ، والزجاج من جملة من منع جواز نصبه بمحرمة ، ونقل أن التحريم كان مؤبدًا ، وأنهم لم يدخلوها بعد الأربعين ، ونقل غيره أنه دخلها بعد الأربعين من بقى منهم وذرية من مات منهم ، ويعضد الوجه الأول كون الغالب فى الاستعمال تقدم الفعل على الظرف الذى هو عدد لا تأخره عنه ، يقال : سافر زيد أربعين يومًا وما أشبه ذلك ، وقلما يقال على العكس .

٢٢٨ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة:٢٧] ولم يقل قربانين، لأن كل واحد منهما قرب قربانًا ؟

قلنا : أراد به الجنس فعبر عنه بلفظ الفرد كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ .

الثانى : أن العرب تطلق الواحد وتريد الاثنين ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] ، وقال الشاعر :

*** فإنى وقيار بها لغريب ***

تقديره فإنى بها لغريب وقيار كذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ ﴾ [البقرة:٦٢] الآية ، وقيل : إنما أفرده لأن فعلاً يستوى فيه الواحد والمثنى والمجموع .

٢٢٩ - **فإن قيل** : صلح قوله : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] جوابه لقوله : ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة:٢٧] .

قلنا : لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذى حمله على توعده بالقتل قال له ذلك كناية عن حقيقة الجواب وتعريضًا ، معناه إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى لا منى ، فلم تقتلنى ؟

٢٣٠ - **فإن قيل** : كيف قال هابيل لقابيل : ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ ﴾ [المائدة:٢٩] أى تنصرف بهما ، مع أن إرادة السوء والوقوع في المعصية للأجنبى حرام ، فكيف للأخ ؟

قلنا : فيه إضمار حرف النفى تقديره ، إنى أريد أن لا تبوء بإثمى وإثمك كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل:١٥] أى أن لا تميد بكم وقوله تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف:٨٥] وقول امرئ القيس [١] :

*** فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ***

الثانى : أن فيه حذف مضاف تقديره : إنى أريد انتفاء أن تبوء بإثمى وإثمك كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡ ﴾ [البقرة:٩٣] أى حب العجل .

الثالث : أن معناه: إنى أريد ذلك إن قتلتنى ، لا مطلقًا .

الرابع : أنه كان ظالمًا ، وجزاء الظالم تحسن إرادة من الله تعالى فتحسن من العبد أيضًا .

٢٣١ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ [المائدة:٣١] يدل على أن قابيل كان تائبًا لقوله عليه الصلاة والسلام "**والندم والتوبة**" [٢] فلا يستحق النار .

قلنا : لم يكن ندمه على قتل أخيه ، بل على حمله على عنقه سنة ، أو على عدم اهتدائه إلى الدفن الذى تعلمه من الغراب ، أو على فقد أخيه لا على المعصية ، ولو سلمنا أن ندمه كان على قتل أخيه ، ولكن يجوز أن الندم لم يكن

---

(١) هو حندج بن حجر أمير شعراء العصر الجاهلى ويعرف بالملك الضليل أو بذى القروح.
(٢) صحيح بشواهده : أحمد (١/ ٥٨) ، والحاكم (٤/ ٢٧١) ، وابن حبان (٦١٢).

توبة فى شريعتهم ، بل فى شريعتنا ، أو نقول : التوبة تؤثر فى حقوق الله تعالى ، لا فى حقوق العباد ، والدم من حقوق العباد فلا تؤثر فيه التوبة .

٢٣٢ - فإن قيل : كيف يكون قتل الواحد كقتل الكل ، وإحياء الواحد كإحياء الكل ، والدليل يأباه من وجهين ، أحدهما أن الجناية كلما تعددت وكثرت كانت أقبح فتناسب زيادة الإثم والعقوبة ، هذا هو مقتضى العقل والحكمة .

الثانى: أن المراد بهذا التشبيه إما أن يكون تساوى قتل الواحد والكل فى الإثم والعقوبة، أو تقاربهما ، وإنما كان يلزم منه أنه إذا قتل الثانى أو الثالث وهلم جرا، أن لا يكون عليه إثم آخر ، ولا يستحق عقوبة أخرى لأنه أَثِم إِثْم قتل الكل واستحق عقوبة قتل الكل بمجرد قتل الأول أو الأول والثانى ، لأن قتل الواحد إذا كان يساوى قتل الكل أو يقاربه ، فقتل الاثنين يجعل عليه إثم قتل الكل وعقوبة قتل الكل ، فكيف يزداد بعد ذلك بقتل الثالث والرابع وهلم جرا، ولو قتل الكل لما ازداد عن قتل الكل وعقوبة قتل الكل ، ولا يجوز أن يستحق بقتل الواحد أو الاثنين إثم قتل الكل ، وبقتل الكل إثم قتل الكل ؟

قلنا : أقرب ما قيل فيه إن المراد من قتل نفسًا واحدة بغير حق كان جميع الناس خصومه فى الدنيا إن لم يكن له ولى ، وفى الآخرة مطلقًا لأنهم من أب وأم واحدة ، وقيل : معناه من قتل نفسًا نبيًا وإمامًا عادلاً فهو كمن قتل الناس جميعًا من حيث إبطال المنفعة على الكل ، لأن منفعتهما عامة للكل ، وقيل: المراد بمن قتل هو قابيل ، فإن عليه من الإثم بمنزلة إثم قتل الكل لأنه أول من سن القتل فكل قتل يوجد بعده يلحقه شىء من وزره بغلبة التسبب لقوله عليه الصلاة والسلام "**من سن سنة حسنة**"[1] الحديث، وهذا أحسن فى المعنى ، ولكن اللفظ لا يساعد عليه ، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى

---

(١) مسلم (١٠١٧) .

﴿ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٦] لأن هذا المعنى إذا أريد به قابيل، لا تختص كتابته ببنى إسرائيل .

٢٣٣ - **فإن قيل** : كيف وجه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة:٣٣] الآية، وحقيقة المحاربة بين العبد والرب ممتنعة ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، يحاربون أولياء الله ، وقيل: أراد بالمحاربة المخالفة.

٢٣٤ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة:٣٦] ولم يقل بهما ، والمذكور شيئان ؟

قلنا : قد سبق جواب مثله قبيل هذا فى قوله : ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ [المائدة:٢٧]، وهنا جواب آخر ، وهو أن يكون وضع الضمير موضع اسم الإشارة ، كأنه قال ليفتدوا بذلك ، وذلك يشار به إلى الواحد والاثنين والجمع .

٢٣٥ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة:٤٢] وحال النبى عليه الصلاة والسلام مع أهل الكتاب لا يخلو عن هذين القسمين، لأنه إما أن يحكم بينهم أو يعرض عنهم ؟

قلنا : فائدته تخيير النبى عليه الصلاة والسلام بين الحكم بينهم وعدمه ، ليعلم أنه لا يجب عليه أن يحكم بينهم ، كما يجب عليه ذلك بين المسلمين إذا تحاكموا إليه ، وقيل : إن هذا التخيير منسوخ بقوله تعالى : ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة:٤٦] وهو القرآن يدل عليه أول الآية : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٨] فى الحكم بالتوراة .

٢٣٦ - **فإن قيل** : لما أنزل الله القرآن صار الإنجيل منسوخًا به ، فكيف قال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة:٤٧]؟

قلنا : هو عام مخصوص ، أى ما أنزل الله فيه صدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بعلاماته المذكورة فى الإنجيل ، وذلك غير منسوخ .

٢٣٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة:٤٩] مع أن الكفار معاقبون بكل ذنوبهم ؟

قلنا : أراد به عقوبتهم فى الدنيا ، وهو ما عجله من إجلاء بنى النضير وقيل: بنى قريظة ، وذلك جزاء بعض ذنوبهم ، لأنه جزاء منقطع ، وأما جزاؤهم على شركهم فهو جزاء دائم لا يتصور وجوده فى الدنيا .

وقيل: أراد بذلك البعض ذنب التولى عن الرضا بحكم القرآن ، وإنما أبهمه تفخيماً له وتعظيماً له .

٢٣٨ - فإن قيل : حسن حكم الله وصحته أمر ثابت على العموم بالنسبة إلى الموقنين وغير الموقنين ، فكيف قال : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠] ؟

قلنا : لما كانوا الموقنون أكثر انتفاعًا به من غيرهم ، بل هم المنتفعون به فى الحقيقة لا غير ، كانوا أخص به ، فأضيف إليهم ذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥] .

٢٣٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [المائدة:٥١] يقتضى أن يكون من وادّ أهل الكتاب وصادقهم كافرًا ، وليس كذلك لقوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [الممتحنة:٨] الآية ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ ﴾ [المائدة:٥١] المنافقون ، لأنها نزلت فى شأنهم وهم كانوا هم الكفار فى الدنيا ضميرًا واعتقادًا ، ومعناه أنه منهم فى الآخرة جزاء ، وعقابه أشد .

٢٤٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٥١] وكم من ظالم هداه الله تعالى ، فتاب وأقلع عن ظلمه ؟

قلنا : معناه لا يهديهم ما داموا مقيمين على ظلمهم ، الثانى : أن معناه لا يهدى من قضى فى سابق علمه أنه يموت ضالاً ، الثالث أن معناه لا يهدى القوم الظالمين يوم القيامة إلى طريق الجنة ، أى المشركين .

٢٤١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤] ولم يقل: أذلة للمؤمنين وإنما يقال : ذل له لا ذل عليه ؟

قلنا : لأنه ضمن الذل معنى الحنّو والعطف فعداه تعديته ، كأنه قال : حانين على المؤمنين عاطفين عليهم .

٢٤٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وكم مرة غلب حزب الله تعالى فى زمن النبى ﷺ وبعده إلى يومنا هذا؟

قلنا : المراد به الغلبة بالحجة والبرهان ، لا بالدولة والصولة ، وحزب الله هم المؤمنون ، غالبون بالحجة أبدًا .

٢٤٣ - فإن قيل : المثوبة مختصة بالإحسان ، فكيف قال : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٦٠] الآية ؟

قلنا : لا نسلم أن الثواب والمثوبة مختص بالإحسان ، بل هو الجزاء مطلقًا ، بدليل قوله تعالى : ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين:٣٦] أى هل جوزوا ، وقوله تعالى : ﴿فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران:١٥٣] وهو كلفظ البشارة، لا اختصاص له لغة بالخير السار ، بل هو عام شامل للشر ، قال الله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] .

٢٤٤ - فإن قيل : ما فائدة إرسال الكتاب والرسول إلى أولئك الكثيرين الذين قال فى حقهم : ﴿لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤] ؟

قلنا : فائدته إلزام الحجة عليهم .

الثاني : تبجيل الكتاب والرسول فإن الخطاب بالكتاب إذا كان عامًا ، والرسول إذ كان مرسلاً إلى الخلق كلهم ، كان ذلك أفخم وأعظم للرسول والمرسل .

٢٤٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة:٦٦] الآية يقتضى تعلق الرخاء وسعة الرزق بالإيمان بالكتاب والعمل بما فيه ، وليس كذلك فإن كثيرًا من المؤمنين بالكتب الأربعة العاملين بما فيها مما لم ينسخ ، عيشهم فى الدنيا منكد ، ورزقهم مضيق ؟

قلنا : هذا التعليق خاص فى حق أهل الكتاب ، لأنهم اشتكوا من ضيق الرزق حتى قالوا : ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] فأخبرهم الله تعالى أن ذلك التضييق عقوبة لهم بشؤم معاصيهم وكفرهم ، والله تعالى يجعل ضيق الرزق وتقديره نعمة فى حق بعض عباده ، ونقمة فى حق بعضهم ، وكذلك الرخاء والسعة ، فيعاقب بهما على المعصية ، ويثيب بهما على الطاعة ، ويختلف ذلك باختلاف أحوال الأشخاص ، فلا يلزم من توسيع الرزق الإكرام ، ولا من تضييقه الإهانة ولا يلزم عكسه أيضًا ، ولهذا رد الله تعالى ذلك بقوله : ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر:١٥] إلى قوله تعالى : ﴿كَلَّا﴾ [الفجر:١٧] أي : ليس الأمر كما ظن الإنسان وزعم من أن توسيع الرزق دليل الكرامة وتضييقه دليل الإهانة ، بل دليل الكرامة هو الهداية والتوفيق للطاعات، ودليل الإهانة هو الإضلال وحرمة التوفيق .

٢٤٦ - فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة:٦٧] ومعلوم أنه إذا لم يبلغ المنزل إليه لم يكن قد بلغ الرسالة؟

قلنا : المراد حثه على تبليغ ما أنزل عليه من معايب اليهود ومثالبهم ،

فالمعنى بلغ الجميع ، فإن كتمت منه حرفًا كنت فى الإثم والمخالفة كمن لم يبلغ شيئًا ألبتة ، فجعل كتمان البعض ككتمان الكل ، وقيل : أمر بتعجيل التبليغ كأنه ﷺ كان عازمًا على تبليغ جميع ما نزل إليه ، إلا أنه أخر تبليغ البعض خوفًا على نفسه وحذرًا مع عزمه على تبليغه فى ثانى الحال ، فأمر بتعجيل التبليغ، ويؤيد هذا القول قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] .

٢٤٧ - **فإن قيل** : كيف ضمن الله تعالى لرسوله العصمة بقوله : ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧] ثم إنه شج وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته ؟

قلنا : المراد به العصمة من القتل ، لا من جميع الأذى ، فإن جميع العصمة من جميع المكاره لا تناسب أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنهم جامعون مكارم الأخلاق ومن أشرف مكارم الأخلاق تحمل الأذى .

الثانى : أن هذه الآية نزلت بعد أحد ، لأن سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن .

٢٤٨ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠] مع أن بعض الظالمين وهم العصاة من المؤمنين يشفع فيهم النبى ﷺ يوم القيامة فيكون ناصرًا لهم ؟

قلنا : المراد بالظالمين هنا المشركون ، يعلم ذلك من أول الآية ووسطها .

٢٤٩ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧] بعد قوله : ﴿ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ ﴾ [المائدة:٧٧] ؟

قلنا : المراد بالضلال الأول ضلالهم عن الإنجيل ، وبالضلال الثانى ضلالهم عن القرآن .

٢٥٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة:٧٩] والنهى عن المنكر بعد فعله ووقوعه لا معنى له ؟

قلنا : فيه إضمار حذف مضاف تقديره : كانوا لا يتناهون عن معاودة منكر فعلوه ، أو عن منكر أرادوا فعله ، كما يرى الإنسان أمارات الخوض فى الفسق وآلاته تسوى وتهيأ فينكر ، ويجوز أن يريد بقوله : ﴿لَا يَتَنَاهَوْنَ﴾ لا ينتهون ولا يمتنعون عن منكر فعلوه ، بل يصرون عليه ويداومون ، يقال : تناهى عن الأمر وانتهى عنه بمعنى واحد ، أي امتنع عنه وتركه .

٢٥١ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٨١] والمراد بقوله منهم: المنافقون أو اليهود على اختلاف القولين ، وكلهم فاسقون ؟

قلنا : المراد به فسقهم بموالاة المشركين ودسّ الأخبار إليهم ، لا مطلق الفسق ، وذلك الفسق الخاص مخصوص بكثير منهم ، وهم المذكورون فى أول الآية فى قوله : ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ الآية [المائدة:٨٠] لا شامل لجميعهم .

٢٥٢ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المائدة:٩٠] وهذه الأعيان كلها مخلوقات لله تعالى ، فأين عمل الشيطان فى وجودها ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، إنما تعاطى الخمر والميسر إلى آخره أو مباشرته إلخ.

٢٥٣ – **فإن قيل** : مع هذا الإضمار كيف قال من عمل الشيطان ، وتعاطى الخمر والقمار ونحوهما من عمل الإنسان حقيقة ؟

قلنا : إنما أضيف إلى الشيطان مجازًا لأنه هو السبب فى وجود الفعل بواسطته ووسوسته وتزيينه ذلك للفساق فصار كما لو أغرى رجل رجلاً بضرب آخر فضربه ، فإنه يجوز أن يقال للمغرى هذا من عملك .

٢٥٤ – **فإن قيل** : كيف جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام فى الآية

الأولى ثم خص الخمر والميسر فى الآية الثانية ؟

قلنا : لأن العداوة والبغضاء بين الناس تقع كثيرًا بسبب الخمر والميسر وكذلك يشتغلون بهما عن الطاعة ، بخلاف الأنصاب والأزلام فإن هذه المفاسد لا توجد فيها ، وإن كانت فيها مفاسد أخر .

وقيل : إنما كرر ذكر الخمر والميسر فقط ، لأن الخطاب للمؤمنين ، بدليل قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [المائدة:٩٤] وهم إنما يتعاطون الخمر والميسر فقط ، وإنما جمع الأربعة فى الآية الأولى إعلامًا للمؤمنين أن هذه الأربعة من أعمال الجاهلية ، وإنه لا فرق بين من عبد صنمًا أو أشرك بالله تعالى بدعوى علم الغيب ، وبين من شرب الخمر أو قامر مستحلاً لهما .

٢٥٥ - **فإن قيل** : كيف يحسن أن يفعل الله تعالى فعلاً يتوسل به إلى تحصيل علم حتى قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] ؟

قلنا : معناه ليميز الله الخائف من غير الخائف عند الناس ، وقيل : معناه ليعلم عباد الله من يخافه بالغيب ، وهو قريب من الأول ، وقيل : معناه ليعلم الخوف واقعًا كما علمه منتظرًا .

٢٥٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] ووصف العمدية ليس بشرط لوجوب الجزاء ، فإنه لو قتله ناسيًا أو مخطئًا وجب الجزاء أيضًا ؟

قلنا : عند ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم لوصف العمدية شرط لوجوب الجزاء ، فلا يرد عليهم السؤال ، وأما على قول الجمهور فإنما قيده بوصف العمدية ، لأن الواقعة التى كانت سبب نزول الآية كانت عمدًا ، على ما يروى عن الصحابة أنه اعترض حمار وحش بالحديبية

وهم محرمون ، فطعنه أبو اليسر برمحه فقطعه ، فنزلت الآية ، فخرج وصف العمدية مخرج الواقع ، لا مخرج الشرط ، وقال الزهرى : نزل الكتاب بالعمد ، ووردت السنة بالوجوب فى الخطأ .

٢٥٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥] مع أن شرط بلوغه إلى الحرم لا غير ؟

قلنا : لما كان المقصود من بلوغ الهدى إلى الحرم تعظيم الكعبة ، ذكر الكعبة تنبيهًا على ذلك ، وقيل : معناه بالغ حرم الكعبة .

٢٥٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧] أى دلالة لهذه الأمور المذكورة على علم الله تعالى بما فى السموات وما فى الأرض وأنه بكل شىء عليم ؟

قلنا : ذلك إشارة إلى كل ما سبق ذكره من الغيوب فى هذه السورة من أحوال الأنبياء والمنافقين واليهود إلى المذكور فى هذه الآية .

الثانى : أن العرب كانت تسفك الدماء وتنهب الأموال ، فإذا دخل الشهر الحرام أو دخلوا إلى البلد الحرام كفوا عن ذلك ، فعلم الله تعالى أنه لو لم يجعل لهم زمانًا أو مكانًا يقتضى كفهم عن القتل ونهب الأموال لهلكوا ، فظهرت المناسبة .

٢٥٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [1] [المائدة:١٠٣] والجعل هو الخلق بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا

---

(١) **البحيرة** : كانت الناقة التى تلد عشرة أبطن يتركونها ترعى فى المرعى ولا ينتفعون بها .
السائبة : إذا ولدت خمسة أبطن فلا ترد عن حوض ولا علف .
الوصيلة : حين تلد ذكر أو أنثى أى وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر من أجلها .
الحام : تطلق على الفحل إذا ضرب عشرة أبطن يريدون أنه حمى ظهره .

زَوْجَهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] وخالق هذه الأشياء هو الله تعالى ؟

قلنا : المراد بالجعل هنا الإيجاب والأمر أى : ما أوجبها ، ولا أمر بها ، وقيل: المراد بالجعل التحريم .

٢٦٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] يدل على عدم وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهما واجبان ؟

قلنا : معنى قوله: ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾، أى أهل دينكم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة:٢٩] أى أهل دينكم .

وقيل : المراد به آخر الزمان عند فساد الزمان وتعذر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو زماننا هذا .

٢٦١ - **فإن قيل** : كيف يقول الرسل : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ [المائدة:١٠٩] إذا قال الله تعالى لهم : ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩] وهم عالمون بماذا أجيبوا ؟

قلنا : هذا جواب الدهشة والحيرة حين تطيش عقولهم من زفرة جهنم نعوذ بالله تعالى منها ، ومثله لا يفيد نفى العلم ولا إثباته .

الثاني : أنهم قالوا ذلك تعريضًا بالتشكى من قومهم ، وإظهارًا للالتجاء إلى الله تعالى فى الانتقام منهم، كأنهم قالوا : أنت أعلم بما أجابونا به من التصديق والتكذيب .

الثالث: معناه : لا علم لنا بحقيقة ما أجابونا به ، لأنا نعلم ظاهره وأنت تعلم ظاهره ومضمره ، ويؤيد ما بعده .

٢٦٢ - **فإن قيل** : أى معجزة لعيسى ﷺ فى تكليم الناس كهلاً حتى

قال: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة:١١٠] ؟

قلنا : قد سبق جوابه فى سورة آل عمران مستقصى .

٢٦٣ - فإن قيل : كيف قال الحواريون : ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢] شكوا فى قدرة الله تعالى على بعض الممكنات ، وذلك كفر ، ووصفوه بالاستطاعة وذلك تشبيه ، لأن الاستطاعة إنما تكون بالجوارح ، والحواريون خلص أتباع عيسى عليه السلام والمؤمنون به، بدليل قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١] ؟

قلنا : هذا استفهام عن الفعل ، لا عن القدرة ، كما يقول الفقير للغنى القادر : هل تقدر أن تعطينى شيئًا ، وهذا يسمى استطاعة المطاوعة لا استطاعة القدرة ، أو المعنى : هل يسهل عليك أن تسأل ربك ، كقولك الآخر : هل تستطيع أن تقوم معى ؟ وأنت تعلم استطاعته لذلك .

٢٦٤ - فإن قيل : لو كان المراد هذا المعنى فلم أنكر عليهم عيسى عليه السلام قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:١١٢] ؟

قلنا : إنكاره عليهم إنما كان لأنهم أتوا بلفظ يحتمل المعنى الذى لا يليق بالمؤمن المخلص إرادته ، وإن كانوا لم يريدوه .

٢٦٥ - فإن قيل : كيف قال عيسى عليه السلام : ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة:١١٦] وكل ذى نفس فهو ذو جسم ، لأن النفس عبارة عن الجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير، والله تعالى منزه عن الجسم ؟

قلنا : النفس تطلق على معنيين ، أحدهما هذا ، والثانى حقيقة الشىء وذاته كما يقال : نفس الذهب والفضة محبوبة ، أى ذاتهما ، والمراد به فى الآية ثانيًا هذا المعنى .

٢٦٦ - **فإن قيل** : كيف قال عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة:١١٧] الآية ، مع أنه قال لهم كثيرًا من الكلام المباح ، غير الأمر بالتوحيد ؟

قلنا : معناه ما قلت لهم فيما يتعلق بالإله .

٢٦٧ - **فإن قيل** : إذا كان عيسى لم يمت وإنما هو وحى فى السماء فكيف قال : ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة:١١٧]؟

قلنا : أراد بالتوفى إتمام مدة إقامته فى الأرض ، وإتمامه قد سبق فى قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران:٥٥] والسؤال إنما يتوجه على قول ما قال ، إن السؤال والجواب وجدا يوم رفعه إلى السماء ، وأما من قال : إن السؤال إنما يكون يوم القيامة ، وعليه الجمهور ، فالجواب مطابق ولا إشكال فيه .

٢٦٨ - **فإن قيل** : لو قال عليه السلام إن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم، وإن تغفر لهم فإنهم عبادك ، كان أظهر مناسبة ؟

قلنا : معناه إن تعاقبهم فإنهم عبادك ، وتصرف المالك المطلق الحقيقى فى عبيده مباح ، أى تصرف كان ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم الذى لا ينقص من عزه شىء بترك العقوبة والانتقام ممن عصاه ، الحكِم فى كل ما يفعله من العذاب أو المغفرة .

٢٦٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩] يعنى يوم القيامة ، والصدق نافع فى الدنيا والآخرة ، ولفظ الآية فى قوة الحصر ؟

قلنا : لما كان نفع الصدق فى الآخرة هو الفوز بالجنة والنجاة من النار ونفعه فى الدنيا دون ذلك ، كان كالعدم بالنسبة إلى نفعه فى الآخرة ، فلم يقيد به فى

مقابلته .

٢٧٠ - **فإن قيل** : قوله : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة:١١٩] إن أراد به صدقهم فى الآخرة فالآخرة ، ليست بدار عمل ، وإن أراد به صدقهم فى الدنيا ، فليس بمطابق لما ورد فيه ، وهو الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة ؟

قلنا : أراد به الصدق المستمر بالصادقين فى دنياهم وآخرتهم ، وعن قتادة رحمه الله متكلمان صدقا يوم القيامة فنفع أحدهما صدقه دون الآخر ، أحدهما إبليس قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم:٢٢] الآية ، وصدق يومئذ فلم ينفعه صدقه لأنه كان كاذبًا قبل ذلك ، والآخر عيسى عليه الصلاة والسلام كان صادقًا فى الدنيا والآخرة فنفعه صدقه .

٢٧١ - **فإن قيل** : ما فى السموات والأرض ، العقلاء وغيرهم ، فهلا غلب العقلاء، فقال : لله ملك السموات والأرض ومن فيهن ؟

قلنا : لأن كلمة "ما" تتناول الأجناس كلها تناولاً عامًا بأصل الوضع "من" لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع ، فكان استعمال "ما" فى هذا الوضع أوفى .

*** *** ***

سورة الأنعام

٢٧٢ – **فإن قيل** : كيف جمع الظلمة دون النور فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] ؟

قلنا : ترك جمعه استغناء عنه بجمع الظلمة قبله يدل عليه ، كما ترك جمع الأرض أيضًا استغناء عنه بجمع السماء قبله فى قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام:١] .

الثانى : أن الظلمة اسم والنور مصدر "نقله الفضل" والمصادر لا تجمع .

٢٧٣ – **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام:٣] بعد قوله : ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام:٣] معلوم أن من يعلم السر يعلم الجهر بالطريق الأولى؟

قلنا : إنما ذكره للمقابلة كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣] فى بعض الوجوه .

٢٧٤ – **فإن قيل** : كيف خص السكون بالذكر دون الحركة فى قوله : ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:١٣] على قول من فسره بما يقابل الحركة ؟

قلنا : لأن السكون أغلب الحالتين على كل مخلوق من الحيوان والجماد، ولأن الساكن من المخلوقات أكثر عددًا من المتحرك أو لأن كل متحرك يصير إلى السكون من غير عكس ، أو لأن السكون هو الأصل والحركة حادثة عليه وطارئة . وقيل فيه إضمار تقديره : ما سكن وتحرك فاكتفى بأحدهما اختصارًا لدلالته على مقابله كما فى قوله تعالى : ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل:١١] أى البرد .

٢٧٥ – فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:١٤] ولم يقل وهو ينعم ولا ينعم عليه ، وهذا أعم لتناوله الإطعام وغيره ؟

قلنا : لأن الحاجة إلى الرزق أمس ، فخص بالذكر .

والثاني : أن كون المطعم آكلاً متغوطًا أقبح من كونه منعمًا عليه ، فلذلك ذكره .

٢٧٦ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٩] يقتضي أن يسمى الله تعالى شيئًا ، ولو صح ذلك لصح نداؤه به كالحي القيوم ونحوهما ؟

قلنا : صحة ندائه تعالى مخصوصة بما يدل على المدح وصفة الكمال كالحي والقيوم ونحوهما ، لا بكل ما يصح إطلاقه عليه ؛ ألا ترى أن الموجود والثابت يصح إطلاقه عليه سبحانه وتعالى ولا يصح نداؤه به ؟ كذا ذكروا .

٢٧٧ – فإن قيل : استشهاد المدعى بالله لا يكفى فى صحة دعواه وثبوتها شرعًا حتى لو قال المدعى : الله شاهدى لا يكفى هذا : فكيف صح ذلك من النبى ﷺ حيث قال : ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام:١٩] ؟

قلنا : إنما لم يصح ذلك من غير النبى ﷺ ، لأنه لا يقدر على إقامة الدليل على أن الله تعالى يشهد له ، والنبى ﷺ أقام الدليل على ذلك بقوله : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ ﴾ [الأنعام:١٩] لأنه معجز .

٢٧٨ – فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] كيف يكذبون يوم القيامة بعد معاينة حقائق الأمور، وقد ﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات:٩، ١٠]؟

قلنا : المبتلى يوم القيامة ينطق بما ينفعه وبما يضره لعدم التمييز بسبب الحيرة

والدهشة ، كحال المبتلى المعذب فى الدنيا يكذب على نفسه وعلى غيره ، ويتكلم بما يضره ، ألا تراهم يقولون : ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ وقد أيقنوا بالخلود فيها ، وقالوا : ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] وقد علموا أنه ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦] .

٢٧٩ - **فإن قيل** : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] ؟

قلنا : القيامة مواقف مختلفة ؛ ففى بعضها لا يكتمون ، وفى بعضها يحلفون كاذبين ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣] وقال تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] وقيل : إن حلفهم كاذبين يكون قبل شهادة جوارحهم عليهم : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢] يكون بعد شهادتها عليهم .

٢٨٠ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٣٢] وهو خير لغير المتقين أيضًا كالأطفال والمجانين؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر لأنهم الأصل فيها من حيث إن درجتهم أعلى وغيرهم تبع لهم .

٢٨١ - **فإن قيل** : كيف قال لمحمد ﷺ : ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥] فخاطبه بأفحش الخطابين ، وقال لنوح ﷺ : ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] فخاطبه بألين الخطابين ، مع أن محمدًا ﷺ أعظم رتبة وأعلى منزلة منه ؟

قلنا : لأن نوحًا عليه الصلاة والسلام كان معذورًا فى جهله بمطلوبه ، لأنه تمسك بوعد الله تعالى فى إنجاء أهله ، وظن أن ابنه من أهله ومحمد ﷺ ما كان معذورًا لأنه كبر عليه كفرهم مع علمه أن كفرهم وإيمانهم بمشيئة الله تعالى ،

وأنهم لا يهتدون إلا أن يهديهم الله .

٢٨٢ - **فإن قيل** : إذا بعث الله تعالى الموتى من قبورهم فقد رجعوا إلى الله بالحياة بعد الموت ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام:٣٦] ؟

قلنا : المراد به وقوفهم بين يديه للحساب والجزاء ، وذلك غير البعث وهو إحياؤهم بعد الموت ، فلا تكرار فيه .

٢٨٣ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً ﴾ [الأنعام:٣٧] لو صح من النبى ﷺ هذا الجواب لصح لكل من ادّعى النّبوة وطولب بآية أن يقول : إن الله قادرٌ على أن ينزل آية ؟

قلنا : إذا ثبتت نبوته بما شاء الله من المعجزة يصح له أن يقول ذلك ، بخلاف ما إذا لم تثبت نبوته ، والنبى ﷺ كان قد ثبتت نبوته بالقرآن ، وانشقاق القمر وغيرهما .

٢٨٤ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣٨] والدابة لا تكون إلا فى الأرض ، لأن الدابة فى اللغة اسم لما يدبّ على وجه الأرض ، وما فائدة : ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨] والطيران لا يكون إلا بالجناح ؟

قلنا : فيه فوائد : الأولى للتأكيد كقولهم : هذه نعجة أنثى ، وقولهم : كلمته بلسانى ، ومشيت إليه برجلى وكما قال الله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [النحل:٥١] وقال تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١] .

الثانية : نفى توهم المجاز ، فإنه يقال : طار فلان فى أمر كذا إذا أسرع فيه ، وطار الفرس إذا أسرع الجرى .

الثالثة : زيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قال: جميع الدواب الدابة وجميع الطيور الطائرة.

٢٨٥ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام:٤٠] إلى أن قال : ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:٤٠] ومن جملة ما ذكر : الدعاء فيه عذاب الساعة ، وهو لا يكشف عن المشركين ؟

قلنا : لم يخبر عن الكشف مطلقًا ؛ بل مقيدًا بشرط المشيئة وعذاب الساعة لو شاء كشفه عن المشركين لكشفه .

٢٨٦ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام:٥٠] كيف ذكر القول فى الجملة الأولى والثالثة وترك ذكره فى الجملة الثانية ؟

قلنا : لما كان الإخبار بالغيب كثيرًا مما يدعيه البشر كالكهنة والمنجمين وواضعى الملاحم ، ثم إن كثيرًا من الجهال يعتقدون صحة أقاويلهم ويعملون بمقتضى أخبارهم : بالغ فى سلبه عن نفسه بسلب حقيقته عنه بخلاف الإلهية والملكية ، فإن انتفاءهما عنه وعن غيره من البشر ظاهر فاكتفى فى نفيهما بنفى القول ، إذ غير الدعوى فيهما لا تتصور فى نفس الأمر ولا فى زعم الناس ، بخلاف علم الغيب فافترقا ، والمراد بقوله : ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٥٠] أى لا أدعى الإلهية، كذا قاله بعض المفسرين .

٢٨٧ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥] كيف ذكر سبيل المجرمين ولم يذكر سبيل المؤمنين ، وكلاهما محتاج إلى بيانه ؟

قلنا : لأنه إذا ظهر سبيل المجرمين ظهر سبيل المؤمنين أيضًا بالضرورة إذ

السبيل سبيلان لا غير .

٢٨٨ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام:٦٠] أى ما كسبتم ، وهو يعلم ما جرحوا ليلاً ونهارًا ؟

قلنا : لأن الكسب أكثر ما يكون بالنهار لأنه زمان حركة الإنسان ، والليل زمان سكونه لقوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص:٧٣] بعد قوله : ﴿ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [الأنعام:٧٢] .

٢٨٩ - فإن قيل : كيف قال : ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢] يعنى مولى جميع الخلائق . وقال فى موضع آخر : ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١] ؟

قلنا : المولى الأولى بمعنى المالك أو الخالق أو المعبود ، والمولى الثانى بمعنى الناصر ، فلا تناف بينهما .

٢٩٠ - فإن قيل : كيف خص كون : ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الأنعام:٧٣] بيوم القيامة ، فقال : ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣] مع أن قوله الحق فى كل وقت وله الملك فى كل زمان ؟

قلنا : لأن ذلك اليوم ليس لغيره فيه ملك بوجه من الوجوه ، وفى الدنيا لغيره ملك خلافة عنه أو هبة منه وإنعامًا ، بدليل قوله تعالى فى حق داود عليه السلام : ﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [البقرة:٢٥١] وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٤٧] وقوله فى ذلك اليوم وهو الحق الذى لا يدفعه أحد من العباد ، ولا يشك فيه شاكٌ من أهل العناد ، لانكشاف الغطاء فيه للكل ، وانقطاع الدعاوى والخصومات ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ

لِلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وإن كان الأمر له فى كل زمان ، وكذا قوله تعالى : ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر:١٦] ؟

٢٩١ – فإن قيل : كيف قال تعالى فى معرض الامتنان : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾[الأنعام:٨٤] ولم يذكر إسماعيل مع أنه كان هو الابن الأكبر؟

قلنا : لأن إسحاق وهب له من حرة ، وإسماعيل من أمة ، وإسحاق وهب له من عجوز عقيم ، فكانت المنة فيه أظهر .

٢٩٢ – فإن قيل : كيف قال فى وصف القرآن : ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الأنعام:٩٢] وكثير ممن يؤمن بالآخرة من اليهود والنصارى وغيرهم لا يؤمن به ؟

قلنا : معناه والذين يؤمنون بالآخرة إيمانًا نافعًا مقبولاً هم الذين يؤمنون به، إما تصديقًا به قبل إنزاله لما بشر به موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، أو اتباعًا له بعد إنزاله والأمر كذلك ، فإن من لم يصدق موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فى بشارتهما بمحمد ﷺ وبالقرآن أو كان بعد بعثه ولم يؤمن به، فإيمانه بالآخرة غير معتدّ به ولا معتبر .

٢٩٣ – فإن قيل : كيف أفرد قوله تعالى : ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٩٣] بالذكر بعد قوله : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام:٢١] وذلك أيضًا افتراء ؟

قلنا : لأن الأول عام والثانى خاص ، والمقصود الإنكار فيهما ، ولا يلزم من وجود العام وجود الخاص ، ولكن يلزم من الذم على العام وإنكاره الذم على الخاص وإنكاره لا محالة ، وما نحن فيه من هذا القبيل والجواب المحقق أن يقال : إن هذا الخاص لما كان مخصوصًا بمزيد قبح من بين أنواع الافتراء خصه بالذكر تنبيهًا على مزيد العقاب فيه والإثم .

٢٩٤ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:١٠١] الآية ، ما فائدة قوله : ﴿خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٠٢] بعد قوله : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام:١٠١] ؟

قلنا : ذكره أولا استدلالا به على نفى الولد ، ثم ذكره ثانيا توطئة وتمهيدًا لقوله تعالى : ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام:١٠٢] فإن كونه خالق كل شيء يقتضى تخصيصه بالعبادة ، فكانت الإعادة لفائدة جديدة .

٢٩٥ - **فإن قيل** : فى قوله تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الأنعام:١٠٣] كيف خص الأبصار بإدراكه لها ، ولم يقل : وهو يدرك كل شيء ، مع أنه أبلغ فى التمدح ؟

قلنا : لوجهين : أحدهما مراعاة المقابلة اللفظية فإنه نوع من البلاغة .

الثانى : أن هذه الصفة خاصة بينه وبين الأبصار أنه يدركها ، بمعنى الإحاطة بها وهى لا تدركه ، فأما غيره مما يدرك الأبصار فهى تدركه أيضًا ، فلهذا خصها بالذكر .

٢٩٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام:١١٤] ولم يقل وهو الذى أنزل إلىّ مع أن الله تعالى قال : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [النساء:١٠٥] ؟

قلنا : لما كان إنزاله إلى النبى ﷺ ليبلغه إلى الخلق ويهديهم به كان فى الحقيقة منزلاً إليهم لكن بواسطة النبى ﷺ فصلح إضافة الإنزال إليه وإليهم .

٢٩٧ - **فإن قيل** : فى قوله تعالى : ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:١١٨] كيف علق الكون من المؤمنين بأكل الذبيحة المسمى عليها والكون من المؤمنين حاصل ، وإن لم تؤكل الذبيحة أصلاً ؟

قلنا : المراد اعتقاد الحل ، لا نفس الأكل ، فإن بعض من كان يعتقد حل الميتة من العرب كان يعتقد حرمة الذبيحة .

٢٩٨ - **فإن قيل** : كيف أبهم فاعل التزيين هنا فقال : ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢] وقال فى آية أخرى : ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل:٤] وقال فى آية أخرى : ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنعام:٢٤] فمن هو مزين الأعمال للكفار فى الحقيقة ؟

قلنا : التزيين من الشيطان بالإغواء والإضلال والوسوسة وإيراد الشبه ، ومن الله تعالى بخلق جميع ذلك ، فصحت الإضافتان .

٢٩٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام:١٣٠] والرسل إنما كانت من الإنس خاصة ؟

قلنا : المراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النبى ﷺ ثم ولوا إلى قومهم منذرين كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف:٢٩] الآية .

الثانى : أنه كقوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] والمراد من أحدهما لأنه إنما يخرج من الملح .

والثالث: أنه بعث إليهم رسل منهم ، قاله الضحاك ومقاتل .

٣٠٠ - **فإن قيل** : كيف ذكر شهادتهم على أنفسهم فى قوله تعالى : ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام:١٣٠] الآية ، والمعنى فيهما واحد ؟

قلنا : المعنى المشهود به متعدد وإن كان فى الشهادة واحدا ، إلا أنهم فى الأولى شهدوا على أنفسهم بتبليغ الرسل وإنذارهم ، وفى الثانية شهدوا على أنفسهم بالكفر وهما متغايران .

٣٠١ - **فإن قيل** : كيف أقروا فى هذه الآية بالكفر وشهدوا على أنفسهم به وجحدوه فى قولهم : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] ؟

قلنا : مواقف القيامة ومواطنها مختلفة ، ففى بعضها يقرون وفى بعضها يجحدون ، أو يكون المراد هنا شهادة أعضائهم عليهم حين يختم على أفواههم كما قال تعالى : ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا﴾ [يس:٦٥] .

٣٠٢ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٤٠] والسفه لا يكون إلا عن جهل ؟

قلنا : معنى قوله : ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ بغير حجة ، وقيل : بغير علم بمقدار قبحه ومقدار العقوبة فيه ، وعلى الوجهين لا يكون مستفادًا من الأول .

٣٠٣ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١٤٠] بعد قوله : ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ [الأنعام:١٤٠] ؟

قلنا : فائدته الإعلام بأنهم بعدما ضلوا لم يهتدوا مرة أخرى ، فإن من الناس من يضل ثم يهتدى بعد ضلاله .

٣٠٤ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:١٤١] بعد قوله : ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:١٤١] ومعلوم أنه إنما يؤكل من ثمره إذا أثمر ؟

قلنا : فائدته نفى توهم توقف الإباحة على الإدراك والنضج بدلالته على الإباحة من أول إخراج الثمر .

٣٠٥ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا﴾ [الأنعام:١٤٥] الآية ، وفى القرآن الكريم تحريم أكل الربا ومال اليتيم ومال الغير بالباطل وغير ذلك .

قلنا : محرمة كانوا يحرمونه فى الجاهلية ، وقيل : مما كانوا مما يستحلون فيها .

٣٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام:١٤٧] والموضع موضع العقوبة ، فكان يحسن أن يقال فيه ذو عقوبة شديدة أو عظيمة ونحو ذلك ؟

قلنا : إنما قال ذلك نفيًا للاغترار بسعة رحمته فى الاجتراء على معصيته، وذلك أبلغ فى التهديد ، معناه : لا تغتروا بسعة رحمته ، فإنه مع ذلك لا يرد عذابه عنكم ، وقيل معناه : فقل ربكم ذو رحمة واسعة للمطيعين ، ولا يرد عذابه عن العاصين .

٣٠٧ - فإن قيل : كيف قال : ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] ثم فسره بعشرة أحكام خمسة منها واجبة ، والتلاوة وصف اللفظ لا للمعنى كيلا يقال أضدادها محرمة ؟

قلنا : قوله : ﴿ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] لا ينفى تلاوة غيره فقد تلا ما حرم وتلا غيره أيضًا .

الثانى : أن فيه إضمارًا تقديره أتل ما حرم ربكم عليكم وأوجب.

٣٠٨ - فإن قيل : كيف خص مال اليتيم بالنهى عن قربانه بغير الأحسن ومال البالغ أيضًا كذلك ؟

قلنا : إنما خصه بالنهى لأن طمع الطامعين فيه أكثر لضعف مالكه وعجزه وقلة الحافظين له والناصرين ، بخلاف مال البالغ .

والثانى : أن التخصيص لمجموع الحكمين وهما النهى عن قربانه بغير الأحسن ، ووجوب قربانه بالأحسن ، أو جواز قربانه بالأحسن بغير إذن مالكه ، ومجموع الحكمين مختص بمال اليتيم ، وهذا هو الجواب عن كونه مغيًا ببلوغ الأشد لأن المجموع ينتفى ببلوغ الأشد لانتفاء الحكم الثانى ، وقيل : إن الغاية لمحذوف تقديره : حتى يبلغ فسلموه إليه .

٣٠٩ – **فإن قيل** : كيف خص العدل بالقول فقال : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام:١٥٢] ولم يقل : وإذا فعلتم فاعدلوا ، والحاجة إلى العدل فى الفعل أمس، لأن الضرر الناشئ من الجور الفعلى أقوى من الضرر الناشئ من الجور القولى ؟

قلنا : إنما خصه بالقول ليعلم وجوب العدل فى الفعل بالطريق الأولى كما قال تعالى : ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] ولم يقل : ولا تشتمهما ولا تضر بهما لما قلنا .

٣١٠ – **فإن قيل** : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] وبين قوله : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] وقوله : ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] وقد جاء فى الحديث المشهور **"من عمل سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة"**(١) ؟

قلنا : المراد بالآية الأولى وزر لا يكون مضافًا إليها بمباشرة أو تسبب التحقيق إضافته إلى غيرها على الكمال ، أما إذا لم يكن كذلك فهو وزرها من وجه فنزره ، وقيل معناه : لا تزره طوعًا كما زعم المشركون بقولهم للنبى ﷺ : ارجع إلى ديننا ونحن كفلاء بما يلحقك من تبعة فى دينك ، وقول الذين كفروا للذين آمنوا : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] إلى قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت:١٣] ومعنى باقى النصوص أنها تحمله كرهًا فلا تنافى بينهما .

❊❊ ❊❊ ❊❊

(١) مسلم (٤٨٣٠) .

سورة الأعراف

٣١١ - **فإن قيل** : النهى فى قوله تعالى : ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:٢] متوجه إلى الحرج فما وجهه ؟

قلنا : هو من باب قولهم : لا أرينك هنا ، معناه : لا تقم هنا ، فإنك إن أقمت رأيتك ، فمعنى الآية فكن على يقين منه ولا تشك فيه ، لأن المراد بالحرج الشك .

٣١٢ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف:٤] والإهلاك إنما هو بعد مجىء البأس وهو العذاب ؟

قلنا : معناه أردنا إهلاكها كقوله تعالى : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف:٦] وقوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النحل:٩٨] .

٣١٣ - **فإن قيل** : ميزان القيامة واحد فكيف قال تعالى : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف:٨، ٩] ؟

قلنا : إنما جمعه لأنه أراد بالميزان الموزونات من الأعمال ، وقيل : إنما جمعه لأنه ميزان يقوم مقام موازين ويفيد فائدتها ، لأنه يوزن به ذرات الأعمال وما كان منها فى عظم الجبال .

٣١٤ - **فإن قيل** : كيف توزن الأعمال وهى أعراض لا ثقل لها ولا جسم ، والأوزان من خواص الأجسام ؟

قلنا : الموزون صحائف الأعمال .

الثانى : أنه قد ورد أن الله تعالى يخيلها فى جواهر وأجسام ، فتتصور أعمال

المطيعين فى صورة حسنة ، وأعمال العاصين فى صورة قبيحة ، ثم يزنها ، والله على كل شىء قدير .

٣١٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف:١١] وكلمة ثم للترتيب ، وخطاب الملائكة عليهم السلام بالسجود سابق على خلقنا وتصويرنا ؟

قلنا : المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناه بطريق حذف المضاف ، وقيل: المراد ولقد خلقنا أباكم ثم صورناكم فى ظهره ، والقول الأول أظهره .

٣١٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى لإبليس : ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣] أى فى السماء ، وليس له ، ولا لغيره أن يتكبر فى الأرض أيضًا ؟

قلنا : لما كانت السماء مقر الملائكة المطيعين الذين لا توجد منهم معصية أصلاً كان وجود المعصية منهم أقبح ، فلذلك خص مقرهم بالذكر .

٣١٧ - **فإن قيل** : كيف أجيب إبليس إلى الإنظار ، وإنما طلب الإنظار ليفسد أحوال عباد الله تعالى ويغويهم ؟

قلنا : لما فى ذلك من ابتلاء العباد ، ولما فى مخالفته من عظم الثواب ، ونظير ذلك ما خلقه الله تعالى فى الدنيا من أصناف الزخارف وأنواع الملاذّ والملاهى ، وما ركبه فى الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده .

٣١٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف:٢٠] ولم يكن غرضه من الوسوسة كشف عورتهما ، بل إخراجهما من الجنة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:٣٦] ؟

قلنا : اللام فى "ليبدى" لام العاقبة والصيرورة ، لا لام كى ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [الأعراف:٦] وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى التراب [١]

٣١٩ - فإن قيل : أى آية لله تعالى فى اللباس والكسوة حتى قال تعالى فى آية اللباس والكسوة : ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٦] ؟

قلنا : معناه أن اللباس والكسوة للإنسان خاصة علامة من العلامات الدالة على أن الله تعالى فضله على سائر الحيوانات ، وقيل معناه : ذلك من نعم الله .

٣٢٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى حق إبليس : ﴿يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف:٢٧] ونازع لباسهما هو الله تعالى ؟

قلنا : لما كان ذلك السبب بسبب وسوسته وإغوائه أضيف النزع إليه ، كما يقال : أشبعنى الطعام وأروانى الشراب ، والمشبع والمروى فى الحقيقة إنما هو الله تعالى وهما سبب .

٣٢١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩] وهو بدأنا أولا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظامًا ثم لحمًا كما ذكر ، ونحن لا نعود عند الموت ولا عند البعث بعد الموت على ذلك الترتيب ؟

قلنا : معناه كما بدأكم أولاً من تراب ، كذلك تعودون ترابًا ، وقيل معناه : كما أوجدكم أولاً بعد العدم كذلك يعيدكم بعد العدم ، فالتشبيه فى نفس الإحياء والخلق ، لا فى الكيفية والترتيب ، وقيل معناه : كما بدأكم سعداء وأشقياء ، كذلك تعودون ، ويؤيده تمام الآية ، وقيل معناه : كما بدأكم لا

---

(١) البيت لأبى العتاهية .

تملكون شيئًا كذلك تعودون ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ [الأنعام:٩٤] الآية .

٣٢٢ – فإن قيل : كيف قال تعالى مخبرًا عن الزينة والطيبات : ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف:٣٢] مع أن الواقع المشاهد أنها لغير الذين آمنوا أكثر وأدوم ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، قل هى للذين آمنوا غير خالصة فى الحياة الدنيا ، لأن المشركين شاركوهم فيها ، خالصة للمؤمنين فى الآخرة .

٣٢٣ – فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣] والميراث عبارة عما ينتقل من ميت إلى ميت وهو مفقود هنا ؟

قلنا : هو على تشبيه أهل الجنة وأهل النار بالوارث وبالموروث عنه ، وذلك أن الله تعالى خلق فى الجنة منازل للكفار على تقدير الإيمان ، فمن لم يؤمن منهم جعل منزله لأهل الجنة .

الثانى : أن نفس دخول الجنة بفضل الله ورحمته من غير عوض ، فأشبه الميراث ، وإن كانت الدرجات فيها بحسب الأعمال .

٣٢٤ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] أما الخلق بمعنى الإيجاد والإحداث فظاهر أنه مختص به سبحانه وتعالى ، وأما الأمر فلغيره أيضًا، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة:٧١] وقوله : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ [الأعراف:١٩٩] وقوله : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ [طه:١٣٢] ؟

قلنا : المراد بالأمر هنا قوله تعالى : ﴿كن﴾ عند خلق الأشياء ، وهذا الأمر الذى به الخلق مخصوص به كالخلق .

الثانى : أن المراد بالخلق والأمر ما سبق ذكرهما فى هذه الآية ، وهو خلق السموات والأرض ، وأمر تسخير الشمس والقمر والنجوم كما ذكر ، وذلك مخصوص به عز وجل .

٣٢٥ - **فإن قيل** : لم قال نوح عليه الصلاة والسلام : ﴿لَيْسَ بِي ضَلَـٰلَةٌ﴾ [الأعراف:٦١] بالتاء، ولم يقل : ليس بى ضلال كما وصفه قومه به ، وذلك أشد مناسبة ليكون نافيًا عين ما أثبتوه ؟

قلنا : الضلالة أقل من الضلال ، فكان نفيها أبلغ فى نفى الضلالة عنه، كأنه قال : ليس بى شىء من الضلال ، كما لو قيل : ألك ثمر ؟ فقلت : ما لى ثمرة ، كان ذلك أبلغ فى النفى من قولك : ما لى ثمر .

٣٢٦ - **فإن قيل** : كيف وصف الملأ بالذين كفروا فى قصة هود دون قصة نوح عليهما السلام ؟

قلنا : لأنه كان فى أشراف قوم هود من آمن به منهم عند هذا القول ، فلم يكن كل الملأ من قومه قائلين له : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦] بخلاف قوم نوح فإنه لم يكن منهم من آمن به عند قولهم : ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠] فكان كل الملأ قائلين ذلك ، هكذا أجاب بعض العلماء ، وهذا الجواب منقوض بقوله تعالى في سورة هود فى قصة نوح عليه السلام : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكذا فى سورة المؤمنين ، وجواب هذا النقض أنه يجوز أن القول كان وقع مرتين ، والمرة الثانية بعد إيمان بعضهم .

٣٢٧ - **فإن قيل** : كيف قال صالح عليه السلام لقومه بعد ما أخذتهم الرجفة وماتوا : ﴿يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩] ولا يحسن من الحى مخاطبة الميت لعدم الفائدة ؟

قلنا : هذا مستعمل فى العرف ، فإن من نصح إنسانًا فلم يقبل منه حتى

قتل أو صلب ، ومر به ناصحه فإنه يقول له : كم نصحتك يا أخى فلم تقبل حتى أصابك هذا ، وفائدة هذا القول حث السامعين له على قبول النصيحة ممن ينصحهم ، لئلا يصيبهم ما أصاب المنصوح الذى لم يقبل النصيحة حتى هلك.

٣٢٨ - فإن قيل : لم قال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦] وهم مازالوا كافرين مفسدين لا مصلحين؟

قلنا : بعد أن أصلحها الله تعالى بالأمر بالعدل وإرسال الرسل ، وقيل معناه بعد أن أصلح الله تعالى أهلها بحذف المضاف ، وقيل : معناه بعد الإصلاح فيها ، أى بعد ما أصلح فيها الصالحون فى الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم ، فإضافته كإضافة قوله تعالى : ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣] يعنى بل مكرهم فى الليل والنهار .

٣٢٩ - فإن قيل : كيف خاطبوا شعيبًا عليه السلام بالعود فى الكفر بقولهم: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ [الأعراف:٨٨] وهو أجابهم بقوله : ﴿ إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف:٨٩] وهم لم يكن فى ملتهم قط ، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يجوز عليهم شىء من الكبائر خصوصًا الكفر ؟

قلنا : العرب تستعمل "عاد" بمعنى صار ابتداء ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩] .

الثانى: أنهم قالوا ذلك على طريق تغليب الجماعة على الواحد ، لأنهم عطفوا على ضميره الذين آمنوا منهم بعد كفرهم ، فجعلوهم عائدين جميعًا إجراء للكلام على حكم التغليب ، وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه ، ومراده عود قومه المعطوفين عليه .

٣٣٠ - **فإن قيل** : لم قال فرعون: ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ [الأعراف:١٠٦] بعد قوله: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ ؟

قلنا : معناه إن كنت جئت بآية من عند الله فأتنى بها ، أى أحضرها عندى.

٣٣١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف:١٠٩] وفى سورة الشعراء : ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء:٣٤] فنسب هذا القول إلى فرعون ؟

قلنا : قاله هو وقالوه هم ، فحكى قوله ثم ، قولهم هنا .

٣٣٢ - **فإن قيل** : السحرة إنما سجدوا لله تعالى طوعًا لما تحققوا معجزة موسى عليه السلام ، فكيف قال تعالى : ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٢٠]؟

قلنا : لما زالت كل شبهة لهم بما عاينوا من آيات الله تعالى على يد نبيه اضطرهم ذلك إلى مبادرة السجود ، فصاروا من غاية المبادرة كأنهم ألقوا إلى السجود تصديقًا لله والرسول .

٣٣٣ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى هنا حكاية عن السحرة الذين آمنوا وعن فرعون : ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٢١] إلى قوله : ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦] ثم حكى عنهم هذا المعنى فى سورة طه وسورة الشعراء بزيادة ونقصان فى الألفاظ المنسوبة إليهم ، وهذه الواقعة ما وقعت إلا مرة واحدة ، فكيف اختلفت عبارتهم فيها ؟

قلنا : الجواب عنه أنهم إنما تكلموا بذلك بلغتهم لا بلغة العربية ، وحكى الله ذلك عنهم باللغة العربية مرارًا لحكمة اقتضت التكرار والإعادة نبينها فى سورة الشعراء إن شاء الله تعالى ، فمرة حكاه مطابقًا للفظهم فى الترجمة رعاية

اللفظ ، وبعد ذلك حكاه بالمعنى جريًا على عادة العرب فى التفنن فى الكلام والمخالفة بين أساليبه ، لئلا يمل إذا تمحض تكراره .

٣٣٤ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف:١٣٢] سموها آية ثم قالوا لتسحرنا بها ؟

قلنا : ما سموها آية لاعتقاد أنها آية ، بل حكاية لتسمية موسى عليه السلام على طريق الاستهزاء والسخرية .

٣٣٥ - فإن قيل : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٧] أى أهلكنا ، وقوله تعالى : ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء:٥٧ - ٥٩] ؟

قلنا : معناه ودمرنا : أى أبطلنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المكر والمكيدة فى حق موسى عليه السلام : ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧] أي يبنون من الصرح الذى أمر فرعون هامان ببنائه ليصعد بواسطته إلى السماء ، وقيل : هو على ظاهره، لأن الله تعالى أورث ذلك بنى إسرائيل مدة ثم دمره جميعه .

٣٣٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة:٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم﴾ إن كان إشارة إلى الإنجاء فليس فيه بلاء بل هو محض نعمة ، وإن كان إشارة إلى القتل والأسر فإضافته إلى آل فرعون بقوله تعالى : ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩] أشد مناسبة لسياق الآية ، وهو الامتنان ، ولهذا قال يقتلون ويستحيون فأضاف إليهم الفعلين ؟

قلنا : البلاء مشترك بين النعمة والمحنة ، لأنه من الابتلاء ، وهو الاختبار ، يقال : بلاه ابتلاه ، أي اختبره : والله تعالى يخبر شكر عباده بالنعمة ويختبر صبرهم بالمحنة ، يؤيده قوله تعالى : ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف:١٦٨] وقوله تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] فمعنى الآية: وفى ذلك الإنجاء نعمة عظيمة من ربكم عليكم .

٣٣٧ - فإن قيل : ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف:١٤٢] المواعدة كانت أمره بالصوم فى هذا العدد ، فكيف ذكر الليالى مع أنها ليست محلاً للصوم ، بل يقع فى القلب أن ذكر الأيام أولى، لأنها محل الصوم الذى وقعت به المواعدة ؟

قلنا : العرب في أغلب تواريخها إنما تذكر الليالى وإن كان مرادها الأيام، لأن الليل هو الأصل فى الزمان ، والنهار عارض لأن الظلمة سابقة فى الوجود على النور ، وقيل: إنه كان فى شريعة موسى عليه السلام جواز صوم الليل .

٣٣٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢] وقد علم مجموع الميقات من قوله تعالى : ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ ؟

قلنا : فيه فوائد إحداها : للتأكيد .

الثانية : أن يعلم أن العشر ليال لا ساعات .

الثالثة: أن لا يتوهم أن العشر التى وقع بها الإتمام كانت داخلة فى الثلاثين، يعنى كانت عشرين وأتمت بعشر كما فى قوله تعالى : ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:١٠] على ما نذكره مشروحًا فى حم السجدة .

٣٣٩ - فإن قيل : لم قال موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] وقد كان قلبه كثير من المؤمنين ، وهم الأنبياء ومن آمن بهم ؟

قلنا : معناه وأنا أول المؤمنين بأنك يا الله لا ترى بالحاسة الفانية من الجسد الفانى فى دار الفناء ، وقيل معناه : وأنا أول المؤمنين من بنى إسرائيل فى زمانى ، وقيل : أراد بالأول الأقوى والأكمل فى الإيمان ، يعنى لم يكن طلبى للرؤية للشك عندى فى وجودك أو لضعف فى إيمانى ، بل لطلب مزيد الكرامة .

٣٤٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] أى التوراة ، وهم مأمورون بالعمل بكل ما فى التوراة ؟

قلنا : معناه بحسنها وكلها حسن .

الثانى: أنهم أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، ففعل الخير أحسن من ترك الشر .

الثالث : أن فيها حسنًا وأحسن كالاقتصاص والعفو ، والانتصار والصبر ، والواجب والمندوب والمباح ، فأمروا بالأخذ بالعزائم والفضائل وما هو أكثر ثوابًا .

٣٤١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [الأعراف:١٤٨] واتخاذهم العجل كان فى زمن موسى عليه السلام بالنقل ، وفى سياق الآية ما يدل على ذلك ؟

قلنا : معناه من بعد ذهابه إلى الجبل ، وقيل من : بعد الأخذ عليهم ألا يعبدوا غير الله .

٣٤٢ - فإن قيل : كيف عبر عن الندم بالسقوط فى اليد فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف:١٤٩] وأى مناسبة بينهما ؟

قلنا : لأن من عادة من اشتد ندمه وحسرته على فائت أن يعض يده غمًا، فتصير يده مسقوطًا فيها ، لأن فاه قد وقع فيها وسقط مسند إلى قوله : ﴿فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ ، وهو من كنايات العرب كقولهم للنائم : ضرب على أذنه .

٣٤٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف:١٥٠] وهما متقاربان فى المعنى ؟

قلنا : لأن الآسف الحزين ، وقيل : الشديد الغضب ففيه فائدة جديدة.

٣٤٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف:١٥٤] ولم يقل فيها ، وإنما يقال : نسختها الشىء كتب مرة ثم نقل، فأما أول مكتوب فلا يسمى نسخة ، والألواح لم تكتب من مكتوب آخر ؟

قلنا : لما ألقى الألواح ، قيل : إنه انكسر منها لوحان ، فنسخ ما فيهما فى لوح ذهب وكان فيهما الهدى والرحمة ، وفى باقى الألواح تفصيل كل شىء ، وقيل : إنما قال : ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ [الأعراف:١٥٤] لأن الله تعالى لقن موسى عليه السلام التوراة ثم أمره بكتابتها ، فنقلها من صدره إلى الألواح فسماها نسخة .

٣٤٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٥٤] أى مع النبى ﷺ يعنى القرآن ، والقرآن إنما أنزل مع جبريل عليه السلام على النبى ﷺ ، لا مع النبى ﷺ ؟

قلنا : معه أى مقارنًا لزمانه ، وقيل معه : أى عليه ، وقيل معه : أي إليه ، ويجوز أن يتعلق معه باتبعوا لا بأنزل ، معناه : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبى ﷺ والعمل بسنته ، أو اتبعوا القرآن كما اتبعه هو ، مصاحبين له فى اتباعه.

٣٤٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى

قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف:١٦٢] وهم إنما بدلوا القول الذى قيل لهم ، لأنهم قيل لهم : ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [الأعراف:١٦١] فقالوا : حنطة ؟

قلنا :قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة .

٣٤٧ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦] وانتقالهم من صورة البشر إلى صورة القردة ليس فى وسعهم ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة .

٣٤٨ – فإن قيل : الحلم من صفات الله تعالى ، فكيف قال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ وسرعة العقاب تنافى صفة الحلم ، لأن الحليم هو الذى لا يعجل بالعقوبة على العصاة ؟

قلنا : معناه شديد العقاب ، وقيل معناه : سريع العقاب إذا جاء وقت عقابه لا يرده عنه أحد .

٣٤٩ – فإن قيل : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة ، ومنها إقامة الصلاة فكيف قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف:١٧٠] ؟

قلنا : إنما خصها بالذكر إظهارًا لمزيتها لكونها عماد الدين بالحديث ، وناهية عن الفحشاء والمنكر ... الآية .

٣٥٠ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:١٧٦] تمثيل لحال بلعام ، فكيف قال بعده : ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٧] والمثل لم يضرب إلا لواحد ؟

قلنا : المثل فى الصورة وإن ضرب لبلعام ولكن أريد به كفار مكة كلهم، لأنهم صنعوا مع النبى ﷺ بسبب ميلهم إلى الدنيا وشهواتها من الكيد والمكر

ما يشبه فعل بلعام مع موسى عليه السلام .

الثاني : أن : ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ﴾ راجع إلى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الأعراف:١٧٧] لا إلى أول الآية .

٣٥١ - فإن قيل : كيف قال : ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨] وهو ﷺ كان بشيرًا ونذيرًا للناس كافة ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨] ؟

قلنا : المراد بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨] لقوم كتب عليهم فى الأزل أنهم يؤمنون، وإنما خصهم بالذكر لأنهم هم المتفعون بالإنذار والبشارة دون غيرهم ، فكأنه نذير وبشير لهم خاصة ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٥] ويجوز أن يكون متعلق النذير محذوفًا تقديره : إن أنا إلا نذير للكافرين وبشير لقوم يؤمنون ، فاستغنى بذكر أحدهما عن الآخر كما استغنى بالجملة عن التفصيل فى تلك الآية ، لأن المعنى ، وما أرسلناك إلا كافة بشيرًا للمؤمنين ونذيرًا للكافرين .

٣٥٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى حكاية عن آدم عليه السلام وحواء رضى الله عنهما : ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ وقال عز وجل : ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠] والأنبياء معصومون عن مطلق الكبائر ، فضلاً عن الشرك الذى هو أكبر الكبائر ؟

قلنا : المراد بقوله : ﴿جَعَلَا لَهُۥ﴾ أى جعل أولادهما بطريق حذف المضاف وكذا قوله تعالى : ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أى فيما آتى أولادهما ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠] حيث ذكر ضمير الجمع ولم يقل: يشركان ، ومعنى اشراك أولادهما فيما آتاهم الله تعالى تسميتهم أولادهم بعبد العزى ، وعبد مناة وعبد شمس ونحو ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن

وعبد الرحيم .

وقيل : الضمير فى جعلا للولد الصالح وهو السليم الخلق ، وإنما قال جعلا لأن حواء كانت تلد فى بطن ذكرًا وأنثى ، وقيل المراد بذلك : تسميتها إياه عبد الحارث ، والحارث اسم ابليس فى الملائكة ، وسبب تلك التسمية يعرف من تفسير الآية ، وإنما قال شركاء إقامة للواحد مقام الجمع ، ولم يذهب آدم وحواء إلى أن الحارث ربه ، بل قصد أنه كان سبب نجاته ، وقال جمهور المفسرين . قوله تعالى : ﴿فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠] فى مشركى العرب خاصة ، وهو منقطع عن قصة آدم وحواء عليهما السلام .

*** *** ***

سورة الأنفال

٣٥٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] إلى آخر الآيتين ، يدل على أن من لم يتصف بجميع تلك الصفات لا يكون مؤمنًا ؛ لأن كلمة : ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره إنما المؤمنون إيمانًا كاملاً ، وإنما الكاملون فى الإيمان كما يقال : الرجل من تصبر على الشدائد ، يعنى الرجل الكامل .

٣٥٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٤] ينفى إرادة ما ذكرتم ؟

قلنا : معناه أولئك هم المؤمنون إيمانًا كاملاً حقًا ، وقيل : إن حقًا متعلق بما بعده لا بما قبله ، والمؤمنون تمام الكلام .

٣٥٥ - فإن قيل : كيف يقال: إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال:٢] ؟

قلنا : المراد هنا آثار الإيمان من الطمأنينة واليقين والخشية ونحو ذلك ؛ لأن تظاهر الأدلة على المدلول مما يزيده رسوخًا فى العقائد وثبوتًا ، فأما حقيقة الإيمان فهو التصديق والإقرار بوحدانية الله تعالى ، وكما أن الإلهية والوحدانية لا تقبل الزيادة والنقصان ، فكذا الإقرار بها .

٣٥٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنفال:٥] تشبيه فأين المشبه والمشبه به ؟

قلنا : معناه امض على ما رأيته صوابًا من تنفيل الغزاة فى قسمة الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت فى خروجك من بيتك للحرب بالحق وهم كارهون، وقيل

معناه : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فهو خير لكم وإن كرهتم ، كما كان إخراجك من بيتك بالحق .

٣٥٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ [الأنفال:٨] وكلاهما متعذر ، لأنه تحصيل الحاصل؟

قلنا : المراد بالحق الإيمان ، والباطل الشرك ، فاندفع السؤال .

٣٥٨ - فإن قيل : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ [الأنفال:٧، ٨] ؟

قلنا : إنما ذكر أولاً لبيان أن إرادتهم كانت متعلقة باختيار الطائفة التى كانت فيها الغنيمة ، وإرادة الله تعالى باختيار الطائفة التى فى قهرها نصرة الدين، فذكره أولاً للتمييز بين الإرادتين ، ثم ذكره ثانيًا لبيان الحكمة فى قطع دابر الكافرين .

٣٥٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] ومعلوم أن المؤمنين يوم بدر قتلوا الكفار ورماهم النبى عليه الصلاة والسلام بكف من حصى والوادى فى وجوههم وقال: شاهت الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا وقع فى عينيه شىء من ذلك ، فشغلوا بعيونهم وانهزموا ، فتبعهم المؤمنون يقتلون ويأسرون ؟

قلنا : لما أن السبب الأقوى فى قتلهم إنما هو مدد الملائكة وإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين وتثبيت قلوب المؤمنين وأقدامهم ، وذلك كله فعل الله تعالى ، نفى الفعل عنهم ونسبه إليه ، يعنى إن كان ذلك فى الصورة منكم فهو فى الحقيقة منى ، فسبيلكم الشكر ، دون العجب والفخر ، وكذلك الرمية أثبتها لرسول الله ﷺ لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يوجد مثله عن رمى البشر فعل الله تعالى ، ونظير هذا قولك لمن يصدر عنه قول حسن

أو فعل مكروه بتسليط من هو أعلى رتبة منه ، هذا ليس قولك ولا فعلك .

وقيل: معنى قوله تعالى : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧] وما رميت الرعب فى قلوبهم إذ رميت الحصى فى وجوههم ، ولكن الله رمى الرعب فى قلوبهم ، ولأهل الحقيقة فى هذه الآية وفى نظائرها من الكتاب والسنة مباحث لا يحتملها هذا المختصر ، وهى مستقصاة فى كتب التصوف .

٣٦٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ [الأنفال:٢٠] ثنى فى الأمر ثم أفرد فى النهى ؟

قلنا : كما يذكر فى لغة العرب الاسم المفرد ويراد به الاثنان والجمع ، فكذلك يذكر ضمير المفرد ويراد به ضمير الاثنين كقولهم : إنعام فلان ومعروفه يغشينى ، والإنعام والمعروف لا ينفع من فلان ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] أي يرضوهما ، فكذا هنا معناه : ولا تولوا عنهما .

الثانى : أنه إن أفرد باعتبار عود الضمير إلى الله وحده ؛ لأنه الأصل ، مع أن طاعة الله وطاعة رسوله متلازمان ، قال الله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] فكان الإعراض عن الرسول إعراضًا عن الله تعالى ، فاكتفى بذكره .

الثالث: أن معناه : ولا تولوا عن هذا الأمر وعن أمثاله ، فالضمير للأمر لا للرسول عليه الصلاة والسلام .

الرابع : أنه إنما لم يقل ولا تولوا عنهما لئلا يلزم منه الإخلال بالأدب من النبى عليه الصلاة والسلام عند نهيه للكفار فى قرانه بين اسمه واسم الله تعالى فى ذكرهما بلفظ واحد من غير تقديم اسم الله ، كما روى " أن خطيبًا خطب فقال : من أطاع الله ورسوله فقد رشد ، ومن عصاهما فقد غوى ، فقال له

النبى ﷺ : "بئس خطيب القوم أنت ، هلا قلت : ومن عصى الله ورسوله فقد غوى"(١) .

٣٦١ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] الآية ؟

قلنا : معناه ولو علم الله فيهم تصديقًا وإيمانًا فى المستقبل لأسمعهم سماع فهم وقبول ، أو لأنطق لهم الموتى يشهدون بصدق نبوتك كما طلبوا ، وقيل: معنى لأسمعهم ، لرزقهم الفهم والبصيرة ، وأسمعهم وحالهم هذه الحال ، وهو أنه لم يعلم فيهم الخير ، لتولوا وهم معرضون لعنادهم وجحودهم الحق بعد ظهوره .

٣٦٢ - فإن قيل : التولى الإعراض واحد ، فما فائدة قوله: ﴿لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٣٢] ؟

قلنا : معناه لتولوا عن الإيمان وأعرضوا عن البرهان ، فلا تكرار .

٣٦٣ - فإن قيل : فما فائدة ذكر السماء فى قوله تعالى : ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال:٣٢] والمطر إنما يكون من السماء ؟

قلنا : المطر المطلق ، إنما يكون من السماء ، ولكن المطر المضاف هنا وهو مطر الحجارة قد يكون من رؤوس الجبال ومن حيطان المساكن والقصور وسقوفها ، فكان ذكر السماء مفيدًا ، لأن الحجارة إذا نزلت من السماء كانت أشد نكاية وأكثرها ضررًا .

الثانى: أنه لما كانت الحجارة المسومة للعذاب وهى السجيل معهودة النزول

---

(١) مسلم (١٧٠) ، مسند أحمد (الرسالة) (١٩٤٣٣) وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٨٠) .

من السماء ذكر السماء إشارة إلى إرادة المعهود من الحجارة ،كأنه قال : فأمطر علينا حجارة من سجيل ، فوضع قوله من السماء موضع قوله من سجيل ، كما تقول ، صب عليه مسرودة من حديد ، يعنى درعا .

٣٦٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] ويوم بدر عذبهم الله تعالى بالقتل والأسر ، وهو فيهم ؟

قلنا : معناه وأنت مقيم فيهم مكة ، وكان كذلك ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام ما دام بمكة لم يعذبوا ، فلما أخرجوه من مكة وخرجوا لحربه عذبوا ، وقيل معناه : وما كان الله ليعذبهم عذاب الاستئصال وأنت فيهم ، وقيل معناه: وما كان الله ليعذبهم العذاب الذى طلبوه وهوى : إمطار الحجارة وأنت فيهم .

٣٦٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى أولاً : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] الآية، ثم قال : ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال:٣٤] الآية، وهو يوهم التناقض ؟

قلنا : معناه وما لهم أن يعذبهم الله بعد خروجك من بينهم ، وخروج المؤمنين والمستغفرين ، وقيل : المراد بالعذاب الأول عذاب الاستئصال ، وبالثانى عذاب غير الاستئصال ، وقيل المراد بالأول : عذاب الدنيا ، وبالثانى عذاب الآخرة .

٣٦٦ - **فإن قيل** : ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥] والمكاء : الصفير، والتصدية التصفيق ، وهما ليسا بصلاة؟

قلنا : معناه أنهم أقاموا المكاء والتصدية مقام الصلاة ، كما يقول القائل زرت فلانًا ، فجعل الجفاء صلتى ، أي أقام الجفاء مقام صلتى ، ومنه قول الفرزدق .

أخافُ زيادًا أن يكون عطاؤه أداهم سوادًا أو محدرجة سمرًا

أراد بالأداهم القيود ، وبالمدحرجة السياط ، ووضعهما موضع العطاء .

٣٦٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا﴾ [الأنفال:٣٨] وهم لم ينتهوا عن الكفر ، فكيف قال : ﴿وَإِن يَعُودُاو﴾ والعود إلى الشيء إنما يكون بعد تركه والإقلاع عنه ؟

قلنا : معناه إن ينتهوا عن عداوة رسول الله ﷺ ومحاربته يغفر لهم ما قد سلف من ذلك ، وإن يعودوا إلى قتاله وعداوته : ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣٨] منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر ، أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية ، وقيل معناه : إن ينتهوا عن الكفر بالإيمان يغفر لهم ما قد سلف من الكفر والمعاصى ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : "الإسلام يجب ما قبله"[1] وإن يعودوا إلى الكفر بالارتداد بعد ما أسلموا فقد مضت سنة الأولين من الأمم من أخذهم بعذاب الاستئصال .

٣٦٨ - فإن قيل : الفائدة فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهرة ، وهى زوال الرعب من قلوب المؤمنين وتثبيت أقدامهم وزيادة اجترائهم على القتال ، فما فائدة تقليل المؤمنين فى أعين الكفار ، حتى قال الله تعالى : ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال:٤٤] مع أن ذلك زوال الرعب من قلوب الكافرين وتثبيت أقدامهم واجترائهم على القتال ؟

قلنا : ما فائدته ألا يستعد الكفار كل الاستعداد ، فيجترئوا على المؤمنين معتمدين على قلتهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيدهشوا ويتحيروا ، وأن يكون ذلك سببًا يتنبه به المشركون على نصرة الحق إذ رأوا المؤمنين مع قتلهم فى أعينهم منصورين عليهم ، وفى التقليل من الطرفين معارضة تعرف بالتأمل .

(١) مسلم (١٧٣) .

٣٦٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ [الأنفال:٤٦] يدل على حرمة المنازعة والجدال أيضًا ، لأنه منازعة ، فكيف تجوز المناظرة وهى منازعة وجدال ؟

قلنا : المراد بالمنازعة هنا ، المنازعة فى أمر الحرب والاختلاف فيه ، لا المنازعة فى إظهار الحق بالحجة والبرهان ، والدليل عليه أن ذلك مأمور به ، قال الله تعالى : ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] لكن للجواز شروط يندر وجودها فى زمننا هذا ، أحدها أن يكون كل المقصود منها ظهور الحق على لسان أىّ الخصمين ، كما كانت مناظرة السلف ، وعلامة ذلك : أن لا يفرح بظهور الحق على لسانه أكثر مما يفرح بظهوره على لسان خصمه .

٣٧٠ - فإن قيل : كيف قال إبليس : ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال:٤٨] وهو لا يخاف الله ، لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده ؟

قلنا : قال قتادة ما صدق عدو الله فى قوله : ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال:٤٨] يعنى جبريل والملائكة عليهم السلام معه نازلين من السماء لنصرة المسلمين يوم بدر ، وكذب فى قوله : ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال:٤٨] والله ما به مخافة الله ، ولكن علم أنه لا قوة له بهم ، وقيل لما رأى نزول الملائكة على صورة لم يراها قط خاف قيام الساعة التى هى غاية إنظاره فيحل به العذاب الموعود ، وقيل معنى أخاف الله أعلم صدق وعده لنبيه بالنصر ، وقد جاء الخوف بمعنى العلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٢٩] ويحتمل عندى أن يكون خاف أن يحل به من الملائكة ما دون الإهلاك من الأذى ، إذا لم يخف الإهلاك ؛ ثم أقول : كيف تؤخذ عليه كذبة واحدة وهو أفسق الفسقة وأكفر الكفرة ، فلا عجب فى كذبه ، وإنما العجب فى صدقه .

٣٧١ - فإن قيل : أى مناسبة بين الشرط والجزاء فى قوله تعالى : ﴿وَمَن

يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] ؟

قلنا : لما أقدم المؤمنون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر على قتال المشركين وهم زهاء ألف متوكلين على الله ، وقال المنافقون : غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ثلاثة أمثالهم عددًا أو أكثر ، قال الله تعالى ردًا عى المنافقين وتثبيتًا للمؤمنين : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ [الأنفال:٤٩] أى غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى وينصره عليه : حكيم فى جميع أفعاله .

٣٧٢ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥١] ولم يقل ليس بظالم ، وهو أبلغ فى نفى الظلم عن ذاته المقدسة ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة آل عمران .

٣٧٣ – **فإن قيل** : قوله عز وجل : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] وذلك إشارة إلى إهلاك كفار مكة وآل فرعون ولم تكن لهم حال مرضية غيروها ؟

قلنا : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها وأسوأ ، وأولئك كانوا قبل بعث الرسول إليهم عباد أصنام، فلما بعث الرسول ﷺ إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وسعوا فى قتله ، غيروا حالهم إلى أسوأ منها ، فغير الله تعالى ما أنعم به عليهم من الإمهال ، وعاجلهم بالعذاب .

٣٧٤ – **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٥٥] بعد قوله : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال:٥٥] ؟

قلنا : مراده أن يبين أن شر الكفار الذين كفروا واستمروا على الكفر إلى وقت الموت .

٣٧٥ - **فإن قيل** : ما فائدة تكرار المعنى الواحد فى مقاومة الجماعة لأكثر منها قبل التخفيف وبعده فى قوله تعالى : ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥] إلى قوله : ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ؟

قلنا : فائدته الدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة ، لا تتفاوت، بل كما ينصر الله تعالى العشرين على المائتين ينصر المائة على الألف، وكما ينصر المائة على المائتين ينصر الألف على الألفين .

٣٧٦ - **فإن قيل** : كيف أخبر الله تعالى عن هذه الغلبة ونحن نشاهد الأمر بخلافها، فإن المائة من الكفار قد تغلب المائة من المسلمين ، بل المائتين فى بعض الأحوال ؟

قلنا : إنما أخبر الله عز وجل عن هذه الغلبة بشرط الصبر الذى هو الثبات فى موقف الحرب ، أو الذى هو الموافقة بين المسلمين ظاهرًا وباطنًا، فمتى وجد الشرط تحققت الغلبة للمسلمين مع قلتهم لا محالة ، ولقائل أن يقول : إن هذه الغلبة مخصوصة بطائفة كان النبى ﷺ أحدهم ، وسياق الآية يدل عليه .

٣٧٧ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧] مع أنه يريد الدنيا أيضًا، لأنه لولا إرادته إياها لما وجدت ، فما فائدة هذا التخصيص .

قلنا: المراد بالإرادة هنا الاختيار والمحبة ، لا إرادة الوجود والكون ، فالمعنى، أتحبون عرض الحياة الدنيا وتختارونه ، والله يختار ما هو سبب الجنة ، وهو إعزاز الإسلام بالإثخان فى القتل .

*** *** ***

سورة التوبة

٣٧٨ - **فإن قيل** : لأى سبب تركت كتابة البسملة فى أول هذه السورة بخلاف سائر السور ؟

قلنا : لما تشابهت هى والأنفال واختلفت الصحابة فى كونها سورتين أو سورة واحدة ، تركت بينهما فرجة ، عملا بقول من قال : هما سورتان ، وتركت البسملة بينهما عملا بقول من قال : هما سورة واحدة ، وممن قال بذلك قتادة رحمه الله .

الثانى : أن اسم الله تعالى سلام وأمان ، وبراءة فيها قتل المشركين ومحاربتهم، فلا يناسب كتابتها .

٣٧٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة:١٢] خص الأمر بالقتال بأئمة الكفر ، مع أن النكث والطعن ليس مخصوصًا بهم ، بل هو مسند إلى جميع المشركين ؟

قلنا : المراد بأئمة الكفر رؤوس المشركين وقادتهم ، وقيل : كفار مكة لأنهم كانوا قدوة جميع العرب فى الكفر ، فكأن النكث والطعن لم يوجد إلا منهم لما كانوا هم الأصل فيه ، فلذلك خصهم بالذكر .

٣٨٠ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] ونحن نسأل اليهود والنصارى عن ذلك فينكرونه ويجحدونه ؟

قلنا : طائفة من اليهود وطائفة من النصارى هم الذين يقولون ذلك لا

كلهم ، فالألف واللام للعهد لا للجنس ولا للاستغراق ، أو أطلق اسم الكل وأراد البعض ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ﴾ [آل عمران:٤٢] وإنما قال لها جبريل وحده .

٣٨١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة:٣٠] وقول كل أحد إنما يكون بفمه ؟

قلنا : معناه أنه قول لا تعضده حجة وبرهان ، إنما مجرد لفظ لا أصل له وقيل : ذكر ذلك للمبالغة فى الرد عليهم ، والإنكار لقولهم ، كما يقول الرجل لغيره : أنت قلت لى ذلك بلسانك .

٣٨٢ - فإن قيل : دين الحق هو من جملة الهدى فما فائدة عطفه على الهدى فى قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣] ؟

قلنا : المراد بالهدى هنا القرآن ، وبدين الحق الإسلام ، وهما متغايران .

الثانى : أنه وإن كان داخلا فى جملة الهدى ، ولكنه خصه بالذكر تشريفًا له وتفضيلاً ، كما فى قوله تعالى : ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] وقوله تعالى : ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] .

٣٨٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣] ولم يقل على الأديان كلها ، مع أنه أظهره على الأديان كلها ؟

قلنا : المراد بالدين هنا اسم الجنس ، واسم الجنس المعرف باللام يفيد معنى الجمع ، كما فى قولهم : كثر الدرهم والدينار فى أيدى الناس .

٣٨٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤] والمذكور الذهب والفضة ، فأعاد الضمير على أحدهما ؟

قلنا : أعاد الضمير على الفضة لأنها أقرب المذكورين ، أو لأنها أكثر وجودًا

فى أيدى الناس ، فيكون كنزها أكثر ونظيره قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾ [البقرة:٥٤] .

الثانى: أنه أعاد الضمير على المعنى لأن المكنوز دنانير ودراهم وأموال ، ونظيره فى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات:٩] لأن كل طائفة مشتملة على عدد كثير ، وكذا قوله تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] يعنى المومنين والكافرين .

الثالث: أن العرب إذا ذكرت شيئين يشتركان فى المعنى تكتفى بإعادة الضمير على أحدهما استغناء بذكره عن ذكر الآخر لمعرفة السامع باشتراكهما فى المعنى ، ومنه قول حسان بن ثابت :

إن شرخ الشباب والشعر الأسـ ود وما لم يعاص كان جنونًا [١]

ولم يقل ما لم يعاصيا وقول الآخر :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله فإنى وقيار بها لغريب [٢]

ولم يقل لغريبان ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ [الأنفال:٢٠] وليس قوله تعالى : ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١] وقوله تعالى : ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء:١١٢] من هذا القبيل : لأن الإضمار ثم عن أحدهما لوجود لفظة "أو" وهى لإثبات أحد المذكورين ، فمن جعله نظير هذا فقد سها إلا أن يثبت أن "أو" فى هاتين الآيتين بمعنى الواو ، وفى هاتين الآيتين لطيفة ، وهى أن الكلام لما اقتضى إعادة الضمير على أحدهما أعاده فى الآية الأولى على التجارة ، وإن

---

(١) البيت لحسان بن ثابت .

(٢) البيت لضابئ بن الحارث .

كانت أبعد ، ومؤنثة أيضًا لأنها أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله تعالى من اللهو ، لأن المشتغلين بها أكثر من المشتغلين باللهو ، أو لأنها أكثر نفعًا من اللهو ،أو لأنها كانت أصلاً واللهو تبعًا لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ما عرف من تفسير الآية ، وأعاده فى الآية الثانية على الإثم رعاية لمرتبة القرب والتذكير .

٣٨٥ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة:٣٦] وهى عند الناس أيضًا كذلك فى كل ملة سواء كانت الشهور قمرية أو شمسية ؟

قلنا : فائدته أن يعلم أن هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس وابتدعوه بعقولهم من ذات أنفسهم ، وإنما هو أمر أنزله الله فى كتبه على ألسنة رسله .

٣٨٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] خص الأربعة الحرم بذلك وظلم النفس منهى عنه فى كل زمان؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما الضمير فى قوله تعالى : ﴿فِيهِنَّ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة:٣٦] لا الأربعة الحرم فقط ، فاندفع السؤال .

الثانى : أن الضمير راجع إلى الأربعة الحرم فقط ، إما لأنها أقرب ، أو لما قاله الفراء ، إن العرب تقول فى العشرة وما دونها لثلاث ليال خلون وأيام خلون وهن وهؤلاء ، فإذا جاوزت العشرة قالت خلت ومضت ، للفرق بين القليل وهو العشرة فما دونها ، وبين الكثير وهو ما زاد عليها ولهذا قال : فى الاثنى عشر: "منها" وقال فى الأربعة "فيهن" فعلى هذا يكون تخصيصها بالذكر إما لزيد فضلها وحرمتها عندهم فى الجاهلية فيكون ظلم النفس فيها أقبح ، ونظيره

قوله تعالى : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] وإن كان ذلك منهيًا عنه فى غير الحج أيضًا ، أو لأن المراد بالظلم النسىء ، وهو كان مخصوصًا بها ، أو قتال الكفار فيها ابتداءً أو ترك قتالهم إذا ابتدؤوا وكل ذلك مخصوص بها .

٣٨٧ - فإن قيل : الشهر مذكر فقياسه : فيها ؟

قلنا : الضمير بالهاء والنون لا يختص بالمؤنث ، ولو اختص فالمراد بقوله: "فيهن" ساعات الأشهر وهى مؤنثة .

٣٨٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] والإنسان لا يظلم نفسه بل يظلم غيره؟

قلنا : لا نسلم أنه لا يظلم نفسه قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء:١١٠] وقال الله تعالى : ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [االطلاق:١] .

الثاني : أن معناه فلا يظلم بعضكم بعضا كما قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ [البقرة:٨٤] وقال تعالى : ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٥٤] وقال تعالى : ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات:١١] .

الثالث: أن معناه فلا تنقصوا حظ أنفسكم من الآخرة بالمعصية، فإن من عصى فقد ظلم نفسه بنقصه ثوابها وتوجيه العقاب والذم إليها ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [االطلاق:١] .

الرابع : أن كل ظالم لغيره فهو ظالم لنفسه فى الحقيقة ، لأن ضرر ظلمه فى حق المظلوم ينقطع عن قريب لأنه لا يتعدى الدنيا ، وضرر ظلمه فى حق نفسه يراه فى الآخرة حيث لا ينقطع ، أو يكون أشد وأدوم .

٣٨٩ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة:٣٧] يدل على قبول الكفر للزيادة والنقصان ، فكذلك الإيمان الذى هو ضده ، فيكون حجة للشافعى رحمة الله عليه فى قوله : الإيمان يقبل الزيادة والنقصان ؟

قلنا : معناه زيادة معصية فى الكفر .

٣٩٠ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة:٤٤] إن كان نهيًا فأين الجزم ، وإن كان نفيًا فقد وقع المنفى ، لأن كثيرًا من المؤمنين المخلصين استأذنوه فى التخلف عن الجهاد لعذر ، ويعضده ، قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢] فقيل : إن المراد به كل أمر طاعة اجتمعوا عليه كالجهاد والجمعة والعيد ونحوها؟

قلنا : هو نهى بصيغة النفى كقوله تعالى : ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] .

الثانى : قال ابن عباس رضى الله عنهما هى منسوخة بقوله تعالى : ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ .

الثالث : أن المراد بقوله : ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية الاستئذان فى التخلف عن الجهاد من غير عذر ، وكذا المراد بالآية التى بعدها ، وبقوله : ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ إباحة الاستئذان فى التخلف عن الأمر الجامع لعذر فلا نسخ لإمكان العمل بالآيتين ، لأن محل الحكم مختلف ، وهو وجود العذر وعدمه .

٣٩١ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦] أخبر أنهم أمروا بالقعود ، وذمهم على القعود والتخلف عن الخروج للجهاد والاستئذان فى القعود ؟

قلنا : ليس فى الآية ما يدل على أن الله تعالى هو الآمر لهم ، فقيل : الآمر لهم بذلك هو الشيطان بالوسوسة والتزيين .

الثانى :أن بعضهم أمر بعضًا .

الثالث: أن النبى ﷺ قال لهم ذلك غضبًا عليهم .

الرابع : أنه أمر توبيخ وتهديد من الله تعالى لهم كقوله تعالى : ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت:٤٠] يعضده قوله تعالى : ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ أى: مع النساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم فى البيوت .

٣٩٢ – فإن قيل : إذا كان الله تعالى علم أن المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للجهاد ما زادوهم إلا خبالا ، أي : فسادًا ، ولأوضعوا خلالهم : أى : ولأسرعوا السعى بينهم بالنمائم ، فكيف أمرهم بالخروج مع المؤمنين ؟

قلنا : أمرهم بالخروج لإلزامهم الحجة ولإظهار نفاقهم .

٣٩٣ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ [التوبة:٥٣] يدل على أن الفسق يمنع قبول الطاعات؟

قلنا : المراد بالفسق هنا بالكفر والنفاق لا مطلق الفسق ، وذلك محبط للطاعات ومانع من قبولها ، ويعضده قوله عزّ وجل : ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ [التوبة:٥٤] الآية .

٣٩٤ – فإن قيل : لم عدل فى آية الصدقات عن اللام إلى "فى" فى المصارف الأربعة الأخيرة ؟

قلنا : للتنبيه على أنهم أقوى فى استحقاق الصدقة ممن سبق ذكره ، لأن "فى" للظرفية والوعاء ، فنبه بها على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات

ويجعلوا مصبًا لها ، ولما ورد فى فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر وفى فك الغارمين عن الدين من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازى الفقير أو المنقطع فى الحج بين الفقر ، ومثل هذه العبادة الشاقة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقير والغربة عن الأهل والمال ، ولا يرد المؤلفة قلوبهم ؛ لأن بعضهم كفار وبعضهم مسلمون ضعيفو النية فى الإسلام .

فكيف يعارض بهم من ذكرنا ، أو لأن الله تعالى علم أن وجوب إعطائهم سينسخ ، فلذلك جعلهم فى القسم المقدم الذى هو أضعف .

٣٩٥ - فإن قيل : لم كرر "فى" فى الأربعة الأخيرة ولم يكرر اللام فى الأربعة الأولى؟

قلنا : للتنبيه على ترجيح استحقاق المصرفين الأخيرين على الرقاب والغارمين من جهة أن إعادة العامل تدل على مزيد قوة تأكيد كقولك : مررت بزيد وبعمرو .

٣٩٦ - فإن قيل : لم عدّى فعل الإيمان إلى الله تعالى بالباء وإلى المؤمنين باللام فى قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة:٦١] ؟

قلنا : لأنه قصد التصديق بالله الذى هو ضد الكفر به ، فعداه بالباء كما يعدى ضده بها ، وقصد التسليم والانقياد للمؤمنين فيما يخبرون به لكونهم صادقين عنده ، فعداه بما يعدى به التسليم والانقياد ، ويعضده قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧] وقوله تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ [االبقرة:٧٥] وقوله تعالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمه ﴾ [يونس:٨٣] وقوله تعالى : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١] وأما قوله تعالى : ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه:٧١] فمشترك الدلالة لأنه قال فى موضع آخر : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ

لَكُمْ﴾ [الأعراف:١٢٣] وقال ابن قتيبة فى الجواب عن أصل السؤال : إن الباء واللام زائدتان ، والمراد بالإيمان التصديق ، فمعناه يصدق الله ويصدق المؤمنين.

٣٩٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا﴾ [التوبة:٦٣] يدل على تخليد أصحاب الكبائر فى النار ، لأن المراد بالمحادة المخالفة والمعاداة ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ [البقرة:٦٣] خبر عن المنافقين الذين سبق ذكرهم ، فيكون المراد به المحادة بالكفر والنفاق ، وذلك موجب للتخليد فى النار .

٣٩٨ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [التوبة:٦٤] وسورة القرآن إنما تنزل على النبى ﷺ لا على المنافقين ؟

قلنا : معناه أن تنزل فيهم ، فـ "على" هنا بمعنى "فى" كما فى قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] وقولهم كان ذلك على عهد فلان .

الثانى : أن الإنزال هنا بمعنى القراءة ، فمعناه أن تقرأ عليهم .

٣٩٩ - فإن قيل : الحذر فى هذه الآية واقع منهم على إنزال السورة ، فكيف قال تعالى : ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:٦٤] ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أى : مظهر ما تحذرون ظهوره من نفاقكم بإنزال السورة ، وهو مناسب لقوله تعالى : ﴿ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٦٤] .

الثانى : أن معناه مظهر ومبرز ما تحذرون من إنزال السورة .

٤٠٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وإنباؤهم بما فى قلوبهم تحصيل الحاصل لأنهم عالمون به فما فائدته ؟

قلنا : معناه تنبئهم بأن إسرارهم وما كتموه من النفاق شائعة ذائعة ، وتفضحهم بظهور ما اعتقدوا أنه لا يعرفه غيرهم ولا يطلع عليه سواهم ، وهذا ليس تحصيل الحاصل .

٤٠١ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧] وقال بعده : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] وكلمة " من " أدل على المشابهة والمجانسة من حيث أنها تقتضى الجزئية والبعضية ، فكانت بالمؤمنين أولى وأحرى ؛ لأنهم أشد تشابهًا وتجانسًا فى الصفات والأخلاق ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أى : بعضهم على دين بعض أى : على عادتهم وخلقهم بإضمار لفظة "الدين" أو "الخلق" ونحوه ؛ لأن "من" تأتى بمعنى "على" ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأنبياء:٧٧] وقوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٢٢٦] أى يحلفون على وطء نسائهم ، وهذا هو المعنى المراد فى قوله عليه الصلاة والسلام: "**فمن رغب عن سنتى فليس منى**" (١) وقوله عليه الصلاة والسلام : "**من غشنا فليس منا**" (٢) والمراد بقوله تعالى : ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أى : أنصارهم وأعوانهم فى الدين ، وكل واحدة من العبارتين صالحة للفريقين ، إلا أنه خص المنافقين بتلك العبارة تكذيبًا لهم فى حلفهم السابق فى قوله تعالى : ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة:٥٦] وتقريرًا لقوله تعالى : ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة:٥٦].

٤٠٢ - **فإن قيل** : أى فائدة فى قوله تعالى : ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟

---

(١) البخاري (٤٦٧٥) .

(٢) مسلم (١٤٦) من حديث أبي هريرة .

بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التوبة:٦٩] مع أن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التوبة:٦٩] بوضع الظاهر موضع الضمير مغن عنه ، كما قال تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩] من غير تكرار ؟

قلنا : فائدته تصدير التشبيه بذم المشبه بهم باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا واشتغالهم بشهواتهم الفانية عن النظر فى العاقبة الباقية وطلب الفلاح فى الآخرة ، وتهجين حالهم وتقبيح صفتهم ليكون التشبيه بعد ذلك أبلغ فى ذم المشبهين بأولئك الأولين ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويظلم ويفسق وأنت تفعل مثل فعله ، وأما قوله تعالى : ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ فإنه لما كان معطوفًا على ما قبله وهو التشبيه المصدر بتلك المقدمة أغنى ذلك عن إعادة تلك المقدمة المذكورة للتقبيح والتهجين .

٤٠٣ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٦٩] حبوط العمل وإن كان عبارة عن بطلان ثوابه فذلك إنما يكون فى الآخرة ، وإن كان عبارة عن بطلان منفعته فأعمال المنافقين فى الدنيا ليست باطلة المنفعة ، لأنهم ينتفعون بها فى حقن دمائهم وأموالهم وجريان أحكام المسلمين عليهم ؟

قلنا : المراد بالأعمال إن كانت نوعى أعمالهم الدينية والدنيوية ، فالحبوط فى الدنيا راجع إلى أعمالهم الدنيوية وهى كيدهم ومكرهم وخداعهم ونفاقهم الذى كانوا يقصدون به إطفاء نور الله تعالى ورفع آياته وبيناته ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، فلم ينالوا من ذلك ما أملوه وقصدوه من إبطال دين الله تعالى وستر نبوة محمد عليه الصلاة والسلام والحبوط فى الآخرة راجع إلى أعمالهم الدينية وهى عباداتهم وطاعاتهم لأنهم فعلوها نفاقًا ورياءً فبطل ثوابها

في الآخرة ، وإن كان المراد بأعمالهم مجرد الأعمال الدينية فحبطوها فى الدنيا هو عدم قبولها ، لأن الله تعالى يقبل العبادة فى الدنيا ، ثم يثيب عليها فى الآخرة ، والمراد بحبوطها فى الدنيا عدم قبولها وعدم إطلاق الأسماء الشريفة عليها ، كالعبادة والقرابة والحسنة ونحو ذلك ، وهذا ضد قوله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت:٢٧] فدل على أن للطاعات أجرًا معجلاً فى الدنيا غير الأجر المؤجل إلى الآخرة وهو القبول وحسن الثناء والذكر وإلقاء المحبة فى قلوب الخلق ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] قيل معناه : يحبهم ويحببهم إلى عبادة من غير سبب بينه وبينهم يوجب المحبة ، وكذلك على العكس حال العصاة والفساق يبغضهم ويبغضهم إلى عباده من غير سبب بينه وبينهم يوجب البغض .

٤٠٤ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة:٧٤] لم خص الأرض بالنفى مع أن المنافقين ليس لهم ولى ولا نصير من عذاب الله فى الأرض ولا فى السماء فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟

قلنا : لما كان المنافقون لا يعتقدون الوحدانية ولا يصدقون بالآخرة ، كان اعتقادهم وجود الولى والنصير مقصورًا على الدنيا ، فعبر عن الدنيا ، بالأرض وخصها بالذكر لذلك .

الثانى : أنه أراد بالأرض أرض الدنيا والآخرة فكأنه قال: وما لهم فى الدنيا والآخرة من ولى ولا نصير .

٤٠٥ - **فإن قيل** : لم خص السبعين بالذكر فى قوله : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة:٨٠] مع أن الله تعالى لا يغفر للمنافقين ولو استغفر لهم الرسول ﷺ ألف مرة بدليل قوله تعالى : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦] ولأنهم مشركون ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به ؟

قلنا : جرت عادة العرب بضرب المثل فى الآحاد بالسبعة ، وفى العشرات بالسبعين ، وفى المئات بسبعمائة استعظامًا لها واستكثارًا ، لا أنهم يريدون بذكرها الحصر ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم أعظم الأعداد وأكثرها فلن يغفر الله لهم ، ويعضده ما ذكره بعد ذلك من بيان الصارف عن المغفرة فى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٨١] .

٤٠٦ - **فإن قيل** : لو كان المراد ما ذكرتم لما خفى ذلك على النبى ﷺ وهو أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ، حتى قال لما نزلت هذه الآية : "**إن الله تعالى قد رخص لى فسأزيد على السبعين**" ، وفى رواية أخرى: "**فسأستغفر لهم أكثر من السبعين لعل الله أن يغفر لهم**"[1] .

قلنا : لم يخف عليه ذلك وإنما أراد بما قال إظهار غلبة رحمته ورأفته بمن بعث إليهم ، كما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] الآية وفى إظهار النبى ﷺ الرأفة والرحمة لطف لأمته ، وحث لهم على التراحم ، وشفقة بعضهم على بعض ، وهذا دأب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ألا ترى إلى قول إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] .

٤٠٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:٩١] والمغفرة والرحمة إنما تكون للمسيئين لا للمحسنين ؟

قلنا : معناه والله غفور رحيم للمسيئين إذا تابوا ، فهو متعلق بمحذوف لا بالمحسنين ، لأنهم قد سدوا بإحسانهم طريق العقاب والذم ، فليس عليهم

(١) ورد بمعناه في صحيح البخاري (٤٣٠٢) .

سبيل فيهما .

الثانى : أن المحسن من الناس وإن تناهى فى إحسانه لا يخلو عن إساءة بينه وبين الله تعالى ، أو بينه وبين الناس ، لكنه إذا أحسن باجتناب الكبائر غفر الله له صغائر سيئاته ورحمه ، كما قال تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١] الآية .

٤٠٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:١٠٥] أى : سيعلم ، لأن السين للاستقبال ، والرؤية من الله تعالى بمعنى العلم ، والله تعالى عالم بعلمهم حالاً ومالاً ؟

قلنا : معناه فى حق الله أنه سيعلمه واقعًا موجودًا كما علمه غيبًا ، لأن الله تعالى يعلم كل شىء على ما هو عليه ، فيعلم المنتظر منتظرًا ويعلم الواقع واقعًا، وأما فى حق الرسول عليه الصلاة والسلام فهو على ظاهره .

٤٠٩ - **فإن قيل** : إن الله تعالى قد وصف العرب بالجهل فى القرآن بقوله تعالى : ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩٧] فكيف يصح الاحتجاج بألفاظهم وأشعارهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟

قلنا : هذا وصف من الله لهم بالجهل فى أحكام القرآن ، لا فى ألفاظه، ونحن لا نحتج بلغتهم فى بيان الأحكام ، بل نحتج بلغتهم فى بيان معانى الألفاظ ؛ لأن القرآن والسنة جاءا بلغتهم .

٤١٠ - **فإن قيل** : كيف قال فى صفة المنافقين : ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:١٠١] وقال فى موضع آخر : ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠] ؟

قلنا : هذه الآية نزلت قبل تلك الآية فلا تناقض ، لأنه نفى علمه لهم فى

زمان ثم أثبته بعد ذلك فى زمان آخر .

٤١١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢] قد جعل كل واحد منهما مخلوطًا فأين المخلوط به ؟

قلنا : كل واحد مخلوط ومخلوط به ، لأن معناه : خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك ، خلطت الماء واللبن ، تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه من المبالغة ما ليس فى قولك ، خلطت الماء باللبن ، لأنك بالباء جعلت الماء مخلوطًا واللبن مخلوطًا به ، وبالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطًا بهما، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء كقولهم ، بعت شاة ودرهما ، يعنون شاة بدرهم .

٤١٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢] بالواو وما قبلها من الصفات بغير واو ؟

قلنا : لأنها صفة ثامنة ، والعرب تدخل الواو بعد السبعة إيذانًا بتمام العدد، فإن السبعة عندهم هى العقد التام كالعشرة عندنا ، فأتوا بحرف العطف الدال على المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] بعدما ذكر العدد مرتين بغير واو ، وقوله تعالى فى صفة الجنة : ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] بالواو لأنها ثمانية ، وقال فى صفة النار نعوذ بالله منها : ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] بغير واو لأنها سبعة ، وليس قوله تعالى : ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم:٥] من هذا القبيل ، لأن الواو لو أسقطت فيه لاستحال المعنى لتناقض الصفتين ، وقيل إنما دخلت الواو على الناهين عن المنكر إعلامًا بأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر فى حال أمره بالمعروف ، فهما صفتان متلازمتان بخلاف باقى الصفات المذكورة ؛ فإنها ليست متلازمة ، ولا ينقض هذا بقوله تعالى : ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة:١١٢] لأنهما ليستا

صفتين متلازمتين ، لأن السجود يلزم الركوع ، أما الركوع فلا يلزم السجود ، بدليل سجود التلاوة وسجود الشكر، والزمخشرى لم يتكلم على هذه الواو .

٤١٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٢١] أى : بأحسن الذى كانوا يعلمون بإضمار حرف الجر ، مع أنهم يجزون بحسنة أيضًا لقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧] ؟

قلنا : معناه بحسن الذى كانوا يعملون ، وهو الطاعات كلها ، لا بسيئه وهو العاصى ، فالأحسن هنا بمعنى الحسن ، وسيأتى فى سورة الروم فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] ما يوضح هذا إن شاء الله تعالى .

الثانى : أن معناه ليجزيهم الله بأحسن من الذى كانوا يعملون .

٤١٤ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] يدل على أن الإيمان يقبل الزيادة ؟

قلنا : قال مجاهد : معناه فزادتهم علمًا ، لأن العلم من ثمرات الإيمان فجعل مجازًا عنه ، والله أعلم .

*** *** ***

سورة يونس عليه السلام

٤١٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] والله تعالى فصل الآيات للعلماء والجهال أيضًا ؟

قلنا : لما كان يقع تفضيل الآيات مخصوصًا بالعلماء وانتفاعهم بالتفضيل أكثر ، أضاف التفصيل إليه وخصهم به .

٤١٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠] مع أن أقوال أهل الجنة وأحوالهم لا آخر لها ، لأن الجنة دار الخلود ؟

قلنا : معناه وآخر دعائهم فى كل مجلس دعاء أو ذكر أو تسبيح ، فإن أهل الجنة يسبحون ويذكرون للتنعم والتلذذ بالذكر والتسبيح .

٤١٧ - **فإن قيل** : قد أنكر الله تعالى على الكفار احتجاجهم بمشيئته فى قوله تعالى : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] ولهذا لا يجوز للعاصى أن يحتج فى وجود المعصية منه بقوله لو شاء الله ما فعلت هذه المعصية، فلا يقيموا على أحدها : فكيف قال النبى ﷺ : **"لو شاء الله ما تلوته عليكم"** ؟

قلنا : النبى ﷺ قال هذه الجملة بأمر الله تعالى ، لأن الله عز وجل قال له : ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [يونس:١٦] وللعبد أن يحتج بمشيئة الله إذا أمره الله أن يحتج بها ، أما ما ليس كذلك فليس له أن يحتج بمجرد المشيئة ، وما أوردتموه كذلك .

٤١٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ

﴿ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٣] والبغى لا يكون إلا بغير الحق ، لأن البغى هو التعدى والفساد ، من قولهم بغى الجرح ، إذا فسد ، كذا قاله الأصمعى [١] ، فما فائدة التقييد ؟

قلنا : قد يكون الفساد بالحق كاستيلاء المسلمين على أرض الكفار وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم ، كما فعل رسول الله ﷺ ببنى قريظة.

٤١٩ - فإن قيل : كيف شبه الله تعالى الحياة الدنيا ، بماء السماء دون ماء الأرض فقال : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٢٤] ؟

قلنا : لأن ماء السماء وهو المطر لا تأثير لكسب العبد فيه ولا حيلة للعبد فى زيادته ونقصانه ، كما أن الحياة لا حيلة للعبد فى زيادتها ونقصانها .

الثانى : أن ماء السماء يستوى فيه جميع الخلائق ، الوضيع والشريف ، والغنى والفقير والحيوان وغيره أيضًا كالمدر والحجر والشوك والثمر ، كما أن الحياة كذلك فكأن تشبيه الحياة بماء السماء أشد مناسبة ومطابقة .

٤٢٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ [يونس:٢٨] وقال فى موضع آخر : ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة:١٧٤] ؟

قلنا : يوم القيامة مواقف ومواطن ، ففى موقف لا يكلمهم ، وفى موقف يكلمهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] وقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣] .

---

(١) هو أبو سعيد عبد الله بن قريب بن أصمع الباهلي راوية الشعر واللغة ولد في البصرة١٢٢هـ وتوفى ٢١٦هـ .

الثانى : المراد أنه لا يكلمهم كلام إكرام ، بل كلام توبيخ وتقريع .

٤٢١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٣١] إلى آخر الآية يدل على أنهم معترفون أن الله تعالى هو الخالق والرازق والمدبر لجميع المخلوقات ، فكيف يعترفون بذلك كله ثم يعبدون الأصنام ؟

قلنا : كانوا يعتقدون فى عبادة الأصنام أنهم يتقاربون بها عبادة الله ، فطائفة كانت تقول ، نحن لا نتأهل لعبادة الله تعالى بغير واسطة لعظمة إجلاله ونقصنا وحقارتنا ، فجعلوا الأصنام وسائط كما قال تعالى : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣] وطائفة كانت تقول : نتخذ أصنامًا على هيئة الملائكة ونعبدهم لتشفع لنا الملائكة عند الله ليقربونا إلى الله ، وطائفة كانت تقول : الأصنام قبلة في عبادة الله ، كما أن الكعبة قبلة فى عبادته ، وطائفة وهى الأكثر كانت تقول : على كل صنم شيطان ، موكل به من عند الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه على وفق مراده بأمر الله ، ومن قصر فى عبادة الصنم أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله ، فكل الطوائف من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بعبادتهم الأصنام عبادة الله والتقرب إليه ، ولكن بطرق مختلفة.

٤٢٢ - فإن قيل :كيف قال تعالى : ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس:٣٤] وهم غير معترفين بوجود الإعادة أصلاً ، لا من الله ولا من غيره ؟

قلنا : لما كانت الإعادة ظاهرة الوجود لظهور برهانها ، وهو القدرة على ابتداء الخلق ، والإعادة أهون بالنسبة إلينا ، لزمهم الاعتراف بها ، فصاروا كأنهم مسلمون وجودها من حيث حيث ظهور الحجة ووضوحها .

٤٢٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس:٤٦] رتب كونه شهيدًا على أفعالهم على رجوعهم إليه فى

القيامة، مع أنه شهيد على أفعالهم فى الدنيا والآخرة ؟

قلنا : ذكر الشهادة وأراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب والجزاء ، فكأنه قال : ثم الله يعاقب على ما يفعلون ، أو مجاز على ما يفعلون ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٩٧] ونظائره فى القرآن العزيز كثيرة .

٤٢٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٥٠] ولم يقل ليلاً أو نهارًا ، وهو أظهر فى المطابقة استعمالاً مع النهار فى القرآن العزيز وغيره ؟

قلنا : لأن المعهود المألوف فى كلام العرب عند ذكر البطش والإهلاك والوعيد والتهديد ذكر لفظ البيات سواء قرن به النهار أولاً ، فلذلك لم يقل: ليلاً.

٤٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠] أى ماذا يستعجلون مله ، وأول الآية للمواجهة ؟

قلنا : أراد بذكر المجرمين ، الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام ، لأن من حق المجرم أن يخلف التعذيب على إجرامه ويفزع من مجيئه وإن أبطأ ، فضلاً عن أن يستعجله .

٤٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس:٥٨] ولم يقل فبذينك ، والمشار إليه اثنان ، الفضل والرحمة ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة ، فى قوله تعالى : ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨] .

٤٢٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [يونس:٦٠] تهديد ، لأن فيه محذوفًا تقديره : وما ظنهم أن الله فاعل بهم يوم القيامة بكذبهم، فكيف يناسبه قوله تعالى بعده : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:٢٤٣]؟

قلنا : هـو مناسب لأن معناه إن الله لـذو فضل على النـاس . حيث أنعم عليهم بالعقل والوحى والهداية ، وتأخر العذاب وفتح باب التوبة ، فكيف يفترون على الله الكذب مع توافر نعمه عليهم .

٤٢٨ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ [يونس:٦١] ، فأفرد ثم قال : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ [يونس:٦١] فجمع، والخطاب للنبى ﷺ ؟

قلنا : قال ابن الأنبارى : إنما جمع فى الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبى ﷺ فى الفعلين الأولين ، وقال غيره : المراد بالفعل الثالث أيضًا : النبى ﷺ وحده ، وإنما جمع تفخيمًا له وتعظيمًا ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ [البقرة:٧٥] على قول ابن عباس رضى الله عنهما ، وكما فى قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١] والمراد به النبى ﷺ ، كذا قاله ابن عباس والحسن وغيرهما ، واختاره ابن قتيبة والزجاج .

٤٢٩ – **فإن قيل** : كيف قدم الأرض على السماء فى قوله تعالى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١] وقدم السماء على الأرض فى قوله تعالى فى سورة سبأ : ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣] ؟

قلنا : حق السماء أن تقدم على الأرض مطلقًا لأنها أشرف ، لكنه لما ذكر هنا فى صدر الآية شهادته على شؤون أهل الأرض وأقوالهم وأعمالهم ثم أردفه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ [يونس:٦١] تناسب ذلك تقديم الأرض على السماء.

الثانى : أن العطف بالواو نظير التثنية وحكمه حكمها ، فلا يعطى رتبة

كالتثنية .

٤٣٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥] وقال فى موضع آخر : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨] ؟

قلنا : أثبت الاشتراك فى نفس العزة التى هى فى حق الله تعالى القدرة والغلبة ، وفى حق الرسول ﷺ علو كلمته وإظهار دينه ، وفى حق المؤمنين نصرهم على أعدائهم ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس:٦٥] أراد به العزة الكاملة التى يندرج فيها عزة الإلهية والخلق والإماتة والإحياء والبقاء الدائم وما أشبه ذلك فلا تنافى .

٤٣١ - **فإن قيل** : إذا كانت السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات وما وراءهما كل ذلك لله تعالى ملكًا وخلقًا ، فما فائدة التخصيص فى قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:٦٦] ؟

قلنا : إنما خص العقلاء المميزين بالذكر وهم الملائكة والثقلان ، ليعلم أن هؤلاء إذا كانوا عبيدًا له وهو ربهم ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا للشركة معه ، فما وراهم مما لا يعقل كالأصنام والكواكب ونحوهما أحق أن لا تكون له ندًا وشريكًا .

٤٣٢ - **فإن قيل** : كيف قال لهم موسى عليه السلام : ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ [يونس:٧٧] على طريق الاستفهام ، وهم إنما قالوا ذلك على طريق الإخبار أو التحقيق المؤكد بأن واللام لا على طريق الاستفهام ، قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٧٦] ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين ثم قال أسحر هذا ، إنكار لما قالوه ، فالاستفهام من قول موسى عليه السلام لا مفعول لقولهم .

٤٣٣ – فإن قيل : كيف نوّع الخطاب فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧] فثنى أولاً ثم جمع ثم أفرد ؟

قلنا : خوطب أولاً موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتًا ويختاراها للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم سيق الخطاب عامًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا لها أو تعظيمًا له عليه السلام .

٤٣٤ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩] أضافها إليهما والدعوة إنما صدرت من موسى عليه السلام ، قال الله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ [يونس:٨٨] إلى آخر الآية ؟

قلنا : نقل أن موسى عليه السلام كان يدعو وهارون كان يؤمن على دعائه، والتأمين دعاء فى المعنى فلهذا أضاف الدعوة إليهما .

الثانى : أنه يجوز أن يكون هارون دعا أيضًا مع موسى ، إلا أن الله تعالى خص موسى بالذكر لأنه أسبق بالدعوة أو أحرص عليها أو أكثر إخلاصًا فيها.

٤٣٥ – فإن قيل : لو كان كذلك لقال تعالى دعونا كما بالتثنية ؟

قلنا : لما كانت الدعوة مصدرًا اكتفى بذكرها فى موضع الإفراد والتثنية والجمع بصيغة واحدة كسائر المصادر ، ونظيره قوله تعالى : ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة:٧] .

٤٣٦ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤] وإن إنما تدخل على ما هو محتمل الوجود ، وشك النبى ﷺ فى

القرآن منتف قطعًا ؟

قلنا : الخطاب ليس للنبى ﷺ بل لما كان شاكًا فى القرآن وفى نبوة محمد ﷺ، فكأنه قال : "**فإن كنت أيها الإنسان فى شك**" .

٤٣٧ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿مِمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس:٩٤] يدل على أن الخطاب للنبى ﷺ لا لغيره .

قلنا : لا يدل ، قال الله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١٧٤] وقال تعالى : ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ [يونس:٦٤] .

الثانى : أن الخطاب للنبى ﷺ والمراد غيره كما فى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] ويعضده هذا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:٩٤] ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعده : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ [يونس:١٠٤].

الثالث : أن تكون "إن" بمعنى "ما" تقديره : فما كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل ، المعنى لسنا نأمرك أن تسأل أحبار اليهود والنصارى عن صدق كتابك ، لأنك فى شك منه ، بل لتزداد بصيرة ويقينًا وطمأنينة .

الرابع : أن الخطاب للنبى ﷺ مع انتفاء الشك منه قطعًا أو المراد به إلزام الحجة على الشاكين الكافرين كما يقول لعيسى ﷺ : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:١١٦] وهو عالم بانتفاء هذا القول منه لإلزام الحجة على النصارى.

٤٣٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس:٩٩] ما فائدة ذكر "**جميعًا**" بعد قوله : "**كلهم**" وهو يفيد

الشمول والإحاطة ؟

قلنا : كل يفيد الشمول والإحاطة ، ولا يدل على وجود الإيمان منهم بصفة الاجتماع وجميعًا يدل على وجوده منهم فى حالة واحدة ، كما تقول: جاءنى القوم جميعًا : أى : مجتمعين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠] .

٤٣٩ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس:١٠١] كيف يصح هذا الأمر مع أنا لا نعلم جميع ما فيها ولا نراه ؟

قلنا : هو عام أريد ما ندركه بالبصر مما فيهما كالشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والمعادن والحيوانات والنبات ونحو ذلك مما يدل على وجود الصانع وتوحيده وعظيم قدرته ، فيستدل به على ما وراءه .

٤٤٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام:١٧] الآية ما الحكمة فى ذكر المس فى الضر والإرادة فى الخير ؟

قلنا : لاستعمال كل من المس والإرادة فى كل من الضر والخير ، وأنه لا مزيل لما يصيب به منهما ولا رادّ لما يريده فيهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المس فى أحدهما والإرادة فى الآخر ليدل بما ذكر على ما لم يذكر مع أنه قد ذكر المس فيهما فى سورة الأنعام ، وإنما عدل هنا عن لفظ المس المذكور فى سورة الأنعام إلى لفظ الإرادة لأن الجزاء هنا قوله تعالى : ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧] والرد إنما يكون فيما لم يقع بعد ، والمس إنما يكون فيما وقع ، فلهذا قال ثم : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام:١٧] ومعناه : فإن شاء أدام ذلك الخير ، وإن شاء أزاله ، فلا يطلب دوامه وزيادته إلا منه تعالى .

*** *** ***

سورة هود عليه السلام

٤٤١ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٣] مع أن التوبة مقدمة على الاستغفار ؟

قلنا : المراد استغفروا ربكم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ، كذا قاله مقاتل : وهذا الاستغفار مقدم على هذه التوبة .

الثانى : أن فيه تقديمًا وتأخيرًا.

الثالث قال الفراء : ثم هنا بمعنى الواو ، وهى لا تفيد ترتيبًا فاندفع السؤال.

٤٤٢ – فإن قيل : من لم يستغفر ولم يتب فإن الله يمتعه متاعًا حسنًا إلى أجله ، أى : يرزقه ويوسع عليه كما قال ابن عباس ، أو يعمره كما قال ابن قتيبة، فما فائدة قوله تعالى : ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [هود:٣]؟

قلنا : قال غيرهما المتاع الحسن المشروط بالاستغفار والتوبة وهو الحياة فى الطاعة والقناعة ، ومثل هذه الحياة إنما تكون للمستغفر التائب التقى .

٤٤٣.– فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود:٦] كيف لم يقل على الأرض مع أنه أشد مناسبة لتفسير الدابة لغة فإنها ما يدب على وجه الأرض ؟

قلنا : "فى" هنا بمعنى "على" ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] وقوله تعالى : ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] .

الثاني : أن لفظة "في" أعم وأشمل ، لأنها تتناول كل دابة على وجه الأرض وكل دابة في باطن الأرض بخلاف على .

٤٤٤ - فإن قيل : كيف خص الدابة بذكر ضمان الرزق ، والطير كذلك رزقه على الله تعالى ، وهو غير الدابة بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨] ؟

قلنا : إنما خص الدابة بالذكر ، لأن الدواب أكثر من الطيور عددًا ، وفيها ما هو أكبر جثة من كل فرد من أفراد الطير كالفيل والحوت ، فيكون أحوج إلى الرزق ، فلذلك خصه بالذكر .

٤٤٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ وعلى الوجوب ، والله تعالى لا يجب عليه شيء وإنما يرزقها تفضلاً منه وكرمًا ؟

قلنا : "على" هنا بمعنى "من" كما في قوله تعالى : ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين:٢] .

الثاني : أنه ذكره بصيغة الوجوب ليحصل للعبد زيادة سكون وطمأنينة في حصوله .

٤٤٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧] والخطاب عام للمؤمنين والكافرين ، فإنه امتحن الفريقين بالأمر بالطاعة والنهي عن المعصية وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال الفريقين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [هود:٧] عام أريد به الخاص وهم المؤمنون تشريفًا لهم وتخصيصًا فصح قوله أحسن عملاً .

٤٤٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود:١٢] ولم

يقل : وضيق ؟

قلنا : ليدل على أن ضيقه عارض غير ثابت ، لأن النبى ﷺ كان أفسح الناس صدرًا ، ونظيره قولك : زيد سائد وجائد ، فإذا أردت وصفه بالسيادة والجود الثابتين المستقرين قلت : زيد سواد وجواد كذا قال الزمخشري .

٤٤٨ - **فإن قيل** : قال تعالى : ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود:١٣] أمرهم بالإتيان بمثله وما يأتون به لا يكون مثله، لأن ما يأتون به مفترى والقرآن ليس بمفترى ؟

قلنا : أراد به مثله فى البلاغة والفصاحة وإن كان مفترى ، وقيل : معناه مفتريات ، كما أن القرآن مفترى فى زعمكم واعتقادكم فيتماثلان .

٤٤٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ [هود:١٣] فأفرد فى قوله " قل " ثم جمع فقال : ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ﴾ [هود:١٤]؟

قلنا : الخطاب للنبى ﷺ فى الكل ، ولكنه جمع فى قوله : ﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ﴾ [هود:١٤] تفخيمًا له وتعظيمًا .

الثانى : أن الخطاب الثانى للنبى ﷺ وأصحابه ، لأن النبى ﷺ وأصحابه كانوا يتحدونهم بالقرآن ، وقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ﴾ [القصص:٥٠] يعضد الوجه الأول .

الثالث : أن يكون الخطاب فى الثانى والثالث للمشركين ، والضمير فى يستجيبوا لمن استطعتم ، يعنى فإن لم يستجب لكم من تدعونه المظاهرة على معارضته لعجزهم فاعلموا أيها المشركون إنما أنزل بعلم الله ، وهذا وجه لطيف .

٤٥٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود:١٦] يدل على بطلان عملهم ، فما فائدة قوله بعده : ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ [هود:١٦] أي : بطل ثواب ما صنعوا من الطاعات في الدنيا : ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٦] من الرياء.

٤٥١ - **فإن قيل** : كيف قال نوح عليه السلام : ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود:٢٩] بالواو وقال هود عليه السلام : ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [هود:٥١] بغير الواو ؟

قلنا : لأن الضمير في قولهما : ﴿عَلَيْهِ﴾ لتبليغ الرسالة المدلول عليه بأول الكلام في القصتين ، ولكن في قصة نوح عليه السلام وقع الفصل بين الضمير وبين ما هو عائد عليه بكلام آخر ، فجيء بواو الابتداء ، وفي قصة هود عليه السلام لم يقع بينهما فصل فلم يحتج إلى واو الابتداء ، هذا ما وقع لي فيه ، والله أعلم .

٤٥٢ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود:٤٣] لا يناسبه المستثنى في الظاهر وهو قوله : ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود:٤٣] لأن المرحوم معصوم ، فظاهره يقتضي لا معصوم إلا مَن رحم ، أي : لا معصوم من الغرق بالطوفان إلا من رحمه الله بالإنجاء في السفينة .

قلنا : "عاصم" هنا بمعنى معصوم ، كقوله تعالى : ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] أي : مدفوق ، وقوله تعالى : ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [هود:٢١] أي : مرضية ، وقول العرب : سر كاتم : أي مكتوم .

الثاني: أن معناه : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم : أي إلا الراحم وهو الله تعالى ، وليس معناه المرحوم ، فكأنه قال : لا عاصم إلا الله .

الثالث: أن معناه : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا مكان من رحم الله من

المؤمنين ونجاهم وهو السفينة ، ويناسب هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [هود:٤١] وهذا لأن ابن نوح عليه السلام لما جعل الجبل عاصماً من الماء رد نوح عليه السلام ذلك، ودله على العاصم وهو الله تعالى ، أو المكان الذى أمر الله بالالتجاء إليه وهو السفينة .

٤٥٣ - فإن قيل : كيف صح أمر السماء والأرض بقوله تعالى : ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ [هود:٤٤] وهما لا يعقلان ، والأمر والنهى إنما يكون لمن يعقل ويفهم الخطاب ؟

قلنا : الخطاب لهما فى الصورة ، والمراد به الخطاب للملائكة الموكلين بتدبيرهما .

الثانى : أن هذا أمر إيجاد لا أمر إيجاب ، وأمر الإيجاد لا يشترط فيه العقل والفهم ، لأن الأشياء كلها بالنسبة إلى أمر الإيجاد مطيعة منقادة لله تعالى، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] وقوله تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١] كل ذلك أمر إيجاد.

٤٥٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود:٤٥] بالفاء، وقال فى قصة زكريا عليه الصلاة والسلام : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ ﴾ [مريم:٣، ٤] ؟

قلنا : أراد بالنداء هنا إرادة النداء فجاء بالفاء الدالة على السببية ، فإن إرادة النداء سبب للنداء ، فكأنه قال : وأراد نوح نداء ربه فقال كيت وكيت وأراد به فى قصة زكريا عليه الصلاة والسلام حقيقة النداء ، فلهذا جاء بغير فاء لعدم ما يقتضى السببية .

٤٥٥ - فإن قيل : هود عليه الصلاة والسلام كان رسولاً ولم يظهر معجزة ،

ولهذا قال له قومه : ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] فبأى شيء لزمتهم رسالته؟

قلنا : إنما يحتاج إلى المعجزة من الرسل من يكون صاحب شريعة لتنقاد أمته لشريعته ، فإن فى كل شريعة أحكامًا غير معقولة فيحتاج الرسول الآتى بها إلى معجزة لتشهد بصحة صدقه ، فأما الرسول الذى لا تكون له شريعة ولا يأمر إلا بالعقليات فلا يحتاج إلى معجزة ، لأن الناس ينقادون إلى ما يأمرهم به لموافقته للعقل ، وهود كان كذلك .

الثانى : أنه نقل أن معجزة هود كانت الريح الصرصر فإنها كانت سخرت له . .

٤٥٦ – فإن قيل : على الوجه الأول لو كان أمره لهم مقصورًا على العقليات لما خالفوه وكذبوه ونسبوه إلى الجنون بقولهم : ﴿يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] إلى قوله : ﴿بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤] ؟

قلنا : إنما صدر ذلك القول من قاصرى العقول أو المعاندين المكابرين كما قيل ذلك لكل رسول بعد إتيانه بالمعجزات الظاهرات والآيات الباهرات .

٤٥٧ – فإن قيل : هلا قال : "إني أشهد الله وأشهدكم" ليتناسب الجملتان ؟

قلنا : لأن إشهاد الله تعالى على البراءة من الشرك إشهاد صحيح مفيد تأكيد التوحيد وشد معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهكم بهم وتهاون ودلالة على قلة المبالاة لأنهم ليسوا أهلاً للشهادة ، فعدل به عن اللفظ الأول وأتى به على صورة التهكم والتهاون كما يقول الرجل لصاحبه إذا لاحاه ، أشهد إنى لأحبك، تهكمًا به واستهانة له .

٤٥٨ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ [هود:٥٧] جعل التولى شرطًا والإبلاغ جزاء ، والإبلاغ كان سابقًا على التولى ؟

قلنا : ليس الإبلاغ جزاء التولى ، بل جزاؤه محذوف تقديره : فإن تولوا لم أعاتب على تفريط فى الإبلاغ أو تقصير فيه ، ودل على الجزاء المحذوف قوله : ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ [الأعراف:٩٣] .

الثانى : قال مقاتل تقديره ، فإن تولوا فقل : لهم قد أبلغتكم .

٤٥٩ - فإن قيل : ما فائدة تكرار التنجية فى قوله تعالى : ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود:٥٨]؟

قلنا : أراد بالتنجية الأولى تنجيتهم من عذاب الدنيا الذى نزل بقوم هود، وهو سموم أرسلها الله تعالى عليهم فقطعتهم عضوًا عضوًا ، وأراد بالتنجية الثانية تنجيتهم من عذاب الآخرة الذى استحقه قوم هود بالكفر ولا عذاب أغلظ منه ولا أشد .

٤٦٠ - فإن قيل : ﴿بُعْدًا﴾ [هود:٦٠] معناه عند العرب الدعاء عليهم بالهلاك بعد هلاكهم؟

قلنا : معناه الدلالة على أنهم متسأهلون له وحقيقون به ، ونقيضه قول الشاعر :

إخوتى لا تبعدوا أبدًا وبلى والله قد بعدوا [١]

أراد بالدعاء لهم بنفى الهلاك بعد هلاكهم الإعلام بأنهم لم يكونوا مستأهلين له ولا حقيقين به .

٤٦١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود:٨٤]

---

(١) البيت لفاطمة بنت الأحجم الخزاعية .

نهى عن النقص فيهما، والنهى عن النقص أمر بالإيفاء معنى ، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [هود:٨٥] ؟

قلنا : صرح أولاً بنهيهم عن النقص الذى كانوا يفعلونه لزيادة المبالغة فى تقبيحه وتغييرهم إياه ، ثم صرح بالأمر بالإيفاء بالعدل الذى هو حسن عقلاً لزيادة الترغيب فيه والحث عليه .

٤٦٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود:٨٥] والعثو الفساد ، فيصير المعنى ، ولا تفسدوا فى الأرض مفسدين ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال وجوابه فى سورة البقرة ، وجواب آخر معناه: ولا تعثوا فى الأرض بالكفر وأنتم مفسدون بنقص المكيال والميزان .

٤٦٣ - فإن قيل : كيف قال : ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [هود:٨٦] فشرط الإيمان فى كون البقية خيرًا لهم ، وهى خير لهم مطلقًا لأن المراد ببقية الله ما يبقى لهم من الحلال بعد إيفاء الكيل والوزن وذلك خير لهم وإن كانوا كفارًا ، لأنهم يسلمون معه فى عقاب البخس والتطفيف ؟

قلنا : إنما شرط الإيمان فى خيرية البقية ، لأن خيريتها وفائدتها مع الإيمان أظهر ، وهو حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، ومع فقد الإيمان أخفى لإنغماس صاحبها فى عذاب الكفر الذى هو أشد العذاب .

الثانى : أن المراد إن كنتم مصدقين فيما أقول لكم وأنصح .

٤٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩] ولم يقل ببعيدين والقوم اسم لجماعة الرجال ، رما جاء فى القرآن الضمير العائد إليه إلا ضمير جماعة ، قال الله تعالى : ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ ﴾ [نوح:١] وقال تعالى : ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا﴾ [الحجرات:١١]؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، وما هلاك قوم لوط أو مكان قوم لوط ، ومكان قوم لوط كان قريبًا منهم ، وإهلاكهم أيضًا كان قريبًا من زمانهم .

الثانى : أن فعيلاً يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع ، قال الجوهرى : يقال : ما أنتم منا ببعيد ، وقال الله تعالى : ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤] وقال : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] .

٤٦٥ - **فإن قيل** : قولهم : ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١] كلام واقع فيه وفى رهطه وأنهم الأعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود:٩٢] ؟

قلنا : تهاونهم به وهو نبى الله تهاون بالله ، فحين عز رهطه عليهم دونه كان رهطه أعز عليهم من الله ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [هود:٦] وقوله : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح:١٠] .

٤٦٦ - **فإن قيل** : قد ذكر عملهم على مكانتهم وعمله على مكانته ، ثم أتبعه بذكر عاقبة العاملين منه ومنهم، فكان المطابق والموافق فى ظاهر الفهم أن يقول : من يأتيه عذاب يخزيه حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إليهم ، ومن هو صادق إليه ؟

قلنا : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذبًا قال : ومن هو كاذب ، يعنى فى زعمكم ودعوا كم تجهيلاً لهم .

٤٦٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢] والقرى لا تكون ظالمة ، لأن الظلم من صفات من يعقل أو من صفات الحيوان دون الجماد ؟

قلنا : هو من الإسناد المجازى ، والمراد به أهلها ، كما قال تعالى فى موضع آخر : ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء:٧٥] لكن لما أمن اللبس

أسند الظلم إلى القرية لفظًا كما فى قوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] .

٤٦٨ - **فإن قيل** : كيف التوفيق بين قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود:١٠٥] وقوله : ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١] وقوله : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٥، ٣٦] فإن الآية الثالثة تناقض الآية الأولى بنفى الإذن ، وتناقض الآيتين جميعًا بنفى النطق ؟

قلنا : أما التوفيق بين الآيتين الأوليين فظاهر ، لأن معناه تجادل عن نفسها بإذنه فتوافقت الآيتان ، وأما الآية الثالثة فإنها لا تناقض الآية الأولى بنفى الإذن، إن قلنا إن الاستثناء من النفى ليس بإثبات لأن الآية الأولى لا تقتضى وجود الإذن حينئذ بل تقتضى نفى الكلام عند انتفاء الإذن ، فأما إن قلنا إن الاستثناء من النفى إثبات ناقضت الآية الثالثة الأولى ولا تناقض الآيتين بنفى النطق ، لأن يوم القيامة يوم طويل فيه مواقف ومواطن ، ففى بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم فيه ، وفى بعضها يؤذن لهم فيتكلمون ، وفى بعضها يختم على أفواههم وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم، وهذا جواب عام عن مثل هذه الآيات ويرد على هذا أن يقال قوله تعالى : ﴿هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات:٣٥] نفى النطق عنهم يوم القيامة ، فيقتضى انتفاءه فى جميع أجزاء ذلك الزمان عملاً بعموم النفى ، كما يعم النفى جميع أجزاء المكان فى قولنا : لا وجود لزيد فى الدار ، فاندفع الجواب باختلاف المواقف والمواطن ، فيكون الجواب أن الآية الثالثة أريد بها طائفة خاصة غير الطائفتين الأوليين فلا تناقض.

٤٦٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] وكلمة "من" للتبعيض ، ومعلوم أن الناس كلهم إما شقى أو سعيد ، فما معنى التبعيض ؟

قلنا : التبعيض هنا على حقيقته ، لأن أهل القيامة ثلاثة أقسام : قسم شقى وقسم سعيد وهم أهل النار والجنة كما ذكر فى هذه الآية مفصلاً ، وقسم لا شقى ولا سعيد وهم أهل الأعراف .

الثانى : أن معنى كلام : فمنهم شقى ومنهم سعيد ، وهذا لا يقتضى أن يكون الشقى بعض الناس والسعيد بعض الناس ، والأمر كذلك ، ولا يقتضى أن يكون الشقى والسعيد كلاهما بعض الناس بل كل واحد منهما بعض ، وكلاهما كل كما تقول من الحيوان إنسان ، ومن الحيوان غير إنسان ، وكل الحيوان إما إنسان أو غير إنسان .

٤٧٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧] وأراد به بيان دوام الخلود ، مع أن أهل الجنة وأهل النار مخلدون فيها خلودًا لا نهاية له ، والسموات والأرض ودوامها منقطع لأنها يوم القيامة يندمان ، قال الله تعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١] وقال تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار:١] وقال تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] ونظائره كثيرة مما يدل على خراب السماوات والأرض ؟

قلنا : للعرب فى معنى الأبد ألفاظ تعبر بها عن إرادة الدوام دون التأقيت منها هذا ، يقولون : لا أفعل كذا ما اختلف الليل والنهار ، ما دامت السماء والأرض ، وما أطمت الإبل ، ويريدون بذلك لا أفعله أبدًا مع قطع النظر عن كون المؤقت به له نهاية أو لا نهاية له .

الثانى : أنه خاطبهم على معتقدهم أن السماوات والأرض لا تزول ولا تتغير .

الثالث : أنه أراد به كون الفريقين فى قبورهم إما منعمين أو معذبين ، كما

جاء فى الحديث "أن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار"[١] ومن كان فى روضة من رياض الجنة فهو فى الجنة ، ومن كان فى حفرة من حفر النار فهو فى النار ، فعلى هذا يكون المراد بالتأقيت بدوام السموات والأرض مدة الخلود إلى يوم القيامة ، الرابع : أن المراد بها سموات الآخرة وأرضها ، قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] وتلك دائمة لا تزول ولا تفنى ، ولأنه لابد لأهل الجنة مما يقلهم ويظلهم ، إما سماء يخلقها الله تعالى ، أو العرش ، كما جاء فى الأخبار أن أهل الجنة تحت ظل العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء ، وجاء فى الأخبار أيضًا فى صفة الجنة أن ترابها من زعفران ، فدل أن لها أرضًا ، والمراد تلك السماوات وتلك الأرض .

٤٧١ - فإن قيل : إذا كان المراد بهذا التأقيت دوام الخلود دوامًا لا آخر له ، فكيف يصح الاستثناء فى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ ؟

قلنا : قال الفراء "إلا" هنا بمعنى "غير" و "سوى" فمعناه : ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٠٧] سوى ما شاء الله تعالى من الخلود والزيادة ، فكأنه قال : خالدين فيها قدر مدة الدنيا غير ما شاء الله من الزيادة عليها إلى غير نهاية ، وهذا الوجه إنما يصح إذا كان المراد سموات الدنيا وأرضها .

قال ابن قتيبة : ومثله فى الكلام قولك : لأسكننك فى هذه الدار حولاً إلا ما شئت ، يريد سوى ما شئت أن أزيدك على الحول .

الثانى : أنه استثناء لا يفعله كما تقول : لأهجرنك إلا أن أرى غير ذلك ، وعزمك على هجرانه أبدًا وهو معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما ، : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد شاء أن يخلودا فيها ، قال الزجاج : وفائدة هذا الاستثناء

(١) الحديث حكم عليه الألباني بالوضع (١٩٤٥) .

إعلامنا أنه لو شاء أن لا يخلدهم لما خلدهم ، ولكنه ما شاء إلا خلودهم .

الثالث : أنه استثناء لزمان البعث والحشر والوقوف للعرض والحساب ، فإن الأشقياء والسعداء فى ذلك الزمان كله ليسوا فى النار ولا فى الجنة .

الرابع: أن "ما" بمعنى "أن" والمستثنى من يدخل النار من الموحدين فيعذب بقدر ذنوبه ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من الأشقياء فقط .

الخامس : أن المستثنى زمان كون أهل الأعراف على الأعراف قبل دخولهم الجنة ، وهذا الوجه يختص بالاستثناء من السعداء ، لأنهم لم يدخلوا النار لأن مصيرهم إلى الخلود فى الجنة.

والسادس: أنه استثناء من الخلود فى عذاب النار ومن الخلود فى نعيم الجنة، الأشقياء لا يخلدون فى عذاب النار بل يعذبون بالزمهرير وغيره من أنواع العذاب سوى النار وهو سخط الله عليهم فإنه أشد ، كذلك السعداء لهم سوى نعيم الجنة ما هو أجل منها ، وهو الزيادة التى وعدهم الله تعالى إياها بقوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ورضوان الله كما قال تعالى : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] فهو المراد بالاستثناء ، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى بعد ذكر الاستثناء : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] وقوله تعالى بعد ذكر السعداء : ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ يعنى أنه يفعل بأهل النار ما يريده من أنواع العذاب ، ويعطى أهل الجنة أنواع العطاء الذى لا انقطاع له ، فاختلاف المقطعين يؤكد صرف الاستثناء إلى ما ذكرنا ، فتأمل كيف يفسر القرآن بعضه بعضًا .

٤٧٢ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩] بعد قوله : ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [هود:١٠٩] والتوفية والإيفاء إعطاء الشىء وافيًا : أى : تامًا، نقله الجوهرى ، وغيره ، والتام لا يكون منقوصًا؟

قلنا : هو من باب التأكيد .

٤٧٣ - فإن قيل قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٩] إشارة إلى ماذا؟

قلنا : هو إشارة إلى ما عليه الفريقان من حالى الاختلاف والرحمة ، فمعناه أنه خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة ، وقد فسره ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فقال : خلقهم فريقين ، فريقًا رحمهم فلم يختلفوا ، وفريقًا لم يرحمهم فاختلفوا .

وقيل : هو إشارة إلى معنى الرحمة وهو التراحم ،وعلى هذا يكون الضمير فى خلقهم للذين رحمهم فلم يختلفوا .

وقيل : وهو إشارة إلى الاختلاف والضمير فى خلقهم للمختلفين ، واللام على الوجه الأول والثالث لام العاقبة والصيرورة لا لام كى وهى التى تسمى لام الغرض والمقصود ، لأن الخلق للاختلاف فى الدين لا يليق بالحكمة ، ونظير هذه اللام قوله تعالى : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] وقول الشاعر :

لدوا للموتِ وابنوا للخَرابِ فكلكم يصيرُ إلى التُّراب (١)

وقيل : إنها لام التمكين والاقتدار كما فى قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس:٦٧] وقوله تعالى : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل:٨] والتمكن والاقتدار حاصل وإن لم يسكن بعض الناس فى الليل ولم يركب بعض هذه الدواب ، ومعنى التمكين والاقتدار هنا أنه سبحانه وتعالى

(١) البيت لأبي العتاهية .

أقدرهم على قبول حكم الاختلاف ومكنهم منه ، وقيل : اللام هنا بمعنى "على" كما فى قوله تعالى : ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وقوله تعالى : ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧] .

٤٧٤ - **فإن قيل** : كيف الجمع بين قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ [هود:١٢٠] وقوله تعالى : ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤] ؟

قلنا : معناه وكل نبأ نقصه عليك من أنباء الرسل هو ما ثبت به فؤادك "فما" فى موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف ، فلا يقتضى اللفظ قص أنباء جميع الأنبياء ، فلا تناقض بين الآيتين .

الثانى : أن المراد بالكل هنا البعض كما فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [االبقرة:٢٦٠] وقوله تعالى : ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس:٢٢] وقوله تعالى : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٢٣] وقوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣] وقول لبيد الشاعر :

ألا كلُ شىء ما خلا اللهَ باطل وكل نعيم لا محالةَ زائــلُ

وكثير من الأشياء غير الله تعالى حق ، كالنبى عليه الصلاة والسلام والإيمان والجنة وغير ذلك ، وكذلك نعيم الجنة والآخرة ليس بزائل ، ولبيد صادق فى هذا البيت لقوله ﷺ **أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :**

ألا كل شىء ما خلا الله باطل "[1] إلى آخره .

---

(١) البخاري (٣٨٤١) ، ومسلم (٢٢٥٦٦) .

لبيد بن ربيعة: شاعر جاهلي جواد أدرك الإسلام وأسلم وتوفى في أول خلافة معاوية، يقال : أنه عاش مائة وسبعًا وخمسين سنة ، ويروى أنه حفظ القرآن كله ، وألفاظه قوية جزلة ، ومعلقته مشهورة ، وقد شهد له النابغة حين سمعها بأنه أشعر هوازن .

٤٧٥ - فإن قيل : ما فائدة تخصيص هذه السورة بقوله تعالى : ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ [هود:١٢٠] مع أن الحق جاء فى كل سور القرآن ؟

قلنا : قالوا فائدة تخصيص هذه السورة بذلك زيادة تشريفها وتفضيلها مع مشاركة غيرها إياها فى ذلك كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨] قوله تعالى: ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] بعد قوله : ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ﴾ [البقرة:٩٨] وقوله تعالى : ﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] بعد قوله : ﴿ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ [البقرة:٢٣٨] ووجه المشابهة بينهما أنه حمل قوله تعالى : ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة:٩٨] على التشريف والتفضيل عند تعذر حمله على تعليق العداوة به لئلا يلزم تحصيل الحاصل ، وكذا فى المثال الأخير تعذر حمله على إيجاب المحافظة لما قلنا ، وهنا تعذر حمله على حقيقته وهو الجنس بأن حقيقته انحصار كل حق في هذه السورة وهو منتف ، أو حمل الحق على معهود سابق وهو منتف وحمله على بعض الحق يلزم منه وصف هذه السورة بوصف مشترك بينها وبين كل السور ، وأنه لا يحسن كما لو قال : وجاءك فى هذه الحق آيات الله أو كلام الله أو كلام معجز ، فجعل مجازا عن التفضيل والتشريف .

وقيل : الإشارة بهذه إلى الدنيا لا إلى السورة ، والجمهور على القول الأول . ولا يقال إنما خصت هذه السورة بذلك لأن فيها الأمر بالاستقامة بقوله تعالى : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢] والاستقامة من أعلى المقامات عند العارفين لأنا نقول الأمر بالاستقامة جاء أيضا في سورة "حم عسق" قال الله تعالى : ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥] ولا يصلح هذا علة للتخصيص ، والله أعلم .

*** *** ***

سورة يوسف عليه السلام

٤٧٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] ولم يقل ثلاثة عشر كوكبًا وهو أوجز وأخصر ، والذى رآه كان أحد عشر كوكبًا غير الشمس والقمر ؟

قلنا : قصد عطفها على الكواكب تخصيصًا لهما بالذكر وتفضيلا لهما على سائر الكواكب لما لهما من المزية والرتبة على الكل ، ونظيره تأخير جبريل وميكائيل عن الملائكة عليهم السلام ثم عطفها عليهم إن قلنا إنهما غير مرادين بلفظ الملائكة وكذا قوله تعالى : ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨] إن قلنا إنها غير مرادة بلفظ الصلوات .

٤٧٧ - **فإن قيل** : ما فائدة تكرار رأيت ؟

قلنا : قال الزمخشرى : ليس ذلك تكرارًا ، بل هو كلام مستأنف وضع جوابًا لسؤال مقدر من يعقوب عليه السلام ، كأنه قال له بعد قوله تعالى : ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [يوسف:٤] كيف رأيتها سائلاً عن حال رؤيتها ، فقال مجيبًا له : ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] وقال الزجاج : إنما كرر الفعل تأكيدًا لما طال الكلام كما فى قوله تعالى : ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧] - : ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف:٤٥] وقال غيره، إنما كرره تفخيماً للرؤية وتعظيماً لها .

٤٧٨ - **فإن قيل** : كيف أجريت مجرى العقلاء فى قوله : ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ [يوسف:٤] وفى قوله : ﴿سَاجِدِينَ﴾ [يوسف:٤] وأصله رأيتها ساجدة ؟

قلنا : لما وصفها بما هو من صفات من يعقل وهو السجود أجرى عليها

حكمه كأنها عاقلة ، وهذا شائع فى كلامهم أن يلابس الشىء الشىء من بعض الوجوه فيعطى حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة المقارنة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا﴾ [النمل:١٨] وقوله تعالى فى وصف السماء والأرض : ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] .

٤٧٩ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢] وكانوا عاقلين بالغين وأنبياء أيضًا فى قول البعض، وكيف رضى يعقوب عليه السلام لهم بذلك ؟

قلنا : على قراءة الياء لا إشكال لأن يوسف عليه السلام كان يومئذ دون البلوغ فلا يحرم عليه اللعب ، وعلى قراءة النون نقول كان لعبهم المسابقة والمناضلة ليعودوا دون أنفسهم الشجاعة لقتال الأعداء لا للهو وذلك جائز بالشرع ، ويعضد هذا قولهم : ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ [يوسف:١٧] وإنما سموه لعبًا، لأنه فى صورة اللعب ، ويرد على أصل السؤال أن يقال : كيف يتورعون عن اللعب وهم قد فعلوا ما هو أعظم حرمة من اللعب وأشد وهو إلقاء أخيهم فى الجب على قصد القتل.

٤٨٠ – **فإن قيل** : كيف اعتذر إليهم يعقوب عليه السلام بعذرين أحدهما: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ [يوسف:١٣] لأنه كان لا يصبر عنه ساعة واحدة ، والثانى خوفه عليه من الذئب ، فأجابوه عن أحد العذرين دون الآخر؟

قلنا : حبه وإياه وإيثاره له وعدم صبره على مفارقته هو الذى كان يغيظهم ويؤلمهم فأضربوا عنه صفحًا ولم يجيبوا عنه .

٤٨١ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ [يوسف:١٥] وهو يومئذ لم يكن بالغًا ، والوحى إنما يكون بعد الأربعين ؟

قلنا : المراد به وحى الإلهام لا وحى الرسالة الذى هو مخصوص بها بعد الأربعين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] .

٤٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف:٢٢] وقال فى حق موسى عليه السلام : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤] .

قلنا المراد : ببلوغ الأشد دون الأربعين سنة على اختلاف مقداره ، والمراد بالاستواء بلوغ الأربعين أو الستين ، وكان إيتاء كل واحد منهما الحكم والعلم فى ذلك الزمان فأخبر عنه كما وقع .

٤٨٣ - فإن قيل : كيف وحد الباب فى قوله : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف:٢٥] بعد جمعه فى قوله : ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف:٢٣] ؟

قلنا : لأن إغلاق الباب للاحتياط لا يتم إلا بإغلاق جميع أبواب الدار سواء كانت كلها فى جدار الدار أو لا ، وأما هربه منها إلى الباب فلا يكون إلا إلى باب واحد إن كانت كلها فى جدار الدار ، ولأن خروجه فى وقت هربه لا يتصور إلا من باب واحد منها ، وإن كانت بعض الأبواب داخل بعض، فإنه أول ما يقصد الباب الأدنى لقربه ، ولأن الخروج من الباب الأوسط والباب الأقصى ، موقوف على الخروج من الباب الأدنى ، فلذلك وحد الباب .

٤٨٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف:٢٦] ولم يكن قوله شهادة ؟

قلنا : لما أدى معنى الشهادة فى ثبوت قول يوسف عليه السلام وبطلان قولها سمى شهادة ، فالمراد بقوله شهد : أعلم وبين وحكم .

٤٨٥ - **فإن قيل :** ﴿قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٨] يدل على أنها كاذبة وأنها هى التى تبعته وجذبت قميصه من خلفه فقدته ، وأما قده من قبل فكيف يدل على أنها صادقة .

قلنا : يدل من وجهين ، أحدهما : أنه إذا كان طالبها وهى تدفعه عن نفسها بيدها أو برجلها فإنها تقد قميصه من قبل بالدفع .

الثانى : أنه يسرع خلفها وهى هاربة منه فيعثر فى مقادم قميصه فيشقه ، ويرد على الوجه الثانى أنه مشترك الدلالة من جهة العثار الذى هو نتيجة الإسراع ، لأنه يحتمل أن يكون إسراعًا فى الهرب منها وهى خلفه فيعثر فيقد قميصه من قبل .

٤٨٦ - **فإن قيل :** كيف قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣١] وإنما يقال : خرجت إلى السوق وطرقت عليه الباب فخرج إلى ؟

قلنا : إذا كان الخروج بقهر وغلبة أو بجمال وزينة أو بآية وأمر عظيم فإنما يعدى بعلى ومنه قولهم خرج علينا فى السفر قطاع الطريق، وقوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص:٧٩] وقوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم:١١].

٤٨٧ - **فإن قيل :** كيف شبهن يوسف عليه السلام بالملك فقلن : ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١] وهن ما رأين الملائكة قط ؟

قلنا : إن كن ما رأين الملائكة فقد سمعن وصفها .

الثانى : أن الله تعالى قد ركز فى الطباع حسن الملائكة كما ركز فيها قبح الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه فى الحسن بالملك ، وكل متناه فى القبح بالشيطان .

٤٨٨ - فإن قيل : كيف قال يوسف عليه السلام : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف:٣٧] وترك الشيء إنما يكون بعد ملابسته والكون فيه ، يقال : ترك فلان شرب الخمر وأكل الربا ونحو ذلك إذا كان فيه ثم أقلع عنه ، ويوسف عليه السلام لم يكن على ملة الكفار قط؟

قلنا : الترك نوعان : ترك بعد الملابسة ويسمى ترك انتقال ، وترك قبل الملابسة ويسمى ترك إعراض كقوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف:١٢٧] وموسى عليه السلام ما لابس عبادة فرعون ولا عبادة آلهته فى وقت من الأوقات وما نحن فيه من النوع الثانى وسيأتى نظير هذا السؤال فى سورة إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨] .

٤٨٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ [يوسف:٤٠] فسر الأمر بالنهى أو بما جزؤه النهى وهما ضدان ؟

قلنا : فيه إضمار أمر آخر تقديره أمر أمرًا اقتضى أن لا تعبدوا إلا إياه وهو قوله تعالى : ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾ [العنكبوت:٥٦] فإنه باعتبار تقديم المفعول فى معنى الحصر كما قال فى قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] .

الثانى : أن فيه إضمار نهى تقديره : أمر ونهى ، ثم فسر الأمرين بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ [يوسف:٤٠] .

الثالث : أن قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ [يوسف:٤٠] وإن كان مضادًا للأمر من حيث اللفظ فهو موافق له من حيث المعنى ، فلم قلتم : إن تفسير الشيء بما يضاده صورة ويوافقه معنى غير جائز بيان موافقته معنى من وجهين ، أحدهما : أن النهى عن الشيء أمر بضده، وعبادة الله ضد عبادة غير الله ، والثانى : أن معنى مجموع قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ [يوسف:٤٠]

اعبدوه وحده فيكون تفسيرًا للأمر المطلق بفرد من أفرده وأنه جائز .

٤٩٠ - **فإن قيل** : الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس زهدًا فى الدنيا ورغبة فى الآخرة ، فكيف قال يوسف عليه السلام : ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف:٥٥] طلب أن يكون معتمدًا على الخزائن متوليًا لها وهو من أكبر المناصب الدنيا ؟

قلنا : إنما طلب ذلك ليتوصل به إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ونحوه مما يبعث له الأنبياء ، ولعلمه أن أحدًا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك ، فطلب التولية ابتغاء لوجه الله تعالى وسعيًا لمنافع العباد ومصالحهم ، لهم لا لحب الملك والدنيا ، ونظيره قوله تعالى ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف:٨٨] يعنى لو كنت أعلم أى وقت يكون القحط لادخرت لزمن القحط طعامًا كثيرًا ، لا للحرص لكن لأتمكن من إعانة الضعفاء والفقراء وقت الضرورة والمضايقة ، ويحتمل أن يكون علم تعينه بذلك العمل ، فكان طلبه واجبًا عليه .

٤٩١ - **فإن قيل** : كيف جاز ليوسف عليه السلام أن يأمر المؤذن أن يقول: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] وذلك بهتان وتسريق بالصواع لمن لم يسرقه ، وتكذيب للبرىء واتهام من لم يسرق بأنه سرق ؟

قلنا : قوله : ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ [يوسف:٧٠] تورية عما جرى منهم مجرى السرقة وتصور بصورتها من فعلهم بيوسف ما فعلوه أولاً .

الثانى : أن ذلك القول كان من المؤذن بغير أمر يوسف عليه السلام ، كذا قاله بعض المفسرين .

الثالث : أن حكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لأيوب عليه السلام : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا

﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤] وقول إبراهيم عليه السلام فى حق زوجه وهى أختى لتسلم من يد الكافر ، وما أشبه ذلك .

٤٩٢ - **فإن قيل** : كيف تأسف يعقوب عليه السلام على يوسف دون أخيه بقوله : ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤] والرزء الأحدث أشد على النفس وأعظم أثرًا ؟

قلنا : إنما يكون أشد إذا تساوت المصيبتان فى العظم ولم يتساويا هنا ، بل فقد يوسف كان أعظم عليه وأشد من فقد أخيه ، فإنما خصه بالذكر ليدل على أن الرزء فيه مع تقادم عهده ما زال غضبًا طريًا .

٤٩٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف:٨٤] والحزن لا يحدث بياض العين : لا طبا ولا عرفًا ؟

قلنا : قال ابن عباس : أى : من البكاء ، لأن الحزن سبب البكاء ، فأطلق اسم السبب وأراد به المسبب ، وكثرة البكاء قد تحدث بياضًا فى العين يغشى السواد ، وهكذا حدث ليعقوب عليه السلام وقيل : إذا كثرت الدموع محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر .

٤٩٤ - **فإن قيل** : كيف قال يعقوب عليه السلام : ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧] مع أن من المؤمنين من ييأس من روح الله ، أى من فرجه وتنفيسه أو من رحمته على اختلاف القولين ، إما لشدة مصيبته أو لكثرة ذنوبه ، كما جاء فى الحديث فى قصة الذى أمر أهله إذا مات أن يحرقوه ويذروا رماده فى البر والبحر ففعلوا به ذلك ، ثم إن الله غفر له كما جاء مشروحًا فى الحديث المشهور وهو من الصحاح [١] ، مع أنه يئس من رحمة الله تعالى وضم إلى يأسه ذنبًا آخر وهو اعتقاده : أنه إذا أحرق وذرا رماده لا يقدر

(١) البخارى (٣٤٧٨) ، ومسلم (٧١٥٧) .

الله على إحيائه وتعذيبه ومع هذا كله يغفر له ، فدل على أنه لمن يمت كافرًا ؟

قلنا : إنما ييأس من روح الله الكافر لا المسلم عملاً بظاهر الآية ، وكل مؤمن يتحقق من اليأس من روح الله فهو كافر فى الحال حتى يعود إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله ، وأما الرجل المغفور له فى الحديث فلا نسلم أنه لم يكفر ، ثم إن الله تعالى لما أحياه فى الدنيا عاد إلى الإسلام بعوده إلى رجاء روح الله تعالى فلذلك غفر له ، وقد يكون قد عاد إلى رجاء روح الله تعالى قبل موتته الأولى ، ولم يتسع له الزمان أن يرجع عن وصيته التى أوصى بها أهله ، فمات مسلمًا فلذلك غفر له .

٤٩٥ – فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف:١٠٠] كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله تعالى؟

قلنا : لعله كان السجود عندهم تحية وتكرمة كالقيام والمصافحة عندنا .

وقيل : كان انحناء كالركوع ولم يكن بوضع الجبهة على الأرض، إلا أن قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا﴾ [يوسف:١٠٠] يأبى ذلك ، لأن الخرور عبارة عن السقوط ، ولا يرد عليه قوله تعالى : ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ [ص:٢٤] لأنهم قالوا أراد به ساجدًا فعبر عن السجود بالركوع كما عبر عن الصلاة فى قوله تعالى : ﴿وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] أى : صلوا مع المصلين ، وقيل له : أى لأجله ، فاللام للسببية لا لتعدية السجود إلى يوسف عليه السلام، فالمعنى وخروا لأجل يوسف سجدا لله تعالى شكرًا على جمع شملهم به وقيل : الضمير فى له يعود إلى الله تعالى ، وهذا الوجه يدفعه قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠] .

٤٩٦ – فإن قيل : كيف ذكر يوسف عليه السلام نعمة الله تعالى عليه فى إخراجه من السجن فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾[يوسف:١٠٠]

ولم يذكر نعمته عليه فى إخراجه من الجب ، وهو أعظم نعمة ، لأن وقوعه فى الجب كان أعظم خطرًا؟

قلنا : إنما ذكر هذه النعمة دون تلك النعمة لوجوه :

أحدها : أن محنة السجن ومصيبة كانت أعظم لطول مدتها ، فإنه لبث فيه بضع سنين وما لبث فى الجب إلا مدة يسيرة .

الثانى :أنه إنما لم يذكر الجب كيلا يكون فى ذكره توبيخ وتقريع لإخوته عند قوله لهم : ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] .

الثالث : أن خروجه من السجن كان مقدمة لملكه وعزه فلذلك ذكره ، وخروجه من الجب كان مقدمة الذل والرق والأسر فلذلك لم يذكره .

الرابع : أن مصيبة السجن كانت أعظم عنده لمصاحبة الأوباش والأراذل وأعداء الدين ، بخلاف مصيبة الجب فإنه كان مؤنسه فيه جبريل وغيره من الملائكة عليهم السلام .

٤٩٧ - فإن قيل : كيف قال يوسف : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ [يوسف:١٠١] وهو يعلم أن كل نبى لا يموت إلا مسلمًا؟

قلنا : يجوز أن يكون دعا بذلك فى حالة الخوف عليه غلبة أذهلته عن ذلك العلم فى تلك الساعة .

الثانى : أنه دعا بذلك مع علمه إظهارًا للعبودية والافتقار وشدة الرغبة فى طلب سعادته الخاتمة وتعليمًا للأمة وطلبًا للثواب .

٤٩٨ - فإن قلنا : كيف يجتمع الإيمان والشرك وهما ضدان حتى قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]؟

قلنا : معناه وما يؤمن أكثرهم بأن الله تعالى خالقه ورازقه وخالق السموات

والأرض قولاً إلا وهو مشرك بعبادة الأصنام فعلاً .

الثانى: أن المراد بها المنافقون يؤمنون بألسنتهم قولاً ويشركون بقلوبهم اعتقادًا .

الثالث : أن المراد بها تلبية العرب ، كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك، فكانوا يؤمنون بأول تلبيتهم بنفى الشريك ويشركون بآخرها بإثباته .

٤٩٩ – فإن قيل : هذه التلبية توحيد كلها ولا شرك فيها ، لأن معنى قولهم: إلا شريكًا : هو لك ، إلا شريكًا هو مملوك لك موصوفًا بأنك تملكه وتملك ما ملك، واللام هنا للملك لا لعلاقة الشركة ، وهذا الاستثناء يحتمل أن يكون حقيقيًا ويحتمل أن يكون مجازيًا ، بيان الأول أنا إن قلنا إن اللام حقيقة المعنى العام فى مواردها وهو الاختصاص يكون قولهم : لا شريك لك ، عامًا فى نفى كل شريك يضاف إلى الله تعالى بجهة اختصاص ما ، فيدخل فى النفى من جهة لفظ الشريك المضاف بجهة المملوكية ، وهو شريك زيد وعمرو ونحوهم ثم يقع عليه الاستثناء فيكون استثناء حقيقيًا ، وإن قلنا : إنها مشتركة بين المعانى الثلاثة الموجودة فى موارد استعمالها وهى الملك والاستحقاق ، ويقال: الاختصاص والعليّة ، فقولهم : لا شريك لك يكون عامًا أيضًا عند من يجوز حمل المشترك على مفهومه فى حالة واحدة فيكون الاستثناء أيضًا حقيقيًا كما مر، وأما على قول من لا يجوز ذلك يكون النفى واردًا على أحد مفهوماته وهو علاقة الشركة ، فيكون الاستثناء بعده مجازيًا من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، وهو نوع من أنواع البلاغة مذكور فى علم البيان ، وشاهده قول الشاعر :

ولا عيبَ فيهمْ غير أن سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائبِ [١]

(١) البيت للنابغة الذبياني .

معناه : إن كان هذا عيبًا ففيهم عيب ، وهذا ليس بعيب فلا يكون فيهم عيب ، فكذا هنا معناه : إن كان الشريك المملوك لك يصلح شريكًا فلك شريك وهو لا يصلح شريكًا لك فلا يكون لك شريك ، لأن كل ما يدعى أنه شريك لك فهو مملوك لك ، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم:٢٨] الآية؟

قلنا : على الوجه الأول : إنه ليس بصحيح ، لأنه لو جعلنا اللام حقيقة في المعنى العام وهو الاختصاص يلزم منه الكفر حيث وجد نفى الشريك من غير استثناء ، لأنه يلزم منه نفى ملكه تعالى شريك زيد وعمرو ونحوهما وهو الكفر، واللازم منتف لأنه إيمان محض بلا خلاف .

٥٠٠ - فإن قيل : إنما لم يكن كفرًا مع عمومه لأن الحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء نفى كل شريك يضاف إلى الله تعالى بعلاقة الشريك ، لا نفى كل شريك يضاف إليه بجهة ما ، فصارت الحقيقة اللغوية مهجورة بالحقيقة العرفية عند عدم الاستثناء .

والجواب : عن أصل السؤال أنه سؤال حسن محقق ، وأن هذه التلبية توحيد محض على التقديرين ، فإن صح النقل أن النبى عليه الصلاة والسلام نهى عنها فإنما نهى عنها لأنها توهم إثبات الشريك لمقتضى الاستثناء عند قاصرى النظر ، وهم عوام الناس ، فلهذه المفسدة نهى عنها .

*** *** ***

سورة الرعد

٥٠١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد:١٠] ولم يقل ومن هو سارب بالنهار ، ليتناول معنى الاستواء المستخفى والسارب ، وإلا فقد تناول واحدًا هو مستخف وسارب : أى ظاهر ، وليتناسب لفظ الجملة الأولى والثانية ، فإنه قال فى الجملة الأولى:﴿مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد:١٠]؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿ سَارِبٌ﴾ معطوف على ﴿مَنْ ﴾ لا على مستخف ، فيتناول معنى الاستواء اثنين .

الثانى : أنه وإن كان معطوفًا على مستخف إلا أن "من" هنا فى معنى التثنية كقوله :

نكن مثْل مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ (١)

فكأنه قال : سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار .

٥٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤] أى : فى ضياع وبطلان ، والكفار يدعون الله تعالى فى وقت الشدائد، والأهوال ومشارفتهم الغرق فى البحر، فيستجيب لهم ؟

قلنا : المراد وما عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، ويعضده قوله تعالى قبله : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الرعد:١٤] أى : يعبدون .

٥٠٣ - فإن قيل : كيف طابق قولهم : ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الرعد:٢٧] قوله : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] ؟

---

(١) البيت للفرزدق .

قلنا : هو كلام جرى مجرى التعجب من قولهم ، لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التى أوتيها رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يؤتها نبى قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوا آياته ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط كان موضعًا يتعجب منه ، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم .

٥٠٤ – فإن قيل : كيف المطابقة بين قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد:٣٣] وقوله : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد:٣٣] ؟

قلنا : فيه محذوف تقديره : أفمن هو رقيب على كل نفس صالحة وطالحة يعلم ما كسبت من خير وشر ، ويعد لكل جزاء كمن ليس كذلك وهو الصنم ، ثم ابتدأ فقال : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ [الرعد:٣٣] أو تقديره : أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ، أو التقدير : أفمن كان بهذه الصفة يغفل عن أهل مكة وأقوالهم وأفعالهم وجعلوا لله شركاء .

٥٠٥ – فإن قيل : كيف اتصل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ [الرعد:٣٦] بما قبله وهو قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد:٣٦]؟

قلنا : هو جواب للمنكرين معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد الله ولا أشرك به ، فإنكارهم لبعضه إنكار لعبادة الله تعالى وتوحيده ، كذا أجاب به الزمخشرى ، وفيه نظر .

٥٠٦ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الرعد:٤٢] أثبت لهم منكرًا ثم نفاه عنهم بقوله تعالى : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٤٢] ؟

قلنا : معناه أن مكر الماكرين مخلوق له ولا يصير إلا بإرادته ، فبهذه الجهة

صحت إضافة مكرهم إليه .

الثانى : أنه جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره ، لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون فيعكس مكرهم عليهم، إثباته لهم باعتبار الكسب ونفيه عنهم باعتبار الخلق .

*** *** ***

سورة إبراهيم عليه السلام

٥٠٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤] هذا فى حق غير النبى عليه الصلاة والسلام من الرسل مناسب ، لأن غيره لم يبعث إلى الناس كافة بل إلى قومه فقط ، فأرسل بلسانهم ليفقهوا عنه الرسالة ولا تبقى لهم حجة بأنا لم نفهم رسالتك، فأما النبى عليه الصلاة والسلام فإنه بعث إلى الناس كافة ، قال تعالى : ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨] فإرساله بلسان قومه إن كان لقطع حجة العرب ، فالحجة باقية لغيرهم من أهل الألسن الباقية ، وإن لم يكن لغير العرب حجة أن لو نزل القرآن بلسان غير العرب يكن للعرب الحجة ؟

قلنا : نزوله على النبى عليه الصلاة والسلام بلسان واحد كاف ،لأن الترجمة لأهل بقية الألسن تغنى عن نزوله لجميع الألسن ، ويكفى مؤونة التطويل كما جرى فى القرآن العزيز .

الثانى : أن نزوله بلسان واحد أبعد عن التحريف والتبديل ، وأسلم من التنازع والخلاف .

الثالث : أنه لو نزل بألسنة كل الناس وكان معجزًا فى كل واحد منها ، وكلم الرسول العربى كل أمة بلسانها كما كلم أمته التى هو منها لكان ذلك أمرًا قريبًا من القسر والإلجاء ، وبعثة الرسل لم تبن على القسر والإلجاء بل على التمكين من الاختيار ، فلما كان نزوله بلسان واحد كافيًا كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ، لأنهم أقرب إليه وأفهم عنه .

٥٠٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُون﴾ [البقرة:٤٩] وفى سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ [الأعراف:١٤١] بغير واو فيهما ، وقال هنا : ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم:٦] بالواو والقصة واحدة ؟

قلنا : حيث حذف الواو جعل التذبيح والتقتيل تفسيرًا للعذاب وبيانًا له ، وحيث أثبتها جعل التذبيح كأنه جنس آخر غير العذاب ، لأنه أوفى على بقية أنواعه وزاد عليها زيادة ظاهرة ، فعلى هذا يكون إثبات الواو أبلغ .

٥٠٩ - **فإن قيل** : ما معنى التبعيض فى قوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُم﴾ [إبراهيم:١٠] ؟

قلنا : ما جاء هذا إلا فى خطاب الكافرين ،كقوله تعالى فى سورة نوح عليه السلام : ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُم﴾ [نوح] وقوله تعالى فى سورة الأحقاف: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف:٣١] وقال تعالى فى خطاب المؤمنين فى سورة الصف : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف:١٠] إلى قوله : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف:١٢] وقال تعالى فى آخر سورة الأحزاب : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١] وكذا باقى الآيات فى خطاب الفريقين إذا تتبعتها ، وما ذلك إلا للتفرقة بين الخطابين لئلا يسوى بين الفريقين فى الوعد مع اختلاف رتبتهما ، لا لأنه يغفر للكفار مع بقائهم على الكفر بعض ذنوبهم ، والذى يؤيد ما ذكرناه من العلة أنه فى سورة نوح عليه السلام وفى سورة الأحقاف وعدهم مغفرة بعض الذنوب بشرط الإيمان مطلقًا، وقيل معنى التبعيض أنه يغفر لهم ما بينهم وبينه لا ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها ، وقيل "من" زائدة .

٥١٠ - **فإن قيل** : كيف كرر تعالى الأمر بالتوكل وكيف قال أولا : ﴿وَعَلَى

ﵟٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَﵞ [إبراهيم:١١] وقال ثانيًا : ﵟوَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَﵞ [إبراهيم:١٢] ؟

قلنا : الأمر الأول لاستحداث التوكل ، والثانى لتثبيت المتوكلين على ما استحدثوا من توكلهم فلهذا كرره ، وقال أولاً "المؤمنون" وثانيًا "المتوكلون" .

٥١١ - **فإن قيل** : كيف قالوا لرسلهم : ﵟأَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاﵞ [إبراهيم:١٣] والرسل لم يكونوا على ملة الكفار قط ، والعود هو الرجوع إلى ما كان فيه الإنسان ؟

قلنا : العود فى كلام العرب يستعمل كثيرًا بمعنى الصيرورة ، يقولون : عاد فلان يكلمنى ، وعاد لفلان مال وأشباه ذلك ، ومنه قوله تعالى : ﵟحَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِﵞ [يس:٣٩] .

الثانى : أنهم خاطبوا الرسل بذلك بناء على زعمهم الفاسد واعتقادهم أن الرسل كانوا أولاً على ملل قومهم ثم انتقلوا عنها .

الثالث : أنهم خاطبوا كل رسول ومن آمن به فغلبوا فى الخطاب الجماعة على الواحد ، ونظير هذا السؤال ما سبق فى سورة الأعراف من قوله تعالى : ﵟأَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاﵞ [إبراهيم:١٣] وفى سورة يوسف عليه السلام من قوله تعالى : ﵟإِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَﵞ [يوسف:٣٧] الآية .

٥١٢ - **فإن قيل** : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله تعالى : ﵟوَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡﵞ [إبراهيم:٢١] ؟

قلنا : لما كان قول الضعفاء توبيخًا وتقريعًا وعتابًا للذين استكبروا على استتباعهم إياهم واستغوائهم ، أحالوا الذنب على الله تعالى فى ضلالهم

وإضلالهم ، كما قالوا : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] و : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل:٣٥] يقولون ذلك فى الآخرة كما كانوا يقولون فى الدنيا ، كما حكى الله تعالى عن المنافقين : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة:١٨] الآية . وقيل : معنى جوابهم : لو هدانا الله فى الآخرة طريق النجاة من العذاب لهديناكم ، أى: لأغنينا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهلكة فى الدنيا .

٥١٣ - **فإن قيل** : كيف اتصل وارتبط قولهم:﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم:٢١] بما قبله؟

قلنا : اتصاله به من حيث إن عتاب الضعفاء للذين استكبروا كان جزعًا مما هم فيه وقلقًا من ألم العذاب ، فقال لهم رؤساؤهم : ﴿لَهَدَيْنَـٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١] يريدون أنفسهم وإياهم لاجتماعهم فى عقاب الضلالة التى كانوا مجتمعين عليها فى الدنيا ، كأنهم قالوا للضعفاء : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة فيه كما لا فائدة فى الصبر ، فإن الأمر أعظم من ذلك وأعم.

٥١٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم:٢٢] عبر عنه بلفظ الماضى ، وذلك القول من الشيطان لم يقع بعد وإنما هو مترقب منتظر يقوله يوم القيامة ؟

قلنا : يجوز وضع المضارع موضع الماضى ، ووضع الماضى موضع المضارع إذا أمن اللبس ، قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] أى: ما تلت ، وقال تعالى : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩١] وقال الحطيئة الشاعر :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه أن الوليد أحقُّ بالغدر

فقوله : ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة:١٠٢] نفى اللبس ، وكذا قوله تعالى : ﴿مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:٢٥] وقول الحطيئة يوم يلقى ربه ، وقوله تعالى : ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم:٢٢] لأن قضاء الأمر إنما يكون يوم القيامة .

٥١٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧] وقد رأينا كثيرًا من الظالمين هداهم الله بالإسلام وبالتوبة وصاروا من الأتقياء ؟

قلنا : معناه أنه لا يهديهم ماداموا مصرين على الكفر والظلم معرضين عن النظر والاستدلال .

الثاني : أن المراد منه الظالم الذى سبق له القضاء فى الأزل أنه يموت على الظلم ، فالله تعالى يثبته على الضلالة لخذلانه ، كما يثبت الذين آمنوا بالقول الثابت وهو كلمة التوحيد .

الثالث : أن معناه : أن يضل المشركين عن طريق الجنة يوم القيامة .

٥١٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [إبراهيم:٣٠] والضلال والإضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد وهى الأصنام، وإنما عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى ، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣] ؟

قلنا : قد شرحنا ذلك فى سورة يونس عليه السلام إذ قلنا هذه لام العاقبة والصيرورة لا لام الغرض ، والمقصود كما فى قوله تعالى : ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ وقول الشاعر :

لدوا للموت وابنوا للخراب [1]

---

(١) البيت لأبي العتاهية .

وقول الآخر :

فللموت تغدو الوالدات سخالها كما للخراب الدهر تبنى المساكن

والمعنى فيه أنهم لما أفضى بهم اتخاذ الأنداد إلى الضلال أو الإضلال صار كأنهم اتخذوها لذلك ، وكذا الالتقاط والولادة والبناء ، ونظائره كثيرة فى القرآن العزيز وفى كلام العرب .

٥١٧ - **فإن قيل** : كيف طابق الأمر بإقامة الصلاة وإنفاق المال وصف اليوم بأنه لا بيع فيه ولا خلال ؟

قلنا : معناه : قل لهم : يقدمون من الصلوات والصدقة متجرًا يجدون ربحه يوم لا تنفعهم متاجر الدنيا من المعارضات والصدقات التى يجلبونها بالهدايا والتحف لتحصيل المنافع الدنيوية ، فجاءت المطابقة .

٥١٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ﴾ [إبراهيم:٣١] أى: لا صداقة ، وفى يوم القيامة خلال لقوله تعالى : ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧] ولقوله عليه الصلاة والسلام : "المرء مع من أحب"[1] ؟

قلنا : لا خلال فيه لمن لم يقم الصلاة ولم يؤد الزكاة ، فأما المقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة فهم الأتقياء ، وبينهم الخلال يوم القيامة لما تلونا من الآية .

٥١٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٣] والمسخر للإنسان هو الذى يكون فى طاعته يصرفه كيف شاء فى أمره ونهيه كالدابة والعبد والفلك كما قال تعالى : ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ [الزخرف:١٣] وقال تعالى : ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا

(١) البخارى (٦١٦٨) ، ومسلم (٦٨٨٨) .

سُخۡرِيّٗا﴾ [الزخرف:٣٢] وقال تعالى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [إبراهيم:٣٢] ويقال فلان مسخر لفلان إذا كان مطيعًا له وممتثلاً لأوامره ونواهيه ؟

قلنا : لما كان طلوعها وغروبها وتعاقب الليل والنهار لمنافعنا متصلاً مستمرًا اتصالاً لا تنقطع علينا فيه المنفعة ولا تنخرم سواء شاءت هذه المخلوقات أم أبت ، أشبهت المسخر المقهور فى الدنيا كالعبد والفلك ونحوهما.

والثانى : أن معناه أنها مسخرة لله لأجلنا ومنافعنا فإضافة التسخير إلى الله تعالى: بمعنى أنه فاعل التسخير ، وإضافة التسخير إلينا بمعنى عود نفع التسخير إلينا ، فصحت الإضافتان .

٥٢٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:٣٤] والله تعالى لم يعطنا كل ما سألناه ولا بعضًا من كل فرد مما سألناه ؟

قلنا : معناه وآتاكم بعضًا من جميع ما سألتموه لا من كل فرد فرد .

٥٢١ - فإن قيل : لا يصح هذا المحمل لوجهين ، أحدهما أنه لا يحسن الامتنان به .

الثانى: أنه لا يناسبه قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤] ؟

قلنا : إذا كان البعض الذى أعطانا هو الأكثر من جميع ما سألناه وهو الأصلح والأنفع لنا فى معاشنا ومعادنا بالنسبة إلى البعض الذى منعه عنا لمصلحتنا أيضًا ، لا يحسن الامتنان به ويكون مناسبًا لما بعده .

وجواب آخر : عن أصل السؤال أنه يجوز أن يكون قد أعطى جميع السائلين بعضًا من كل فرد مما سأله جميعهم ، وبهذا المقدار يصح الإخبار فى الآية وإن لم يعط كل واحد من السائلين بعضًا من كل فرد مما سأله ، وإيضاح

ذاك أن يكون هذا قد أعطى شيئًا مما سأله ذلك ، وأعطى ذاك شيئًا مما سأله هذا، على ما اقتضته الحكمة والمصلحة فى حقهما ، كما أعطى النبى عليه الصلاة والسلام الرؤية ليلة المعراج وهى مسؤول موسى عليه السلام وما أشبه ذلك .

٥٢٢ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤] والإحصاء والعد بمعنى واحد كذا نقله الجوهرى ، فيكون المعنى: وإن تعدوا نعمة الله لا تعدوها ، وهو متناقض كقولك : إن تَر زيدًا لا تبصره ، إذ الرؤية والإبصار واحد؟

قلنا : بعض المفسرين فسر الإحصاء بالحصر ، فإن صح ذلك لغة اندفع السؤال ، ويؤيد ذلك قول الزمخشرى : لا تحصوها ، أى : لا تحصروها ، ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها ، وعلى القول الأول فيه إضمار تقديره : وإن تريدوا عد نعمة الله لا تعدوها .

٥٢٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤] وهو يوهم أن نعم الله غير متناهية ، وكل نعمة ممتن بها علينا فهى مخلوقة ، وكل مخلوق متناه ؟

قلنا : لا نسلم أنه يوهم أنه لا تتناهى ، وذلك لأن المفهوم منه منحصر فى أنا لا نطيق عدَّها أو حصر عددها ، ويجوز أن يكون الشيء متناهيًا فى نفسه ، والإنسان لا يطيق عدَّه كرمل القفار وقطر البحار وورق الأشجار وما أشبه ذلك .

٥٢٤ - **فإن قيل** : كيف قال إبراهيم عليه السلام : ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥] وعبادة الأصنام كفر ، والأنبياء معصومون عن الكفر بإجماع الأمة ، فكيف حسن منه هذا السؤال ؟

قلنا : إنما سأل هذا السؤال فى حالة خوف أذهله عن ذلك العلم ، لأن

الأنبياء عليهم السلام أعلم الناس بالله فيكونون أخوفهم منه فيكون معذورًا بسبب ذلك ، وقيل إن : فى حكمة الله تعالى وعلمه ألا يبتلى نبيًا من الأنبياء بالكفر ، بشرط أن يكون متضرعًا إلى ربه طالبًا منه ذلك ، فأجرى على لسانه هذا السؤال لتحقيق شرط العصمة .

٥٢٥ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] جعل الأصنام مضلة ، والمضل ضار ، وقال فى موضع آخر : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس:١٨] ، ونظائره كثرة فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : إضافة الإضلال إليها مجاز بطريق المشابهة ووجهه أنهم لما ضلوا بسببها فكأنها أضلتهم ، كما يقال فتنتهم الدنيا وغرتهم ، أى : افتتنوا بسببها واغتروا ، ومثله قولهم : دواء مسهل ، وسيق قاطع ، وطعام مشبع ، وماء مرو ، وما أشبه ذلك ، ومعناه : حصول هذه الآثار بسبب هذه الأشياء وفاعل الآثار هو الله تعالى .

٥٢٦ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿أَفْـِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٧] ولم يقل : أفئدة الناس ، قوله : قلوب الناس أظهر استعمالاً من قوله قلوبًا من الناس ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لو قال إبراهيم عليه السلام فى دعائه أفئدة الناس ، لحجت جميع الملل وازدحم عليه الناس حى لم يبق لمؤمن فيه موضع ، مع أن حج غير الموحدين لا يفيد ، والأفئدة هنا القلوب فى قول الأكثرين ، وقيل : الجماعة من الناس .

٥٢٧ - **فإن قيل** : إذا كان الله تعالى قد ضمن رزق العباد ، فلم سأل إبراهيم عليه السلام الرزق لذريته فقال: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[إبراهيم:٣٧] ؟

قلنا : الله تعالى ضمن الرزق والقوت الذى لابد للإنسان منه ما دام حيًا ولم

يضمن كونه ثمرًا أو حبًا أو نوعًا معينًا ، فالسؤال كان لطلب الثمر عينًا.

٥٢٨ - **فإن قيل** : قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ [إبراهيم:٣٩] شكرًا على نعمة الولد ، فكيف يناسبه بعده : ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] ؟

قلنا : لما كان قد دعا ربه لطلب الولد بقوله : ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] فاستجاب له ناسب قوله بعد الشكر : ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٩] أى لمجيبه من قولهم : سمع الملك قول فلان إذ أجابه وقبله ، ومنه قولهم فى الصلاة "سمع الله لمن حمده" أى : أجابه وأثابه .

٥٢٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح:٢٨] استغفر إبراهيم لوالديه وكانا كافرين ، والاستغفار للكافرين لا يجوز ، ولا يقال : إن هذا موضع الاستثناء المذكور فى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [التوبة:١١٤] الآية ، لأن المراد بذلك استغفاره لأبيه خاصة بقوله : ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٦٨٦] والموعدة التى وعدها إياه إنما كانت له خاصة بقوله : ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ [مريم:٤٧] ولهذا قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤] ؟

قلنا : هذا الاستغفار لهما كان مشروطًا بإيمانهم تقديرًا ، كأنه قال ولوالدى إن آمنا :

الثانى : أنه أراد بهما آدم وحواء صلوات الله عليهما ، وقرأ ابن مسعود وأبى النخعى والزهرى رضى الله عنهم : "لولدى" يعنى إسماعيل وإسحاق ، ويعضد هذه القراءة سبق ذكرهما ، ولا إشكال على هذه القراءة وقيل : إن هذا الدعاء على القراءة المشهورة كان زلة من إبراهيم صلوات الله عليه ، وإليها أشار بقوله : ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢] .

٥٣٠ – **فإن قيل** : الله تعالى منزه ومتعال عن الغفلة ، والنبى عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بصفات جلاله وكماله ، فكيف يحسبه النبى عليه الصلاة والسلام غافلاً وهو أعلم الخلق بالله حتى نهاه عن ذلك بقوله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢] ؟

قلنا : يجوز أن يكون هذا نهيًا لغير النبى عليه الصلاة والسلام ممن يجوز أن يحسبه غافلاً لجهله بصفاته ، وقوله تعالى بعده : ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [إبراهيم:٤٤] لا يدل قطعًا على أن الخطاب الأول للنبى عليه الصلاة والسلام ، لجواز أن يكون ذلك النهى لغيره مع أن هذا الأمر له .

الثانى : أنه مجاز معناه : ولا تحسبن الله مهمل الظالمين وتاركهم سدى ، أى: لكون هذا من لوازم الغفلة عنهم .

الثالث: أن النهى وإن كان حقيقة والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام فالمراد به دوامه وثباته على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص:٨٧] وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء:٢١٣] ونظير هذا النهى من الأمر قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦] وقول بعض المفسرين : إن معنى الآية يا أيها الذين آمنوا ، بموسى أو بعيسى آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام لا يخرج الآية عن كونها نظيرًا ، لأن الاستبدال بالإيمان باقٍ ، فتأمل. .

*** *** ***

سورة الحجر

٥٣١ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الحجر:٦] اعترفوا بنبوته ، إذ الذكر هو القرآن الذى نزل عليه ثم وصفوه بالجنون ؟

قلنا : إنما قالوا ذلك استهزاء وسخرية لا تصديقًا واعترافًا ، كما قال فرعون لقومه : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الشعراء:٢٧] وكما قال قوم شعيب عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧] ونظائره كثيرة .

الثانى: أن فيه إضمارًا تقديره: يا أيها الذى تدعى أنك نزل عليك الذكر .

٥٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [الحجر:٢٣] والوارث هو الذى يتجدد له الملك بعد فناء المورث ، والله تعالى إذا مات الخلائق لم يتجدد له ملك ، لأنه لم يزل مالكًا للعالم بجميع ما فيه ومن فيه ؟

قلنا : الوارث فى اللغة عبارة عن الباقى بعد فناء غيره ، سواء تجدد له من بعده ملك أولاً ، وهذا يصح أن يقال لمن أخبر أن زيدًا مات وترك ورثة هل ترك لهم مالاً أولاً ، فيكون معنى الآية : ونحن الباقون بعد فناء الخلائق.

الثانى : أن الخلائق لما كانوا يعتقدون أنهم مالكون يسمون بذلك أيضًا إما مجازًا أو خلافة عن الله تعالى كالعبد المأذون والمكاتب ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ تُؤۡتِى ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] فإذا مات الخلائق كلهم سلمت الأملاك كلها لله تعالى عن ذلك القدر من التعلق ، فبهذا الاعتبار كانت الوراثة، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر:١٦] والملك له أزلاً

وأبدًا .

٥٣٣ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ﴾ [الحجر:٣٠] دل على الشمول والإحاطة وأفاد التوكيد ، فما فائدة قوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠]؟

قلنا : قال سيبويه والخليل [١] ، هو توكيد بعد توكيد ، فيفيد زيادة تمكين المعنى وتقريره فى الذهن ، فلا يكون تحصيل الحاصل ، بل تكون نسبة أجمعون كنسبة كلهم إلى أصل الجملة ، وقال المبرد [٢] : قوله تعالى : ﴿أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠] يدل على اجتماعهم فى زمان السجود ، وكلهم يدل على وجود السجود من الكل، فكأنه قال : فسجد الملائكة كلهم معًا فى زمان واحد ، واختار ابن الأنبارى هذا القول، واختار الزجاج وأكثر الأئمة قول سيبويه وقالوا : لو كان الأمر كما زعم المبرد لكان أجمعون حالاً لوجود حد الحال فيه ، وليس بحال لأنه مرفوع ولأنه معرفة كسائر ألفاظ التوكيد .

٥٣٤ - **فإن قيل** : ما وجه ارتباط قوله تعالى : ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر:٥١] بما قبله من قوله تعالى : ﴿نَبِّئْ عِبَادِى﴾ [الحجر:٤٩] الآيتين ؟

قلنا : لما أنزل الله عز وجل : ﴿نَبِّئْ عِبَادِى﴾ [الحجر:٤٩] الآيتين ولم يعين أهل المغفرة وأهل العذاب غلب الخوف على الصحابة رضى الله عنهم : فأنزل الله تعالى بعد ذلك قصة ضيف إبراهيم عليه السلام ليزول خوف الصحابة وتسكن قلوبهم ، فإن ضيف إبراهيم عليه السلام جاءوا ببشارة للولى وهو إبراهيم ، وعقوبة للعدو وهم قوم لوط عليه السلام وكذلك تنزل الآيتين المتقدمتين على الولى والعدو لا على الولى وحده .

---

(١) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي إمام في اللغة والأدب وواضع علم العروض ومعجم العين توفى سنة ١٧٠هـ .

(٢) هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي إمام العربية واشتهر بالمبرد لأن إجاباته كانت تبرد قلوب من يسألونه .

الثانى : أن وجه الارتباط أن العبد وإن كان كثير الذنوب والخطايا غير طامع فى المغفرة ، لا يبعد أن يغفر الله تعالى له على يأسه ، كما رزق إبراهيم الولد على يأسه بعدما شاخ ، وبلغ مائة سنة أو قريبًا منها .

٥٣٥ - **فإن قيل** : كيف قالت الملائكة : ﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [الحجر:٦٠] أى قضيتنا ، والقضاء لله تعالى لا لهم ؟

قلنا : إسناد التقدير للملائكة هو مجاز ، كما يقول خواص الملك ، دبرنا كذا وأمرنا بكذا ونهينا عن كذا ، ويكون الفاعل لجميع ذلك هو الملك لاهم ، وإنما يظهرون بذلك مزيد قربهم واختصاصهم بالملك .

٥٣٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر:٨٠] وأصحاب الحجر قوم صالح ، والحجر اسم واديهم أو مدينتهم على اختلاف القولين ، وقوم صالح لم يرسل إليهم غير صالح فكيف يكذبون المرسلين ؟

قلنا : من كذب رسولاً واحدًا فكأنما كذب الكل ، لأن كل الرسل متفقون فى دعوة الناس إلى توحيد الله تعالى .

٥٣٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣] وقال فى سورة الرحمن : ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٣٩] ؟

قلنا : الجواب عنه من وجهين أحدهما قد ذكرناه فى مثل هذا السؤال فى سورة هود .

والثانى : أن المراد هنا أنهم يسألون سؤال توبيخ وهو سؤال : لم فعلتم ، والمراد ثم إنهم لا يسألون سؤال استعلام واستخبار وهو سؤال : هل فعلتم ، أو يقال : إن فى يوم القيامة مواقف ، ففى ، بعضها يسألون ، وفى بعضها لا يسألون ، وتقدم نظيره .

سورة النحل

٥٣٨ - **فإن قيل** : لم قدمت الإراحة وهى مؤخرة فى الواقع على السروح وهو مقدم فى الواقع فى قوله تعالى : ﴿حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٦] ؟

قلنا : لأن الأنعام فى وقت الإراحة وهى ردها عشيًا إلى المراح تكون أجمل وأحسن ، لأنها تقبل ملأى البطون حاملة الضروع متهادية فى مشيها يتبع بعضها بعضًا ، بخلاف وقت السروح ، وهو إخراجها إلى المرعى ، فإن كل هذه الأمور تكون على ضد ذلك .

٥٣٩ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل:٧] إن أريد به لم تكونوا بالغيه عليها إلا بشق الأنفس فلا امتنان فيه ، وإن أريد به ولم تكونوا بالغيه بدونها إلا بشق الأنفس فهم لا يبلغونه عليها أيضًا إلا بشق الأنفس ، فما فائدة ذلك ؟

قلنا : معناه وتحمل أثقالكم : أى أجسامكم وأمتعتكم معكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بدونها بأنفسكم من غير أمتعتكم إلا بجهد ومشقة ، فكيف لو حملتم أمتعتكم على ظهوركم ، والمراد بالمشقة : المشقة التى تنشأ من المشى ، أو من المشى مع الحمل على الظهر لا مطلق مشقة السفر ، وهذا مخصوص بحال فقد الإبل ، فظهر فائدة ذلك .

٥٤٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل:٨] يقتضى حرمة أكل الخيل كما اقتضاه فى البغال والحمير من حيث إنه لم ينص على منفعة أخرى فيها غير الركوب والزينة ، ومن حيث أن التعليل بعلة يقتضى الانحصار فيها كقولك : فعلت هذا لكذا ، فإنه يناقضه أن تكون فعلته لغيره أوله مع غيره إلا إذا كان أحدهما جهة فى الآخر ؟

قلنا : ينتقض بالحمل عليها والحراثة بها ، فإن ذلك مباح مع أنه لم ينص عليه .

٥٤١ - فإن قيل : إنما ثبت ذلك بالقياس على الأنعام ، فإنه منصوص عليه فيها بقوله تعالى : ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ﴾ [النحل:٥] والمراد به كل منفعة معهودة منها عرفًا ، لا كل منفعة ، فثبت مثل ذلك فى الخيل والبغال والحمير ؟

قلنا : لو كان ثبوته فيها بالقياس على ثبوته فى الأنعام لثبت حل الأكل فى الخيل بالقياس على ثبوته فى الأنعام أيضًا ، ولو ثبت حل الأكل فى الخيل بالقياس لثبت فى البغال والحمير ، كما ثبت الحمل والحراثة ثبوتًا شاملاً للكل بالقياس على ثبوته فى الأنعام ، والجواب عن الجهة الثانية فى أصل السؤال أن هذه اللام ليست لام التعليل بل لام التمكين ، كقوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ [يونس:٦٧] ومع هذا يجوز فى الليل غير السكون .

٥٤٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى فى وصف ماء السماء : ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل:١١] ولم يقل : كل الثمرات ، مع أن كل الثمرات تنبت بماء السماء ؟

قلنا :كل الثمرات لا تكون إلا فى الجنة ، وإنما ينبت فى الدنيا بعض منها أنموذجًا وتذكرة ، فالتبعيض بهذا الاعتبار ، فيكون المراد بالثمرات ما هو أعم من ثمرات الدنيا ، ومن يجوز زيادة "من" فى الإثبات يحتمل أن يجعلها زائدة هنا .

٥٤٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ [النحل:١٧] المراد بمن لا يخلق الأصنام بدليل قوله تعالى بعده : ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل:٢٠] فكيف جىء بـ "من" المختصة بأولى

العلم والعقل ؟

قلنا : خاطبهم على معتقدهم ، لأنهم سموها آلهة وعبدوها فأجروها مجرى أولى العلم ، ونظير هذا قوله تعالى فى الأصنام أيضًا : ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٩٥] الآية ، فأجرى عليهم ضمير أولى العلم والعقل لما قلناه ، ويرد على هذا الجواب أن يقال : إذا كان معتقدهم خطأ وباطلاً فالحكمة تقتضى أن ينزعوا عنه ويقلعوا، لا أن يبقوا عليه ويقروا فى خطابهم على معتقدهم إيهامًا لهم أن معتقدهم حق وصواب .

وجوابه : أن الغرض من الخطاب الإفهام ، ولو خاطبهم على خلاف معتقدهم ومفهومهم فقال : أفمن يخلق كما لا يخلق ، لاعتقدوا أن المراد من الثانى غير الأصنام من الجماد .

الثانى : قال ابن الأنبارى: إنما جاز ذلك لأنها ذكرت مع العالم فغلب عليها حكمه فى اقتضاء "من" كما غلب على الدواب فى قوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [النور:٤٥] الآية ، وكما فى قول العرب : اشتبه على الراكب وجمله، فما أدرى من ذا ومن ذا .

٥٤٤ - فإن قيل : هذا إلزام للذين عبدوا الأصنام ، وسموها آلهة تشبيهًا بالله فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فظاهر الإلزام يقتضى أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟

قلنا : لما سووا بين الأصنام وخالقها سبحانه وتعالى فى تسميتها باسمه وعبادتها كعبادته فقد سووا بينها وبين خالقها قطعًا ، فصح الإنكار بتقديم أيهما كان ، وإنما قدم فى الإنكار عليهم ذكر الخالق ، إما لأنه أشرف ، أو لأنه هو المقصود الأصلى من هذا الكلام تنزيهًا له وإجلالاً وتعظيمًا .

٥٤٥ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى فى وصف الأصنام : ﴿غَيْرُ

أَحْيَآءٍ﴾ [النحل:٢١] بعد قوله تعالى : ﴿أَمْوَٰتٌ﴾ [النحل:٢١] ؟

قلنا : فائدته أنها أموات لا يعقب موتها حياة احترازًا عن أموات يعقب موتها حياة ، كالنطف والبيض والأجساد الميتة ، وذلك أبلغ فى موتها كأنه قال : أموات فى الحال غير أحياء فى المآل .

الثانى: أنه ليس وصفًا لها بل لعبادها ، معناه : وعبادها غير أحياء القلوب.

الثالث : أنه إنما قال : غير أحياء ، ليعلم أنه أراد أمواتًا فى الحال ، ولأنها استموت كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] .

٥٤٦ - فإن قيل : كيف عاب الأصنام وعبادها بأنهم لا يعلمون وقت البعث فقال تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٢١] والمؤمنون الموحدون كذلك ؟

قلنا : معناه وما يشعر الأصنام متى يبعث عبادها ، فكيف تكون آلهة مع الجهل ، أو معناه : وما يشعر عبادها وقت بعثهم لا مفصلاً ولا مجملاً لأنهم ينكرون البعث ، بخلاف الموحدين فإنهم يشعرون وقت بعثهم مجملاً أنه يوم القيامة وإن لم يشعروه مفصلاً .

٥٤٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل:٢٤] كيف يعترفون بأنه من عند الله تعالى بالسؤال المعاد فى ضمن الجواب ثم يقولون هو أساطير الأولين ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة الحجر فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٦] .

٥٤٨ - فإن قيل : كيف قال هنا : ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] وقال فى موضع آخر : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] ؟

قلنا : معناه ومن أوزار إضلال الذين يضلونهم ، فيكون عليهم وزر كفرهم مباشرة ووزر كفر من أضلوهم تسببًا ، فقوله تعالى : ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ﴾ [النحل:٢٥] يعنى أوزار الذنوب التى باشروها ، وأما قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] فمعناه : وزر لا مدخل لها فيه ولا تعليق له بها مباشرة ولا تسببًا ، ونظير هاتين الآيتان الأخريان فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت:١٢] إلى قوله تعالى : ﴿وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت:١٣] وجوابهما مثل جواب هاتين الآيتين.

٥٤٩ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ﴾ [النحل:٤٠] الآية، يدل على أن المعدوم شىء ، ويدل على أن خطاب المعدوم جائز ، والأول منتف عند أكثر العلماء ، والثانى منتف بالإجماع .

قلنا : أما تسميته شيئًا فمجاز باعتبار ما يؤول إليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج:١] وقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وأما الثانى فإن هذا خطاب تكوين يظهر به أثر القدرة فيمتنع أن يكون المخاطب به موجودًا قبل الخطاب ، لأنه إنما يكون بالخطاب فلا يسبقه ، بخلاف خطاب الأمر والنهى .

٥٥٠ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل:٤٩] كيف لم يغلب العقلاء من الدواب على غيرهم كما فى قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ [النور:٤٥] الآية ، بل أولى لأنه وصف ما لا يعقل بخصوصه بلفظ : ﴿مَّن﴾ [النحل:٦] وهو الحية والأنعام ، وهنا لو قال من فى السموات ومن فى الأرض لا يلزم وصف ما لا يعقل بخصوصه

وتعيينه بلفظه "من" بل المجموع ؟

قلنا : لأنه أراد عموم كل دابة وشمولها ، فجاء بها التى تعم النوعين وتشملها ، ولو جاء بمن لخص العقلاء .

٥٥١ – **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل:٦١] يقتضى أنه لو آخذ الظالمين بظلمهم لأهلك غير الظالمين من الناس ، ولأهلك جميع الدواب غير الناس ، ومؤاخذة البرىء بسبب ظلم الظالم لا يحسن بالحكيم ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الكفر ، وبالدابة الظالمة وهى الكافر ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل معناه : لو أهلك الآباء بكفرهم لم يكن الأبناء .

الثانى : يجوز أن يهلك الجميع بشؤم ظلم الظالمين مبالغة فى إعدام الظلم ونفى وجود أثره ، حتى لا يوجد بعد ذلك من بقية الناس ظلم موجب للإهلاك ، كما وجد من الذين أهلكهم بظلمهم ، ودليل جواز ذلك ما وجد فى زمن نوح عليه السلام ، فإنه أهلك بشؤم ظلم قوم نوح جميع دواب الأرض ، وما نجا إلا من فى السفينة ولم يبق على ظهر الأرض دابة ، ولذا قال تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال:٥] ثم إذا فعل ذلك للحكمة والمصلحة التى اقتضت فعله عوّض البرىء فى الآخرة ما هو خير وأبقى .

الثالث : أن كل إنسان مكلف فهو ظالم إما لنفسه أو لغيره ، لأنه لا يخلو عن ذنب صغير أو كبير ، فلو أهلك الناس بذنوبهم لأهلك الدواب أيضًا ، لأنه إنما خلق الدواب لمصالح الناس وإذا عدم الناس وقع استغناؤهم عن الدواب كلها .

٥٥٢ – **فإن قيل** : لا نسلم أن غير الإنسان من الحيوان مخلوق لمصالح

الإنسان، ومستنده أنه كان مخلوقًا قبل خلق الإنسان بالنقل عن الكتب الشرعية وغيرها، وقد جاء مصرحًا به فى الحديث فى باب الخلق من جامع الأصول سلمنا أنه مخلوق لمصلحة الإنسان ، لكن هلاك غير الإنسان معه يخفف عنه ألم المصيبة ، لا سيما إذا كان الهالك معه من جنسه ، ولهذا قيل : المصيبة إذا عمت طابت ، سلمنا أن إهلاك غيره معه مؤلم له ، لكن لو كان إهلاكه معه لأنه خلق لمصلحته أفنهلك تبعًا له لاستغنائه عنه أو لزيادة الإيلام فالبار أيضًا خلق لمصلحته على قولكم ، فلم كان إهلاك الحيوان عقوبة للإنسان أولى من إهلاك النبات ، ولم يقل : ما ترك عليها من دابة ونبات أو من شىء ؟

قلنا : الجواب عن الأول قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة:٢٩] وخلقه قبل الإنسان لا ينفى خلقه لمصلحة الإنسان ، كما يعد عظماء الناس الدور والقصور والخدم والحشم والدواب والثياب لأولادهم وأولاد أولادهم قبل وجودهم ، وعن الثانى : أنا لا ندعى أنه يهلك مع الإنسان بل قبله لتألمه بمشاهدة هلاك محبوبه ومألوفه ، وعن الثالث : أن المراد ما ترك عليها من دابة بواسطة منع المطر فيعدم النبات ، ثم يعدم بواسطة عدمه غير الإنسان من الحيوان ، ثم يعدم الإنسان ، كذا جاء فى تفسير هذه الآية والآية التى فى آخر سورة فاطر، وهذا الترتيب أبلغ فى العذاب وأعظم فى العقاب من تقديم إهلاك الحيوان على النبات ، لأن الإنسان إذا بقى حيوانه بلا علف كان أوجع مما إذا بقى علفه بلا حيوان .

٥٥٣ - فإن قيل:كيف قال تعالى : ﴿ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ [النحل:٦٨] ولم يقل فى الجبال وفى الشجر، والاستعمال إنما هو أبقى ، يقال اتخذ فلان بيتًا فى الجبل أو فى الصحراء أو نحو ذلك ؟

قلنا : قال الزمخشرى رحمه الله ، إنما أتى بلفظة "من" لأنه أراد معنى

البعضية ، وألا تبنى بيوتها فى كل جبل وكل شجر ولا فى كل مكان من الجبل والشجر ، وأنا أقول : إنها ذكره بلفظة "من" لأنه أراد كون البيت بعض الجبل وبعض الشجر كما نشاهد ونرى من بيوت النحل ، لأنه يتخذ من طين أو عيدان فى الجبل والشجر كما تتخذ الطيور ، فلو أتى بلفظة "فى" لم تدل على هذا المعنى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء:١٤٩] .

٥٥٤ – فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النحل:٧٢] وأزواجنا لسن من أنفسنا ، لأنهن لو كن من أنفسنا لكن حرامًا علينا ، فإن المتفرعة من الإنسان لا يحل له نكاحها؟

قلنا : المراد بهذا أنه خلق آدم ثم خلق منه حواء ، كما قال تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النحل:٦] .

الثانى: أن المراد من خلقكم كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] .

٥٥٥ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣] فعبر بالواو والنون وهما من خواص من يعقل ؟

قلنا : كان فيمن يعبدونه من دون الله من يعقل كالعزير وعيسى والملائكة عليهم الصلاة والسلام فغلبهم .

٥٥٦ – فإن قيل : لم أفرد فى قوله تعالى : ﴿ مَا لَا يَمْلِكُ﴾ [النحل:٧٣] ثم جمع فى قوله : ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُون﴾ [النحل:٧٣] ؟

قلنا : أفرد نظرًا إلى لفظ "ما" ، وجمع نظرًا إلى معناها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ

ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف:١٢، ١٣] أفرد الضمير نظرًا إلى لفظها ، وجمع الظهور نظرًا إلى معناها .

٥٥٧ - **فإن قيل** : ما فائدة نفى استطاعة الرزق بعد نفى ملكه والمعنى واحد ، لأن نفى ملك الفعل هو نفى استطاعته ، والرزق هنا اسم مصدر بدليل إعماله فى "شيئًا" ؟

قلنا : ليس فى يستطيعون ضمير مفعول هو الرزق ، بل الاستطاعة منفية عنهم مطلقًا ؛ معناه لا يمكلون أن يرزقوا ، ولا استطاعة لهم أصلاً فى رزق أو غيره لأنهم جماد .

الثانى : أنه لو قدر فيه ضمير مفعول على معنى ولا يستطيعونه كان مفيدًا أيضًا على اعتبار كون الرزق اسما للعين ، لأن الإنسان يجوز أن لا يملك الشىء ولكن يستطيع أن يملكه بخلاف هؤلاء فإنهم لا يملكون ولا يستطيعون أن يملكوا .

٥٥٨ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿مَّمْلُوكًا﴾ [النحل:٧٥] بعد قوله : ﴿عَبْدًا﴾ [النحل:٧٥] وما فائدة قوله : ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل:٧٥] بعد قوله: ﴿مَّمْلُوكًا﴾ [النحل:٧٥] ؟

قلنا : لفظ العبد يصلح للحر والمملوك لأن الكل عبيد الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص:٣٠] فقال مملوكًا لتمييزه عن الحر، وقال : ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل:٧٥] لتمييزه عن المأذون والمكاتب فإنهما يقدران على التصرف والاستقلال .

٥٥٩ - **فإن قيل**: المضروب به المثل اثنان وهما المملوك والمرزوق رزقًا حسنًا فظاهره أن يقال : هل يستويان ، فكيف قال تعالى : ﴿يَسْتَوُۥنَ﴾ [النحل:٧٥]؟

قلنا : لأنه أراد جنس المماليك وجنس المالكين لا مملوكًا معينًا ولا مالكًا

معينًا .

الثانى : أنه أجرى الاثنين مجرى الجمع .

الثالث : أن "من" تقع على الجمع ، ولقائل أن يقول على الوجه الثالث يلزم منه أن يصير المعنى ضرب الله مثلاً عبدًا مملوكًا وجماعة مالكين ، هل يستوون ، إنه لا يحسن مقابلة الفرد بالجمع فى التمثيل .

٥٦٠ – **فإن قيل** : "أو" فى الخبر للشك ، والشك على الله تعالى محال ، فما معنى قوله : ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] ؟

قلنا : "أو" هنا بمعنى بل كما فى قوله تعالى : ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] وقوله تعالى : ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:٧٤] وقوله : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩] ويرد على هذا أن "بل" للإضراب ، والإضراب رجوع عن الإخبار وهو على الله محال ، وقيل : هى بمعنى "الواو" فى هذه الآيات ، وقيل أو للشك فى الكل لكن بالنسبة إلينا لا إلى الله تعالى ، وكذا فى قوله : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩] يعنى بالنسبة إلى نظر النبى ﷺ .

وقال الزجاج : ليس المراد أن الساعة تأتى فى أقرب من لمح البصر ، ولكن المراد وصف قدرة الله على سرعة الإتيان بها متى شاء .

٥٦١ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] ولم يقل والبرد ، مع أن السرابيل وهى الثياب تلبس لدفع الحر والبرد وهى مخلوقة لهما ؟

قلنا : حذف ذكر أحدهما لدلالة ضده عليه كما فى قوله تعالى : ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦] ولم يقل والشر ، كما قال الشاعر :

وما أدرى إذا يممت أرضًا أريد الخير أيهما يلينى[١]

أى : أريد الخير لا الشر ، أو أريد الخير وأحذر الشر .

٥٦٢ - **فإن قيل** : لم كان ذكر الخير والحر أولى من ذكر الشر والبرد ؟

قلنا : لأن الخير مطلوب العباد من ربهم ومرغوبهم إليه ، أو لأنه أكثر وجودا فى العالم من الشر ، وأما الحر فلأن الخطاب في القرآن أول ما وقع من أهل الحجاز ، والوقاية من الحر أهم عنده لأن الحر فى بلادهم أشد من البرد .

٥٦٣ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [النحل:٨٣] مع أن كلهم كافرون ؟

قلنا : قال الزمخشرى : الأحسن أن المراد بالأكثر هنا الجمع ، وفى هذا نظر ، لأن بعض الناس لا يجوز إطلاق اسم البعض على الكل ، لأنه ليس لازمًا له بخلاف عكسه .

٥٦٤ - **فإن قيل** : ما فائدة قول المشركين عند رؤية الأصنام : ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ﴾ [النحل:٨٦] والله تعالى عالم بذلك ؟

قلنا : لما أنكروا الشرك بقولهم : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] عاقبهم الله تعالى بإصمات ألسنتهم وأنطق جوارحهم ، فقالوا عند معاينة آلهتهم: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ [النحل:٨٦] أى : قد أقررنا بعد الإنكار وصدقنا بعد الكذب طلبًا للرحمة وفرارًا من الغضب ، فكان هذا القول على وجه الاعتراف منهم بالذنب لا على وجه إعلام من لا يعلم .

الثانى : أنهم لما عاينوا عظيم غضب الله تعالى وعقوبته قالوا : ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا﴾ [النحل:٨٦] رجاء أن يلزم الله الأصنام ذنوبهم لأنهم كانوا يعتقدون

---
(١) البيت للمثقب العبدي .

لها العقل والتمييز فيخفف عنهم العذاب .

٥٦٥- **فإن قيل** : لم قالت الأصنام للمشركين : ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل:٨٦] وكانوا صادقين فيما قالوا ؟

قلنا : إنما قالت لهم ذلك لتظهر فضيحتهم ، وذلك أن الأصنام كانت جمادًا لا تعرف من يعبدها ، فلم تعلم أنهم عبدوها فى الدنيا فظهرت فضيحتهم حيث عبدوا من لا يعلم بعبادتهم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم:٨١، ٨٢] .

٥٦٦ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩] فإذا كان القرآن تبيانًا لكل شيء من أمور الدين ، فمن أين وقع بين الأمة فى أحكام الشريعة هذا الخلاف الطويل العريض ؟

قلنا : إنما وقع الخلاف بين الأمة لأن كل شيء يحتاج إليه من أمور الدين ليس مبينًا فى القرآن نصًا بل بعضه مبين وبعضه مستنبط بيانه منه بالنظر والاستدلال ، وطريق النظر والاستدلال مختلفة فلذلك وقع الخلاف .

٥٦٧ - **فإن قيل** : كثير من أحكام الشريعة لم تعلم من القرآن نصًا ولا استنباطًا كعدد ركعات الصلاة ، ومقادير باقى الأعضاء ، ومدة السفر والمسح والحيض، ومقدار حد الشرب ، ونصاب السرقة وما أشبه ذلك مما يطول ذكره؟

قلنا : القرآن تبيان لكل شيء من أمور الدين ، لأنه نص على بعضها ، وأحال على السنة فى بعضها فى قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧] وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:٣] وأحال على الإجماع أيضًا بقوله تعالى : ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥]

الآية ، وأحال على القياس أيضًا بقوله تعالى : ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَـٰرِ﴾ [الحشر:٢] والاعتبار : النظر والاستدلال ، فهذه أربعة طرق لا يخرج شيء من أحكام الشريعة عنها ، وكلها مذكورة فى القرآن فصح كونه تبيانًا لكل شيء .

٥٦٨ - **فإن قيل** : كيف وحدت القدم ونكرت فى قوله تعالى : ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل:٩٤] ولم يقل القدم أو الأقدام ، وهو أشد مناسبة لجمع الإيمان؟

قلنا : وُحدت ونكرت فى قوله تعالى لاستعظام أن تزل قدم واحدة على طريق الجنة فكيف بأقدام كثيرة .

٥٦٩ - **فإن قيل** : "من" تتناول الذكر والأنثى لغة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ [الأنعام:١٦٠] الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ [آل عمران:٩٧] وقوله تعالى : ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧] الآية ، وقوله تعالى : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة:١٨٥] ونظائره كثيرة : فكيف قال تعالى هنا : ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [النحل:٩٧] ؟

قلنا : إنما صرح بذكر النوعين هنا لسبب اقتضى ذلك ، وهو أن النساء قلن: ذكر الله تعالى الرجال فى القرآن بخير ولم يذكر النساء بخير ، فلو كان فينا خير لذكرنا به ، فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] الآية ، وأنزل : ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ [النحل:٩٧] فذهب عن النساء وهم تخصيصهن عن العمومات .

٥٧٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل:٧٩] وقد رأينا كثيرًا من الصلحاء والأتقياء قطعوا أعمارهم فى المصائب والمحن وأنواع

البلايا باعتبار الأمثل فالأمثل إلى الأنبياء ؟

قلنا : المراد بالحياة الطيبة فى القناعة ، وقيل : فى الرزق الحلال ، وقيل : فى رزق يوم بيوم ، وقيل : التوفيق للطاعات ، وقيل : فى حلاوة الطاعات ، وقيل : فى الرضا بالقضاء ، وقيل : المراد به الحياة فى القبر كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] وقيل : المراد به ، الحياة فى الدار الآخرة ، وهى الحياة الحقيقية لأنها حياة لا موت بعدها دائمة فى النعيم المقيم ، والظاهر أن المراد به الحياة فى الدنيا لقوله تعالى : ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم﴾ [النحل:٩٧] وعدهم الله ثواب الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [آل عمران:١٤٨] .

٥٧١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [النحل:١٠٧] وكثير من الصحابة وغيرهم كانوا كافرين، فهداهم الله تعالى إلى الإيمان ؟

قلنا : المراد من هذا : الكافرون الذين علم الله تعالى أنهم يموتون على الكفر ويؤيده ما بعد ذلك من الآيتين .

٥٧٢ - فإن قيل : ما معنى إضافة النفس إلى النفس فى قوله تعالى : ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النحل:١١١] والنفس ليس لها نفس أخرى ؟

قلنا : النفس اسم للروح وللجوهر القائم بذاته المتعلق بالجسم تعلق التدبير ، وقيل هى اسم لجملة الإنسان لقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وقوله تعالى : ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة:٤٥] والنفس أيضًا اسم لعين الشيء ذاته ، كما يقال نفس الذهب والفضة محبوبة: أى عينهما وذاتهما ، فالمراد بالنفس الأولى الإنسان ، وبالثانية ذاته، فكأنه يوم يأتى كل إنسان يجادل عن نفسه : أى ذاته لا يهمه شأن غيره ، كل يقول نفسى

نفسى ، فاختلف معنى النفسين .

٥٧٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ [النحل:١١٢] والإذاقة لا تناسب اللباس وإنما تناسبه الكسوة ؟

قلنا : الإذاقة تناسب المستعار له وهو الجوع من حيث أن الجوع يقتضى الأكل فيقتضى الذوق ، وإن كانت لا تناسب المستعار له وهو اللباس ، والكسوة تناسب المستعار وهو اللباس ولا تناسب المستعار له وهو الجوع ، وكلاهما من دقائق علم البيان ، يسمى الأول تجريد الاستعارة .

والثانى : ترشيح الإستعارة فجاء القرآن العزيز فى هذه الآية بتجريد الاستعارة ، وقد ذكرنا تمام هذا فى كتابنا "روضة الفصاحة" ولباس الجوع والخوف استعارة لما يظهر على أهل القرية من أثر الجوع والخوف من الصفرة والنحول ، فهو كقوله تعالى : ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف:٢٦] استعار اللباس لما يظهر على المتقى من أثر التقوى ، وقيل : إن فيه إضمارًا تقديره : فأذاقها الله طعم الجوع وكساها لباس الخوف .

*** *** ***

سورة الإسراء

٥٧٤ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء:١] ولم يقل بنبيه أو برسوله أو بحبيبه أو بصفيه ونحو ذلك ، مع أن المقصود من ذلك الإسراء تعظيمه وتبجيله ؟

قلنا : إنما سماه عبدًا فى أرفع مقاماته وأجله وهو هذا ، وقوله : ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠] كيلا تغلط فيه أمته وتضل به كما ضلت أمة المسيح به فدعته إلهًا ، وقيل : كيلا يتطرق إليه العجب والكبر .

٥٧٥ – **فإن قيل** : الإسراء لا يكون إلا بالليل ، فما فائدة ذكر الليل ؟

قلنا : فائدته أنه ذكر منكرًا ليدل على قصر الزمان الذى كان فيه الإسراء والرجوع ، مع أنه كان من مكة إلى بيت المقدس مسيرة أربعين ليلة ، وذلك لأن التنكير يدل على البعضية ، ويؤيده قراءة عبد الله وحذيفة من الليل ، أى بعض الليل كقوله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩] فإنه أمر بالقيام فى بعضه .

٥٧٦ – **فإن قيل** : أى حكمة فى نقله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ثم العروج به من بيت المقدس إلى السماء ، وهلا عرج به من مكة إلى السماء دفعة واحدة ؟

قلنا : لأن بيت المقدس محشر الخلائق فأراد الله تعالى أن يطأها قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم عليها ببركة أثر قدمه ﷺ .

الثانى : أن بيت المقدس مجمع أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته ﷺ .

الثالث : أنه أسرى به إلى البيت المقدس ليشاهد من أحواله وصفاته ما يخبر به كفار مكة صبيحة تلك الليلة ، فيدلهم إخباره بذلك مطابقًا لما رأوا وشاهدوا على صدقه فى حديث الإسراء .

٥٧٧ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:١] ولم يقل : باركنا عليه أو باركنا فيه ، مع أن البركة فى المسجد تكون أكثر من خارج المسجد وحوله ، خصوصًا المسجد الأقصى ؟

قلنا : أراد البركة الدنيوية بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة وذلك حوله لا فيه ، وقيل : أراد البركة الدينية فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومتعبدهم ومهبط الوحى والملائكة ، وإنما قال : ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء:٦] ليكون بركته أعم وأشمل، فإنه أراد بها حوله ما أحاط به من أرض بلاد الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس ، ولأنه إذا كان هو الأصل وقد بارك فى لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مباركًا فيه بالطريق الأولى ، بخلاف العكس، وقيل : المراد البركة الدنيوية والدينية ووجهها ما مر ، وقيل : المراد باركنا حوله من بركة نشأت منه فعمت جميع الأرض ، فإن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت الصخرة التى فى بيت المقدس .

٥٧٨ - **فإن قيل** : ما وجه ارتباط قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] بما قبله ومناسبته له ؟

قلنا : معناه لا تتخذوا من دونى ربًا فتكونوا كافرين ، ونوح كان عبدًا شكورًا وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فتأسوا به فى الشكر كما تأسى به آباؤكم .

٥٧٩ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧] ولم يقل : فعليها ، كما قال الله تعالى : ﴿مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ

فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦] ؟

قلنا : اللام هنا بمعنى "على" كقوله تعالى : ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وقوله تعالى : ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء:١٠٩] وقيل معناه : فلها رجاء بالرحمة ، أو فلها مخلص بالتوبة والاستغفار ، والصحيح أن اللام هنا على بابها ، لأنها للاختصاص ، وكل عامل مختص بجزاء عمله حسنة كانت أو سيئة ، وقد سبق مثل هذا مستوفى فى آخر سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦] .

٥٨٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [الإسراء:١٢] وقال فى قصة مريم وعيسى عليهما السلام : ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١] ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون:٥٠] مع أن عيسى ﷺ كان وحده آيات شتى حيث كلم الناس فى المهد، وكان يحيى الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويخلق الطير وغير ذلك ، وأمه وحدها كانت آية حيث حملت من غير فحل ؟

قلنا : إنما أراد به الآية التى كانت مشتركة بينهما ولم تتم إلا بهما ، وهى ولادة ولد من غير فحل ، بخلاف الليل والنهار والشمس والقمر .

الثانى : أن فيه آية محذوفة إيجازًا واختصارًا تقديره : وجعلناها آية وابنها آية، وجعلنا ابن مريم آية وأمه آية .

٥٨١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢] والإبصار من صفات ما له حياة ، والمراد بالآية النهار إما الشمس أو النهار نفسه وكلاهما غير مبصر ؟

قلنا : المبصرة فى اللغة بمعنى المضيئة ، نقله الجوهرى ، وقال غيره : معناه بينة واضحة ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩] أى :

آية واضحة مضيئة ، وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ [النمل:١٣] .

الثاني : معناه : مبصرًا بها إن كانت الشمس ، أو فيها إن كانت النهار ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ [يونس:٦٧] أى: مبصرًا فيه ، ونظيره قولهم: "ليل نائم ونهارَ صائم" أى ينام فيه ويصام فيه .

الثالث : أنه فعل رباعى منقول بالهمزة عن الثلاثى الذى هو بصر بالشىء: أى علم به ، فهو بصير : أى عالم ، معناه أنه يجعلهم بصراء ، فيكون أبصره بمعنى بصره ، وعلى هذا حمل الأخفش قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ أى : تبصرهم فتجعلهم بصراء .

الرابع: أن بعض الناس زعم أن الشمس حيوان له حياة وبصر وقدرة ، وهو متحرك بإرادته امتثال أمر الله تعالى كما يتحرك الإنسان.

٥٨٢ – **فإن قيل** : ما الفائدة فى ذكر عدد السنين مع أنه لو اقتصر على قوله لتعلموا الحساب دخل فيه عدد السنين إذ هو من جملة الحساب ؟

قلنا : العدد كله موضوع الحساب كبدن الإنسان فإنه موضوع الطب وأفعال المكلفين موضوع الفقه ، وموضوع كل علم مغاير له وليس جزءًا منه، كبدن الإنسان ليس جزءًا من الطب ، ولا أفعال المكلفين جزءًا من الفقه ، فكذا العدد ليس جزءًا من الحساب ، وإنما ذكر عدد السنين وقدمه على الحساب ، لأن المقصود الأصلى من محو الليل وجعل آية النهار مبصرة علم عدد الشهور والسنين ، ثم يتفرع من ذلك علم حساب التاريخ وضرب المدد والآجال .

٥٨٣ – **فإن قيل**: كيف قال الله تعالى هنا : ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء:١٤] وقال فى موضع آخر : ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]؟

قلنا : مواقف القيامة مختلفة ، ففى موقف يكل الله حسابهم إلى أنفسهم

وعلمه محيط به ، وفى موقف يحاسبهم هو ، وقيل : هو الذى يحاسبهم لا غيره ، وقوله تعالى : ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] أى : يكفيك أنك شاهد على نفسك بذنوبها عالم بذلك ، فهو توبيخ وتقريع ، لا أنه تفويض لحساب العبد نفسه ، وقيل : من يريد مناقشته فى الحساب يحاسبه بنفسه ، ومن يريد مسامحته فيه يكل حسابه إليه .

٥٨٤ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥] يرد ما جاء فى الأخبار أن فى يوم القيامة يؤخذ من حسنات المغتاب والمدين ويزاد فى حسنات رب الدين والشخص الذى اغتيب ، فإن لم تكن لهما حسنات يوضع عليهما من سيئات خصميهما، وكذلك جاء هذا فى سائر المظالم ؟

قلنا : المراد من الآية أنها لا تحمله اختيارًا ردًا على الكافرين حيث قالوا للذين آمنوا : ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] الآيتين ، والمراد من الخبر أنها تحمله كرهًا فلا تنافى ، وقد سبق هذا مرة فى آخر سورة الأنعام .

٥٨٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعال : ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء:١٦] وقال فى آية أخرى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [الأعراف:٢٨]؟

قلنا : فيه إضمار تقديره أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، وقال الزجاج : ومثله قولهم أمرته فعصانى ، وأمرته فخالفنى ، لا يفهم الأمر بالمعصية ولا الأمر بالمخالفة .

الثانى : أن معناه كثرنا مترفيها ، يقال أمرته وآمرته بالمد والقصر يعنى كثرته، وقد قرئ بهما ، ومنه الحديث : "**خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة**"[1] أى : كثيرة النتاج والنسل.

الثالث : أن معناه أمَّرنا مترفيها بالتشديد ، يقال: أمرت فلانًا بمعنى أمرته ،

(١) أحمد (ط الرسالة) (١٥٨٤٦) وضعفه الألباني فى صحيح الجامع الصغير(٦٦٧١) .

أي : جعلته أميرًا ، فمعنى الآية سلطانهم بالإمارة ، ويعضد هذا الوجه قراءة من قرأ : ﴿أَمَّرْنَا﴾ بالتشديد .

وقال الزمخشرى رحمه الله : لا يجوز أن يكون معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا، لأن حذف ما لا دليل عليه فى اللفظ غير جائز فكيف يقدر حذف ما قام الدليل فى اللفظ على نقيضه ، وذلك لأن قوله : ﴿فَفَسَقُوا﴾ [الإسراء:١٦] يدل على أن المأمور به المحذوف هو الفسق وهو كلام مستفيض ، يقال : أمرته فقام وأمرته فقعد وأمرته فقرأ ، لا يفهم منه إلا أن المأمور به القيام والقعود والقراءة ، بخلاف قولهم : أمرته فعصانى ، وأمرته فخالفنى ، حيث لا يكون المأمور به المحذوف المعصية والمخالفة ، لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر وما ينافيه مأمور به ، فيكون المأمور به فى هذا الكلام غير مدلول عليه ولا منوىّ ، والمتكلم بمثل هذا لا ينوى لأمره مأمورًا به ، بل كأنه قال : كان منى أمر فلم منه طاعة ، أو كانت منه مخالفة ، كما تقول : مر زيدًا يطعك، وكما تقول : فلان يأمر وينهى ، ويعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ، ويضر وينفع ، فإنك لا تنوى مفعولاً .

٥٨٦ – **فإن قيل** : على هذا حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم افسقوا ، وهذا لا يكون من الله ، فلا يقال يقدر الفسق محذوفًا ولا مأمورًا به ؟

قلنا : الفسق المحذوف المقدر مجاز على إترافهم وصّب النعيم عليهم صبًّا أفضى بهم إلى جعلها ذريعة إلى المعاصى ووسيلة إلى اتباع الشهوات ، فكأنهم أمروا بذلك لما كان السبب فى وجوده الإتراف وفتح باب النعم .

٥٨٧ – **فإن قيل** : لم لا يكون ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعدل والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟

قلنا : لو جاز مثل هذا الإضمار والتقدير لكان المتكلم مريدًا من مخاطبه

علم الغيب ، لأنه أضمر ما لا دلالة عليه فى اللفظ ، بل أبلغ ، لأنه أضمر فى اللفظ ما يناقضه وينافيه وهو قوله : ﴿فَفَسَقُوا﴾ [الإسراء:١٦] فكأنه أظهر شيئًا وادعى إضمار نقيضه ، فكان صرف الأمر إلى ما ذكرنا من المجاز هو الوجه ، هذا كله كلام الزمخشرى ، ولا أعلم أحدًا من أئمة التفسير صار إليه غيره ، ثم إنه أيد فقال : ونظيره أمر شاء فى أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده تقول : لو شاء فلان لأحسن إليك ، ولو شاء لأساء إليك ، تريد لو شاء الإحسان لأحسن ، ولو شاء الإساءة إليك لأساء ، فلو ذهبت تضمر خلاف ما أظهرت ، وتعنى ولو شاء الإساءة لأحسن إليك ، ولو شاء الإحسان لأساء إليك ، وتقول : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان دائمًا ومن أهل الإساءة دائمًا ، فيترك الظاهر المنطوق به ويضمر ما دلت عليه حال صاحب المشيئة لم تكن على سداد .

٥٨٨ - **فإن قيل** : على الوجه الأول لو كان المضمر المحذوف الأمر بالطاعة لما كان مخصوصًا بالمترفين ، لأن أمر الله تعالى بالطاعة عام للمترفين وغيرهم ؟

قلنا : أمر الله بالطاعة وإن كان عامًا ، ولكن لما كان صلاح الأمراء والرؤساء وفسادهم مستلزمًا لصلاح الرعية وفسادهم غالبًا خصهم بالذكر ، ويؤيد هذا ما جاء فى الخبر **" صلاح الوالى صلاح الرعية وفساد الوالى فساد الرعية "** [1] .

٥٨٩ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء:١٨] الآية ، يدل على أن من لم يزهد فى الدنيا ولم يتركها كان من أهل النار ، والأمر بخلافه ؟

قلنا : المراد من كان يريد بإسلامه وطاعته وعبادته الدنيا لا غير ، ومثل هذا

---

(١) كشف الخفاء (٢/ ٤١٣) .

لا يكون إلا كافرًا أو منافقًا ، ولهذا قال ابن جرير : هذه الآية لمن لا يؤمن بالمعاد، وأما من أراد من الدنيا قدر ما يتزود به إلى الآخرة فكيف يكون مذمومًا، مع أن الاستغناء عن الدنيا بالكلية وعن جميع ما فيها لا يتصور فى حق البشر ولو كانوا أنبياء ، فعلم أن المراد ما قلنا .

٥٩٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء:٢٠] أى : ممنوعًا ، ونحن نرى ونشاهد فى الواقع أن واحدًا أعطاه قناطير مقنطرة وآخر منعه العطاء حتى الدانق والحبة؟

قلنا : المراد بالعطاء هنا الرزق ، والله تعال سوى فى ضمان الرزق وإيصاله بين البر والفاجر ، والمطيع والعاصى ، ولم يمنع الرزق عن العاصى بسبب عصيانه ، فلا تفاوت بين العباد فى أصل الرزق ، وإنما التفاوت بينهم فى مقادير الإملاك .

٥٩١ - **فإن قيل** : كيف منع الله تعالى الكفار والتوفيق والهداية ولم يمنعهم الرزق ؟

قلنا : لأنه لو منعهم الرزق لهلكوا وصار ذلك حجة لهم يوم القيامة ، بأن يقولوا : لو أمهلتنا ورزقتنا لبقينا أحياء فآمنا .

الثانى : أنه لو أهلكهم بمنع الرزق لكان قد عاجلهم بالعقوبة ، فيتعطل معنى الحليم عن معناه ، لأن الحليم هو الذى لا يعجل بالعقوبة على من عصاه.

الثالث : أن منع الطعام والشراب من صفات البخلاء الأخساء ، والله تعالى منزه عن ذلك .

وقيل : إعطاء الرزق لجميع العبيد عدل ، وعدل الله عام ، وهبته التوفيق ، والهداية فضل ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

٥٩٢ – فإن قيل : ما فائدة قوله : "عندك" فى قوله تعالى : ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء:٢٣] ؟

قلنا : فائدته أنهما يكبران فى بيته وكنفه ويكونان كلاً عليه لا كافل لهما غيره ، وربما تولى منهما من المشّاق ما كانا يتوليان منه فى حال الطفولية .

٥٩٣ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء:٣٢] ولم يقل : ولا تزنوا ؟

قلنا : لو قال : ولا تزنوا كان نهيًا عن الزنى لا عن مقدماته كاللمس والمعانقة والقبلة ونحو ذلك ، ولما قال : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ [الإسراء:٣٢] كان نهيًا عنه وعن مقدماته ، لأن فعل المقدمات قربان للزنى .

٥٩٤ – فإن قيل : الإشارة بقوله تعالى : ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ﴾ [الإسراء:٣٨] على ماذا تعود ؟

قلنا : الإشارة إلى كل ما هو منهى عنه من جميع ما ذكر من قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣] إلى هذه الآية لا إلى جميع ما ذكر فإن فيه حسنًا وسيئًا ، وقال أبو على: هو إشارة إلى قوله : ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ [الإسراء:٣٦] وما بعده لأنه لا حسن فيه .

٥٩٥ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤] فقوله : ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ يتناول أهل الأرضين كلهم ، والمراد به العموم كما هو مقتضى الصيغة بدليل تأكيده بقوله تعالى بعده : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤] والتسبيح هو التنزيه عن كل ما لا يليق بصفات جلاله وكماله ، والكفار يضيفون إليه الزوج والولد والشريك وغير ذلك ، فأين تسبيحهم ؟

قلنا : الضمير فى قوله تعالى : ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤] راجع إلى السموات فقط .

الثانى: أنه راجع إلى السموات والأرض ، والمراد بقوله تعالى : ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤] يعنى من المؤمنين، فيكون عامًا أريد به الخاص ، وعلى هذا يكون المراد بالتسبيح المسند إلى " من فيهن " التسبيح بلسان المقال .

الثالث : أن المراد به التسبيح بلسان الحال حيث تدل على وجود الصانع وعظيم قدرته ونهاية حكمته ، فكأنها تنطق بذلك وتنزهه عما لا يجوز عليه ومالا يليق به من السوء ، ويؤيده قوله تعالى بعده : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤] والتسبيح العام لجميع الموجودات إنما هو التسبيح بلسان الحال .

٥٩٦ – **فإن قيل** : لو كان المراد هو التسبيح بلسان الحال لما قال : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] لأن التسبيح بلسان الحال مفقوه لنا ، أى مفهوم ومعلوم ؟

قلنا : الخطاب بقوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] للكفار ، وهم مع تسبيحهم بلسان الحال لا يفقهون تسبيح الموجودات على ما ذكرنا من التفسير، لأنهم لما جعلوا " شركاء وزوجًا وولدًا دل ذلك على عدم فهمهم التسبيح للموجودات وتنزيهها وعدم إيضاح دلائل الوحدانية لهم ، لأن الله تعالى طبع على قلوبهم .

٥٩٧ – **فإن قيل** : ﴿مَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء:٤٤] وهم الملائكة والثقلان يسبحون حقيقة والسموات والأرض والجمادات تسبح مجازًا ، فكيف جمع بين إرادة الحقيقة والمجاز من لفظ واحد وهو قوله : ﴿تُسَبِّحُ﴾؟

قلنا : التسبيح المجازى بلسان الحال حاصل من الجميع ، فيحمل عليه دفعًا لما ذكرتم من المجاز .

٥٩٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٥٢] والمستعمل الشائع دعاه فاستجاب لأمره أو بأمره ، أى : أجاب ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما ، المراد بقوله تعالى : ﴿بِحَمْدِهِ﴾ بأمره ، وقال سعيد بن جبير رضى الله عنه ، إذا دعا الله الخلائق للبعث يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ، وقال غيره وهم يقولون : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، فعلى هذا تكون الباء بمعنى "مع" كما فى قوله تعالى : ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] وقوله تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه:٣٠] .

٥٩٩ - فإن قيل : كيف أجمل ذكر الأنبياء كلهم بقوله : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] ثم خص داود بالذكر فقال : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥] ؟

قلنا : لأنه اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من الأنبياء ، وهو الرسالة والكتابة والخطابة والخلافة والملك والقضاء فى زمن واحد ، قال الله تعالى : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص:٢٠] وقال : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص:٢٦] .

الثانى : أن قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] إشارة إلى تفضيل محمد ﷺ ، وقوله : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء:٥٥] دلالة على وجه تفضيله وهو أنه خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم، لأن ذلك مكتوب فى زبور داود عليه الصلاة والسلام ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يعنى محمدًا ﷺ وأمته.

٦٠٠ - فإن قيل : لم نكر الزبور هنا وعرفه فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:١٠٥] ؟

قلنا : يجوز أن يكون الزبور من الأعلام التى تستعمل بالألف واللام وبغيرهما كالعباس والفضل والحسن والحسين ونحوهما .

الثاني : أنه منكره هنا لأنه أراد : وآتينا داود بعض الزبور وهى الكتب .

الثالث : أنه نكره لأنه أراد به ما ذكر فيه رسول الله ﷺ من الزبور ، فسمى ذلك زبورًا لأنه بعض الزبور كما سمى بعض القرآن قرآنًا فقال تعالى : ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء:١٠٦] الآية ، وقال: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف:٣] وأراد به سورة يوسف عليه السلام ، وقال : ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨] أى : القرآن المتلو فى صلاة الفجر.

٦٠١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ [الإسراء:٥٦] مغن عن قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء:٥٦] لأنهم إذا لم يستطيعوا كشف الضرّ لا يستطيعون تحويله ، لأن تحويل الضرّ ، نقله من محل وإثباته فى محل آخر ، ومنه تحويل الفراش والمتاع وغيرهما ، وكشف الضرّ مجرد إزالة ، ومن لا يقدر على الإزالة وحدها فكيف يقدر على الإزالة مع الإثبات ، والمراد بالآية كشف الضر والمرض والقحط ونحوها ؟

قلنا : التحويل له معنيان : أحدهما ما ذكرتم .

والثاني : التبديل ، ومنه قولهم : حولّت القميص قباء ، والفضة خاتمًا ، وأريد بالتبديل هنا الكشف لأن فى الكشف المنفى فى الآية تبديلاً ، فإن المرض متى كشف يبدل بالصحة ، والفقر متى كشف يبدل بالغنى ، والقحط متى يبدل بالخصب وكذا جميع الأضداد ، فأطلق التبديل وأراد به الكشف ، إلا أنه لم يرد به كشف الضر لئلا يلزم التكرار ، بل أراد به مطلق الكشف الذى هو الإزالة ، يعنى فلا يستطيعون كشف الضر عنكم ولا كشفًا ما ، ولهذا لم يقل ولا تحويله وهذا الجواب مما فتح الله علىّ به من خزائن جوده ، ونظيره ما ذكرناه فى

سورة النحل في قوله تعالى : ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل:٧٣] .

٦٠٢ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء:٥٩] الآية فيها أسئلة :

أولها : أن الله تعالى لا يمنعه عما يريده مانع ، فإن أراد إرسال الآيات ، فكيف يمنعه تكذيب الأمم الماضية ، وإن لم يرد إرسالها كان جود تكذيبهم وعدمه سواء وكان عدم الإرسال لعدم الإرادة .

الثانى : أن الإرسال يتعدى بنفسه ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح:١] فأى حاجة إلى الباء .

الثالث : أن المراد بالآيات هنا ، ما اقترحه أهل مكة على رسول الله ﷺ من جعل الصفا ذهبًا ، وإزالة جبال مكة ليتمكنوا من الزراعة ، وإنزال مكتوب من السماء ، ونحو ذلك ، وهذه الآيات ما أرسلت إلى الأولين ولا شاهدوها فكيف كذبوا بها .

الرابع : أن تكذيب الأولين لا يمنع إرسالها إلى الآخرين لجواز أن لا يكذب الآخرون .

الخامس : أىّ مناسبة وارتباط بين صدر الآية وقوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ .

السادس : ما معنى وصف الناقة بالإبصار .

السابع : أن الظلم يتعدى بنفسه قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ [النساء:١١٠] فأىّ حاجة إلى الباء ، وهلا قال فظلموها يعنى العقر والقتل .

الثامن : أن قوله تعالى : ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء:٥٩] يدل على الإرسال بها ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الإسراء:٥٩] يدل على عدم الإرسال بها ؟

قلنا : الجواب عن الأول أن المنع مجاز عبر به عن ترك الإرسال بالآيات، كأنه تعالى قال : وما كان سبب ترك الإرسال بالآيات إلا أن كذب بها الأولون .

وعن الثانى : أن الباء لتعدية الإرسال إلى المرسل به لا إلى المرسل ، لأن المرسل محذوف وهو الرسول ، تقديره : وما منعنا أن نرسل الرسل بالآيات ، والإرسال يتعدى إلى المرسل بنفسه ، وإلى المرسل به بالباء، وإلى المرسل إليه بإلى، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ۝ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [هود:٩٦، ٩٧] .

وعن الثالث : أن الضمير فى قوله تعالى : ﴿بِهَا﴾ عائد إلى جنس الآيات المقترحة لا إلى هذه الآيات المقترحة ، كأنه تعالى قال : وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة إلا تكذيب من قبلهم بالآيات المقترحة ، يريد المائدة والناقة ونحوهما مما اقترحه الأولون على أنبيائهم .

وعن الرابع : أن سنة الله تعالى فى عباده أن من اقترح على الأنبياء آية أتوه بها فلم يؤمن عجل الله هلاكه ، والله تعالى لم يرد هلاك مشركى مكة ، لأنه تعالى علم أنه يولد منهم من يؤمن ، أو لأنه قضى وقدر فى سابق علمه بقاء من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة ، فلو أرسل بالآيات التى اقترحوها فلم يؤمنوا لأهلكهم ، وحكمته اقتضت عدم إهلاكهم ، فلذلك لم يرسلها ، فيصير معنى الآية ، وما منعنا أن نرسل بالآيات المقترحة عليك إلا أن كذب بالآيات المقترحة الأولون فأهلكوا ، فربما كذب بها قومك فأهكلوا .

وعن الخامس : أنه تعالى لما أخبر أن الأولين كذبوا بالآيات المقترحة عين

منها واحدة وهى ناقة صالح عليه السلام لأن آثار ديارهم المهلكة فى بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم.

وعن السادس : أن معنى مبصرة دالة ، كما يقال الدليل مرشد وهادٍ وقيل: مبصرًا بها كما يقال : ليل نائم ونهار صائم : أي ينام فيه ويصام فيه . وقيل: مبصرة ، يعنى أنها تبصر الناس صحة نبوة صالح عليه السلام ، ويعضد هذا قراءة : "مَبْصَرَةً" بفتح الميم والصاد : أى : تبصرة ، وقيل : مبصرة صفة لآية محذوفة ، تقديره : آية مبصرة ، أى : مضيئة بينة .

وعن السابع : أن الباء ليست لتعدية الظلم إلى الناقة بل معناه : فظلموا أنفسهم بقتلها أو بسببها ، وقيل : الظلم هنا الكفر ، فمعناه : فكفروا بها ، فلما ضمن الظلم معنى الكفر عداه تعديته .

وعن الثامن : أن المراد بالآيات ثانيًا العبر والدلالات لا الآيات التى اقترحها أهل مكة .

٦٠٣ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء:٦٠] وليس فى القرآن لعن شجرة ما ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : والشجرة الملعونة المذكورة فى القرآن .

الثانى: أن معناه : الملعون آكلوها وهم الكفرة .

الثالث : أن الملعونة يعنى المذمومة كذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ، وهى مذمومة فى القرآن بقوله تعالى : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣ ، ٤٤] وبقوله تعالى : ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الصافات:٦٥]

الرابع : أن العرب تقول لكل طعام مكروه أو ضار : ملعون ، وفى القرآن الإخبار عن ضررها وكراهتها .

الخامس : أن اللعن فى اللغة الطرد والإبعاد ، والملعون هو المطرود عن رحمة الله تعالى المبعد ، وهذه الشجرة مطرودة مبعدة عن مكان رحمة الله تعالى ، وهو الجنة لأنها فى قعر جهنم ، وهذا الإبعاد والطرد مذكور فى القرآن بقوله تعالى : ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٤] وقال ابن الأنبارى : سميت ملعونة لأنها مبعدة عن منازل أهل الفضل .

٦٠٤ – **فإن قيل** : كيف خص أصحاب اليمين بقراءة كتبهم بقوله تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ [الإسراء:٧١] ولم يخص بنفى الظلم عنهم بقوله تعالى : ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء:٧١] مع أن أصحاب الشمال يقرؤون كتابهم ولا يظلمون أيضًا ؟

قلنا : إنما خص أصحاب اليمين بذكر القراءة لأن أصحاب الشمال إذا رأوا ما فى كتبهم من الفضائح والقبائح أخذهم من الحياء والخجل والخوف ما يوجب حبسة اللسان وتتعتع الكلام والعجز عن إقامة الحروف ، فتكون قراءتهم كلا قراءة ، فأما أصحاب اليمين فأمرهم على عكس ذلك ، لا جرم أنهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول للقارىء لأهل المحشر : ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩] وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ فهو عائد إلى كل الناس لا إلى أصحاب اليمين .

الثانى : أنه عائد إلى أصحاب اليمين خاصة ، وإنما خصصهم بذلك لأنهم يعلمون أنهم لا يظلمون ، ويعتقدون ذلك بخلاف أصحاب الشمال فإنهم يعتقدون أو يظنون أنهم يظلمون ، ويعضد هذا الوجه قوله تعالى : ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه:١١٢] .

٦٠٥ – **فإن قيل** : كيف قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [الإسراء:١٠٢] يعنى الآيات : ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] يعنى بينات وحججًا واضحات ، وفرعون لم يعلم ذلك، لأنه لو علم ذلك لم يقل لموسى عليه السلام : ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] أى مخدوعًا أو قد سحرت أو ساحرًا مفعول بمعنى فاعل على اختلاف الأقوال ، بل كان يؤمن به ، وكيف يعلم ذلك وقد طبع الله على قلبه وأضله وحال بينه وبين الهدى والرشاد ، ولهذا قرأ على كرم الله وجهه : لقد علمت بضم التاء وقال : والله ما علم عدو الله ولكن موسى عليه السلام هو الذى علم ، واختار الكسائى وثعلب قراءة على رضى الله عنه ونصراها بأنه لما نسبه إلى أنه مسحور أعلمه بصحة عقله بقوله : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ ؟

قلنا : معناه لقد علمت لو نظرت نظرًا صحيحًا إلى الحجة والبرهان ، ولكنك معاند مكابر تخشى فوات دعوى الإلهية لو صدقتنى ، فكان فرعون ممن أضله الله على علم ، ولهذا بلغ ابن عباس قراءة على رضى الله عنهم ويمينه فاحتج بقوله تعالى : ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] .

٦٠٦ - **فإن قيل** : كيف قال موسى عليه السلام : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] وموسى عليه السلام كان عالمًا بذلك لاشك عنده فيه ؟

قلنا : قال أكثر المفسرين ، الظن هنا بمعنى العلم كما فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٤٦] وإنما أتى بلفظ الظن ليعارض ظن فرعون بظنه ، كأنه قال : إن ظننتنى مسحورًا فأنا أظنك مثبورًا ، والمثبور الهالك والمصروف عن الخيرات أو الملعون والخاسر .

٦٠٧ - **فإن قيل** : كيف كرر تعالى الإخبار بالخرور ؟

قلنا : كرره ليدل على تكرار الفعل منهم .

الثانى : أنه كرره لاختلاف الحالين وهما خرورهم فى حال كونهم ساجدين وفى حال كونهم باكين .

الثالث: أنه أراد بالخرور الأول الخرور في حالة سماع القرآن وقراءته ، وبالخرور الثاني في سائر الحالات وباقيها .

٦٠٨ - **فإن قيل** : الحمد إنما يكون على نعمة أنعم الله تعالى بها على العبد ، كما في قوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر:٣٤] ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا ﴾ [الأعراف:٤٣] ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأنعام:١] لأن فيها من المنافع لنا ما لا يعد ولا يحصى ، فأي نعمة حصلت لنا من كون الله تعالى لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولا ناصر حتى قال : ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء:١١١] الآية ؟

قلنا : النعمة في ذلك أن الملك إذا كان له ولد وزوج فإنما ينعم على عبيده بما يفضل عن ولده وزوجه ، وإذا لم يكن له ولد وزوج كان جميع إنعامه وإحسانه مصروفًا إلى عبيده ، فكان نفي اتخاذ الولد مقتضيًا مزيد الإنعام عليهم، وأما نفي الشريك فلأنه يكون أقدر على الإنعام على عبيده لعدم المزاحم ، وأما نفي النصير فلأنه يدل على القوة والاستغناء ، وكلاهما يقتضي القدرة على زيادة الإنعام ، والله أعلم وأحكم .

*** *** ***

سورة الكهف

٦٠٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿قَيِّمًا﴾ يعني مستقيماً ، وقوله : ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١] مغن عن قوله : ﴿قَيِّمًا﴾ لأنه متى انتفى العوج ثبتت الاستقامة ، لأن العوج فى المعانى كالعوج فى الأعيان ، والمراد به هنا نفى الاختلاف والتناقض فى معانيه ، وأنه لا يخرج منه شىء عن الصواب والحكمة، وقيل : فى الآية تقديم وتأخير تقديره ، الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجا ؟

قلنا : قال الفراء : معنى قوله : ﴿قَيِّمًا﴾ [الكهف:٦] قائماً على الكتب السماوية كلها مصدقًا لها شاهدًا بصحتها ناسخًا لبعض شرائعها ، فعلى هذا لا تكرار فيه ، وعلى القول المشهور يكون الجميع بينهما للتأكيد ، سواء قدر قيماً مقدمًا أو أقر فى مرتبة ، والنصب بفعل مضمر تقديره : ولكن جعله قيماً ، ولا بد من هذا الإضمار أو من التقديم والتأخير ، وإلا يصير المعنى : ولم يجعل له عوجا مستقيماً والعوج لا يكون مستقيماً .

٦١٠ - فإن قيل : اتخذ الله تعالى ولدًا محال ، فكيف قال : ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الكهف:٥] وإنما يستقيم أن يقال : فلان ما له علم بكذا إذا كان ذلك الشىء مما يعلمه غيره أو مما يصح أن يعلم ، كقولنا : زيد ما له علم بالعربية أو بالحساب أو بالشعر ونحو ذلك ؟

قلنا : معناه ما لهم به من علم ، لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وهذا لأن انتفاء العلم بالشىء تارة يكون للجهل بالطريق الموصل إليه ، وتارة يكون لاستحالة العلم به لأنه فى نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به ، وما نحن فيه من هذا القبيل .

٦١١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢] وهو عالم بذلك فى الأزل ؟

قلنا : معناه لنعلم ذلك علم مشاهدة كما علمناه علم غيب .

٦١٢ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم﴾ [الكهف:١٩] ولم يقل واحدكم ؟

قلنا : لأنه أراد فردًا منهم أيهم كان ، ولو قال واحدكم لدّل على بعث رئيسهم ومقدمهم ، فالعرب تقول : رأيت أحد القوم : أى فردًا منهم ولا تقول رأيت واحد القوم ، إلا إذا أردت المقم المعظم .

٦١٣ - **فإن قيل** : كيف جاء تعالى بسين الاستقبال فى الفعل الأول دون الآخرين فى قوله تعالى : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ [الكهف:٢٢] الآية ؟

قلنا : أراد دخول الفعلين الآخرين فى حكم الأول بمقتضى العطف ، فاقتصر على ذكر السين فى الأول إيجازًا واقتصارًا كما تقول : زيد قد يخرج ويركب ، تريد وقد يركب .

٦١٤ - **فإن قيل** : كيف دخلت الواو فى الجملة الثالثة دون الأولين وهى قوله : ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف:٢٢] ؟

قلنا : قال بعض المفسرين هى واو الثمانية ، وقد ذكرنا مثلها فى آخر سورة التوبة ، وقال الزجاج : دخول هذه الواو وخروجها سواء فى صفة النكرة ، وجاء القرآن بهما ، وقال غيره : الواو مرادة فى الجملتين الأوليين وإنما حذفت فيهما تخفيفًا ، وأتى بها فى الجملة الثالثة دلالة على إرادتها فيهما ويرد على هذا القول ، أنه لو كان كذلك لكانت مذكورة فى الجملة الأولى محذوفة فى الجملة الثانية والثالثة ، ليدل ذكرها أولاً على حذفها بعد ذلك كما سبق فى سين الاستقبال ،

وقال الزمخشري وغيره : هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة ، كما تدخل على الصفة الواقعة حالاً من المعرفة ، تقول : جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف ومنه قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الحجر:٤] وفائدتها توكيد اتصال الصفة بالموصوف ، والدالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هي التي أذنت بأن الذين قالوا سبعة وثامنهم كلبهم قالوه عن ثبات علم وطمأنينة نفس ولم يرجموا بالظن كما رجم غيرهم ، والدليل عليه أن الله تعالى أتبع القولين الأولين ، قوله : ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الكهف:٢٢] وأتبع القول الثالث قوله : ﴿ مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف:٢٢] وقال ابن عباس : وقعت الواو لقطع العدد: أي لم يبق بعدها عدد عاد يلتفت إليه ، ويثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والبتات .

وقال الثعلبي : هذه واو الحكم والتحقيق ، كأن الله تعالى حكى اختلافهم فتم الكلام عند قوله سبعة ، ثم حكى بأن ثامنهم كلبهم باستئنافه الكلام ، فحقق ثبوت العدد الأخير لأن الثامن لا يكون إلا بعد السبعة ، فعلى هذا يكون قوله : ﴿وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ [الكهف:٢٢] من كلام الله تعالى حقيقة أو تقديرًا، ويرد على هذا أن قوله تعالى بعد هذه الواو : ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف:٢٢] وقوله تعالى : ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف:٢٢] يدل على بقاء الإبهام وعدم زوال اللبس بهذه الواو.

٦١٥ - فإن قيل : كيف قال : ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف:٢٧] وقال في موضع آخر : ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ [النحل:١٠١] ويلزم من تبديل الآية بالآية تبديل الكلمات فكيف الجمع بينهما؟

قلنا : معنى الأول لا مغير للقرآن من البشر ، وهو جواب لقولهم للنبي ﷺ : ائت بقرآن غير هذا أو بدله .

الثانى : أن معناه لا خلف لمواعيده ولا مغير لحكمه ، ومعنى الثانى النسخ والتبديل من الله تعالى ، فلا تنافى بينهما.

٦١٦ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] إباحة وإطلاق للكفر ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما معناه : فمن شاء ربكم فليؤمن ومن شاء ربكم فليكفر ، يعنى لا إيمان ولا كفر إلا بمشيئته .

الثانى : أنه تهديد ووعيد .

الثالث : أن معناه لا تنفعون الله بإيمانكم ولا تضرونه بكفركم ، فهو إظهار للغنى ، لا إطلاق للكفر .

٦١٧ - **فإن قيل** : لبس الأساور فى الدنيا عيب للرجال ، ولهذا لا يلبسها من يلبس الذهب والحرير من الرجال ، فكيف وعدها الله تعالى المؤمنين فى الجنة فى قوله تعالى : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١] ؟

قلنا : كانت عادة ملوك الفرس والروم لبس الأساور والتيجان مخصوصين بها دون من عداهم ، فلذلك وعدها الله تعالى المؤمنين ، لأنهم ملوك الآخرة.

٦١٨ - **فإن قيل** : كيف أفرد الله تعالى الجنة بعد التثنية فقال : ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ [الكهف:٣٥] ؟

قلنا : أفردها ليدل على الحصر ، معناه : ودخل ما هو جنته لا جنة له غيرها ولا نصيب له فى الجنة التى وُعِد المتقون ، بل ما ملكه فى الدنيا هو جنته لا غير ، ولم يقصد جنة معينة منهما ، بل جنس ما كان له .

٦١٩ - **فإن قيل** : كيف قال الأخ المؤمن لأخيه : ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٣٨] وهذا تعريض بأن أخاه مشرك ، وليس فى كلام

أخيه ما يقتضى الشرك بل الكفر ، وهو قوله : ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف:٣٦] ؟

قلنا : إشراك أخيه الذى عرض له به هو اعتقاده أن زكاة جنته ونماءها بحوله وقوته ، ولهذا قال له : ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩] ولهذا قال هو أيضًا لما أصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها : ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٢] فاعترف بالشرك .

٦٢٠ – فإن قيل : ما فائدة "أنا" فى قوله : ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ﴾[الكهف:٣٩]؟

قلنا : أنا فى مثل هذا الموضع تفيد حصر الخبر فى المخبر عنه ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه:١٢] وقوله : ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص:٣٠] ونظائره كثيرة .

٦٢١ – فإن قيل : ما معنى قوله : ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الكهف:٤٣] وكذلك كل ما أشبهه مما جاء فى القرآن العزيز : ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم:٨١] ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [الشورى:٦] ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٠٧] وكيف تحقيق معناه ؟

قلنا : دون يستعمل فى كلام العرب بمعنى "غير" كقولهم لفلان : مال دون هذا ، ومن دون هذا : أى غير هذا ، ونظيره فى قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون:٦٣] أى : من غيره ، ويستعمل أيضًا بمعنى "قبل" كقولهم : المدينة دون مكة : أى قبلها ، ومن دونه خرط القتاد ، ولا أقوم من مجلسى دون أن تجيء ، ولا أفارقك دون أن تعطينى حقى ، وما أعلم أنها جاءت فى القرآن العزيز بمعنى "قبل" بل بمعنى "غير" فقط .

٦٢٢ - فإن قيل : كيف قال : ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ [الكهف:٤٤] يعنى فى يوم الآخرة أو فى يوم القيامة ، والولاية بكسر الواو ، السلطان والملك ، وبفتح الواو التولى والنصرة ، وكل ذلك لله تعالى فى الدنيا والآخرة يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وينصر من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويتولى من يشاء بحراسته وحفظه ، فما فائدة تخصيص يوم القيامة ؟

قلنا : فائدته أن الدعاوى المجازية كثيرة فى الدنيا ويوم القيامة تنقطع كلها، ويسلم الملك لله تعالى عن كل منازع ، وقد سبق نظير هذا السؤال فى سورة الأنعام فى قوله تعالى : ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الأنعام:٧٣] .

٦٢٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف:٤٤] أى : عاقبة ، وغير الله تعالى لا يثيب ليكون الله خيرًا منه ثوابًا ؟

قلنا : هذا على الفرض والتقدير معناه : لو كان غيره يثيب لكان ثوابه أفضل ، ولكانت طاعته أحمد عاقبة وخيرًا من طاعة غيره .

٦٢٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَحَشَرْنَـٰهُمْ﴾ [الكهف:٤٧] بلفظ الماضى وما قبله مضارعان وهو قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف:٤٧] أى : لا شىء عليها يسترها كما كان فى الدنيا ؟

قلنا : للدلالة على أن حشرهم كان قبل التسيير وقبل البروز ليعاينوا تلك الأهوال والعظائم ، كأنه قال : وحشرناهم قبل ذلك .

٦٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩] مع أنه أخبر أن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر بقوله تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء:٣١]؟

قلنا : الآية الأولى فى حق الكافرين بدليل قوله تعالى : ﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الكهف:٤٩] والمراد بهم هنا الكافرون ، كذا قال مجاهد ، وقال غيره : كل مجرم فى القرآن فالمراد به الكافر ، والآية الثانية المراد بها المؤمنون لأن اجتناب الكبائر لا يكون متحققًا مع وجود الكفر .

الثانى : لو ثبت أن المراد بالمجرم مطلق المذنب لم يلزم التناقض ، لجواز أن تكتب الصغائر ليشاهدها العبد يوم القيامة ثم تكفر عنه فيعلم قدر نعمة العفو فإن أكثر ذنوب العبد ينساها خصوصًا الصغائر .

٦٢٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠] يدل على أنه من الجن وقوله تعالى فى موضع آخر : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الكهف:٥٠] يدل على أنه من الملائكة ، فكيف الجمع بينهما؟

قلنا : فيه قولان : أحدهما أنه من الجن حقيقة عملاً بظاهر هذه الآية ولأن له ذرية قال تعالى : ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾ [الكهف:٥٠] والملائكة لا ذرية لهم ، ولأنه أكفر الكفرة وأفسق الفسقة ، والملائكة معصومون عن الكبائر لأنهم رسل الله ، وعن المعاصى مطلقًا لأنهم عقول مجردة بغير شهوة ولا معصية إلا عن شهوة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] وقال تعالى : ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الأنبياء:١٩] يعنى الملائكة: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:١٩، ٢٠] فكيف يكون إبليس منهم ويؤمر بالسجود فيمتنع ، فعلى هذا يكون استثناؤه من الملائكة استثناء من غير جنس ، أو يكون استثناء من جنس المأمورين بالسجود لا من جنس الملائكة ، ويكون التقدير : وإذ قلنا للملائكة وإبليس اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كما تقول : أمرت إخوتى

وعبدى بكذا فأطاعونى إلا عبدى ، والعبد ليس من الإخوة ولا داخلاً فيهم إلا من حيث شمله الأمر بالفعل معهم ، فهذا كذلك .

القول الثانى : أنه كان من الملائكة قبل أن يعصى الله تعالى ، فلما عصاه مسخه شيطانًا ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠] لمخالفته ، فتكون كان بمعنى صار ، وقيل معناه: أنه كان من الجن فى سابق علم الله تعالى ، وهذان القولان يدلان على أنه كان من الملائكة قبل المعصية ، وروى عنه أيضًا أنه كان من خزان الجنة ، وهم جماعة من الملائكة يسمون الجن، فعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠] أى من الملائكة الذين هم خزان الجنة : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠] بمخالفته فيكون استثناء من الجنس ، وقال الزمخشرى فى سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الكهف:٥٠] هو استثناء متصل ، لأنه كان جنيًا واحدًا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورًا بهم ، فغلبوا عليه فى قوله : ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ قلت : وفى هذا التعليل نظر ، ثم قال بعده : ويجوز أن يجعل منقطعًا .

٦٢٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى ﴾ [الكهف:٥٠] والأولياء: الأصدقاء والأحباب وهم ضد الأعداء ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف:٥٠] وليس من الناس أحد يحب إبليس وذريته ويصادقهم ؟

قلنا : المراد بالموالاة هنا إجابة الناس لهم فيما يأمرونهم به من المعاصى ويوسوسون فى صدورهم وطاعتهم إياهم ، فالموالاة مجاز عن هذا لأنه من لوازمها .

٦٢٨ - **فإن قيل** : قال تعالى هنا : ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ

﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف:٥٢] أى فلم يجب الأصنام المشركين ، فنفى عن الأصنام النطق ، وقال تعالى فى سورة النحل : ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [النحل:٨٦] يعنى فكذبتهم الأصنام فيما قالوا : فأثبت لهم النطق فكيف الجمع بينهما ؟

قلنا : المراد بقوله هنا : ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف:٥٢] أى : نادوهم للشفاعة لكم أو لدفع العذاب عنكم ، فدعوهم فلم يجبوهم لذلك ، فنفى عنهم النطق بالإجابة إلى الشفاعة ودفع العذاب عنهم ، وفى سورة النحل أثبت لهم النطق بتكذيب المشركين فى دعوى عبادتهم ، فلا تناقض بين المنفى والمثبت .

٦٢٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ [الكهف:٥٢] وقال فى سورة النحل : ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ [النحل:٨٦]؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ [الكهف:٥٢] معناه فى زعمكم واعتقادكم ، ولهذا قال : ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف:٥٢] وأخرجه مخرج التهكم بهم ، كما قال المشركون للنبى ﷺ وقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر:٩] وقوله تعالى : ﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ [النحل:٨٦] يعنى آلهتهم التى جعلوها شركاء ، فإضافتها إلى الله تعالى لجعلهم إياها شركاء ، والإضافة تصح بأدنى ملابسة لفظية أو معنوية ، فصحت الإضافتان .

٦٣٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف:٦١] والناسى إنما كان يوشع وحده بدليل قوله لموسى عليه الصلاة والسلام معتذرًا : ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف:٦٣] أى : قصة الحوت وخبره : ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف:٦٣] ؟

قلنا : أضيف النسيان إليهما مجازًا ، والمراد أحدهما ، قال الفراء : نظيره قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج من الملح لا من العذب .

وقيل : نسى موسى عليه السلام تفقد الحوت ونسى يوشع أن يخبره خبره ، وذلك أنه كان حوتًا مملوحًا فى مكتل قد تزوّداه : فلما أصابه من ماء عين الحياة رشاش حيى وانسل ، وكان قد ذهب لقضاء حاجة فعزم يوشع أن يخبره بما رأى من أمر الحوت ، فلما جاء موسى نسى أن يخبره ، ونسى موسى تفقد الحوت والسؤال عنه .

٦٣١ - فإن قيل : هذا التفسير يدل على أن النسيان من يوشع أو منهما كان بعد حياة الحوت وذهابه فى البحر ، وظاهر الآية يدل على أن النسيان كان سابقًا على ذهابه فى البحر متصلاً ببلوغ مجمع البحرين لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف:٦١] ؟

قلنا : فى الآية تقديم وتأخير تقديره : فلما بلغا مجمع بينهما اتخذ الحوت سبيله فى البحر سربا فنسيا حوتهما .

٦٣٢ - فإن قيل : كيف نسى يوشع مثل هذه الأعجوبة العظيمة فى مدة يسيرة بل فى لحظة ، واستمر به النسيان يومه ذلك وليلته إلى وقت الغداء من اليوم الثانى ، ومثل ذلك لا ينسى مع تطاول الزمان كيف وقد كان الله تعالى جعل فقدان الحوت علامة لهم على وجدان الخضر عليه السلام ، على ما نقل أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى علامة على موضع وجدانه ، فأوحى إليه أن خذ معك حوتًا فى مكتل فحيثما فقد الحوت فهو ثم ؟

قلنا : سبب نسيانه أنه كان قد اعتاد مشاهدة المعجزات من موسى عليه السلام واستأنس بها فكان إلفه لمثلها من خوارق العادات سببًا لقلة اهتمامه

بتلك الأعجوبة وعدم اكترائه بها .

٦٣٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف:٧١] بغير فاء و : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف:٧٤] بالفاء ؟

قلنا : جعل خرقها جزاءً للشرط فلم يحتج إلى الفاء كقولك : إذا ركب زيد الفرس عقره ، وجعل قتل الغلام من جملة الشرط فعطفه عليه بالفاء والجزاء قال أقتلت : كقولك : إذا ركب زيد الفرس فعقره ، قال له صاحبه : أعقرته .

٦٣٤ - **فإن قيل** : كيف خولف بين القصتين ؟

قلنا : لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقتل الغلام تعقب لقاءه .

٦٣٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى في قصة الغلام : ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف:٧٤] وفي قصة السفينة : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾ [الكهف:٧١]؟

قلنا : قيل : إمرًا معناه نكرًا ، فعلى هذا لا فرق في المعنى ، لأن الإمر والنكر بمعنى واحد ، وقيل : الإمر العجب أو الداهية وخرق السفينة كان أعظم من قتل نفس واحدة لأن في الأول هلاك كثيرين . وقيل : النكر أعظم من الإمر فمعناه : جئت شيئًا أنكر من الأول ، لأن ذلك كان يمكن تداركه بالسد ، وهذا لا يمكن تداركه .

٦٣٦ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى في قصة السفينة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ [الكهف:٧٢] وفي قصة الغلام : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف:٧٥] ؟

قلنا : لقصد زيادة المواجهة بالعتاب على رفض الوصية مرة ثانية والتنبيه على تكرر ترك الصبر والثبات .

٦٣٧ - **فإن قيل** : ما فائدة إعادة ذكر الأهل في قوله : ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾

[الكهف:٧٧] وهلا قد استطعماهم ، لأنه قد سبق ذكر الأهل مرة ؟

قلنا : فائدة إعادته التأكيد لا غير .

٦٣٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ [الكهف:٧٧] نسب الإرادة إلى الجهاد وهى من صفات من يعقل ؟

قلنا : هذا مجاز بطريق المشابهة لأن الجدار بعد مشارفته ومداناته للانقضاض وللسقوط شابه من يعقل ، ويريد فى تهيئته للسقوط فظهر منه هيئة السقوط كما تظهر ممن يعقل ، ويريد ، فنسبت إليه الإرادة مجازًا بطريق المشابهة فى الصورة ، وقد أضافت العرب أفعال العقلاء إلى ما لا يعقل مجازًا قال الشاعر:

يريد الرمح صدر أبى براء ويعدل عن دماء بنى عقيل

وقال حسان :

إن دهرًا يلف شملى بحمل لزمان يهم بالإحسان

ومن أمثاله "تمرد مارد وعز الأبلق" ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف:١٥٤] وقوله : ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ [محمد:٢١] وقوله : ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت:١١] ونظائره كثيرة .

٦٣٩ - **فإن قيل** : لأى سبب لم يفارقه الخضر عليه السلام عند الاعتراض الأول والثانى ، وفارقه عند الثالث .

قلنا : لوجهين : **أحدهما** أن موسى عليه السلام شرط على الخضر ترك مصاحبة على تقدير وجود الاعتراض الثالث وقد وجد ، فكان راضيًا به .

الثانى : أن اعتراض موسى عليه السلام فى المرة الأولى والثانية كان تورعًا وصلابه فى الدين ، واعتراضه فى المرة الثالثة لهوى نفسه وشهوة بطنه فأعقبه

هواه هوانًا .

٦٤٠ - **فإن قيل** : قوله : ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ [الكهف:٧٩] علته خوف الغصب ، فكان حقه أن يتأخر عن علته، فلم قدم عليها ؟

قلنا : هو متأخر عنه لأن علة تعييبها أو علة إرادته تعييبها خوف الغصب وخوف الغصب سابق ، لأنه الحامل للخضر عليه السلام على ما فعله ، وفى قراءة أبى وعبد الله رضى الله عنهما "كل سفينة صالحة" ولابد من إضمار هذه الزيادة على قراءة الجمهور ، وإلا لم يفد الخرق .

٦٤١ - **فإن قيل** : الشمس فى السماء الرابعة وهى بقدر كرة الأرض مائة وستين مرة، وقيل : مائة وخمسين ، وقيل : مائة وعشرين ، فكيف تسعها عين فى الأرض ، حتى أخبر الله تعالى عن ذى القرنين أنه وجدها تغرب فى عين حمئة أو حامئة على اختلاف القراءتين ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى **(وجدها)** : أى فى زعمه وظنه ، كما يرى راكب البحر إذا لجَّ فيه وغابت عنه الأطراف والسواحل أن الشمس تطلع من البحر وتغرب فيه ، فذو القرنين انتهى إلى آخر البنيان فى جهة المغرب فوجد عينًا حمئة واسعة عظيمة فظن أن الشمس تغرب فيها .

٦٤٢ - **فإن قيل** : ذو القرنين كان نبيًا أو تقيًا حكيمًا على اختلاف القولين فكيف خفى عليه هذا حتى وقع فى الظن المستحيل الذى لا يقبله العقل ؟

قلنا : الأنبياء والأولياء والحكماء ليسوا معصومين عن ظن الغلط الخطأ ، وإن كانوا معصومين عن الكبائر ، ألا ترى إلى ظن موسى عليه السلام فيما أنكر على الخضر عليه السلام فى القضايا الثلاث ، وظنه أنه يرى الله تعالى فى الدنيا وهو من كبار الأنبياء ، وكذلك يونس عليه السلام على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] وكان

الواقع بخلاف ظنه .

الثانى : أن الله تعالى قادر على تصغير جرم الشمس وتوسيع العين الحمئة وكرة الأرض بحيث تسع عين الماء عين الشمس ، فلم لا يجوز أن يكون قد وقع ذلك ولم نعلم به لقصور علمنا عن الإحاطة بذلك !!

٦٤٣ - فإن قيل قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف:٨٦] يدل على أنه كان نبيًا لأن الله تعالى خاطبه ؟

قلنا : من قال إنه ليس نبيًا يقول هذا الخطاب له كان بواسطة النبى الموجود فى زمانه كما فى قوله : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة:٤٠] وما أشبه .

٦٤٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا فى حق الكفار : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥] أى فلا ننصب لهم ميزانًا ، لأن الميزان إنما ينصب لتوزن به الحسنات بمقابلة السيئات ، والكافر لا حسنة له ولا طاعة لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وقال فى موضع آخر : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨، ٩] أى فمسكنه النار فأثبت له ميزانًا ؟

قلنا : معنى قوله تعالى : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥] أى : لا يكون لهم عندنا قدر ولا خطر لخستهم وحقارتهم ، ولو كان معناه ما ذكرتم يكون المراد بقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۞ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٨، ٩] من غلبت سيئاته على حسناته من المؤمنين فإنه يستكين فى النار ، ولكن لا يخلد فيها ، بل بقدر ما يمحص عنه ذنوبه ، فلا تنافى بينهما .

*** *** ***

سور مريم عليها السلام

٦٤٥ – **فإن قيل** : النداء الصوت والصياح ، يقال ناداه نداء : أي صاح به، فكيف وصفه تعالى بكونه ﴿ خَفِيًّا ﴾ [مريم:٣] ؟

قلنا : النداء هنا عبارة عن الدعاء ، وإنما أخفاه ليكون أقرب إلى الإخلاص، أو لئلا يلام على طلبه الولد بعد الشيخوخة ، أو لئلا يعاديه بنو عمه ويقولوا : كره أن تقوم مقامه بعده ، فسأل ربه الولد لذلك .

٦٤٦ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] والنبي لا يورث لقوله ﷺ : "**نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة**"(١) ؟.

---

(١) هناك مناظرة قيمة لشيخ الإسلام ابن تيمية مع أحد الشيعة "ابن مطهر" تبرد القلوب حول هذا الحديث:

ابن مطهر: منع أبو بكر فاطمة إرثها، والتجأ إلى رواية انفرد بها، وكان هو الغريم لها، لأن الصدقة تحل له، لأن النبي ﷺ قال : "**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**" على ما رووه عنه، والقرآن يخالف ذلك لأنه تعالى قال : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] وقال : ﴿ فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا۝ يَرِثُنِى ﴾ [مريم: ٥، ٦] .

ابن تيمية: قولك : "رواية انفرد بها" كذب، بل رواه عن النبي ﷺ أبو بكر، عمر، عثمان، علي، طلحة، الزبير، عبد الرحمن بن عوف، العباس، أزواج النبي ﷺ وأبو هريرة رضي الله عنهم .

وقولك : "كان الغريم لها" كذب، فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يدع التركة لنفسه، وإنما هي صدقة لمستحقها، وأيضا فتيقن الصحابة وأولهم علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ لا يورث ، ولهذا لما ولي علي رضي الله عنه الخلافة لم يقسم تركة النبي ﷺ ولا غيرها من مصرفها. =

....

= ثم قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦] لا يدل إذ "الإرث" اسم جنس تحته أنواع والدال على ما به الاشتراك لا يدل على ما به الامتياز، ولفظ "الإرث" يستعمل في لفظ إرث العلماء والملك وغير ذلك. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: ٣٢] وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الزخرف: ٧٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وأخرج أبو داود أن النبي ﷺ قال: "**إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم**" ثم يقال: بل المراد إرث العلم والنبوة لا المال. وإذ معلوم أنه كان لداود عليه السلام أولاد كثيرة غير سليمان عليه السلام فلا يختص سليمان عليه السلام بماله، وليس في كونه إرث ماله صفة مدح لهما، فإن البر والفاجر يرث أباه، والآية سيقت في مدح سليمان عليه السلام وما خص به، وارث المال من الأمور العادية المشتركة بين الناس، ومثل ذلك لا يقص علينا لعدم فائدته. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] لأنه لا يرث من آل يعقوب أموالهم، إنما يرثهم أولادهم وذريتهم. ثم زكريا عليه السلام لم يكن ذا مال إنما كان نجارًا، ويحيي عليه السلام كان من أزهد الناس.

ابن مطهر: ولما ذكرت أن أباها وهبها فدك، وقال: هاتي شاهدا. فجاءت بأم أيمن فقال: امرأة لا يقبل قولها، فجاءت بعلي فشهد لها، فقال: هذا بعلك يجره إلى نفسه.

ابن تيمية: ما هذا بأول افتراء للرافضة ولا بهتهم، ثم أن فاطمة إن كانت طلبت فدك بالإرث بطلت الهبة، وإن كانت هبة بطل الإرث. ثم إذا كانت هذه هبة في مرض الموت فرسول الله ﷺ منزه - إن كان يورث كما يورث غيره - أن يوصي لوارث أو يخصه في مرض موته بأكثر من حقه وإن كان في صحته فلا بد أن تكون هذه هبة مقبوضة، وإلا فإذا وهب الواهب بكلام، ولم يقبض الموهوب إليه شيئا حتى مات، كان ذلك باطلا عند جماهير العلماء فكيف يهب النبي ﷺ فدك لفاطمة ولا يكون ذلك أمرًا مشهورًا عند أهل بيته والمسلمين حتى تختصَّ بمعرفته أم أيمن أو علي رضي الله عنهما، بل ذلك كذب على فاطمة في ادعائها ذلك. وإن كان النبي ﷺ يورث فالخصم أزواجه وعمه رضي الله عنهم ولا تقبل عليهم شهادة امرأة واحدة ولا =

قلنا : المراد بقوله تعالى : يرثنى : أى : يرثنى العلم والنبوة ، ويرث من آل يعقوب الملك ، وقيل : الأخلاق ، فأجابه الله تعالى إلى وراثته العلم والنبوة والأخلاق دون الملك ، والمراد بقوله ﷺ : "**لا نورث**" المال ويؤيده قوله : "**ما تركناه صدقة**" ويعقوب هنا أبو يوسف عليهما السلام ، وقيل : لا بل هو أخو زكريا ، وقيل : لا بل هو أخو عمران الذى هو أبو مريم .

٦٤٧ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦] فعدى الفعل فى الأول بنفسه ، والثانى بحرف الجر وهو واحد ؟

قلنا : يقال ورثه وورث منه ، فجمع بين اللغتين ، وقيل "من" هنا للتبعيض لا للتعدية ، لأن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء .

٦٤٨ - **فإن قيل** : كيف طلب الولد بقوله : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم:٥] أى : ولدًا صالحًا ، فلما بشره الله تعالى بقوله : ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم:٧] الآية استبعد ذلك وتعجب منه وأنكره بقوله : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ [آل عمران:٤٠] الآية؟

قلنا : لم يقل ذلك على طريق الإنكار والاستبعاد ، بل ليجاب بما أجيب به

= رجل واحد بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ واتفاق المسلمين. وإن كان لا يورث فالخصم في ذلك المسلمون، فذلك لا تقبل عليهم شهادة امرأة واحدة ولا رجل واحد باتفاق المسلمين ولا رجل وامرأة. نعم يحكم في مثل ذلك بشهادة ويمين الطالب عند فقهاء الحجاز وفقهاء أهل الحديث. وشهادة الزوج لزوجته فيها قولان مشهوران للعلماء هما روايتان عن أحمد رضي الله عنه أحدهما لا تقبل وهي مذهب أبي حنيفة ومالك والليث بن سعد والأوزاعي وإسحاق وغيرهم رضي الله عنهم. والثانية تقبل وهي مذهب الشافعي وأبي ثور وابن المنذر.

فعلى هذا لو قدر صحة القضية لما جاز للإمام أن يحكم بشهادة رجل واحد وامرأة بالاتفاق، لا سيما وأكثرهم لا يجيزون شهادة الزوج.

عن طلبه الولد وهو قوله تعالى : ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم:٧] فيزداد الموقنون إيقانًا ويرتدع المبطلون ، وإلا فمعتقد زكريا أولاً وآخرًا كان على منهاج واحد ، فى أن الله تعالى غنى عن الأسباب .

الثانى : أنه قال ذلك تعجب فرح وسرور ، لا تعجب إنكار واستبعاد .

الثالث : قيل : إنه قال ذلك استفهامًا عن الحالة التى يهبه الله تعالى فيها الولد، هل يهبه فى حال الشيخوخة أم يرده إلى حالة الشباب ، ثم يهبه ، ولكن هذا الجواب لا يناسبه ما أجيب به زكريا عليه السلام بعد استفهامه .

٦٤٩ - **فإن قيل** : كيف قال : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ [مريم:١٠] والآية العلامة ، فطلب العلامة على وجود الولد بعد ما بشره الله تعالى به ، أكان عنده شك بعد بشارة الله تعالى فى وجوده حتى طل العلامة ؟

قلنا : إنما طلب العلامة على وجود الحمل ليبادر إلى الشكر ويتعجل السرور ، فإن الحمل لا يظهر فى أول العلوق بل بعد مدة ، فأراد معرفته أول ما يوجد ، فجعل الله آية وجود الحمل عجزه عن الكلام وهو سوى الجوارح: ما به خرس ولا بكم .

٦٥٠ - **فإن قيل** : كيف قالت مريم : ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨] وإنما يتعوذ من الفاسق لا من التقى ؟

قلنا : معناه إن كنت ممن يتقى الله ويخشاه فانته عنى بتعوذى به منك ، فمعنى أعوذ أحصل على ثمرة التعوذ ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان فى زمانها رجل اسمه تقى ، ولم يكن تقيًا بل كان فاجرًا ، فظنته إياه فتعوذت منه ، والقول الأول هو الذى عليه المحققون ، وقيل : هو المبالغة معناه: إنى أعوذ منك إن كنت تقيا فكيف يكون حالى فى القرب منك إلى الله تعالى إذا لم تكن تقيًا ، قالوا : ونظير هذا ما جاء فى الخبر " **نعم العبد صهيب ، لو لم يخف**

الله لم يعصه "(١) معناه : أنه إذا كان بحال لو لم يخف الله تعالى لا يوجد منه عصيان ، فكيف يكون حاله إذا خاف الله تعالى ، وفى قراءة أبى رجاء وابن مسعود : "إلا أن تكون تقيًا" .

٦٥١ – فإن قيل : اتفق العلماء على أن الوحى لم ينزل على امرأة ولم يرسل جبريل عليه السلام برسالة إلى امرأة قط ، ولهذا قالوا فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] أنه كان وحى إلهام ، وقيل : وحى منام فكيف قال تعالى هنا : ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] وقال ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم:١٩] ؟

قلنا : لا نسلم أن الوحى لم ينزل على امرأة قط ، فإن مقاتلاً قال فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] أنه كان وحيًا بواسطة جبريل عليه السلام ، وإنما المتفق عليه بين العلماء أن جبريل عليه السلام لم ينزل بوحى الرسالة على امرأة لا بمطلق الوحى ، وهنا لم ينزل على مريم بوحى الرسالة بل بالبشارة بالولد ، ولهذا جاء على صورة البشر : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] .

٦٥٢ – فإن قيل : ما وجه القراءة الجمهور : ﴿لِأَهَبَ لَكِ ﴾ [مريم:١٩] والواهب للولد هو الله تعالى لا جبريل عليه السلام ؟

قلنا : قال ابن الأنبارى ، معناه إنما أنا رسول ربك بقوله لك : أرسلت رسولى إليك لأهب لك ، فيكون حكاية عن الله تعالى لا عن قول جبريل عليه السلام، فيكون فعل الهبة مسندًا إلى الله تعالى لا إليه .

الثانى : أن معناه لأكون سببًا فى هبة الولد بواسطة النفخ فى الدرع ،

(١) هو من كلام سيدنا عمر بن الخطاب ، المقاصد الحسنة للسخاوي (١٢٥٩) ، وكشف الخفا (٢٨٣١) ، وكنز العمال (٣٧٤٧) .

فالإضافة إليه بواسطة السببية .

٦٥٣ - **فإن قيل** : كيف قالت : ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠] ولم تقل بغية مع أنه وصف مؤنث ؟

قلنا : قال ابن الأنبارى : لما كان هذا الوصف غالبًا على النساء ، وقلما تقول العرب رجل بغى ، لم يلحقوا به علامة التأنيث إجراء له مجرى حائض وعاقر ، وقال الأزهرى : لا يقال رجل بغى ، بل هو مختص بالمؤنث ، ولام الكلمة ياء يقال : بغت تبغى ، وهى فعول عند المبرد أصلها بغوى قلبت الواو ياء وأدغمت وكسرت الغين إتباعًا ، فهو كصبور وشكور فى عدم دخول التاء ، وقال ابن جنى فى التمام : هى فعيل ، ولو كان فعولاً لقيل بغو ، كما قيل : هو نهو عن المنكر، ثم قيل : هى فعيل بمعنى فاعل ، فهى كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] وقال الأخفش : هى مثل ملحفة جديد فجعلها بمعنى مفعول. وقيل إنما لم يقل بغية مراعاة لبقية رؤوس الآيات.

٦٥٤ - **فإن قيل** : ما كان حزن مريم وقولها : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣] ألفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسرى والرطب ، أم كان لخوف أن يتهمها قومها بفعل الفاحشة ؟

قلنا : كان حزنها لمجموع الأمرين ، وهو ما ذكرتم ، وجدب مكانها الذى ولدت فيه ، فإنه لم يكن فيه طعام ولا شراب ولا ماء تتطهر به ، وكان إجراء النهر فى المكان اليابس الذى لم يعهد فيه ماء ، وإخراج الرطب من الشجرة اليابسة دافع لجهتى الحزن ، أما دفع الجدب فظاهر ، وأما دفع حزن التهمة فمن حيث أنهما معجزتان تدلان قومها على عصمتها وبراءتها من السوء وأن الله تعالى قد خصها بأمور إلهية خارجة عن العادة خارقة لها ، فتبين لهم أن ولادتها من غير فحل ليس ببدع من شأنها ولا بعيد فى قدرة الله تعالى ، المخرج

فى لحظة واحدة الرطب الجنى من النخلة اليابسة ، والمجرى للماء بغتة فى مكان لم يعهده فيه .

٦٥٥ - **فإن قيل** : كيف أمرها جبريل عليه السلام إذا رأت إنسانًا أن تكلمه بعد النذر بالسكوت بقوله : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ [مريم:٢٦] الآية، وذلك خلف فى النذر؟

قلنا : إنما أمرها بذلك لأنه إتمام نذرها ، فإنها لم تكن مأمورة بنذر مطلق السكوت حتى يندرج فيه الكف عن الذكر والتسبيح والدعاء ونحوها ، بل بنذر السكوت عن تكليم الإنس ، وإذا كان تمام نذرها بقولها : ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦] لا تكون مكلمة لإنسى بعد تمام النذر .

٦٥٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩] وكل أحد كان فى المهد صبيا ؟

قلنا : كان هنا زائدة ، وصبيا منصوب على الحال لا على أنه خبر "كان" تقديره ، كيف نكلم من فى المهد فى حال صباه ، وقيل : كان بمعنى وقع ووجد، وصبيا منصوب على الوجه الذى مر .

٦٥٧ - **فإن قيل** : خطاب التكليف فى جميع الشرائع إنما يكون بعد البلوغ أو بعد التمييز والقدرة على فعل المأمور به ، وعيسى عليه السلام كان رضيعًا فى المهد فكيف خوطب بالصلاة والزكاة حتى قال : ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١] ؟

قلنا : تأخير الخطاب إلى غاية البلوغ وغيرها إنما كان ليحصل العقل والتمييز ، وعيسى عليه السلام كان واجد العقل والتمييز التام فى تلك الحالة فتوجه نحوه الخطاب أن يفعلها إذا قدر على ذلك ، ولهذا قيل : إنه أعطى النبوة فى صباه أيضًا .

٦٥٨ - **فإن قيل** : الزكاة إنما تجب على الأغنياء ، وعيسى عليه السلام لم يزل فقيرًا لابس كساء مدة مقامه فى الأرض ، وعلم الله تعالى ذلك من حاله ، فيكف أوصاه بالزكاة ؟

قلنا : المراد بالزكاة هنا تزكية النفس وتطهيرها من المعاصى ، لا زكاة المال .

٦٥٩ - **فإن قيل** : كيف جاء السلام فى قصة يحيى عليه السلام منكرًا ، وفى قصة عيسى عليه السلام معرفًا ؟

قلنا : قد قيل : إن النكرة والمعرفة فى مثل هذا سواء لا فرق بينهما فى المعنى .

الثانى : أنه سبق ذكره فى قصة يحيى عليه السلام مرة ، فلما أعيد ذكره أعيد معرفًا كقوله تعالى : ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل:١٥، ١٦] كأنه قال ذلك السلام الموجه إلى يحيى عليه السلام فى المواطن الثلاثة موجه إلىّ.

٦٦٠ - **فإن قيل** : كيف تكون الألف واللام فى السلام للعهد ، والأول سلام من الله تعالى على يحيى عليه السلام ، والثانى سلام من عيسى على نفسه؟

قلنا : التعريف راجع إلى ماهية السلام ومواطنه ، لا إلى كونه رادًا من عند الله تعالى .

٦٦١ - **فإن قيل** : ما معنى قوله تعالى : ﴿وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [مريم:٤١] وما شبهه، ومثل هذا إنما يستعمل إذا كان المأمور مختارًا فى الذكر وعدمه ، كما تقول لصاحبك وهو يكتب كتابا : اذكرنى فى الكتاب ، أو اذكر فلانًا فى الكتاب ، والنبى عليه السلام ما كان على سبيل من الزيادة والنقصان فى الكتابة ليوصى بمثل ذلك؟

قلنا : هذا على طريق التأكيد فى الأمر بالإبلاغ ، كتأكيد الملك على رسوله بإعادة بعض فصول الرسالة وتخصيصها بالأمر بالإبلاغ .

٦٦٢ - **فإن قيل** : الاستغفار للكافر لا يجوز ، فكيف وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له بقوله : ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم:٤٧] مع أنه كافر ؟

قلنا : معناه سأسأل الله تعالى لك توبة تنال بها مغفرته ، يعنى الإسلام والاستغفار للكافر بهذا الطريق جائز ، وهو أن يقال : اللهم وفقه للإسلام أو اللهم تب عليه واهده وأرشده وما أشبه ذلك .

الثانى : أنه وعده ذلك بناء على أن يسلم فيستغفر له بعد الإسلام .

الثالث : أنه وعده ذلك قبل تحريم الاستغفار للكافر ، فإن تحريم ذلك قضية شرعية إنها تعرف بالسمع لا عقلية، فإن العقل لا يمنع ذلك .

٦٦٣ - **فإن قيل** : الطور وهو الجبل ليس له يمين ولا شمال ، فكيف قال تعالى : ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم:٥٢] ؟

قلنا : خاطب الله تعالى العرب بما هو معروف فى استعمالهم ، فإنهم يقولون عن يمين القبلة وشمالها ، يعنون ما يلى يمين المستقبل لها وشماله ، لأن القبلة لابد لها لتكون لها يمين وشمال ، وهذا اتساع منهم فى الكلام لعدم اللبس ، فالمراد بالأيمن هنا ما عن يمين موسى عليه السلام من الطور ، لأن النداء جاءه من قبل يمينه ، هذا إن كان الأيمن ضد الأيسر من اليمين ، وإن كان من اليمين وهو البركة من قولهم : يمين فلان قومه فهو يامن ، أى: كان مباركًا عليهم ، فلا إشكال ، لأنه بصير معناه : من جانب الطور المبارك.

٦٦٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم:٥٣] وهارون كان أكبر من موسى عليهما السلام ، فما معنى هبته له؟

قلنا : معناه أن الله تعالى أنعم على موسى عليه الصلاة والسلام بإجابة دعوته فيه حيث قال : ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝ هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه:٢٩، ٣٠] الآية فقال : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥] فالمراد بالهبة أنه جعله عضدًا له وناصرًا ومعينًا ، كذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما .

٦٦٥ - **فإن قيل** : كيف وصف الله تعالى النبيين المذكورين فى قوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [مريم:٥٨] الآية بقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم:٥٨] والمراد بآيات الرحمن القرآن ، والقرآن لم يتل على أحد من الأنبياء المذكورين ؟

قلنا : آيات الرحمن غير مخصوصة بالقرآن ، بل كل كتاب أنزله الله تعالى ففيه آياته ، ولو سلمنا أن المراد بها القرآن فنقول ، إن المراد بقوله : ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ [مريم:٥٨] محمد ﷺ وأمته .

٦٦٦ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ ﴾ [مريم:٥٩، ٦٠] يدل على أن ترك الصلاة وإضاعتها كفر ، لأنه شرط فى توبة مضيعها الإيمان ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بهؤلاء الخلف هنا اليهود تركوا الصلاة المفروضة وشربوا الخمر واستحلوا نكاح الأخت من الأب .

٦٦٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم:٦١] ولم يقل آتيًا كما قال تعالى : ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤] ؟

قلنا : المراد بوعده هنا موعده وهو الجنة ، وهى مأتية يأتيها أولياؤه .

الثانى : أن مفعولاً هنا بمعنى فاعل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥] أى ساترًا .

٦٦٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم:٦٣] وقوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣] يدل من حيث المفهوم أن غير المتقين لا يدخلون الجنة ؟

قلنا : المراد بالتقوى هنا التقوى من الشرك ، وكل المؤمنين سواء فى ذلك.

٦٦٩ - **فإن قيل** : ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال من دعوتهم الولد لله تعالى ، ومن أين تؤثر هذه الكلمة فى الجمادات ؟

قلنا : معناه أن الله تعالى يقول : كدت أفعل هذا بالسماوات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضبًا على قائلها ، لولا حلمى وإمهالى ، وأن لا أعجل العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [فاطر:٤١] يعنى أن تخر على المشركين وتنشق الأرض بهم ، ويدل على هذا قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[فاطر:٤١] .

الثانى : أن يكون استعظامًا لقبح هذه الكلمة وتصويرًا لأثرها فى الدين وهدمًا لأركانه وقواعده وأن مثال ذلك الأثر فى المحسوسات أن يصيب هذه الأجسام العظيمة التى هى قوام العالم ما تنفطر منه وتنشق وتخر .

٦٧٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا فى صفة الشرك : ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم:٩٠] وهذا يدل على قوة كلمة الشرك وشدتها ، وقال تعالى فى سورة إبراهيم صلوات الله عليه فى صفة كلمة الشرك : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم:٢٦] والمراد بالكلمة الخبيثة كلمة الشرك ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وبالشجرة الخبيثة شجرة الحنظل ، كذا قاله رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على ضعف كلمة الشرك وتلاشيها واضمحلالها ، فكيف التوفيق

بينهما ؟

قلنا : وصفت كلمة الشرك فى سورة إبراهيم عليه السلام بالضعف وهنا بالقبح ، فهى فى غاية الضعف وفى غاية القبح والفظاعة فلا تنافى بينهما .

٦٧١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:٩٤] والإحصاء العد على ما نقله الجوهرى ، أو الحصر على ما نقله بعض أئمة التفسير ، كما سبق ذكره فى سورة إبراهيم صلوات الله عليه فى قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤] فإن كان الإحصاء العد فهو تكرار، وإن كان الحصر فذكره مغن عن ذكر العد ، لأن الحصر لا يكون إلا بعد معرفة العدد ؟

قلنا : الإحصاء قد جاء بمعنى العلم أيضًا ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨] أى علم عدد كل شىء ، قال الشاعر :

وكن للذى لم تحصه متعلمًا وأما الذى أحصيت منه فعلم

وهو المراد هنا : فيصير المعنى لقد علمهم : أى علم أفعالهم وأقوالهم وكل ما يتعلق بذواتهم وصفاتهم وعددهم ، فلا تكرار ولا استغناء عن ذكر العد .

*** *** ***

سورة طه عليه السلام

٦٧٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ رَءَا نَارًا﴾ [طه:٩، ١٠] الآية ، كيف حكى الله تعالى قول موسى عليه السلام لأهله عند رؤية النار فى هذه السورة وفى سورة النمل وفى سورة القصص بعبارات مختلفة ، وهذه القضية لم تقع إلا مرة واحدة ، فكيف اختلفت عبارة موسى عليه السلام فيها ؟

قلنا : قد سبق فى سورة الأعراف فى قصة موسى عليه السلام مثل هذا السؤال والجواب المذكور ثم هو الجواب هنا .

٦٧٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [طه:١٦] ظاهر اللفظ نهى من لا يؤمن بالساعة عن صد موسى عن الإيمان بها ، والمقصود هو نهى موسى عن التكذيب بها ، فكيف تنزيله ؟

قلنا : معناه كن شديد الشكيمة فى الدين صليب المعجم ، لئلا يطمع فى صدك عن الإيمان بها من لا يؤمن بها ، وهذا كقولهم : لا أرينك هاهنا ، معناه : لا تدن منى ولا تقرب من حضرتى لئلا أراك ، ففى الصورتين النهى متوجه إلى المسبب ، والمراد به النهى عن السبب ، وهو القرب منه والجلوس بحضرته ، فإنه سبب رؤيته ، وكذلك لين موسى عليه السلام فى الدين وسلامة قيادة سبب لصدهم إياه .

٦٧٤ - فإن قيل : ما فائدة السؤال فى قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٦] وهو أعلم بها فى يده جملة وتفصيلاً ؟

قلنا : فائدته تأنيسه وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب وهيبة

الإجلال وقت المتكلم معه ، كما يرى أحدنا طفلاً قد داخلته هيبة وإجلال وخوف وفى يده فاكهة أو غيرها فيلاطفه ويؤانسه بقوله ما هذا الذى فى يدك، مع أنه عالم به .

الثانى : أنه أراد بذلك أن يقر موسى عليه السلام ويعترف بكونها عصا ويزداد علمه بكونها عصا رسوخًا فى قلبه فلا يحوم حوله شك إذا قلبها ثعبانًا أنها كانت عصا ، ثم انقلبت ثعبانًا بقدرة الله تعالى، وأن يقرر فى نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه والمقلوب إليه فينتبه على القدرة الباهرة ، ونظيره أن يريك الزراد زبرة من حديد ويقول لك ما هذه ؟

فتقول زبرة من حديد ، ثم يريك بعد أيام درعًا سابغة مسرودة ويقول : هذه تلك الزبرة ، صيرتها إلى ما تراه من عجيب الصنعة وأنيق السرد .

٦٧٥ – **فإن قيل** : كيف زاد موسى على حرف الجواب وليس ذلك من شيمة البلغاء خصوصًا فى مخاطبة الملك الأعلى ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه لما قال عصاى سئل سؤالاً ثانيًا، فقيل : ما تصنع بها ، فأجاب بباقى الآية .

الثانى : أنه إنما عدّد فوائدها وبين حاجته إليها خوفًا من أن يؤمر بإلقائها كما أمر بإلقاء النعلين .

الثالث : أنه ذكر ذلك لئلا ينسب إلى العبث فى حملها .

٦٧٦ – **فإن قيل** : قد نقل أنها كانت تضىء له بالليل وتدفع عنه الهوام ، وتثمر له إذا اشتهى الثمار ، فيغرسها فى الأرض فتثمر من ساعتها ، ويركزها فينبع الماء من مركزها ، فإذا رفعها نضب ، وكان يستقى بها فتطول بطول البئر وتقصر بقصرها ، فهلا عدد هذه المنافع ؟

قلنا : كره أن يشتغل عن سماع كلام الله تعالى بتفصيل منافعها ، ففصل البعض وأجمل الباقى بقوله : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ [طه:١٨] والله أعلم بما أجمله .

الثانى : أنه ذكر المنافع التى هى ألزم له وحاجته إليها أمس ، وإن كانت المنافع التى أجملها أعجب وأغرب .

٦٧٧ - **فإن قيل** : قد ذكر الله تعالى عصا موسى عليه السلام بلفظ الحية والثعبان والجان ، وبين الثعبان والجان تنافٍ ، لأن الجان الحية الصغيرة كذا قاله ابن عرفة، والثعبان الحية العظيمة ، كذا نقله الأزهرى عن الزجاج وقطرب ؟

قلنا : أراد أنها فى صورة الثعبان العظيم وخفة الحية الصغيرة وحركتها ويؤيده قوله : ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ [النمل:١٠] .

الثانى : أنها كانت فى أول انقلابها تنقلب حية صغيرة صفراء دقيقة ثم تتورم ويتزايد جرمها حتى تصير ثعبانًا ، فأريد بالجان أول حالها ، وبالثعبان مآلها .

٦٧٨ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:٣٨] وهذا لا بيان فيه ، لأنه مجمل ، فما فائدته ؟

قلنا : فائدته الإشارة إلى أنه ليس كل الأمور مما يوحى إلى النساء كالنبوة ونحوها ، بل بعضها .

الثانى : أنه للتأكيد كقوله تعالى : ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم:٥٤] كأنه قال إذا أوحينا إلى أمك إيحاء .

الثالث : أنه أبهمه أولاً للتفخيم والتعظيم ، ثم بينه وأوضحه بقوله تعالى : ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ﴾ [طه:٣٩] الآية .

٦٧٩ - **فإن قيل** : كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام فى قوله تعالى : ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] وهارون كان وزيرًا لموسى عليه السلام وتبعًا له ، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:٣٥] ؟

قلنا : إنما قدمه ليقع موسى مؤخرًا فى اللفظ ، فيناسب الفواصل : أعنى رؤوس الآيات .

٦٨٠ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤] والموت والحياة صفتان من صفات الإنسان وهما نقيضان ، فكيف يرتفعان ؟

قلنا : المراد لا يموت فيها موتًا يستريح به ، ولا يحيا حياة تنفعه ويستلذ بها .

الثانى : أن المراد لا يموت فيها موتًا متصلاً ولا يحيا حياة متصلة ، بل كلما مات من شدة العذاب أعيد حيًا ليذوق العذاب هكذا سبعين مرة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا .

٦٨١ - **فإن قيل** : الخوف والخشية واحد فى اللغة ، فكيف قال تعالى : ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧] ؟

قلنا : معناه لا تخاف دركا ، أى لحاقًا من فرعون ولا تخشى غرقًا فى البحر كما تقول : لا تخاف زيدًا ولا تخشى عمرًا ، ولو قلت ولا عمرًا صح وكان أوجز ، ولكن إذا أعدت الفعل كان آكد ، وأما فى الآية فلما لم يكن مفعول الخشية مذكورًا ذكر الفعل ثانيًا ليكون دليلاً عليه ، وخولف بين اللفظين رعاية للبلاغة، وقيل معناه ، لا تخاف دركًا على نفسك ، ولا تخشى دركًا على قومك ، والأول عندى أرجح .

٦٨٢ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ [طه:٧٩] يعنى فى

قوله تعالى : ﴿ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] ومفيد فوق فائدته فكيف ذكر معه ؟

قلنا : معناه ، وما هداهم بعد ما أضلهم ، فإن المضل قد يهدى بعد إضلاله.

الثانى : أن معناه : وأضل قومه وما هدى نفسه .

الثالث : أن معناه : وأضل فرعون قومه عن الدين وما هداهم طريقًا فى البحر .

الرابع : أن قوله : ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] تهكم به فى قوله لقومه : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] .

٦٨٣ – فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ ﴾ [طه:٨٠] أضاف المواعدة إليهم ، والمواعدة إنما كانت لموسى عليه السلام واعده الله تعالى جانب الطور الأيمن لإتيانه التوراة؟

قلنا : المواعدة وإن كانت لموسى عليه السلام ، ولكنها لما كانت لإنزال كتاب بسبب بنى إسرائيل وفيه بيان شريعتهم وأحكامهم وصلاح معاشهم ومعادهم أضيفت إليهم المواعدة بهذه الملابسة والاتصال .

٦٨٤ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٨٣] سؤال عن سبب العجلة ، فإن موسى عليه السلام لما واعده الله تعالى بإنزال التوراة عليه بجانب الطور الأيمن وأراد الخروج إلى ميعاد ربه اختار من قومه سبعين رجلاً يصحبونه إلى ذلك المكان،ثم سبقهم شوقًا إلى ربه وأمرهم بلحاقه، فعوتب على ذلك وكان الجواب المطابق أن يقول : طلبت زيادة رضاك أو الشوق إلى لقائك ، وتنجيز وعدك ، فيكف قدم ما لا يطابق السؤال وهو

قوله : ﴿ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى ﴾ [طه:٨٤]؟

قلنا : ما واجهه ربه به تضمن شيئين : إنكار العجلة فى نفسها والسؤال عن سببها ، فبدأ موسى عليه السلام بالاعتذار عما أنكره تعالى عليه بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير لا يعتد به فى العادة كما يتقدم المقدم جماعته وأتباعه ثم عقب العذر بجواب السؤال عن السبب بقوله : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه:٨٤].

٦٨٥ - **فإن قيل** : أليس أن أئمة اللغة قالوا : العوج بالكسر فى المعانى ، وبالفتح فى الأعيان ، ولهذا قال ثعلب : وتقول فى الأمر والدين عوج وفى العصا ونحوها عوج ، كالجبال والأرض ، فكيف صح فيها المكسور فى قوله تعالى : ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٧] ؟

قلنا : قال ابن السكيت ، كل ما كان مما ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عوج بالفتح ، والعوج بالكسر ما كان فى أرض أو دين أو معاش ، فعلى هذا لا إشكال .

الثانى: أنه أراد به نفى الاعوجاج الذي يدرك بالقياس الهندسي ولا يدرك بحاسة البصر وذلك الاعوجاج لاحق بالمعانى ، فلذلك قال فيه عوج بالكسر، ومما يوضح هذا أنك لو سويت قطعة أرض غاية التسوية بمقتضى نظر العين بموافقة جماعة من البصراء ، واتفقتم على أنه لم يبق فيها عوج قط ، ثم أمرت المهندس أن يعتبرها بالمقاييس الهندسية وجد فيها عوجًا فى غير موضع ، ولكنه عوج لا يدرك بحاسة البصر فنفى الله تعالى ذلك العوج لما لطف ودق عن الإدراك ، فكان لدقته وخفائه ملحقًا بالمعانى .

٦٨٦ - **فإن قيل** : إن الله تعالى أخبر أن آدم عليه السلام نسى عهد الله ووصيته وأكل من الشجرة بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ

فَنَسِيَ ﴾ [طه:١١٥] وإذا كان فعل ذلك ناسيًا فكيف وصفه بالعصيان والغواية بقوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:٦] فعاقبه عليه بأعظم أنواع العقوبة ، وهو الإخراج من الجنة ؟

قلنا : النسيان هنا بمعنى الترك كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤] أى: تاركناكم فى العذاب ، وقوله تعالى : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] فمعناه أنه ترك عهد الله ووصيته فكيف يكون من النسيان الذى هو ضد الذكر ، وقد جرى بينه وبين إبليس من المجادلة والمناظرة فى أكل الشجرة فصول كثيرة ، منها قوله : ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف:٢٠] الآية ، فكيف يبقى مع هذا نسيان .

٦٨٧ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١١٧] ولم يقل فتشقيا ، والخطاب لآدم وحواء عليهما السلام ؟

قلنا : لوجوه ، **أحدها** : أن الرجل قيم أهله وأميرهم ، فشقاؤه يتضمن شقاءهم كما أن معاداته تتضمن معاداتهم ، فاختصر الكلام بإسناد الشقاء إليه دونها لما كان متضمنًا له .

الثانى : أنه إنما أسنده إليها دونها للمحافظة على الفاصلة .

الثالث : أنه أراد بالشقاء ، الشقاء فى طلب القوت وإصلاح المعاش، وذلك وظيفة الرجل دون المرأة ، قال سعيد بن جبير : أهبط إلى آدم عليه السلام ثور أحمر فكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه ، فذلك شقاؤه .

٦٨٨ - **فإن قيل** : هل يجوز أن يقال : كان آدم عاصيًا غاويًا أخذًا من قوله تعالى : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه:١٢١] ؟

قلنا : يجوز أن يقال : عصى آدم كما قال تعالى ، ولا يجوز أن يقال : كان آدم عاصيًا ، لأنه لا يلزم من جواز إطلاق الفعل جواز إطلاق اسم الفاعل ، ألا

ترى أنه يجوز أن يقال : تبارك الله ، ولا يجوز أن يقال : الله تبارك ويجوز أن يقال: تاب الله على آدم ، ولا يجوز أن يقال : الله تائب ، ونظائره كثيرة .

٦٨٩ - **فإن قيل** : أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية لا مدخل للقياس فيها ، ولهذا يقال : الله عالم ، ولا يقال علامة ، وإن كان هذا اللفظ أبلغ فى الدلالة على معنى العلم ، فأما أسماء البشر وصفاتهم فقياسية ، فلم لا يجرى فيها على القياس المطرد ؟

قلنا : هذا القياس ليس بمطرد فى صفات البشر أيضًا ، ألا ترى أنهم قالوا ذره ودعه بمعنى اتركه ، وفلان يذر ويدع ، ولم يقولوا منهما وذر ولا واذر ، ولا ودع ولا وادع ، فاستعملوا منهما الأمر والمضارع فقط .

ولقائل أن يقول : هذا شاذ فى كلام العرب ونادر ، فلا يترك لأجله القياس المطرد ، بل يجرى على مقتضى القياس .

٦٩٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [طه:١٢٤] أى : عن موعظتى أو عن القرآن ، فلم يؤمن به ولم يتبعه : ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] أى : حياة فى ضيق وشدة ، ونحن نرى المعرضين عن الإيمان والقرآن فى أخصب معيشة وأرغدها ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : المراد بالمعيشة الضنك : الحياة فى المعصية وإن كان فى رخاء ونعمة ، وروى عن النبى ﷺ أنها عذاب القبر.

الثانى : أن المراد بها عيشته فى جهنم فى الآخرة .

الثالث : أن المراد بها عيشه مع الحرص الشديد على الدنيا وأسبابها ، وهذه الآية فى مقابلة قوله فى سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] فكل ما ذكرناه فى تفسير الحياة الطيبة

فضده وارد فى المعيشة الضنك .

٦٩١ - **فإن قيل** : أى الكلمات التى سبقت من الله فكانت مانعة من تعذيب هذه الأمة فى الدنيا عذاب الاستئصال حتى قال تعالى : ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [طه:١٢٩] ؟

قلنا : قيل هى قوله تعالى : "سبقت رحمتى غضبى" ويرد عليه أنه لا اختصاص لهذه الأمة بهذه الكلمة ، وقيل هى قوله تعالى للنبى ﷺ : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] وقيل فى قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يعنى لعالمى أمته بتأخير العذاب عنهم ، وقيل فى الآية تقديم وتأخير وتقديره: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى، وهو الأجل الذى قدر الله تعالى بقاء العالم وأهله إلى انقضائه لكان العذاب لزامًا ، أى : لازمًا لهم كما لزم الأمم التى قبلهم .

٦٩٢ - **فإن قيل** : أصحاب الصراط السوى والمهتدون واحد ، فما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:١٣٥] ؟

قلنا : المراد بأصحاب الصراط السوى السالكون الصراط المستقيم السائرون عليه ، والمراد بالمهتدين الواصلون إلى المنزل .

وقيل : أصحاب الصراط السوى هم الذين ما زالوا على الصراط المستقيم ، والمهتدون هم الذين لم يكونوا على الطريق المستقيم ثم صاروا عليه .

وقيل: المراد بأصحاب الصراط السوى: أهل دين الحق فى الدنيا ، والمراد بمن اهتدى المهتدون إلى طريق الجنة فى العقبى، فكأنه قال : فستعلمون من الحق فى الدنيا والفائز فى الآخرة .

سورة الأنبياء

٦٩٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾ [الأنبياء:١] وصفه بالقرب وقد مضى من وقت هذا الإخبار أكثر من ستمائة عام ، ولم يوجد يوم الحساب بعد ؟

قلنا : معناه أنه قريب عند الله تعالى وإن كان بعيدًا عند الناس ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج:٦، ٧] وقال تعالى : ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ ، ﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج:٤٧] .

الثاني : أن معناه أنه قريب بالنسبة إلى ما مضى من الزمان ، كما قال ﷺ : "إن مثل ما بقى من الدنيا فى جنب ما مضى كمثل خيط فى ثوب" (١) .

الثالث : أن المراد به قرب حساب كل واحد فى قبره إذا مات ، ويؤيده قوله ﷺ : "من مات فقد قامت قيامته" (٢) .

الرابع : أن كل آت قريب وإن طالت أوقات استقباله وترقبه، وإنما البعيد الذى وجد وانقرض ، ولهذا يقول الناس إذا سافروا من بلد إلى بلد بعد ما ولوا ظهورهم البلد الأول ، البلد الثانى : أقرب وإن كان أبعد مسافة .

٦٩٤ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء:٢] والذكر الآتى من الله تعالى هو القرآن وهو قديم لا محدث ؟

قلنا : المراد محدث إنزاله .

---

(١) مسند أحمد (١١٥٨٨) ط الرسالة .

(٢) ضعيف : الضعيفة (٣/ ٣٠٩) .

الثاني : أن المراد به ذكر يكون غير القرآن من مواعظ الرسول ﷺ وغيره ، ونسب إلى الله تعالى لأن موعظة كل واعظ بإلهامه وهدايته .

الثالث : أن المراد بالذكر الذاكر وهو الرسول ﷺ ، ويويده قوله تعالى فى سياق الآية : ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء:٣] وعلى هذا يكون معنى قوله : ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ﴾ [الأنبياء:٢] أى : إلا استمعوا ذكره وموعظته .

٦٩٥ – **فإن قيل** : النجوى المسارة ، فما معنى قوله تعالى : ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه:٦٢] ؟

قلنا : معناه بالغوا فى إخفاء المسارة بحيث لم يفطن أحد لتناجيهم ومسارتهم تفصيلاً ولا إجمالاً ، فإن الإنسان قد يرى اثنين يتساران فيعلم من حيث الإجمال أنهما يتساران ، وإن لم يعلم تفصيل ما يتساران به ، وقد يتساران فى مكان لا يراهما أحد .

٦٩٦ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى لمشركى مكة : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء:٧] يعنى فاسألوا أهل الكتاب عمن مضى من الرسل ، هل كانوا بشرًا أم ملائكة ، مع أن المشركين قالوا : ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ:٣١] ؟

قلنا : هم وإن لم يؤمنوا بكتاب أهل الكتاب ، ولكن النقل المتواتر من أهل الكتاب فى القضية العقلية.يفيد العلم لمن يؤمن بكتابهم ولمن لا يؤمن به.

٦٩٧ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] والاستحسار مبالغة فى الحسور وهو الإعياء ، فكان الأبلغ فى وصفهم أن ينفى عنهم أدنى الحسور أو مطلقه لا أقصاه ؟

قلنا : إنما ذكر الاستحسار إشارة إلى أن ما هم فيه من التسبيح الدائم

والعبادة المتصلة يوجب غاية الحسور وأقصاه .

٦٩٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى فى وصف الملائكة : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] إلى قوله تعالى : ﴿مُشْفِقُونَ﴾ يدل على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، فإذا كانوا لا يعصون الله تعالى فلم يخافون حتى قال تعالى : ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨] ؟

قلنا : لما رأوا ما جرى على إبليس وعلى هاروت وماروت من القضاء والقدر خافوا من مثل ذلك .

الثانى : أن زيادة معرفتهم بالله وقربهم فى محل كرامته يوجب مزيدً من خوفهم ، ولهذا قال أهل التحقيق ، من كان بالله أعرف كان من الله أخوف ، ومن كان إلى الله أقرب كان من الله أرهب ، وقال بعضهم : يا عجبًا من مطيع آمن ومن عاص خائف .

٦٩٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠] وهم لم يروا ذلك ؟

قلنا : معناه أو لم يعلموا ذلك بأخبار من قبلهم أو بوروده فى القرآن الذى هو معجزة فى نفسه ، ونظيره قوله تعالى للنبى ﷺ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٤١] وقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور:٤٣] الآية ، ونظائره كثيرة .

٧٠٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠] مع أن الملائكة أحياء والجن أحياء ، وليسوا مخلوقين من الماء بل من النور والنار كما قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٥] وكذا آدم مخلوق من التراب وناقة صالح مخلوقة من الحجر ؟

قلنا : المراد به البعض وهو الحيوان كما في قوله تعالى : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٢٣] وقوله تعالى : ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس:٢٢] ونظائره كثيرة .

الثاني : أن الكل مخلوقون من الماء ولكن البعض بواسطة والبعض بغير واسطة ، ولهذا قيل : إنه تعالى خلق الملائكة من ريح خلقها من الماء، وخلق الجن من نار خلقها من الماء ، وخلق آدم من تراب خلقه من الماء.

٧٠١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء:٣٧] بعد قوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء:٣٧] وكأنه تكليف بما لا يطاق؟

قلنا : هذا كما ركب فيه الشهوة وأمره أن يغلبها ، لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة .

٧٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٥] مع أن الصم لا يسمعون الدعاء إذا ما يبشرون أيضًا ؟

قلنا : اللام في الصم إشارة للمنذرين السابق ذكرهم بقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ [الأنبياء:٤٥] فهي لام العهد لا لام الجنس .

٧٠٣ - فإن قيل : كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ [الأنبياء:٦٣] أحال كسر الأصنام على الصنم الكبير ، وكان إبراهيم هو الكاسر لها ؟

قلنا :قاله على طريق الاستهزاء والتهكم بهم ، لا على طريق الجد .

الثاني : أنه لما كان الحامل له على كسرها اغتياظه من رؤيتها مصفوفة مرتبة للعبادة مبجلة معظمة ، وكان اغتياظه من كبيرها أعظم لمزيد تعظيمهم له أسند الفعل إليه كما أسند إلى سببه ، وإلى الحامل عليه .

الثالث : أنه أسنده إليه معلقًا بشرط منتفٍ لا مطلقًا تقديره : فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم .

٧٠٤ - **فإن قيل** : كيف صح مخاطبة النار بقوله تعالى : ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] والخطاب إنما يكون مع من يعقل ؟

قلنا : الخطاب التحويل والتكوين لا يختص بمن يعقل ، قال الله تعالى : ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ:١٠] وقال تعالى : ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١] وقال تعالى : ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود:٤٤].

٧٠٥ - **فإن قيل** : كيف وصف الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بكونهم من الصالحين بقوله تعالى : ﴿وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ [الأنبياء:٨٥] الآية ، مع أن أكثر المؤمنين صالحون خصوصًا فى الزمن الأول ؟

قلنا : معناه أنهم من الصالحين للإدخال فى الرحمة التى أريد بها النبوة على ما فسره مقاتل ، أو الجنة على ما فسره ابن عباس رضى الله عنهما ، ويؤيد ذلك قول سليمان صلوات الله عليه : ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩] أى : الصالحين للعمل المرضى الذى سبق سؤاله .

٧٠٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء:٩١] وقال فى سورة التحريم : ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم:١٢] ؟

قلنا : حيث أنَّث أراد النفخ فى ذاتها ، وإن كان مبدأ النفخ من الفرج الذى هو مخرج الولد أو جيب درعها على اختلاف القولين ، لأنه فرجة ، وكل فرجة بين شيئين تسمى فرجًا فى اللغة ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها لأنها إذا منعت

جيب درعها مما لا يحل كانت لنفسها أمنع ، وحيث ذكر فظاهر .

٧٠٧ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٥] يدل على أنه يجب أن يرجعوا ، لأن كل ما حرم أن لا يوجد وجب أن يوجد فكيف معنى الآية ؟

قلنا : معناه وواجب على أهل قرية عزمنا على إهلاكهم أو قدرنا إهلاكهم أنهم لا يرجعون عن الكفر إلى الإيمان ، أو أنهم لا يرجعون بعد إهلاكهم إلى الدنيا ، فالحرام هنا بمعنى الواجب ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، ويؤيده قول الشاعر :

فإن حرامًا لا أرى الدهر باكيًا على شجوة إلا بكيت على عمرو

وقيل : لفظ الحرام على ظاهره ، ولا زائدة ، والمعنى ما سبق ذكره ، الحرمة هنا بمعنى المنع كما فى قوله تعالى : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص:١٢] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠] .

٧٠٨ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١] وقال فى موضع آخر : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] وواردها يكون قريبًا منها لا بعيدًا ؟

قلنا : معناه مبعدون عن ألمها وعذابها مع كونهم وارديها ، أو معناه مبعدون عنها بعد ورودها بالإنجاء المذكور بعد الورود ، فلا تنافى بينهما .

٧٠٩ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] مع أن النبى ﷺ لم يكن رحمة للكافرين الذين ماتوا على كفرهم بل نقمة لأنه لولا إرساله إليهم لما عذبوا بكفرهم لقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥] ؟

قلنا : بل كان رحمة للكافرين أيضًا من حيث أن عذاب الاستئصال أخر عنهم بسببه .

الثانى : أنه كان رحمة عامة من حيث إنه جاء بما يسعدهم إن اتبعوه ، ومن لم يتبعه فهو الذى قصر فى حق نفسه وضيع نصيبه من الرحمة، ومثله ﷺ كمثل عين ماء عذبة فجرها الله تعالى ، فسقى ناس زروعهم ومواشيهم منها فأفلحوا ، وفرط ناس فى السقى منها فضيعوا ، فالعين فى نفسها نعمة من الله تعالى للفريقين ورحمة ، وإن قصر البعض فرطوا ، الثالث : أن المراد بالرحمة الرحيم ، وهو ﷺ كان رحيمًا للفريقين ، ألا ترى أنهم لما شجوه يوم أحد وكسروا رباعيته حتى خر مغشيًا عليه ، فلما أفاق قال: "**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**"[1] .

٧١٠ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٩] مع إخباره تعالى إياهم بقرب الساعة بقوله تعالى : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل:١] وقوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾ [القمر:١] ونحوهما ؟

قلنا : معناه ما أدرى أن العذاب الذى توعدونه وتهدون به ينزل بكم عاجلاً أو آجلاً ، وليس المراد به قيام الساعة ، ويرد على هذا الجواب أنه قريب على كل تقدير ، لأنه إذا كان قبل قيام الساعة فظاهر ، وإن كان بعد قيام الساعة فهو كالمتصل بها لسرعة زمن الحساب ، فيكون قريبًا أيضًا .

٧١١ – **فإن قيل** : إذا كان المؤمنون يعتقدون أن الله تعالى لا يحكم إلا بالحق ، فما فائدة الأمر والإخبار المتعلق بهما بقوله تعالى : ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنبياء:١١٢]؟

قلنا : ليس المراد بالحق هنا ما هو نقيض الباطل ، بل المراد به ما وعده الله

---

(١) البخاري (٣٢١٨) ، ومسلم (٣٣٤٧) .

تعالى إياه من نصر المؤمنين وخذلان الكافرين ، ووعده لا يكون إلا حقًا فكأنه قال : عجل لنا وعدك وأنجزه ، ونظيره فى قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٩] .

الثانى : أنه بالتأكيد لما فى التصريح بالصفة من المبالغة وإن كانت لازمة للفعل ، ونظيره فى عكسه من صفة الذم قوله تعالى : ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران:١١٢] .

*** *** ***

سورة الحج

٧١٢ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج:١] يدل على أن المعدوم شيء ؟

قلنا : لا نسلم ، ومستنده أن المراد أنها إذا وجدت كانت شيئًا لا أنها شيء الآن ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿عَظِيمٌ﴾ مع أن المعدوم لا يوصف بالعظم.

٧١٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى أولاً : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ [الحج:٢] بلفظ الجمع ، ثم أفرد فقال : ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ﴾ [الحج:٢] ؟

قلنا : لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة ، فجعل الناس كلهم رائين لها وعلقت آخرًا بكون الناس على هيئة السكارى ، فلابد أن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم .

٧١٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى في حق النضر بن الحارث : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣] إلى أن قال : ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٩] وهو ما كان غرضه في جداله الضلال عن سبيل الله ، فكيف علل جداله به وما كان أيضًا مهتديًا حتى إذا جادل خرج بالجدال من الهدى إلى الضلال ؟

قلنا : هذه لام العاقبة والصيرورة ، وقد سبق ذكرها غير مرة ، ولما كان الهدى معرضًا له فتركه وأعرض عنه وأقبل على الجدال بالباطل جعل كالخارج من الهدى إلى الضلال .

٧١٥ - **فإن قيل** : النفع والضر منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : معناه يعبد من دون الله ما لا يضره بنفسه إن لم يعبده ولا ينفعه بنفسه

إن عبده ثم قال : يعبد من يضره الله بسبب عبادته ، وإنما أضاف الضرر إليه لحصوله بسببه .

٧١٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ [الحج:١٣] يدل على أن فى عبادة الصنم نفعًا وإن كان فيها ضرر ؟

قلنا : معناه أقرب من النفع المنسوب إليه في زعمهم ، وهو اعتقادهم أنه يشفع لهم .

٧١٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج:٣٩] أى بسبب كونهم مظلومين ، ولم يبين ما الشىء الذى أذن لهم فيه ؟

قلنا : تقديره : أذن للذين يقاتلون فى القتال ، وإنما حذف لدلالة يقاتلون عليه ولدلالة الحال أيضًا ، فإن كفار مكة كانوا يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى وهم يستأذنون النبى ﷺ فى قتالهم ، فيقول : لم يؤذن لى في ذلك ، حتى هاجر إلى المدينة فنزلت هذه الآية ، وهي أول آية نزلت فى الإذن فى القتال ، فنسخت سبعين آية ناهية عن القتال ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، فكان المأذون فيه ظاهرًا لكونه مترقبًا منتظرًا .

٧١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُون﴾ [الحج:٣٩] مع أنهم ما كانوا يقاتلون قبل نزول هذه الآية ؟

قلنا : معناه أذن للذين يريدون أن يقاتلوا ، سماهم مقاتلين مجازًا باعتبار ما يئولون إليه كما فى النظائر ، وقرئ : "لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُون" بفتح التاء ، ولا إشكال على تلك القراءة.

٧١٩ - فإن قيل : كيف صح الاستثناء فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٤٠] ؟

قلنا : هو استثناء منقطع تقديره : لكن أخرجوا بقولهم : ربنا الله .

الثانى : أنه بمنزلة قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب (١)

تقديره : إن كان فيهم عيب فهو هذا : وليس بعيب فلا يكون هذا فيهم عيبًا .

٧٢٠ - **فإن قيل** : أي منة على المؤمنين في حفظ الصوامع والبيع والصلوات، أي الكنائس عن الهدم حتى امتن عليهم بذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج:٤] الآية ؟

قلنا : المنة في ذلك أن الصوامع والبيع والكنائس في حرم المسلمين وحراستهم وحفظهم ، لأن أهلها ذمة المسلمين .

الثانى : أن المراد به لهدمت صوامع وبيع فى زمن عيسى ﷺ ، وصلوات أى : كنائس فى موسى ﷺ ، ومساجد فى زمن النبى ﷺ ، فالامتنان على أهل الأديان الثلاثة لا على المؤمنين خاصة .

٧٢١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج:٤٤] ولم يقل وقوم موسى ، كما قال الله تعالى فيما قبله ؟

قلنا : لأن موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط .

الثانى : أن يكون التنكير والإبهام للتفخيم والتعظيم كأنه قال تعالى بعدما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم ، وكذب موسى أيضًا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره .

---

(١) البيت للنابغة الذُّبيانى .

٧٢٢ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] ؟

قلنا : فائدته المبالغة فى التأكيد كما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام] وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ [الفتح:١١] وما أشبه ذلك.

الثانى : أن القلب هنا يستعمل بمعنى العقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] أي عقل فى أحد القولين ، فكان التقييد احترازًا على قول من زعم أن العقل فى الرأس .

٧٢٣ - فإن قيل : المغفرة إنما تكون لمن يعمل السيئات لا لمن يعمل الصالحات والحسنات ، فكيف قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [الحج].

قلنا : المراد بالعمل الصالح هنا الإخلاص فى الإيمان ، قال الكلبى : كل موضع جاء فى القرآن : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة:٨٢] فالمراد به الإخلاص فى الإيمان ، فيصير المعنى: فالذين آمنوا عن إخلاص تغفر لهم سيئاتهم .

٧٢٤ - فإن قيل : ما الفرق بين الرسول والنبى مع أن كليهما مرسل بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢] ؟

قلنا : الفرق بينهما أن الرسول من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من جمع له بين المعجزة وأنزل الكتاب عليه ، والنبى قط من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو أمته إلى شريعة من قبله ، وقيل : الرسول من كانت له معجزة من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والنبى من لم تكن له منهم معجزة ، وفى هذا نظر ، وقيل : الرسول من كان مبعوثًا إلى أمة ، والنبى فقط من لم يكن مبعوثًا إلى

أحد من كونه نبيًا ، والجواب عن الآية على هذا القول أن فيه إضمار تقديره ، وما أرسلنا من رسول ولا نبأنا من نبى ، أو ولا كان من نبى ، ونظيره قول الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى متقلدًا سيفـًا ورمحـًا [١]

أى : ومتعلقًا رمحًا أو حاملاً رمحًا .

٧٢٥ - **فإن قيل** : أين المثل المضروب فى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ [الحج:٧٣] والمذكور بعده وهو قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٧٣] إلى آخره ليس بمثل ، بل هو كلام مبتدأ مستقل بنفسه؟

قلنا : الصفة والقصة الغريبة أو المستحسنة تسمى مثلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧] فالمعنى يثبت بصفة ، وهى عجز الصنم عن خلق الذباب واستنقاذ ما يسلبه ، وقيل هو إشارة إلى قوله تعالى : ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١] وإنما أبهمه هنا لأنهم كانوا لا يصغون إلى سماع القرآن ، ولهذا قالوا : ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦] وكانوا يحبون الأمثال ، فذكر لفظ المثل استدراجًا لهم إلى سماع القرآن والإصغاء إليه .

٧٢٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨] مع أن قطع اليد التى تساوى خمسة آلاف درهم بسبب سرقة عشرة دراهم حرج فى الدين ، وكذا رجم المحصن بسبب الوطء مرة واحدة ، ووجوب صوم شهرين متتابعين بسبب إفطار يوم واحد من رمضان بوطء ، والمخاطرة بالنفس والمال فى الحج والعمرة وكل ذلك حرج بيِّن ؟

---

(١) البيت لعبد الله بن الزبعرى .

قلنا : المراد بالدين كلمة التوحيد ، فإنها تكفر شرك سبعين سنة ، ولا يتوقف تأثيرها على الإيمان والإخلاص سبعين سنة ، ولا على أن يكون الإتيان بها فى بيت الله تعالى أو فى زمان أو مكان معين ، وقيل : المراد به أن كل ما يقع فيه الإنسان من الذنوب والمعاصى يجد له مخرجًا فى الشرع بتوبة أو كفارة أو رخصة، وقيل : المراد به فتح باب التوبة للمذنبين ، وفتح أبواب الرخص للمعذورين ، وشروع الكفارات والأروش والديات ، وقيل : المراد به نفى الحرج الذى كان على بنى إسرائيل من الإصر والتشديد .

٧٢٧ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨] وإبراهيم صلوات الله عليه لم يكن أبا للأمة كلها ؟

قلنا : هو أبو رسول الله ﷺ ، فكان أبا لأمته ، لأن أمة الرسول بمنزلة أولاده من جهة العطف والشفقة ، هذا إن كان الخطاب لعامة المسلمين ، وإن كان للعرب خاصة فإبراهيم أبو العرب قاطبة .

٧٢٨ – **فإن قيل** : متى سمانا إبراهيم صلوات الله عليه المسلمين من قبل حتى قال الله تعالى : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] ؟

قلنا : وقت دعائه عند بناء الكعبة حيث قال : ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨] فكل من أسلم من هذه الأمة فهو ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام ، وهذا السؤال سئلت عنه فى المنام وأجبت بهذا الجواب فى المنام إلهامًا من الله سبحانه وتعالى .

*** *** ***

سورة المؤمنون

٧٢٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ [المؤمنون:٥، ٦] وحفظ الفرج إنما يعدى بعن لا بعلى ، يقال : فلان يحفظ فرجه عن الحرام ، ولا يقال : على الحرام ؟

قلنا : "على" هنا بمعنى عن ، كما فى قول الشاعر :

إذا رضيت على بنو قشير لعمر الله أعجبنى رضاها (١)

الثانى : أنه متعلق بمحذوف تقديره : فلا يرسلونها إلا على أزواجهم .

٧٣٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون:٦] ولم يقل : أو من ملكت أيمانهم ، مع أن المراد من يعقل ؟

قلنا : لأنه أراد من جنس العقلاء ما يجرى مجرى غير العقلاء ، وهم الإناث .

٧٣١ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥ ، ١٦] كيف خص الإخبار عن الموت الذى لم ينكره الكفار بلام التأكيد دون الإخبار عن البعث الذى أنكروه ، والظاهر يقتضى عكس ذلك ؟

قلنا : لما كان العطف يقتضى الاشتراك فى الحكم استغنى به عن إعادة لفظ اللام الموجبة لزيادة التأكيد ، فإنها ثابتة معنى بقضية العطف ، ولا يلزم على هذا عدم إعادة أن لأنها الأصل فى التأكيد ، ولأنها أقوى والحاجة إليها أمس .

---

(١) البيت للقحيف العقيلى .

٧٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون:٢٠] والمراد بها شجرة الزيتون ، وهى تخرج من الجبل الذى يسمى طور سيناء ومن غيره ؟

قلنا : قيل : إن أصل شجرة الزيتون من طور سيناء ، ثم نقلت إلى سائر المواضع ، وقيل : إنما أضيفت ذلك إلى الجبل لأن خروجها فى غيره من المواضع.

٧٣٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [المؤمنون:٧٠] خبر عن كفار مكة ، فكيف قال تعالى : ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أى : بالتوحيد أو بالقرآن : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٠] ولم يقل وكلهم ، مع أن كلهم كانوا للتوحيد كارهين بدليل قولهم : ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون:٧٠] ؟

قلنا : كان فيهم من ترك الإيمان به أنفة واستنكافًا من توبيخ قومه لئلا يقولوا : ترك دين آبائه لا كراهة للحق ، كما يحكى عن أبى طالب وغيره .

٧٣٤ - فإن قيل : كيف جمع : ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] ولم يقل: ارجعنى ، والمخاطب واحد وهو الله تعالى ؟

قلنا : هو جمع للتفخيم والتعظيم كقوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [يس:١٢] وأشباهه .

٧٣٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] وقال فى موضع آخر : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧] ؟

قلنا : يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة ، ففيه أحوال مختلفة ، ففى بعضها يتساءلون ، وفى بعضها : لا ينطقون لشدة الهول والفزع .

سورة النور

٧٣٦ – **فإن قيل**: كيف قدمت المرأة فى آية حد الزنى ، وقدم الرجال فى حد السرقة؟

قلنا : لأن الزنى إنما يتولد من شهوة الوقاع ، وشهوة المرأة أقوى وأكثر ، والسرقة إنما تتولد من الجسارة والجرأة والقوة ، وذلك فى الرجل أكثر وأقوى.

٧٣٧ – **فإن قيل** : كيف قدم الرجل فى قوله تعالى : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] ؟

قلنا : لأن الآية الأولى سبقت لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هى الأصل فى تلك الجناية لما ذكرنا ، والآية الثانية سبقت لذكر النكاح ، والرجل هو الأصل فيه عرفًا ، لأنه هو الراغب والخاطب والبادئ بالطلب ، بخلاف الزنى فإن الأمر فيه بالعكس غالبًا .

٧٣٨ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ [النور:٣] أى : لا يتزوج : ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور:٣] ونحن نرى الزانى ينكح العفيفة والمسلمة ، والزانية ينكحها العفيف والمسلم ؟

قلنا : قال عكرمة : نزلت هذه الآية في بغايا موسرات كنَّ بمكة ، وكانت بيوتهن تسمى فى الجاهلية المرضية ، وكان لا يدخل عليهن إلا زان من أهل القبلة ، أو مشرك من أهل الأوثان ، فأراد جماعة من فقراء المهاجرين أن ينكحوهن فنزلت هذه الآية رجزًا لهم عن ذلك .

٧٣٩ – **فإن قيل** : ما فائدة دخول ﴿مِنْ﴾ فى غض البصر دون حفظ الفرج فى قوله تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠] ؟

قلنا : فائدة الدلالة على أن أمر النظر أوسع من أمر الفرج ، ولهذا يحل النظر فى ذوات المحارم ، والإماء المستعرضات إلى عدة من أعضائهن ، ولا يحل شيء من فروجهن .

٧٤٠ – **فإن قيل** : ما حكمة ترك الله ذكر الأعمام والأخوال فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ يعنى الزينة الخفية : ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] الآية ، وهم من المحارم وحكمهم حكم من استثنى فى الآية ؟

قلنا : سئل الشعبى عن ذلك فقال : لئلا يصفها العم عند ابنه وهو ليس بمحرم لها ، وكذا الخال فيفضى إلى الفتنة ، والمعنى فيه أن كل من استثنى يشترك هو وابنه فى المحرمية ، إلا العم والخال ، وهذا من الدلالة البليغة على وجوب الاحتياط فى سترهن ، ولقائل أن يقول : هذه المفسدة محتملة فى آباء بعولتهن ، لاحتمال أن يذكرها أبو البعل عند ابنه الآخر ، وهو ليس بمحرم لها ، وأبو البعل أيضًا نقض على قولهم إن كل من استثنى يشترك هو وابنه فى المحرمية .

٧٤١ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣] مع أن إكراههن على الزنى حرام فى كل حال ؟

قلنا : لأن سبب نزول الآية أن الجاهلية كانوا يكرهون إماءهم على الزنى مع إرادتهن التحصن ، فورد النهى على السبب وإن لم يكن شرطًا فيه .

الثانى : أنه تعالى إنما شرط إرادة التحصن لأن الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن ، لأن الأمة إذا لم ترد التحصن فإنها تزنى بالطبع ، لأن إرادتها الجماع مستمرة فى جميع الأحوال طبعًا ، ولابد له من أحد الطريقين .

الثالث : أن ﴿إِنْ﴾ بمعنى إذا كما فى قوله تعالى : ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] وقوله تعالى : ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩] .

الرابع: أن فى الكلام تقديماً وتأخيرًا وتقديره : ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ [النور:٣٢] إن أردن تحصنًا ويبقى قوله : ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ [النور:٣٣] مطلقًا غير معلق .

٧٤٢ - **فإن قيل** : كيف مثل الله تعالى نوره : أى معرفته وهداه فى قلب المؤمن بنور المصباح فى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] ولم يمثله بنور الشمس، مع أن نورها أتم وأكمل ؟

قلنا : المراد تمثيل النور فى القلب ، والقلب فى الصدر ، والصدر فى البدن بالمصباح ، وهو الضوء أو الفتيلة فى الزجاجة ، والزجاجة فى الكوة التى لا منفذ لها ، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر .

الثانى : أن نور المعرفة له ، آلات يتوقف على اجتماعها كالذهن والفهم والعقل واليقظة وإنشراح القلب وغير ذلك من الخصال الحميدة ، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل والزيت والفتيلة ، وغير ذلك .

الثالث : أن نور الشمس يشرق متوجهًا إلى العالم السفلى لا إلى العالم العلوى ، ونور المعرفة يشرق متوجهًا إلى العالم العلوى كنور المصباح .

الرابع : أن نور الشمس لا يشرق إلا بالنهار ونور المعرفة يشرق بالليل والنهار كنور المصباح .

الخامس :أن نور الشمس يعم جميع الخلائق ، ونور المعرفة لا يصل إليه إلا بعضهم كنور المصباح الموصوف .

٧٤٣ - **فإن قيل** : إنه تعالى لم يمثله بنور الشمس لما ذكرتم فكيف لم يمثله بنور الشمع مع أنه أتم وأكمل وأشرق من نور المصباح ؟

قلنا : إنما لم يمثله بنور الشمع لأن فى الشمع غشا لا محالة بخلاف الزيت

الموصوف ، ولو مثله تعالى بنور الشمع لتطاول المنافق المغشوش إلى استحقاق نصيب فى المعرفة .

الثانى : أنه تعالى إنما لم يمثله بنور الشمع لأنه مخصوص بالأغنياء ، بخلاف نور المعرفة فإنه فى الفقراء أغلب .

٧٤٤ - **فإن قيل** : التجارة تشمل الشراء والبيع ، فما فائدة عطف البيع عليها فى قوله تعالى : ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧] ؟

قلنا : التجارة هى الشراء والبيع الذى يكون صناعة للإنسان مقصودًا به الربح ، وهو حرفة الشخص الذي يسمى تاجرًا ، والبيع أعم من ذلك وقيل المراد بالتجارة هنا مبادلة الآخرة بالدنيا كما فى قوله تعالى : ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ﴾ [البقرة:١٦] والمراد بالبيع مبادلة الدين بالدنيا كما فى قوله تعالى : ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩] وقيل : إنما عطف البيع على التجارة لأنه أراد بالتجارة الشراء إطلاقًا لاسم الجنس على النوع .

وقيل : إنما عطف عليها للتخصيص والتمييز من حيث أنه أبلغ فى الإلهاء ، لأن البيع الرابح يعقبه حصول الربح ، بخلاف الشراء الرابح فإن الربح فيه مظنون مع كونه مترقيًا منتظرًا ، وقيل : التجارة مخصوصة بأهل الجلب بخلاف البيع .

٧٤٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور:٤٥] وبعض الدواب ليس مخلوقًا من الماء كآدم عليه السلام وناقة صالح وغيرهما ؟

قلنا : المراد بهذا الماء ، الماء الذي هو أصل جميع المخلوقات ، وذلك أن الله تعالى خلق قبل خلق الإنسان جوهرة ونظر إليها نظر هيبة فاستحالت ماء،

فخلق من ذلك الماء جميع الموجودات ، وقد سبق مثل هذا السؤال فى قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء:٣٠] .

٧٤٦ – **فإن قيل** : إذا كان الجواب هذا فما فائدة تخصيص الدابة بالذكر أو تخصيص الشيء الحي ؟

قلنا : إنما خص الدابة بالذكر لأن القدرة فيه أظهر وأعجب منها فى الجماد وغيره .

٧٤٧ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور:٤٥] وهي مما لا يعقل ؟

قلنا : لما كان اسم الدابة يتناول المميز وغيره غلب المميز على غيره فأجرى عليه لفظه .

٧٤٨ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور:٤٥] وذلك إنما يسمى زحفًا مشيًا ، ولا يسمى مشيًا إلا ما كان بالقوائم ؟

قلنا : هو مجاز بطريق المشابهة ، كما يقال : مشى هذا الأمر ، وفلان لا يتمشى له أمر ، وفلان ماشى الحال .

٧٤٩ – **فإن قيل** : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان للأطفال الذين لم يبلغوا الحلم بقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ [النور:٥٨] أى من الأحرار ؟

قلنا : هو فى المعنى أمر للآباء والأمهات بتأديب الأطفال وتهذيبهم لا للأطفال .

٧٥٠ – **فإن قيل** : كيف أباح تعالى للقواعد من النساء وهن العجائز التجرد من الثياب بحضرة الرجال بقوله تعالى : ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النور:٦٠] الآية ؟

قلنا : المراد بالثياب هنا الجلباب والرداء والقناع الذى فوق الخمار لا جميع الثياب ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتِۭ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠] أى غير قاصدات بوضع الثياب الظاهرة إظهار زينتهن ومحاسنهن ، بل التخفيف ، ثم أعقبه بأن التعفف بترك الوضع خير لهن .

٧٥١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١] مع أن انتفاء الحرج عن أكل الإنسان من بيته معلوم لا شك فيه ولا شبهة ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١] أى : من بيوت أولادكم، لأن ولد الرجل بعضه وحكمه حكم نفسه ، فلهذا عبر عنه به ، وفى الحديث : " **إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه** "[1] ويؤيد ذلك أنه ذكر بيوت جميع الأقارب ولم يذكر بيوت الأولاد ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١] أى من مال أولادكم وأزواجكم الذين هم في بيوتكم ومن جملة عيالكم ، وقيل : المراد بقوله تعالى : ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور:٦١] البيوت التى يسكنونها وهم فيها عيال لغيرهم ، كبيت ولد الرجل وزوجته وخادمه ونحو ذلك .

٧٥٢ - **فإن قيل** : معنى السلام هو السلامة والأمن ، فإذا قال الرجل لغيره : السلام عليك ، كان معناه سلمت منى وأمنت ، فما معنى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] ؟

قلنا : المراد به فإذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلكم وعيالكم ، وقيل: معناه إذا دخلتم المساجد أو بيوتًا ليس فيها أحد فقولوا : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، يعنى من ربنا .

---

(١) أبو داود (٣٥٥٠) ، والترمذى (١٣٨٥) ، وصححه الألبانى .

٧٥٣ – فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور:٦٣] وإنما يقال خالف أمره ؟

قلنا : "عن" زائدة ، كذا قاله الأخفش .

الثاني : أن فيه إضمارًا تقديره، فليحذر الذين يخالفون الله تعالى ويعرضون عن أمره ، أو ضمن المخالفة معنى الإعراض فعدى تعديته .

*** *** ***

سورة الفرقان

٧٥٤ - **فإن قيل** : الخلق هو التقدير ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ﴾ [المائدة:١١٠] أى : تقدر ، فما معنى قوله تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] فكأنه تعالى قال : وقدر كل شيء فقدره تقديرا ؟

قلنا : الخلق من الله تعالى بمعنى الإيجاد والإحداث ، فمعناه : وأوجد كل شيء مقدرًا مسوى مهيأ لما يصلح له ، لا زائدًا على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ؛ ولا ناقصًا عن ذلك .

الثاني : أن معناه : وقدر له ما يقيمه ويصلحه ، أو قدر له رزقًا وأجلاً وأحوالاً تجرى عليه .

٧٥٥ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف الجنة : ﴿ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان:١٥] وهى ما كانت بعد وإنما تكون كذلك بعد الحشر والنشر ؟

قلنا : إنما قال كذلك ؛ لأن ما وعده الله تعالى فهو فى تحققه كأنه قد كان أو معناه كانت فى علم الله مكتوبة فى اللوح المحفوظ أنها جزاؤهم ومصيرهم.

٧٥٦ - **فإن قيل** : ما فائدة تأخير الهوى فى قوله تعالى : ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣] والأصل اتخذ الهوى إلهًا كما تقول : اتخذ الصنم معبودًا؟

قلنا : هو من باب تقديم المفعول الثانى على الأول للعناية به ، كما تقول علمت منطلقًا زيدًا لفضل عنايتك بانطلاقه .

٧٥٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ

يَعْقِلُونَ﴾ [الفرقان:٤٤] ؟

قلنا : قد مر مثل هـذا السؤال وجوابه فى قوله تعالى : ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون:٧٠] .

٧٥٨ - **فإن قيل** : كيف شبههم سبحانه وتعالى بالأنعام فى الضلال بقوله تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان:٤٤] مع أن الأنعام تعرف الله سبحانه وتعالى وتسبحه بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤] وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١] ؟

قلنا : المراد تشبيههم بالأنعام فى الضلال عن فهم الحق ومعرفة الله تعالى بواسطة دعوة الرسول ﷺ .

الثانى : أن المراد تشبيههم فى الضلال والعمى عن أمر الدين بالأنعام فى ضلالها وعماها عن أمر الدين .

٧٥٩ - **فإن قيل** : إن كانوا كالأنعام فى الضلال ، فكيف قال تعالى : ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤] وإن كانوا أضل من الأنعام فكيف قال تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان:٤٤] وإن كانوا كالأنعام فى الضلال وأضل منها أيضًا فكيف يجتمع الوصفان ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الفرقان:٤٤] التشبيه فى أصل الضلال لا مقداره .

والثانى : بيان لمقداره ، وقيل : المراد بالأول التشبيه فى المقدار أيضًا ، ولكن المراد بالأول طائفة وبالثانى طائفة أخرى ، ووجه كونهم أضل من الأنعام أن الأنعام تنقاد لأربابها التى تعلفها وتتعهدها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يسيء

إليها ، وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العذاب الذى هو أشد المضار والمهالك ، ولا يهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى والعذب الروى(١).

٧٦٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان:٤٨ ، ٤٩] كيف ذكر الصفة والموصوف مؤنث ولم يؤنثها كما أنثها فى قوله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [يس:٣٣] ؟

قلنا : إنما ذكرها نظرًا إلى معنى البلدة وهو البلد والمكان لا إلى لفظها .

٧٦١ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٤٨ ، ٤٩] فإنزاله موصوفًا بالطهورية ، وتعليل ذلك بالإحياء والسقى يشعر بأن الطهورية شرط فى حصول تلك المصلحة ، كما تقول : حملنى الأمير على فرس سابق لأصيد عليه الوحش وليس كذلك ؟

قلنا : وصف الطهورية ذكر إكرامًا للأناسى الذين شربهم من جملة المصالح التى أنزل لها الماء ، وإتمامًا للمنة والنعمة عليهم ، لا لكونه شرطًا فى تحقق تلك المصالح والمنافع ، بخلاف النظير فإنه قصد بكونه سابقًا الشرطية لأن صيد الوحش على الفرس لا يتم إلا بها .

٧٦٢ - **فإن قيل** : كيف خص تعالى الأنعام بذكر السقى دون غيرها من الحيوان الصامت ؟

قلنا : لأن الوحش والطير تبعد فى طلب الماء ولا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام .

---

(١) انظر الكشاف ج٢ ص ٤١٠ .

الثاني : أن الأنعام قنية الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها ، فكأن الأنعام يسقى الأنعام ، كالأنعام يسقى الأناسي ، فلذلك خصها بالذكر .

٧٦٣ - فإن قيل : كيف قدم تعالى إحياء الأرض وسقى الأنعام على سقى الأناسي؟

قلنا : لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وأنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم ومعاشهم .

الثاني : أن سقى الأرض بماء المطر سابق فى الوجود على سقى الأناسي به .

٧٦٤ - فإن قيل : ما وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٥٧] ؟

قلنا : هو استثناء منقطع تقديره : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فأنا أدله على ذلك وأهديه إليه ، وقيل تقديره : لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بإنفاق ماله فى مرضاته فليفعل ذلك .

٧٦٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان:٥٧] أى أجرا ، لأن "من" لتأكيد النفى وعمومه ، وقال فى آية أخرى : ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] فأثبت سؤال الأجر عليه ؟

قلنا : هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧] رواه مقاتل والضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما والصحيح الذى عليه المحققون أنها غير منسوخة ، بل هو استثناء من غير الجنس تقديره : لكن أذكركم المودة فى القربى .

٧٦٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤]

ولم يقل أئمة ؟

قلنا : مراعاة لفواصل الآيات ، وقيل تقديره : واجعل كل واحد منا إمامًا .

٧٦٧ - **فإن قيل :** كيف قال تعالى : ﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٧٥] وهما بمعنى واحد ويؤيده قوله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الفرقان:٦] وقوله ﷺ : "تحية أهل الجنة فى الجنة سلام "[1] ؟

قلنا : قال مقاتل المراد بالتحية سلام بعضهم على بعض أو سلام الملائكة عليهم ، والمراد بالسلام أن الله تعالى سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم.

وقيل : التحية من الملائكة أو من أهل الجنة ، والسلام من الله تعالى عليهم لقوله تعالى : ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس:٥٨] ، وقيل : التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف والسلام بالقول : وقيل : التحية الدعاء بالتعمير ، والسلام الدعاء بالسلامة فمعناه أنهم يلقون ذلك من الملائكة أو بعضهم من بعض ، أو يلقون ذلك من الله تعالى ، فيعطون البقاء والخلود مع السلامة من كل آفة .

*** *** ***

(١) أحمد (٤/ ٣٨١) .

سورة الشعراء

٧٦٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء:٤] والأعناق لا تخضع ؟

قلنا : قيل أصل الكلام : فظلوا لها خاضعين فاقتحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع ، وترك الكلام على أصله ، كقولهم ذهبت أهل اليمامة ، كان الأهل غير المذكور ، ومثله قول الشاعر :

رأت مر السنين أخذن منى كما أخذ السرار من الهلال [١]

أو لما وصفت الأعناق بالخضوع الذى هو من صفات العقلاء جمعت جمع العقلاء كقوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف:٤] ، وقيل: الأعناق رؤساء الناس ومقدموهم شبهوا بالأعناق ، كما قيل لهم : الرؤوس والنواصى والوجوه وقيل : الأعناق الجماعات، يقال : جاءنى عنق من الناس أى : جماعة وقيل إن ذلك لمراعاة الفواصل .

٧٦٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٦] فأفرده ، وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧] فثنى ؟

قلنا : الرسول يكون بمعنى المرسل فيلزم تثنيته ، ويكون بمعنى الرسالة التى هى المصدر فيوصف به الواحد والاثنان والجماعة كما يوصف بسائر المصادر ، والدليل على أنه يكون بمعنى الرسالة قول الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسولي [٢]

---

(١) البيت لجرير .

(٢) البيت لكثير غيره .

أى برسالة .

الثانى : أنهما لاتفاقهما فى الأخوة والشريعة والرسالة كنفس واحدة .

الثالث : أن تقديره ، إن كل واحد منا رسول رب العالمين .

الرابع : أن موسى عليه السلام كان الأصل ، وهارون عليه السلام كان تبعًا له، فأفرد إشارة إلى ذلك .

٧٧٠ - **فإن قيل** : كيف قال موسى عليه السلام معتذرًا عن قتل القبطى : ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠] والنبى لا يكون ضالاً ؟

قلنا : أراد به وأنا من الجاهلين ، وكذا قراءة ابن مسعود رضى الله عنه .

وقيل أراد من المخطئين ، لأنه ما تعمد قتله كما يقال : ضل عن الطريق إذا عدل عن الصواب إلى الخطأ ، وقيل من الناسين كقوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢] .

٧٧١ - **فإن قيل** : كيف قال فرعون : ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣] ولم يقل : ومن رب العالمين؟

قلنا : هو كان أعمى القلب عن معرفة الله سبحانه وتعالى منكرًا لوجوده فكيف ينكر عليه العدول عن "من" إلى "ما" .

الثانى : أن "ما" لا تختص بغير المميز بل تطلق عليهما ، قال الله تعالى : ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] وقال تعالى : ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] .

٧٧٢ - **فإن قيل** : كيف قال موسى عليه السلام : ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] علق كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما بشرط كون فرعون وقومه موقنين ، وهذا الشرط منتف

والربوبية ثابتة فكيف صح التعليق ؟

قلنا : معناه إن كنتم موقنين أن السموات والأرض وما بينهما موجودات وهذا الشرط موجود .

الثاني : أن "إن" نافية لا شرطية .

٧٧٣ - **فإن قيل** : كيف ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب ذكر المخلوقات كلها ، فما فائدة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦]، وقوله : ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء:٢٨] ؟

قلنا : أعاد ذكرها تخصيصًا لها وتمييزًا ، لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والنقل من هيئة وحال إلى حال من وقت ولادته إلى وقت وفاته ، ثم خص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحدهما وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستو من أظهر ما يستدل به على وجود الصانع ، ولظهوره انتقل خليل الله صلوات الله عليه وسلامه إلى الاحتجاج به عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة : ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] .

٧٧٤ - **فإن قيل** : كيف قال أولا : ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] وقال آخرًا : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]؟

قلنا : لاينهم ولاطفهم أولاً ، فلما رأى عنادهم وإصرارهم خاشنهم وعرض قوله : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] بقوله : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُون﴾ [الشعراء:٢٨] .

٧٧٥ - **فإن قيل** : قوله : "لأسجننك" أخصر من قوله : ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء:٢٩] فكيف عدل عنه ؟

قلنا : كان مراده تعريف العهد ، فكأنه قال : لأجعلنك واحدًا ممن عرفت حالهم فى سجنى ، وكان إذا سجن إنسانًا طرحه فى هوة عميقة جدًا مظلمة وحده لا يبصر فيها ولا يسمع ، فكان ذلك أوجع من القتل وأشد نكاية .

٧٧٦ - فإن قيل : قصة موسى عليه السلام مع فرعون والسحرة ذكرت فى سورة الأعراف ثم سورة طه ثم فى هذه السورة ، فما فائدة تكرارها وتكرار غيرها من القصص ؟

قلنا : فائدته تأكيد التحدى وإظهار الإعجاز ، كما أن المبارز إذا خرج من الصف قال : "نزل نزال ، هل من مبارز هل من مبارز؟ " مكررًا ذلك ، يقال : ولهذا سمى الله تعالى القرآن مثانى لأنه ثنيت فيه الأخبار والقصص .

الثانى: أن أصحاب النبى ﷺ كان بعضهم حاضرين وبعضهم غائبين فى الغزوات ، وكانوا يحبون حضور مهبط الوحى ، وكانوا إذا رجعوا من غزوهم أكرمهم الله تعالى فى بعض الأوقات بإعادة الوحى تشريفًا لهم وتفضيلاً .

٧٧٧ - فإن قيل : كيف كرر الله تعالى ذكر قصة موسى عليه السلام أكثر من قصص غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟

قلنا : لأن أحواله كانت أشبه بأحوال النبى ﷺ من أحوال غيره منهم فى إقامته الحجج وإظهاره المعجزات لأهل مصر وإصرارهم على تكذيبه والجفاء عليه كما كان حال النبى ﷺ مع أهل مكة .

٧٧٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء:٦١] والترائى تفاعل من الرؤية، فيقتضى وجود رؤية كل جمع الجمع الآخر ، والمنقول أنهم لم ير بعضهم بعضا ، فإن الله تعالى أرسل غيمًا أبيض فحال بين العسكرين حتى منع رؤية بعضهم بعضًا ؟

قلنا: الترائى يستعمل بمعنى التدانى والتقابل أيضًا ، كما قال ﷺ : "المؤمن

والكافر لا يتراءيان" أى لا يتدانيان ، ويقال : دورنا تتراءى : أى تتقارب وتتقابل .

٧٧٩ – **فإن قيل** : كيف قال : ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [الشعراء:٨٠] ولم يقل : وإذا أمرضنى ، كما قال قبله: ﴿خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ؟

قلنا : لأنه كان فى معرض الثناء على الله تعالى وتعديد نعمه ، فأضاف إليه الخير المحض حفظًا للأدب ، وإن كان الكل مضافًا إليه ، ونظيره قول الخضر عليه السلام : ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢] .

٧٨٠ – **فإن قيل** : هذا الجواب يبطل قوله : ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ [الشعراء:٦١] وبقول الخضر : ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ [الكهف:٨١] ؟

قلنا : إنما أضاف الموت إلى الله تعالى لأنه سبب لقائه إياه وانتقاله إلى دار كرامته ، فكان نعمة من هذا الوجه ، وقيل : إنما أضاف المرض إلى نفسه، لأن أكثر الأمراض تحدث بتفريط الإنسان فى مطاعمه ومشاربه .

٧٨١ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى:﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء:٨٨] والمال الذى أنفق فى طاعة الله تعالى وسبيله ينفع ، والولد الصالح ينفع ، والولد الذى مات صغيرًا يشفع ، وشواهد ذلك كثيرة من الكتاب والسنة خصوصًا قوله : ﷺ "**إذا مات ابن آدم ينقطع عمله إلا من ثلاث**" الحديث [١]؟

قلنا : المراد بالآية أنهما لا ينفعان غير المؤمن ، فإنه هو الذى يأتى بقلب سليم من الكفر ، أو المراد بهما مال لم ينفق فى طاعة الله تعالى وولد بالغ غير صالح .

---

(١) الترمذى (١٣٧٦) ، والنسائى (٣٥٦١) وصححه الألباني .

٧٨٢ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:٩٠] أي قربت ، والجنة لا تنقل من مكانها ولا تحول ؟

قلنا : فيه قلب معناه : وأزلفت المتقون إلى الجنة ، كما يقول الحجاج إذا دنوا إلى مكة قربت مكة منا ، وقيل معناه : أنها كانت محجوبة عنهم ، فلما رفعت الحجب بينهم وبينها كان ذلك تقريبًا لها .

٧٨٣ - فإن قيل : كيف جمع الشافع ووحد الصديق في قوله : ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠، ١٠١] ؟

قلنا : لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق ، ولهذا روى أن بعض الحكماء سئل عن الصديق ، فقال : هو اسم لا معنى له ، أراد بذلك عزة وجوده ، ويجوز أن يراد بالصديق الجمع كالعدو .

٧٨٤ - فإن قيل : كيف قرن بين الأنعام والبنين في قوله : ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء:١٣٣]؟

قلنا : لأن الأنعام كانت من أعز أموالهم عندهم ، وكان بنوهم هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها ، فلهذا قرن بينهما .

٧٨٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أخصر في قوله : ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦] فكيف عدل عنه ؟

قلنا : مرادهم سواء علينا أفعلت هذا الفعل أم لم تكن من أهله أصلاً ، وهذا أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولهم أو لم تعظ .

٧٨٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ۝ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الشعراء:١٥٧، ١٥٨] كيف أخذهم العذاب بعد ما ندموا على جنايتهم ، وقد قال ﷺ : "الندم توبة"[1] ؟

(١) أحمد (٣٣٨٧) ، وابن ماجه (٤٢٤٢) بإسناد صحيح ، وصححه الألباني .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : ندموا حين رأوا العذاب ، وذلك ليس وقت التوبة كما قال الله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [النساء:١٨] الآية، وقيل : كان ندمهم ندم خوف من العذاب العاجل لا ندم توبة فلذلك لم ينفعهم .

٧٨٧ - **فإن قيل** : كيف طلب لوط عليه السلام تنجيته من اللواطة بقوله : ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٩] واللواطة كبيرة ، والأنبياء معصومون من الكبائر ؟

قلنا : مراده رب نجنى وأهلى من عقوبة عملهم أو من شؤمه ،والدليل على ذلك ضمه أهله إليه فى الدعاء ، واستثناء الله تعالى امرأته من قبول الدعوة .

٧٨٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى قصة شعيب عليه السلام : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء:١٧٧] ولم يقل : أخوهم، كما قال تعالى فى حق غيره هنا ، وكما قال فى حقه فى موضع آخر؟

قلنا : لأنه هنا ذكر مع أصحاب الأيكة وهو لم يكن منهم ، وإنما كان من نسل مدين ، كذا قال مقاتل ، وفى الحديث أن شعيبًا عليه السلام أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة ، وقال ابن جرير الطبرى : أهل مدين هم أصحاب الأيكة ، فعلى هذا يكون حذف الأخ تخفيفًا .

٧٨٩ - **فإن قيل** : ما الفرق بين حذف الواو فى قصة صالح عليه السلام وإثباتها فى قصة شعيب فى قولهم : ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٥٤] ، ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٨٦] ؟

قلنا : الفرق بينهما أنه عند إثبات الواو المقصود معنيان كلاهما منافٍ للرسالة عندهم التسخير والبشرية ، وعند حذف الواو المقصود معنى واحد مناف لها وهو كونه مسخر ثم قرروا التسخير بالبشرية ، كذا أجاب الزمخشرى

رحمه الله .

٧٩٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف الكهنة والمتنبئة كشقّ وسطيح ومسيلمة : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣] بعد ما قضى عليهم أن كل واحد منهم أفاك أثيم ، والأفاك الكذاب ، والأثيم الفاجر ، ويلزم من هذا أن يكون كلهم كذابين ؟

قلنا : الضمير فى قوله : ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾ [الشعراء:٢٢٣] عائد إلى الشياطين لا إلى كل أفاك .

*** *** ***

سورة النمل

٧٩١ – **فإن قيل** : ما فائدة تنكير الكتاب فى قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل:١] ؟

قلنا : فائدته التفخيم والتعظيم كقوله تعالى : ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر:٥٥] .

٧٩٢ – **فإن قيل** : العطف يقتضى المغايرة ، فكيف عطف الكتاب المبين على القرآن والمراد به القرآن ؟

قلنا قيل : بل إن المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ ، فعلى هذا لا إشكال وعلى القول الآخر فنقول العطف يقتضى المغايرة مطلقًا إما لفظًا وإما معنى بدليل قول الشاعر :

فألفى قولها كذبًا ومينا

وقولهم : جاءنى الفقيه والظريف ، والمغايرة لفظا ثابتة .

٧٩٣ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [النمل:٤] وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [النمل:٢٤] ؟

قلنا : تزيين الله تعالى لهم الأعمال بخلقه الشهوة والهوى وتركيبها فيهم، وتزيين الشيطان بالوسوسة والإغواء والغرور والتمنية ، فصحت الإضافتان .

٧٩٤ – **فإن قيل** : كيف قال هنا : ﴿ سَـَٔاتِيكُم ﴾ [النمل:٧] وقال فى سورة طه : ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه:١٠] وأحدهما قطع والآخر ترج والقصة واحدة ؟

قلنا : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه سأفعل كذا ، وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة .

٧٩٥ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل:٨] مع أنه لم يكن فى النار أحد ، بل لم بكن المرئى نارًا ، وإنما كان نورًا فى قول الجمهور ، وقيل كان نارًا ثم انقلب نورًا ؟

قلنا : قال ابن عباس والحسن رضى الله عنهما : معناه قدس من ناداه من النار وهو الله عز وجل ، لا على معنى أن الله تعالى يحل فى شىء ، بل على معنى أنه أسمعه النداء من النار فى زعمه .

الثانى : أن من زائدة ، والتقدير : بورك فى النار وفيمن حولها ، وهو موسى عليه السلام والملائكة .

الثالث : أن معناه بورك من فى طلب النار ، وهو موسى عليه السلام .

٧٩٦ - **فإن قيل** : إنما يقال بارك الله على كذا ، ولا يقال بارك الله كذا ؟

قلنا : قال الفراء ، العرب تقول : باركه الله وبارك فيه وبارك عليه بمعنى واحد، ومنه قوله تعالى : ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الصافات:١١٣] ولفظ التحيات ، وبارك على محمد وعلى آل محمد .

٧٩٧ - **فإن قيل** : ما وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى : ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل:١٠، ١١] الآية ؟

قلنا : فيه وجوه ، **أحدها** : أنه استثناء منقطع بمعنى لكن .

الثانى : أنه استثناء متصل ، كذا قاله الحسن وقتادة ومقاتل رحمهم الله ومعناه : إلا من ظلم منهم بارتكاب الصغيرة كآدم ويونس وداود وسليمان وإخوة يوسف وموسى وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم ، فإنه يخاف مما

فعل مع علمه أنى غفور رحيم ، فيكون تقدير الكلام ، إلا من ظلم منهم فإنه يخاف فمن ظلم ثم بدل حسنًا بعد سوء فإنى غفور رحيم ، ولهذا قال بعضهم : إن هنا وقفًا على قوله : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وابتداء الكلام الثانى محذوف كما قدرنا .

الثالث : أن "إلا" بمعنى ولا كما فى قوله تعالى : ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [االبقرة:١٥٠] أى ولا الذين ظلموا منهم .

الرابع : أن تقديره : أنى لا يخاف لدى المرسلون ولا غير المرسلين : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ الآية .

٧٩٨ - فإن قيل : كيف قال سليمان عليه السلام : ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا﴾ [النمل:١٦] بنون العظمة وهو من كلام المتكبرين ؟

قلنا : لم يرد به نون العظمة ، وإنما أراد به نون الجمع وعنى نفسه وأباه .

الثانى : أنه كان ملكًا مع كونه نبيًا فراعى سياسة الملك وتكلم بكلام الملوك.

٧٩٩ - فإن قيل : كيف حل له تعذيب الهدهد حتى قال : ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل:٢١]؟

قلنا : لعل ذلك أبيح له خاصة كما خص بفهم منطق الطير وتسخيره له وغير ذلك .

٨٠٠ - فإن قيل : كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان عليه السلام حتى قال : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل:٢٣]؟

قلنا : يجوز أنه استصغر حالها بالنسبة إلى حال سليمان ، فاستعظم لها ذلك العرش .

الثانى : أنه يجوز أن لا يكون لسليمان مثله وإن عظمت مملكته فى كل شىء كما يكون لبعض الأمراء شىء لا يكون للملك مثله .

٨٠١ - **فإن قيل** : كيف قال الهدهد : ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] مع قول سليمان صلوات الله وسلامه عليه : ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦] فكأنه سوى بينهما ؟

قلنا : بينهما فرق ، وهو أن الهدهد أراد به ، وأتيت من كل شىء أسباب الدنيا ، لأنه عطف على الملك ، وسليمان أراد به وأوتينا من كل شىء من أسباب الدين والدنيا ويؤيد ذلك عطفه على المعجزة وهى منطق الطير .

٨٠٢ - **فإن قيل** : كيف سوى الهدهد بين عرشها وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظم حتى قال : ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] وقال : ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٦] ؟

قلنا : بين الوصفين بون عظيم لأنه وصف عرشها بالعظم بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك ، ووصف عرش الله تعالى بالعظم بالنسبة إلى ما خلق من السموات والأرض وما بينهما .

٨٠٣ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨] إذا تولى عنهم ، فكيف يعلم جوابهم ؟

قلنا : معناه ثم تول عنهم مستترًا من حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون .

الثانى : أن فيه تقديماً وتأخيرًا تقديره : فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم .

٨٠٤ - **فإن قيل** : كيف استجار سليمان عليه السلام تقديم اسمه فى الكتاب على اسم الله تعالى حتى كتب فيه : ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل:٣٠]؟

قلنا : لأنه عرف أنها لا تعرف الله تعالى وتعرف سليمان فخاف أن تستخف باسم الله تعالى إذا كان أول ما يقع نظرها عليه ، فجعل اسمه وقاية لاسم الله تعالى .

وقيل : إن اسم سليمان كان على عنوانه ، واسم الله تعالى كان فى أول طيه .

٨٠٥ - **فإن قيل** : كيف يجوز أن يكون آصف وهو كاتب سليمان عليه السلام ووزيره وليس بنبى يقدر على ما لا يقدر عليه النبى ، وهو إحضار عرش بلقيس فى طرفة عين ؟

قلنا : يجوز أن يخص غير الرسول بكرامة لا يشاركه فيها الرسول ، كما خصت مريم بأنها كانت ترزق من فاكهة الجنة وزكريا لم يرزق منها ، وكما أن سليمان صلوات الله عليه خرج مع قومه يستسقون فرأى نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تستسقى ، فقال لقومه : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم ، ولم يلزم من ذلك فضلها على سليمان ، وقد نقل أن النبى ﷺ كان إذا أراد الخروج إلى الغزوات قال لفقراء المهاجرين والأنصار ، **"ادعوا لنا بالنصرة ، فإن الله تعالى ينصرنا بدعائكم"** ، ولم يكونوا أفضل منه ﷺ مع أن كرامة التابع من جملة كرامات المتبوع ، قالوا : والعلم الذى كان عنده هو اسم الله الأعظم ، فدعا به فأجيب فى الحال ، وهو عند أكثر العلماء كما قال البندنيجي اسم الله ثم ، قيل : هو يا حي يا قيوم ، وقيل : يا ذا الجلال والإكرام، وقيل : يا الله يا رحمن ، وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء إلهًا واحدًا لا إله إلا أنت ، فمن أخلص النية ودعا بهذه الكلمات مع استجماع شرائط الدعاء المعروفة فإنه يجاب لا محالة .

٨٠٦ - **فإن قيل** : كيف قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤] وهى إنما أسلمت بعده على يده لا معه ، لأنه كان مسلمًا قبلها ؟

قلنا : إنما عدلت عن تلك العبارة إلى هذه لأنها كانت ملكة ، فلم تر أن تذكر عبارة تدل على أنها صارت مولاة له بإسلامها على يده وإن كان الواقع كذلك .

٨٠٧ - **فإن قيل** : كيف يكونون صادقين وقد جحدوا ما فعلوا ، فأتوا بالخبر على خلاف المخبر عنه ؟

قلنا : كأنهم اعتقدوا أنهم إذا أجمعوا بين البيانين ثم قالوا : ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ [النمل:٤٩] يعنون ما شهدناه وحده كانوا صادقين ، لأنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله .

٨٠٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] ونحن نعلم الجنة والنار وأحوال القيامة وكلها غيب؟

قلنا : معناه لا يعلم الغيب بلا دليل إلا الله أو بلا معلم إلا الله ، أو جميع الغيب إلا الله ، وقيل معناه : لا يعلم ضمائر السموات والأرض إلا الله .

٨٠٩ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النمل:٦٦] أو أدرك على اختلاف القراءتين ، هل مرجع الضمير فيه وفيما قبله واحد أم لا ، وكيف مطابقة الإضراب لما قبله ، ومطابقته لما بعده من الإضرابين ، وكيف وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى ؟

قلنا : مرجع الضمير فى قوله تعالى : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ هو الكفار فقط ، وفيما قبله جميع من فى السموات والأرض ، كقوله تعالى : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ معناه بل تتابع وتلاحق واجتمع كقوله تعالى : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف:٣٨] وأصله تدارك، فأدغم التاء فى الدال ، وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ﴾ معناه بل كمل وانتهى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما: يريد ما جهلوه فى

الدنيا علموه فى الآخرة ، وقال السدى : يريد اجتمع علمهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا، وقال مقاتل: يريد علموا فى الآخرة ما شكوا فيه وعموا عنه فى الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ [النمل:٦٦] معناه بل هم اليوم فى شك من الساعة : ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل:٦٦] جمع عم وهو أعمى القلب، ومطابقة الإضراب الأول لما قبله أن الذين لا يشعرون وقت البعث لما كانوا فريقين ، فريق منهم لا يعلمون وقت البعث مع علمهم أنه يوجد لا محالة وهم المؤمنون ، وفريق منهم لا يعلمون وقته لإنكارهم أصل وجوده أفرد الفريق الثانى بالذكر بقوله تعالى : ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ تأكيدًا لنفى علمهم فى الدنيا ، كأنه تعالى قال : بل فريق منهم لا يعلمون شيئًا من أمر البعث فى الدنيا أصلاً ، ثم أضرب عن الإخبار بتتابع علمهم وتلاحقه بحقيقة البعث فى الآخرة إلى الإخبار عن شكهم فى الدنيا فى أمر البعث والساعة مع قيام الأدلة الشرعية على وجودها لا محالة ، وأما وصفهم بنفى الشعور ثم بكمال العلم ثم بالشك ثم بالعمى فلا تناقض فيه ، لاختلاف الأزمنة ، أو لاختلاف متعلقات تلك الأمور الأربعة ، وهى الشعور والعلم والشك والعمى .

٨١٠ – **فإن قيل** : قضاء الله تعالى وحكمه واحد فما معنى قوله : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ [النمل:٧٨] وهو بمنزلة قوله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ بقضائه أو يحكم بينهم بحكمه ؟

قلنا : معناه بما يحكم به وهو عدله المعروف المألوف ، لأنه لا يقضى إلا بالحق وبالعدل ، فسمى المحكوم به حكمًا ، وقيل معناه : بحكمته ، ويدل عليه قرءة من قرأ بحكمه جمع حكمة .

٨١١ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل:٨٦] ولم يراع المقابلة بقوله تعالى : ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فيه؟

قلنا : راعى المقابلة المعنوية دون اللفظية ، لأن معنى مبصرًا ليبصروا فيه ، وقد سبق ما يشبه هذا فى قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩] .

٨١٢ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل:٨٦] مع أن فى ذلك علامات على وحدانية الله تعالى لجميع العقلاء ؟

قلنا : إنما خصهم بالذكر لأنهم هم المنتفعون بها دون غيرهم .

٨١٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل:٨٧] ولم يقل : فيفزع وهو أظهر مناسبة ؟

قلنا : أراد بذلك الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة ، لأن الفعل الماضى يدل على الثبوت والتحقيق قطعًا .

٨١٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] أى : صاغرين أذلاء بعد البعث ، مع أن النبيين والصديقين والشهداء يأتونه عزيزين مكرمين؟

قلنا : المراد به صغار العبودية والرق وذلها لا ذلّ الذنوب والمعاصى ، وذلك يعم الخلق كلهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] .

❊❊ ❊❊ ❊❊

سورة القصص

٨١٥ - فإن قيل : ما فائدة وحى الله تعالى إلى أم موسى عليه السلام بإرضاعه وهى ترضعه طبعًا سواء أمرت بذلك أم لا ؟

قلنا : أمرها بإرضاعه ليألف لبنها فلا يقبل ثدى غيرها بعد وقوعه فى يد فرعون ، فإن لم يأمرها بإرضاعه ربما كانت تسترضع له مرضعة فيفوت ذلك المقصود .

٨١٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي﴾ [القصص:٧] والشرط الواحد إذا تعلق به جزاءان صدق مع كل واحد منهما وحده ، فيقول هذا إلى صدق قوله : فإذا خفت عليه فلا تخافى ، وأنه يشبه التناقض ؟

قلنا : معناه فإذا خفت عليه من القتل فألقيه فى اليم ، ولا تخافى عليه من الغرق ، ولا تناقض بينهما .

٨١٧ - فإن قيل : ما الفرق بين الخوف والحزن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص:٧] ؟

قلنا : الخوف غم يصيب الإنسان لأمر يتوقعه فى المستقبل ، والحزن غم يصيبه لأمر قد وقع ومضى .

٨١٨ - فإن قيل : كيف جعل موسى عليه السلام قتله القبطى الكافر من عمل الشيطان ، وسمى نفسه ظالمًا واستغفر منه ؟

قلنا : إنما جعله من عمل الشيطان لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى قتله ، فكان ذلك ذنبًا يستغفر منه مثله ، قال ابن جريج : ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر .

٨١٩ - **فإن قيل** : إن موسى عليه السلام ما سقى لابنتى شعيب عليه السلام طلبًا للأجر ، فكيف أجاب دعوتها لما قالت : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص:٢٥] ؟

قلنا : يجوز أن يكون قد أجاب دعوتها ودعوة أبيها لوجه الله تعالى على سبيل البر والمعروف ابتداء لا على سبيل الإجزاء وإن سمته هى أجزاء ، ويؤيد هذا ما روى أنه لما قدم إليه الطعام امتنع وقال : إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بطلاع الأرض ذهبًا ، ولا نأخذ على المعروف أجرًا حتى قال له شعيب عليه السلام : هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا .

٨٢٠ - **فإن قيل** : كيف قال له شعيب عليه السلام : ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ﴾ [القصص:٢٧] ومثل هذا النكاح لا يصح لجهالة المنكوح ، والنبى عليه السلام لا ينكح نكاحًا فاسدًا ولا يُعتد به؟

قلنا : إنما كان ذلك وعدًا بنكاح معينة عند الواعد وإن كانت مجهولة عند الموعود ومثله جائز ، ويكون التعيين عند إنجاز الوعد كما وقع منه .

٨٢١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص:٣٢] فجعل الجناح هنا مضمومًا وقال فى سورة طه : ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه:٢٢] فجعل الجناح هناك مضمومًا إليه والقصة واحدة ؟

قلنا : المراد بالجناح المضموم هنا هو اليد اليمنى ، والمراد بالجناح المضموم إليه فى سورة طه ما بين العضد إلى الإبط من اليد اليسرى فلا تناقض بينهما.

٨٢٢ - **فإن قيل** : ما معنى قوله تعالى : ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص:٣٢] ؟

قلنا : لما رهب من الحية أمره الله تعالى أن يضم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع ، وإنما قال تعالى : ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص:٣٢] لأنه جعل الرهب الذى أصابه علة وسببًا لما أمر به من ضم الجناح ، قال مجاهد : كل من فزع من شىء فضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع ، وقيل : حقيقة ضم الجناح غير مرادة ، بل هو مجاز عن تسكين الروع وتثبيت الجأش ، قال أبو على : لم يرد به الضم بين شيئين، وإنما أمر بالعزم والجدّ فى الإتيان بما طلب منه " ومثله قولهم : .

اشدد حيازيمك للموت ....

فليس فيه شد حقيقة .

وقيل : فى الآية تقديم وتأخير تقديره ، ولّى مدبرًا من الرهب .

٨٢٣ – فإن قيل : أى فائدة فى تصديق هارون لموسى عليهما السلام حتى قال : ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص:٣٤] ؟

قلنا : ليس مراده بقوله ﴿رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أن يقول له : صدقت فى دعوى الرسالة فإن ذلك لا يفيده عند فرعون وقومه الذين كانوا لا يصدقونه مع وجود تلك الآية الباهرة والمعجزات الظاهرة ، بل مراده أن يلخص حججه بلسانه ، ويبسط القول فيها ببيانه ، ويجادل عنه بالحق ، فيكون ذلك سببًا لتصديقه ، ألا ترى إلى قوله : ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ [القصص:٣٤] وفضل الفصاحة إنما يحتاج إليه لما قلنا لا لقوله : صدقت ، فإن سحبان وائل وباقلا فى ذلك سوء .

٨٢٤ – فإن قيل : وقوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ [القصص:٤٤] أى أحكمنا إليه الوحى مغن عن قوله تعالى : ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤] أى من الحاضرين عند ذلك ؟

قلنا : معناه ومنا كنت من الشاهدين قصته مع شعيب عليه السلام

فاختلفت القضيتان .

٨٢٥ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ وكم رأينا من الظالمين بالكفر والكبائر من قد هداه الله للإسلام والتوبة ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة المائدة .

٨٢٦ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ [القصص:٦٤] وإنما يرى العذاب من كان ضالاً لا مهتديًا ؟

قلنا : جواب لو محذوف تقديره ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون لما اتبعوهم أو لما رأوا العذاب .

٨٢٧ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى آخر آية الليل : ﴿ بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] وقال فى آخر آية النهار : ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] ؟

قلنا : السماع والأبصار المذكوران لا تعلق لهما بظلمة الليل ولا بضياء النهار، فلذلك لم يقرن الإبصار بالضياء ، وبيانه أن معنى الآيتين أفلا يسمعون القرآن سماع تأمل وتدبر فيستدلوا بما فيه من الحجج على توحيد الله تعالى ، أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة .

٨٢٨ – **فإن قيل** : كيف وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى:﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦]؟

قلنا : قال الفراء ، هو استثناء منقطع تقديره رحمة من ربك ، أى : للرحمة .

*** *** ***

سورة العنكبوت

٨٢٩ – فإن قيل : قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [العنكبوت:١٢] ثم قال : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣] ؟

قلنا : معناه وما الكافرون بحاملين شيئًا من خطايا المؤمنين التى ضمنوا حملها ، وليحملن الكافرون أثقال أنفسهم وهى ذنوب ضلالهم ، وأثقالاً مع أثقالهم وهى ذنوب إضلالهم غيرهم من الكفار ، لا خطايا المؤمنين التى نفى عنهم حملها ، وقد سبق نظير هذا فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤] فى سورة الأنعام وفى سورة بنى إسرائيل.

٨٣٠ – فإن قيل : ما فائدة العدول فى قوله: "تسعمائة وخمسين عامًا" إلى قوله : ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤] مع أن عادة أهل الحساب هو اللفظ الأول ؟

قلنا : لما كانت القصة مسوقة لتسلية النبى ﷺ بذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته وكابده من طول مصابرتهم ، كان ذكر أقصى العدد الذى لا عقد أكثر منه فى مراتب العدد أفخم وأعظم إلى الغرض المقصود ، وهو استطالة السامع مدة صبره ، وفيه فائدة أخرى وهى نفى وهم إرادة المجاز بإطلاق لفظ التسعمائة والخمسين على أكثرها ، فإن هذا الوهم مع ذكر الألف والاستثناء منتف أو هو أبعد .

٨٣١ – فإن قيل : كيف جاء المميز أولاً بلفظ السنة والثانى بلفظ العام ؟

قلنا : لأن تكرار اللفظ الواحد مجتنب فى مذهب الفصحاء والبلغاء إلا أن يكون لغرض تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك .

٨٣٢ - فإن قيل : كيف نكر الرزق ثم عرفه فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ﴾ [العنكبوت:١٧]؟

قلنا : لأنه أراد أنهم لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئًا من الرزق فابتغوا عند الله الرزق كله ، فإنه هو الرازق وحده لا يرزق غيره .

٨٣٣ - فإن قيل : كيف أضمر اسمه تعالى فى قوله عز وجل : ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠] ثم أظهره فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [العنكبوت:٢٠] وكان القياس كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة ؟

قلنا : إنما عدل إلى ما ذكر لتأكيد الإخبار عن الإعادة التى كانت هى المنكرة عندهم بالإفصاح باسمه تعالى فى ذكرها وجعله مبتدأ لزيادة الاهتمام بشأنها .

٨٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت:٢٧] فى معرض المدح أو فى معرض الامتنان عليه ، وأجر الدنيا فانٍ منقطع ، بخلاف أجر الآخرة فإنه النعيم المقيم الباقى، فكان الأولى بالذكر ؟

قلنا : المراد به ، وآتيناه أجره فى الدنيا مضمونًا إلى أجره فى الآخرة من غير أن ينقص من أجر الآخرة شيئًا ، قال ابن جرير : وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧] يعنى له فى الآخرة جزاء الصالحين ، وافيًا كاملاً ، وأجره فى الدنيا ، قيل : هو الثناء الحسن من الناس والمحبة من أهل الأديان ، وقيل : هى البركة التى بارك الله فيها ذريته .

٨٣٥ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] يعنون مدينة قوم لوط عليه السلام ، ولم يقولوا تلك القرية ، مع

أن مدينة قوم لوط كانت بعيدة عن موضع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه غائبة عند وقت هذا الخطاب ؟

قلنا : إنما قالوا هذه القرية لأنها كانت قريبة حاضرة بالنسبة إليهم وإن كانت بعيدة بالنسبة إلى إبراهيم ﷺ .

٨٣٦ - فإن قيل : كيف قالوا : ﴿أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] ولم يقولوا : أهل هذه القرى ، مع أن مدائن قوم لوط كانت خمسًا فأهلكوا منها أربعًا؟

قلنا : إنها اقتصروا فى الذكر على قرية واحدة لأنها كانت أكبر وأقرب وهى سدوم مدينة لوط عليه السلام ، فجعلوا ما وراءها تبعًا لها فى الذكر .

٨٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٨] أى ذوى بصائر ، يقال : فلان مستبصر ، إذا كان عاقلاً لبيبًا صحيح النظر ، ولو كانوا كذلك لما عدلوا عن طريق الهدى إلى طريق الضلال ؟

قلنا : معناه وكانوا مستبصرين فى أمور الدنيا ، وقيل : معناه وكانوا عارفين الحق بوضوح الحجج والدلائل ولكنهم كانوا ينكرونه متابعة للهوى لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وقيل : معناه وكانوا مستبصرين لو نظروا نظر تدبر وتفكر .

٨٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٤١] وكل أحد يعلم أن أضعف بيوت يتخذها الهوام بيت العنكبوت ؟

قلنا : معناه لو كانوا يعلمون أن اتخاذهم الأصنام أولياء من دون الله مثل اتخاذ العنكبوت بيتًا لما اتخذوها .

٨٣٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦] وكل أهل الكتاب ظالمون لأنهم كافرون، ولا ظلم أشد من الكفر ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] ؟

قلنا : المراد بالظلم هنا الامتناع عن قبول عقد الذمة وأداء الجزية أو نقض العهد بعد قبوله .

الثانى : أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة:٢٩] الآية .

٨٤٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت:٤٨] ؟

قلنا : فائدته تأكيد النفى ، كما يقال فى الإثبات للتأكيد ، هذا الكتاب مما كتبه فلان بيده وبيمينه ، ورأيت فلانًا بعينى ، وسمعت هذا الحديث بأذنى ونحو ذلك .

٨٤١ - فإن قيل : كيف لم يؤكد سبحانه وتعالى فى التلاوة ولم يقل : وما كنت تتلو من قبله من كتاب بلسانك ؟

قلنا : الأصل فى الكلام عدم الزيادة ، وكل ما جاء على الأصل لا يحتاج إلى العلة إنما يحتاج إلى العلة ما جاء على خلاف الأصل .

٨٤٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩] ومعلوم أن المجاهدة فى دين الله تعالى أو فى حق الله تعالى مع النفس الأمارة بالسوء أو مع الشيطان أو مع أعداء الدين ، كل ذلك إنما يكون بعد تقدم الهداية من الله تعالى ، فكيف جعل الهداية من ثمرات المجاهدة ؟

قلنا : معناه والذين جاهدوا فى طلب التعلم لنهدينهم سبلنا بمعرفة الأحكام وحقائقها ، وقيل : معناه لنهدينهم طريق الجنة ، وقيل : معناه والذين جاهدوا لتحصيل درجة لنهدينهم إلى درجة أخرى أعلى منها ، وحاصله لنزيدنهم هداية وتوفيقًا للخيرات كقوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى﴾ [محمد:١٧] وقوله تعالى : ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدًى﴾ [مريم:٧٦] وقال أبو سليمان الدارانى رحمة الله عليه : معناه والذين جاهدوا فيما عملوا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا ، وعن بعض الحكماء : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم ، وقيل : إن الذى نرى من جهلنا بما لا نعلم هو من تقصيرنا فيما نعلم .

*** *** ***

سورة الروم

٨٤٣ - فإن قيل : كيف ذكر الضمير فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] والمراد به الإعادة لسبق قوله : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم:٢٧] ؟

قلنا : معناه : ورجعه أو رده أهونُ عليه ، فأعاد الضمير على المعنى لا على اللفظ كما فى قوله تعالى: ﴿لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الفرقان:٤٩] أى: بلدًا أو مكانًا.

٨٤٤ - فإن قيل : كيف أخرت الصلة فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] وقدمت فى قوله تعالى : ﴿هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [مريم:٢١] ؟

قلنا : لأن هناك قصد الاختصاص وهو يحسن الكلام ، فقيل : هو على هين وإن كان مستصعبًا عندكم أو يولد بين هم وعاقر ، وأما هنا فلا معنى للاختصاص فجرى على أصله ، والأمر مبنى على ما يعقل الناس من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى .

٨٤٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] والأفعال كلها بالنسبة إلى قدرة الله تعالى فى السهولة سواء ، وإنما تتفاوت فى السهولة والصعوبة بالنسبة إلى قدرتنا ؟

قلنا : معناه وهو هين عليه ، وقد جاء فى كلام العرب أفعل بمعنى اسم الفاعل من غير تفضيل ، ومنه قولهم فى الأذان : الله أكبر ، أى الله كبير فى قول بعضهم ، وقال الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتًا دعائمه أعز وأطـــول

أى عزيزة طويلة ، وقال معن بن أوس المزنى :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل   على أينا تعدو المنية أول

أى : وإنى لوجل ، وقال آخر :

أصبحت أمنحك الصدود وإننى   قسماً إليك مع الصدود لأميل

أى : لمائل ، وقال آخر :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت   فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أى : بواحد .

الثاني : أن معناه ، وهو أهون عليه فى تقديركم وحكمكم ، لأنكم تزعمون وتعتقدون فيما بينكم أن الإعادة أهون من الابتداء، كيف وأن الابتداء من ماء والإعادة من تراب ، وتركيب الصورة من التراب أهون عندكم .

الثالث : أن الضمير فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] راجع إلى المخلوق لا إلى الله تعالى ، معناه : أنه لا صعوبة على المخلوق فيه ولا إبطاء، لأنه يعاد دفعة واحدة بقوله تعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وفى الابتداء خلق نطفة ثم نقل إلى مضغة ثم إلى عظام ثم إلى الكسوة اللحم .

الرابع : أن الابتداء من قبيل التفضل الذى لا مقتضى لوجوبه ، والإعادة من قبيل الواجب لأنها لا بد منها لجزاء الأعمال ، وجزاؤها واجب بحكم وعده سبحانه وتعالى .

٨٤٦ - **فإن قيل** : ما معنى قوله : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ [الروم:٣٩] الآية على اختلاف القراءتين بالمد والقصر ؟

قلنا : قال الحسن رحمه الله : المراد به الربا المحرم والخطاب لدافعى الربا لا لآخذيه ، معناه : وما أعطيتم أكلة الربا من زيادة لتربو وتزكو فى أموالهم فلا تزكو عند الله ولا يبارك فيها ، ونظيره قوله تعالى : ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى

ﵟٱلصَّدَقَٰتِﵞ [البقرة:٢٧٦] لا فرق بينهما ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما والجمهور : المراد به أن يهب الرجل غيره هبة أو يهدى إليه هدية على قصد أن يعوضه أكثر منها .

وقالوا : وليس فى ذلك أجر ولا وزر ، وإنما سماه ربا لأنه مدفوع لاجتلاب الربا وهو الزيادة فكان سببًا لها فسمى باسمها ، ومعنى قراءة المد ظاهر ، وأما قراءة القصر فمعناها : وما جئتم : أى وما فعلتم من إعطاء ربا كما تقول : أتيت خطأ وأتيت صوابًا ، أى فعلت ، وقوله تعالى : ﵟفَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَﵞ [الروم:٣٩] أى : ذوو الأضعاف من الحسنات ، وهو التفات عن الخطاب إلى الغيبة .

٨٤٧ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﵟمِّن قَبۡلِهِۦﵞ [الروم:٤٩] بعد قوله تعالى : ﵟمِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِمﵞ [الروم:٤٩] ؟

قلنا : فائدته التأكيد كما فى قوله تعالى : ﵟفَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَﵞ [الحجر:٣٠] وقيل : الضمير لإرسال الرياح أو السحاب فلا تكرار .

٨٤٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﵟٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖﵞ [الروم:٦] والضعف صفة الشىء الضعيف ، فكيف يخلق الإنسان من تلك الصفة مع علمنا أنه خلق من عين وهو الماء أو التراب لا من صفة ؟

قلنا : أطلق المصدر هو الضعف ، وأراد به اسم الفاعل وهو الضعيف كقولهم رجل عدل ، أى : عادل ونحوه ، فمعناه من ضعيف وهو النطفة ، وقيل: معناه على ضعف ، فمن بمعنى على كما فى قوله تعالى : ﵟوَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآﵞ [الأنبياء:٧٧] والمراد به ضعف جثة الطفل حال طفوليته .

٨٤٩ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦] وهم إنما لبثوا فى الأرض فى قبورهم ؟

قلنا : معناه لقد لبثتم فى قبوركم على ما فى علم كتاب الله أو فى خبر كتاب الله ، وقيل : معناه فى قضاء الله ، وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره : وقال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله الذين علموه وفهموه ، وذلك كقوله تعالى : ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠] .

٨٥٠ – فإن قيل : وقال فى موضع آخر : ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧] وقال فى موضع آخر : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤] فجعلهم مرة طالبين الإعتاب ومرة مطلوبًا منهم الإعتاب ؟

قلنا : معنى قوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧] أى : ولا هم يقالون عثراتهم بالرد إلى الدنيا، ومعنى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤] أى وإن يستقبلوا فما هم من المقالين ، هذا ملخص الجواب وحاصله ، وقد أوضحنا معناه فى شرح غريب القرآن .

*** *** ***

سورة لقمان

٨٥١ - فإن قيل : كيف يحلُّ الغناء بعد قوله : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] الآية ، وقد قال الواحدى فى تفسير وسيطه : أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء ، وروى هو أيضًا عن النبى ﷺ أنه قال: "**والذى نفسى بيده ما رفع رجل قط عقيرته يتغنى إلا ارتد فيه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره حتى يسكت**"[1] ، وقال سعيد بن جبير ومجاهد وابن مسعود رضى الله عنهم : لهو الحديث هو والله الغناء واشتراء المغنى والمغنية بالمال ، وروى أيضًا حديثًا آخر عن النبى ﷺ مسندًا "أنه قال فى هذه الآية : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] **اللعب والباطل كثير النفقة سمح فيه ، لا تطيب نفسه بدرهم يتصدق به**" وروى أيضًا حديثًا آخر مسندًا عن النبى ﷺ أنه قال : "**من ملأ سمعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة** "وقيل : **وما الروحانيون ؟ قراء أهل الجنة**" ، قال أهل المعانى : ويدخل فى هذا كل من اختار اللهو واللعب والمزامير والمعازف على القرآن وإن كان اللفظ رد بالاشتراء ،لأن هذا اللفظ يذكر فى الاستبدال والاختيار كثيرًا ، وقال قتادة رحمه الله : حسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق هذا كله نقله الواحدى رحمه الله ، وكان من كبار السلف فى العلم والعمل .

وقال غيره : قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة ، المراد بلهو الحديث الغناء ، وعن الحسن رحمه الله تعالى أنه كل ما ألهى عن الله تعالى ، وفى معنى يشترى قولان ، أحدهما أنه الشراء بالمال .

---

(١) الهيثمى فى مسنده (الزوائد) (٢/ ٨٤٣)، (٨٩) .

والثانى : أنه الاختيار كما مر ، وقيل : الغناء منفدة للمال ، مفسدة للقلب ، مسخطة للرب .

قلنا : جوابه أنهم يؤولون هذه الآية ونظائرها وهذه الأحاديث ونظائرها فيصرفونها عن ظاهرها متابعة للهوى وميلاً إلى الشهوات ، ولو نظروا بعقولهم فيما ينشأ عن جمعيات السماع فى زماننا هذا من المفاسد لعلموا حرمته بلا خلاف بين المسلمين ، فإن شروط إباحة السماع عند من أباحه لا تجتمع فى زماننا هذا على ما هو مسطور فى كتب المشايخ وأرباب الطريق ، ولو اشتغلنا بتفصيل مفاسده وعدد شروطه عند من أباحه لخرجنا عن مقصود كتابنا هذا .

٨٥٢ – **فإن قيل** : كيف وقع قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [لقمان:١٤] الآيتان فى أثناء وصية لقمان لابنه ، وما الجامع بينهما ؟

قلنا : هى جملة وقعت معترضة على سبيل الاستطراد تأكيدًا لما فى وصية لقمان من النهى عن الشرك .

٨٥٣ – **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤] كيف اعترض بين الوصية ومفعولها ؟

قلنا : لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم خاصة وتعانيه من المشاق والمتاعب تخصيصًا لها بتأكيد الوصية وتذكير تعظيم حقها بإفرادها بالذكر ، ومن هنا قال رسول الله ﷺ لمن قال له : من أبر ، قال : " **أمك ثم أمك ثم أمك** " ، ثم قال بعد ذلك " **ثم أباك** "[1].

٨٥٤ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩] فجمع الأصوات وأفرد صوت الحمير ؟

---

(١) البخارى (٥٥١٤) ، ومسلم (٤٦٢٢) .

قلنا : ليس المراد ذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، وإنما المراد أن كل جنس من الحيوان الناطق وغيره له صوت ، وأنكر الأصوات من هذه الأجناس صوت هذا الجنس ، فوجب إفراده لئلا يظن أن الاجتماع شرط فى ذلك .

٨٥٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ﴾ [لقمان:٢٧] يطابقه وما فى الأبحر من ماء مداد فكيف عدل عنه إلى قوله : ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان:٢٧] ؟

قلنا : استغنى عن ذكر المداد بقوله يمده ، لأنه من قولك : مد الدواة وأمدها، أى : زادها مدادًا ، فجعل البحر المحيط بمنزلة الدواة ، والأبحر السبعة مملوءة مدادًا تصب فيه أبدًا صبًا لا ينقطع ، فصار نظير ما ذكرتم ونظيره قوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾ [الكهف:١٠٩] الآية .

٨٥٦ - فإن قيل : كيف قال : ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ [لقمان:٢٧] ولم يقل من شجر؟

قلنا : لأنه أراد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر شجرة واحدة إلا وقد بريت أقلامًا .

٨٥٧ - فإن قيل : الكلمات جمع قلة والمقصود التفخيم والتعظيم ، فكان جمع الكثرة وهو الكلم أشد مناسبة ؟

قلنا : جمع القلة هنا أبلغ فيما ذكرتم من المقصود ، لأن جمع القلة إذا لم يفن بتلك الأقلام وذلك المداد ، فكيف يفنى جمع الكثرة .

٨٥٨ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان:٣٤] الآية كيف أضاف فيها العلم إلى نفسه فى الأمور الثلاثة من الخمسة المغيبات ، ونفى العلم عن العباد فى الأمرين الآخرين ، مع أن الأمور الخمسة سواء فى اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء على العباد بها ؟

قلنا : إنما خص الأمور الثلاثة الأول بالإضافة إليه تعظيماً لها وتفخيماً ؛ لأنها أجل وأعظم ، وإنما خص الأمرين الآخرين بنفى علميهما عن العباد ، لأنهما من صفاتهم وأحوالهم ، فإذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الأمور الخمسة أولى .

٨٥٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان:٣٤] ولم يقل بأى وقت تموت وكلاهما غير معلوم ، بل نفى العلم بالزمان أولى ، لأن من الناس من يدعى علمه وهم المنجمون ، بخلاف المكان فإن أحدًا لا يدعى علمه ؟

قلنا : إنما خص المكان بنفى علمهن لوجهين : أحدهما أن الكون فى مكان دون مكان فى وسع الإنسان واختياره ، فيكون اعتقاده علم مكان الموت بخلاف الزمان .

الثانى : أن للمكان تأثيرًا فى جلب الصحة والسقم بخلاف الزمان ، أو تأثير المكان فى ذلك أكثر .

*** *** ***

سورة السجدة

٨٦٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥] وقال تعالى فى سورة المعارج : ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٤] ؟

قلنا : المراد بالأول مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى السطح الأعلى من سماء الدنيا وذلك ألف سنة ، خمسمائة سنة مسافة ما بين السماء والأرض وخمسمائة سنة مسافة سمك سماء الدنيا ، والمراد بالثانى مسافة عروج الملائكة من الأرض إلى العرش .

الثانى : أن المراد به فى الآيتين يوم القيامة ، ومقداره ألف سنة من حساب أهل الدنيا لقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] ومعنى قوله تعالى : ﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٤] أى : لو تولى فيه حساب الخلق غير الله تعالى .

الثالث : أنه كألف سنة فى حق عوام المؤمنين ، والخمسين ألف سنة فى حق الكافرين لشدة ما يكابدون فيه من الأهوال والمحن ، وكساعة من أيام الدنيا فى حق خواص المؤمنين ، ويؤيده ما روى أنه قيل : "يا رسول الله يوم مقداره خمسون ألف سنة ما أطوله" .

فقال : **"والذى نفسى بيده ليخفف على المؤمن حتى يكون عليه أخف من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا لله"** [١] ، وروى أن ابن عباس رضى الله عنهما

---

(١) مسند أحمد (ط الرسالة) (١٨/ ٢٤٦) (١١٧١٧) وحكم عليه الأرنؤوط : حسن .

سئل عن هاتين الآيتين ، فقال : يومان ذكرهما الله تعالى فى كتابه ، وإنى أكره أن أقول فى كتاب الله بما لا أعلم .

٨٦١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧] أو : "كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ" على اختلاف القراءتين ، ومقتضى القراءتين أن لا يكون فى مخلوقات الله تعالى شىء قبيح والواقع خلافه، ولو لم يكن إلا الشرور والمعاصى فإنها مخلوقة لله تعالى عند أهل السنة والجماعة مع أنها قبيحة ؟

قلنا : أحسن بمعنى أحكم وأتقن ، وهذا الجواب يعم القراءتين .

الثانى: أن فيه إضمارًا تقديره ، أحسن إلى كل شىء خلقه .

الثالث : أن أحسن بمعنى علم كما يقال : فلان لا يحسن شيئًا ، أى لا يعلم شيئًا ، وقال على كرم الله وجهه : قيمه كل امرئ ما يحسنه ، أى ما يعلمه ، فمعناه أنه علم خلق كل شىء ، أو علم كل شىء خلقه ولم يتعلمه من أحد ، وهذان الجوابان يخصان بقراءة فتح اللام .

٨٦٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة:٨] وقال فى موضع آخر : ﴿مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ [المؤمنون:١٢] ؟

قلنا : المذكور هنا صفة ذرية آدم ، والمذكور هناك صفة آدم عليه السلام يعلم ذلك من أول الآيتين فلا تنافى .

٨٦٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة:٩] والله تعالى منزه عن الروح ؟

قلنا : معناه نفخ فيه من روح مضافة إلى الله بالخلق والإيجاد لا بوجه آخر .

٨٦٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى هنا : ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [السجدة:١١] وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] وقال

تعالى فى موضع آخر : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] ؟

قلنا : الله تعالى هو المتوفى بخلق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح ، والملائكة المتوفون أعوان ملك الموت ، وهم يجذبون الروح من الأظافر إلى الحلقوم ، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم ، فصحت الإضافات كلها.

٨٦٥ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [السجدة:١٥] الآية ، وليس المؤمنون منحصرين فيمن هو موصوف بهذه الصفة ولا هذه الصفة شرط فى تحقق الإيمان ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : ﴿ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ [السجدة:١٥] أى وعظوا ، والمراد بالسجود الخشوع والخضوع والتواضع فى قبول الموعظة بآيات الله تعالى ، وهذه الصفة شرط فى تحقق الإيمان ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧] الآية .

الثانى : أن معناه إنما يؤمن بآياتنا إيمانًا كاملاً من اتصف بهذه الصفة ، وقيل المراد بالآيات فرائض الصلوات الخمس ، والمراد التذكير بها بالأذان والإقامة .

٨٦٦ – **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ [السجدة:١٨] يدل على أن الفاسق لا يكون مؤمنًا ؟

قلنا : الفاسق هنا بمعنى الكافر بدليل قوله تعالى بعده : ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠] والتقسيم يقتضى كون الفاسق المذكور هنا كافرًا ؛ لا كون كل فاسق كافرًا ونظيره قوله تعالى : ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الجاثية:٢١] ولم يلزم من ذلك أن كل مجرم كافر ، ولا أن كل مسيء كافر .

٨٦٧ – **فإن قيل** : ما فائدة العدول عن قوله تعالى : ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف:٤١] في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ [السجدة:٢٢] الآية؟

قلنا : لما جعله أظلم الظلمة ثم توعد كل المجرمين بالانتقام منه دل على أن الأظلم يصيبه النصيب الأوفر من الانتقام ، ولو قاله بالضمير لم يفد هذه الفائدة .

٨٦٨ – **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ [السجدة:٢٨] سؤال عن وقت الفتح ، وهو يوم القضاء بين المؤمنين والكافرين ، يعنى يوم القيامة ، فكيف طابقه ما بعده جوابًا ؟

قلنا : لما كان سؤالهم سؤال تكذيب واستهزاء بيوم القيامة لا سؤال استفهام أجيبوا بالتهديد المطابق للتكذيب والاستهزاء لا ببيان حقيقة الوقت .

٨٦٩ – **فإن قيل** : على قول من فسر الفتح بفتح مكة أو بفتح يوم بدر ، كيف وجه الجواب عن قوله : ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [السجدة:٢٩] الآية ، وقد نفع بعض الكفار إيمانهم فى ذينك اليومين وهم الطلقاء الذين آمنوا؟

قلنا : المراد أن المقتولين منهم لا ينفعهم إيمانهم فى حال القتل ، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند إدراك الغرق .

*** *** ***

سورة الأحزاب

٨٧٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [الأحزاب:٢٨] ولم يقل : يا محمد كما قال تعالى : يا موسى ، يا عيسى ، يا داود ونحوه ؟

قلنا : إنما عدل عن ندائه باسمه إلى ندائه بالنبى والرسول إجلالاً له وتعظيماً كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ﴾ [التحريم:١] ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ﴾ [المائدة:٦٧] .

٨٧١ - **فإن قيل** : لو كان ذلك كما ذكرتم لعدل عن اسمه إلى نعته فى الإخبار عنه كما عدل فى النداء فى قوله تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩] وقوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤] ؟

قلنا : إنما عدل عن نعته في هذين الموضعين لتعليم الناس أنه رسول الله وتلقينهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ، ولذلك ذكره بنعته لا باسمه فى غير هذين الموضعين من مواضع الإخبار ، كما ذكره فى النداء : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة:١٢٨] ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ ﴾ [الفرقان:٣٠] ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١] ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢] ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦] ﴿ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ ﴾ [المائدة:٨١] ونظائره كثيرة .

٨٧٢ - **فإن قيل** : ما فائدة ذكر الجوف فى قوله تعالى : ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤] ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة الحج فى قوله تعالى :

﴿وَلَـٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] .

٨٧٣ - **فإن قيل** : ما معنى قولهم : أنت على كظهر أمى ؟

قلنا : أرادوا أن يقولوا : أنت على حرام كبطن أمى ، فكنوا عن البطن بالظهر لئلا يذكروا البطن الذى يقارب ذكره ذكر الفرج ، وإنما كنوا عن البطن بالظهر لوجهين : **أحدهما** : أنه عمود البطن ، ويؤيده قول عمر رضى الله تعالى عنه : "يجيء به أحدهم على عمود بطنه" ، أى : على ظهره .

الثانى : أن إتيان المرأة من قبل ظهرها كان محرمًا عندهم ، وكانوا يعتقدون أنها إن أتيت من قبل ظهرها كان محرمًا عندهم وكانوا يعتقدون أنها إذا أتيت من قبل ظهرها جاء الولد أحول ، فكان المطلق في الجاهلية إذا قصد تغليظ الطلاق قال : أنت على كظهر أمى .

٨٧٤ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب:٦] جعل أزواج النبى ﷺ بمنزلة أمهات المؤمنين حكمًا ، أى فى الحرمة والاحترام وما جعل النبى ﷺ بمنزلة أبيهم حتى قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب:٤٠] ؟

قلنا : أراد الله بقوله تبارك وتعالى : ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب:٦] أن أمته يدعون أزواجه بأشرف الأسماء ، وأشرف أسماء النساء الأم ، وأشرف أسماء النبى ﷺ رسول الله لا الأب .

الثانى : أنه تعالى جعلهن أمهات المؤمنين تحريمًا لهن إجلالاً وتعظيمًا له ﷺ كي لا يطمع أحد في نكاحهن بعده ، فلو جعل النبى ﷺ أبا المؤمنين لكان أبًا للمؤمنات أيضًا ، فلم يجعل له نكاح امرأة من المؤمنات بل يحرمن عليه ، وذلك ينافى إجلاله وتعظيمه ، وقد جعله أعظم من الأب فى القرب والحرمة بقوله تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٦] فجعل ﷺ أقرب إليهم

من أنفسهم ، وكثير من الآباء يتبرأ من ابنه ويتبرأ منه ابنه أيضًا ، وليس أحد يتبرأ من نفسه .

٨٧٥ - **فإن قيل** : كيف قدم النبى ﷺ على نوح ومن بعده فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب:٧]؟

فقلنا : لأن هذا العطف من باب عطف الخاص على العام الذى هو جزء منه لبيان التفضيل والتخصيص بذكر مشاهير الأنبياء وذراريهم ، فلما كان النبى ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم ، وفى الميثاق المأخوذ منه قولان : أحدهما: أنه تعالى أخذ منهم الميثاق يوم أخذ الميثاق بأن يصدق بعضهم بعضًا .

والثانى : أخذ منهم الميثاق أن يوحدوا الله تعالى ويدعوا إلى توحيده ويصدق بعضهم بعضًا .

٨٧٦ - **فإن قيل** : فكيف قدم نوحًا عليه السلام فى نظير هذه الآية وهى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى:١٣] ؟

قلنا : لأن تلك الآية سيقت لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة ، كأنه قال : شرع لكم الدين الأصيل الذى بعث عليه نوح عليه السلام فى العهد القديم ، وبعث عليه محمد ﷺ فى العهد الحديث ، وبعث عليه من توسطهما من الأنبياء المشاهير ، فكان تقديم نوح عليه السلام أشد مناسبة بالمقصود من سوق الآية .

٨٧٧ - **فإن قيل** : ما فائدة إعادة أخذ الميثاق فى قوله تعالى : ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧] ؟

قلنا : فائدته التأكيد ووصف الميثاق المذكور أولاً بالجلالة والعظم استعاذة من وصف الأجرام به ، وقيل : إن المراد بالميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى على الوفاء بها حملوا ، فلا إعادة لاختلاف الميثاقين .

٨٧٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف حال المؤمنين التى امتن عليهم فيها : ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠] ولو بلغت القلوب الحناجر لماتوا ولم يبق للامتنان وجه ؟

قلنا : قال ابن قتيبة : معناه كادت القلوب تبلغ الحناجر من الخوف ، فهو مثل فى اضطراب القلوب ووحيبها ، ورده ابن الأنبارى فقال : العرب لا تضمن كاد ولا تعرف معناه ما لم تنطق به ، وقال الفراء : معناه أنهم جبنوا وجزعوا ، والجبان إذا اشتد خوفه انتفخت رئته فرفعت قلبه إلى حنجرته ، وهى جوف الحلقوم وأقصاه ، وكذلك إذا اشتد الغضب أو الغم ، وهذا المعنى مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ومن هنا قيل للجبان : انتفخ منخره .

٨٧٩ - **فإن قيل** : كيف علق الله تعالى عذاب المنافقين بمشيئته بقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ﴾ [الأحزاب:٢٤] وعذابهم متيقن مقطوع به لقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] ؟

قلنا : إن شاء تعذيبهم بإماتتهم على النفاق ، وقيل معناه: إن شاء ذلك وقد شاءه .

٨٨٠ - **فإن قيل** : ما حقيقة قوله تعالى : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]؟

قلنا : فيه وجهان : **أحدهما**: أنه نفسه أسوة حسنة ، أى : قدوة والأسوة اسم للمتأسى به ، أى المقتدى به ، كما تقول فى البيضة عشرون منًّا حديدًا أي هى فى نفسها هذا المقدار .

الثاني : أن فيه خصلة من حقها أن يُتأسى بها وتتبع ، وهى مواساته بنفسه أصحابه وصبره على الجهاد وثباته يوم أحد حين كسرت رباعيته وشج وجهه .

٨٨١ - **فإن قيل** : كيف أظهر تعالى الاسمين مع تقدم ذكرهما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب:٢٢] ؟

قلنا : لئلا يكون الضمير الواحد عائدًا على الله تعالى وغيره .

٨٨٢ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف بنى قريظة : ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب:٢٧] والله تعالى إنما ملكهم أرضهم بعد ما وطئوها وظهروا عليها ؟

قلنا : معناه ويورثكم بطريق وضع الماضى موضع المستقبل مبالغة فى تحقيق الموعود وتأكيده .

الثاني : أن فيه إضمارًا تقديره : وأرضًا لم تطؤوها سيورثكم إياها ، يعنى أرض مكة ، وقيل : أرض فارس والروم ، وقيل : أرض خيبر ، وقيل : كل أرض ظهر عليها المسلمون بعد ذلك إلى يوم القيامة .

الثالث : أن معناه وأورثكم ذلك كله فى الأزل بكتابته لكم فى اللوح المحفوظ .

٨٨٣ - **فإن قيل** : كيف خص الله تعالى نساء النبى ﷺ بتضعيف العقوبة على الذنب والمثوبة على الطاعة فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [الأحزاب:٣٠] الآيتان ؟

قلنا : أما تضعيف العقوبة فلأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهد غيرهن .

الثانى : أن فى معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ وذنب من آذى رسول الله ﷺ أعظم من ذنب غيره ، والمراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق ، كذا قاله ابن عباس رضى الله عنهما ، وأما تضعيف المثوبة فلأنهن أشرف من سائر النساء بقربهن من رسول الله ﷺ ، فكانت الطاعة منهن أشرف كما كانت المعصية منهن أقبح ، ونظير ذلك الوزير والنواب فى طاعتهما للملك ومعصيتهما .

٨٨٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب:٣٢] ولم يقل كواحدة من النساء ؟ .

قلنا : قد سبق نظير هذا مرة فى آخر سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥] .

٨٨٥ - **فإن قيل** : كيف أمر الله تعالى نساء النبى بالزكاة فى قوله تعالى : ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأحزاب:٣٣] ولم يملكن نصابًا حولاً كاملاً؟

قلنا : المراد بالزكاة هنا الصدقة النافلة ، والأمر أمر ندب .

٨٨٦ - **فإن قيل** : ما الفرق بين المسلم والمؤمن حتى عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] مع أنهما متحدان شرعًا ؟

قلنا : المراد بالمسلم الوحد بلسانه ، وبالمؤمن من المصدق بقلبه .

٨٨٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب:٤٠] مع أنه كان أبا للطاهر والطيب والقاسم وإبراهيم عليهم السلام؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب:٤٠] يخرجهم من حكم النفى من وجهين ، **أحدهما** : أنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال بل ماتوا صبيانًا .

والثانى : أنه أضاف الرجال إليهم ، وهم كانوا رجاله لا رجالهم .

٨٨٨ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] وعيسى عليه السلام ، ينزل بعده وهو نبى ؟

قلنا : معنى كونه خاتم النبيين أنه لا يتنبأ أحد بعده ، وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل عاملاً بشريعة محمد ﷺ مصليًا إلى قبلته كأنه بعض أمته .

٨٨٩ – **فإن قيل** : قوله تعالى﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٣] معناه يرحمكم ويغفر لكم فما معنى قوله تعالى : ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب:٤٣] والرحمة والمغفرة منهم محال ؟

قلنا : جعلوا لكونهم مستجابى الدعوة بالرحمة والمغفرة كأنهم فاعلو الرحمة والمغفرة ، ونظيره قولهم : حياك الله ، أى أحياك وأبقاك ، وحيا زيد عمرًا : أى دعا له بأن يحييه الله اتكالاً منه على إجابة دعوته ، ومثله قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب:٥٦] .

٨٩٠ – **فإن قيل** : قد فهم من قولهم تعالى : ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٤٥، ٤٦] أنه مأذون له فى الدعاء إلى الله تعالى ، فما فائدة قوله سبحانه : ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ [الأحزاب:٤٦] ؟

قلنا : معناه بتسهيله وتيسيره ، وقيل : معناه بأمره لا أنك تدعوهم من تلقاء نفسك .

٨٩١ – **فإن قيل** : كيف شبه الله تعالى النبى ﷺ بالسراج دون الشمس ، والشمس أتم وأكمل فى قوله تعالى : ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] ؟

قلنا : قيل : إن المراد بالسراج هنا الشمس كما فى قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦] وقيل : إنما شبه بالسراج ؛ لأن السراج يتفرع ويتولد

منه سرج لا تعد ولا تحصى بخلاف الشمس ، والنبى ﷺ تفرغ منه بواسطة إرشاده وهدايته جميع العلماء من عصره إلى يومنا هذا ، وهلم جرًا إلى يوم القيامة، وقيل : إنما شبهه بالسراج ،لأنه بعثه فى زمان يشبه الليل بظلمات الكفر والجهل والضلال .

٨٩٢ - **فإن قيل** : كيف شبهه بالسراج دون الشمع ، والشمع أشرف ونوره أتم وأكمل ؟

قلنا : قد سبق الجواب على مثل هذا فى قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور:٣٥].

٨٩٣ - **فإن قيل** : كيف خص تعالى المؤمنات بعدم وجوب العدة فى الطلاق قبل المسيس فى قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب:٤٩] الآية ، مع أن حكم الكتابية كذلك أيضًا ؟

قلنا : هذا خرج مخرج الأغلب والأكثر لا تخصيص .

٨٩٤ - **فإن قيل** : كيف أفرد سبحانه العم وجمع العمات ، وأفرد الخال وجمع الخالات فى قوله تعالى : ﴿ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾ [الأحزاب:٥٠] والمعهود فى كلام العرب مقابلة الجمع بالجمع؟

قلنا : لأن العمّ اسم على وزن المصدر الذى هو الضم ونحوه ، وكذا الخال على وزن القال ونحوه ، فيستوى فيه المفرد والتثنية والجمع ، بخلاف العمة والخالة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ ﴾ [البقرة:٧] .

٨٩٥ - **فإن قيل** : هذا الجواب منقوض بقوله تعالى فى سورة النور : ﴿ أَوْ

بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ - أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾ [النور:٦١] ؟

قلنا : العم والخال ليسا مصدرين حقيقة بل على وزن المصدر ، فاعتبر هنا شبههما بالمصدر ، وهناك حقيقتهما عملاً بالجهتين ، بخلاف السمع فإنه لما كان مصدرًا حقيقة ما جاء قط فى الكتاب العزيز إلا مفردًا .

٨٩٦ - **فإن قيل** : كيف ذكر الأقارب فى قوله تعالى : ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ ﴾ [الأحزاب:٥٥] الآية ، ولم يذكر العم والخال وحكمهما حكم من ذكر فى رفع الجناح ؟

قلنا : سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة النور فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور:٣١] فالأولى أن تستتر المرأة عن عمها وخالها ، لئلا يصف محاسنها عند ابنه فيفضى إلى الفتنة .

٨٩٧ - **فإن قيل** : السادة والكبراء بمعنى واحد ، فكيف عطف أحدهما على الآخر فى قوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ [الأحزاب:٦٧] ؟

قلنا : هو من باب عطف اللفظ على اللفظ المغاير له مع اتحاد معناهما كقولهم : فلان عاقل لبيب ، وهذا حسن جميل ، وقول الشاعر :

معاذ الله من كذب ومين [١]

٨٩٨ - **فإن قيل** : المراد بالإنسان آدم عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢] فكيف قال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] وفعول من أوزان المبالغة فيقتضى تكرار الظلم والجهل منه وأنه منتف ؟

قلنا : لما كان عظيم القدر رفيع المحل كان ظلمه وجهله لنفسه أقبح

(١) للشاعر ابن بسام البغدادى ويقال له : البسامى .

وأفحش ، فقام عظيم الوصف مقام الكثرة ، وقد سبق نظيره هذا فى سورة آل عمران فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران:١٨٢] .

وقيل : إنما سماه ظلومًا جهولاً لتعدى ضرر ظلمه وجهله إلى جميع الناس ، فإنهم أخرجوا من الجنة بواسطته وتسلط عليهم إبليس وجنوده .

*** *** ***

سورة سبأ

٨٩٩ – فإن قيل :كيف قال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٩] ولم يقل: إلى ما فوقهم وما تحتهم من السماء والأرض؟

قلنا : ما بين يدى الإنسان هو كل شىء يقع نظره عليه من غير أن يحول وجهه إليه ، وما خلفه هو كل شىء لا يقع نظره عليه حتى يحوّل وجهه إليه ، فكان اللفظ المذكور أتم مما ذكر .

٩٠٠ – فإن قيل : هلا ذكر سبحانه الإيمان والشمائل هنا كما ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧]؟

قلنا : لأنه وجد هنا ما يغنى عن ذكرها ، وهو لفظ العموم وذكر السماء والأرض ولا كذلك ثمة .

٩٠١ – فإن قيل : كيف استجاز سليمان عليه السلام عمل التماثيل وهى التصاوير؟

قلنا : قيل : إن عمل الصور لم يكن محرمًا فى شريعته ، ويجوز أن يكون صور غير الحيوان كالأشجار ونحوها ، وذلك غير محرم فى شريعتنا أيضًا .

٩٠٢ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ [سبأ:١٥] ولم يقال : آيتان جنتان ، كل جنة كانت آية ، أى : علامة على توحيد الله تعالى ؟

قلنا : لما تماثلتا فى الدلالة واتحدت جهتهما فيها جعلهما آية واحدة ، ونظيره

قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون:٥٠] .

٩٠٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٢٢] أى : الذين زعمتم آلهة من دون الله إلهًا من دون الله مع أن المشركين ما زعموا غير الله إلهًا دون الله ، بل مع الله على وجه الشركة ؟

قلنا : النص لا يدل على زعمهم حصر الآلهة فى غير الله نصاً بل يوهم ذلك، ولو دل فتقول : فيه تقديم وتأخير تقديره ، ادّعوا الذين من دون الله زعمتم أنهم شركاء الله .

٩٠٤ - **فإن قيل** : ما معنى التشكيك فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] ؟

قلنا : قيل : إن "أو" هنا بمعنى الواو فى الموضعين ، فيصير المعنى : نحن على الهدى ، وأنتم فى الضلال ، وقيل : معناه : وإنا لضالون أو مهتدون وإنكم لكذلك ، وهو من التعريض بضلالهم كما يقول الرجل لصاحبه إذا أراد تكذيبه: والله إن أحدنا لكاذب ، ويعنى به صاحبه .

٩٠٥ - **فإن قيل** : كيف قالت الملائكة عليهم السلام فى حق المشركين : ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ:٤١] ولم ينقل عن من المشركين أنه عبد الجن ؟

قلنا : معناه كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادتنا أكثرهم بهم مؤمنون : أى أكثر المشركين مصدقون بالشياطين فيما يخبرونهم به من الكذب أن الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، فالمراد بالجن الشياطين .

*** *** ***

سورة فاطر

٩٠٦ - فإن قيل : قوله تعالى:﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [فاطر:٩] كيف جاء فتثير مضارعًا دون ما قبله وما بعده؟

قلنا : هو مضارع وضع موضع الماضى كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧] .

٩٠٧ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ ﴾ [فاطر:١١] ؟

قلنا : معناه وما يعمر من أحد ، وإنما سموه معمرًا بما هو سائر إليه .

٩٠٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] وكم من أمة كانت فى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ ولم يخل فيها نذير؟

قلنا : إذا كان آثار النذارة باقية لم تخل من نذير إلى أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث محمد عليهما الصلاة والسلام .

٩٠٩ - فإن قيل : كيف اكتفى سبحانه وتعالى بالذكر النذير عن البشير فى آخر الآية بعد سبق ذكرهما فى أولها ؟

قلنا : لما كانت النذارة مشفوعة بالبشارة لا محالة استغنى بذكر أحدهما عن الآخر بعد سبق ذكرهما .

٩١٠ - فإن قيل : ما الفرق بين النصب واللغوب حتى عطف أحدهما على الآخر؟

قلنا : النصب المشقة والكلفة ، واللغوب الفتور الحاصل بسبب النصب، فهو نتيجة النصب ، كذا فرق بينهما الزمخشرى رحمه الله ، ويرد على هذا أن يكون انتفاء الثانى معلومًا من انتفاء الأول .

٩١١ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [فاطر:٣٧] مع أنه يوهم أنهم يعملون صالحاً آخر غير الصالح الذى عملوه ، وهم ما عملوا صالحًا قط بل سيئًا ؟

قلنا : هم كانوا يحسبون أنهم على سيرة صالحة ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف:١٠٤] فمعناه غير الذى كنا نحسبه صالحًا فنعمله .

❊❊ ❊❊❊ ❊❊

سورة يس

٩١٢ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾ [يس:١٤] وقال سبحانه ثانيًا : ﴿ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس:١٦] ؟

قلنا : لأن الأول ابتداء إخبار فلم يحتج إلى التأكيد باللام ، بخلاف الثانى فإنه جواب بعد الإنكار والتكذيب فاحتاج إلى التأكيد .

٩١٣ – فإن قيل : كيف أضاف الفطر إلى نفسه بقوله : ﴿ فَطَرَنِي ﴾ [يس:٢٢] وأضاف البعث إليهم بقوله : ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يس:٨٣] مع علمه أن الله تعالى فطره وفطرهم وسوف يبعثه ويبعثهم فهلا قال : فطرنا وإليه نرجع أو فطركم وإليه ترجعون ؟

قلنا : لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى توجب الشكر والبعث بعد الموت وعيد وتهديد يوجب الزجر ، فكان إضافته النعمة إلى نفسه أظهر فى الشكر ، وإضافته البعث إليهم أبلغ فى الزجر .

٩١٤ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ [يس:٣٠] والتحسر على الله تعالى محال ؟

قلنا : هو تحسير للخلق ، معناه قولوا : يا حسرتنا على أنفسنا لا تحسد من الله تعالى .

٩١٥ – فإن قيل : كيف نفى الله سبحانه وتعالى الإدراك عن الشمس للقمر دون عكسه وهو : ولا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس ؟

قلنا : لأن سير القمر أسرع ، فإنه يقطع فلكه فى شهر والشمس لا تقطع فلكها إلا في سنة ، فكانت الشمس جديرة بأن توصف بنفى الإدراك لبطء

سيرها ، والقمر خليقًا بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره ، هذا سؤال للزمخشري رحمه الله وجوابه ، ويرد عليه أن سرعة سير القمر يناسب أن ينفى الإدراك عنه ، لأنه إذا قيل : لا القمر ينبغى له أن يدرك الشمس مع سرعة سيره علم بالطريق الأولى أن الشمس لا ينبغى لها أن تدرك القمر مع بطء سيرها ، فأما إذا قيل : لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر أمكن أن يقال إنها لم تدركه لبطء سيرها ، فأما القمر فيجوز أن يدركها لسرعة سيره .

٩١٦ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ [يس:٤١] أى لأهل مكة : ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس:٤١] أي ذرية أهل مكة أو ذرية قوم نوح عليهما السلام : ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] والذرية اسم للأولاد والمحمول فى سفينة نوح عليه الصلاة والسلام آباء أهل مكة لا أولادهم ؟

قلنا : الذرية من أسماء الأضداد تطلق على الآباء والأولاد بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران:٣٣، ٣٤] وصف جميع المذكورين بكونهم ذرية وبعضهم آباء وبعضهم أبناء، فمعناه حملنا آباء أهل مكة أو حملنا أبناءهم ، لأنهم كانوا فى ظهور آبائهم المحمولين .

٩١٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس:٤٨] يعنون الوعد بالبعث والجزاء والوعد كان واقعًا لا منتظرًا؟

قلنا : معناه : متى إنجاز هذا الوعد وصدقه ، بحذف المضاف أو بإطلاق اسم الوعد على الموعود كضرب الأمير ونسج اليمن .

٩١٨ - **فإن قيل** : قولهم : ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] سؤال عن الباعث فكيف طابقه ما بعده جوابًا ؟

قلنا : معناه بعثكم الرحمن الذى وعدكم البعث وأنبأكم به الرسل إلا أنه جىء به على هذه الطريقة تبكيتًا لهم وتوبيخًا .

٩١٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى صفة أهل الجنة : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ [يس:٥٦] والظل إنما يكون حيث تكون الشمس ، ولهذا لا يقال: لما فى الليل ظل والجنة لا يكون فيها شمس لقوله تعالى : ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٣] ؟

قلنا : ظل أشجار الجنة من نور العرش لئلا تبهر أبصار أهل الجنة فإنه أعظم من نور الشمس ، وقيل : من نور قناديل العرش .

٩٢٠ - فإن قيل : كيف سمى سبحانه وتعالى نطق اليد كلامًا ونطق الرجل شهادة فى قوله : ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم﴾ [يس:٦٥] ؟

قلنا : لأن اليد كانت مباشرة والرجل حاضرة ، وقول الحاضر على غيره شهادة ، وقول الفاعل على نفسه ليس بشهادة بل إقرار بما فعل ، قلت : وفى الجواب نظر .

٩٢١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس:٦٩] مع أنه ﷺ قد روى عنه ما هو شعر ، وهو قوله ﷺ .

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وقوله ﷺ : "هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت"[1].

قلنا : هذا ليس بشعر ، لأن الخليل لم يعد مشطور الرجز شعرًا ، وقوله : "هل أنت إلا أصبع دميت"[2] من مشطور بحر الرجز كيف وقد روى أنه ﷺ قال : "دميت ولقيت" بفتح الياء وسكون التاء وعلى هذا لا يكون شعرًا : وإنما

---

(١) البخارى (٢٨٦٤) ، ومسلم (١٧٧٦) .

(٢) البخارى (٢٨٠٢) ، ومسلم (٤٧٥٥) .

الراوى حرفه فصار شعرًا .

الثانى : أن حد الشعر قول موزون مقفى مقصود به الشعر ، والقصد منتف فيما روى عنه ﷺ ، فكان كما يتفق وجوده فى كل كلام منثور من الخطب والرسائل ومحاورات الناس ، ولا يعده أحد شعرًا.

٩٢٢ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١] والله تعالى منزه عن الجارحة ؟

قلنا : هو كناية عن الانفراد بخلق الأنعام والاستبداد به بغير شريك ، كما يقال فى الحب وغيره من أعمال القلب : هذا مما عملته يداك ، ويقال لمن لا يد له: يداك أو يديك ، وكذا قوله تعالى : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] .

٩٢٣ – فإن قيل : كيف سمى قوله : ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] مثلاً ليس بمثل، وإنما هو ستفهام إنكار؟

قلنا : سماه مثلاً لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل ، وهو إنكار الإنسان قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، مع أن العقل والنقل كلاهما يشهد بقدرة الله على ذلك .

❊❊ ❊❊ ❊❊

سورة الصافات

٩٢٤ - فإن قيل : كيف جمع تعالى المشارق هنا وثناهما فى سورة الرحمن ، وكيف اقتصر هنا على ذكر المشارق وذكر ثمة المغربين أيضًا وذكر المغارب مع المشارق، مجموعين فى قوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] وذكرهما مفردين فى قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨] ؟

قلنا : لأن القرآن نزل بلغة العرب على المعهود من أساليب كلامهم وفنونه ومن أساليب كلامهم وفنونه الإجمال والتفصيل والبسط والإيجاز ، فأجمل تارة بقوله تعالى : ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن:١٧] أراد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما على الإجمال وفصل تارة بقوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] أراد جمع مشارق السنة ومغاربها وهى تزيد على سبعمائة ، وبسط مرة بقوله تعالى : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] وأوجز واختصر مرة بقوله تعالى : ﴿ وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات:٥] لدلالة المذكور وهى المشارق على المحذوف وهو المغارب ، وكانت المشارق أولى بالذكر لأنها أشرف إما لكون الشروق سابقًا فى الوجود على الغروب ، أو لأن المشارق منبع الأنوار والأضواء .

٩٢٥ - فإن قيل : كيف خص سبحانه وتعالى أسماء الدنيا بقوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦] مع أن غير سماء الدنيا مزينة بالكواكب أيضًا ؟

قلنا : إنما خصها بالذكر لأنا نحن نرى سماء الدنيا لا غير .

٩٢٦ – فإن قيل : كيف وجه قراءة الضم فى قوله تعالى : ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ [الصافات:١٢] وهى قراءة على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم واختيار القراء ، والتعجب روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشىء ، والله تعالى لا تجوز عليه الروعة ؟

قلنا : أراد بالتعجب الاستعظام وهو جائز من الله تعالى كما استعظم كيد النساء ، وإنكار الكفار معجزات الأنبياء عليهم السلام .

الثانى : أن معناه قل يا محمد : بل عجبت ، وكان شريح يقرأ بالفتح ويقول: إن الله تعالى لا يعجب من شىء وإنما يعجب من لا يعلم ، فقال إبراهيم النخعي : إن شريحًا كان يعجبه علمه وعبد الله أعلم منه ، وكان يقرأ بالضم يريد عبد الله بن مسعود ، قال الزجاج : وإنكار هذه القراءة غلط ، لأن العجب من الله تعالى خلاف العجب من الآدميين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤] وقوله : ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة:٧٩] وما أشبهه ، وفى الذى وقع منه العجب قولان : أحدهما كفرهم بالقرآن . والثانى : إنكارهم البعث .

٩٢٧ – فإن قيل : كيف مدح سبحانه نوحًا عليه السلام بقوله : ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات:٨١] مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين ؟

قلنا : إنما مدحه بذلك تنبيهًا لنا على جلالة محل الإيمان وشرفه ، وترغيبًا فى تحصيله والثبات عليه والازدياد منه كما قال تعالى فى مدح إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧] .

٩٢٨ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ [الصافات:٨٨] والنظر إنما يعدى بإلى ، قال الله تعالى : ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣] وقال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٥٠]؟

قلنا : "فى" هنا بمعنى إلى كما فى قوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾ [إبراهيم:٩] .

الثانى : أن المراد به نظر الفكر لا نظر العين ، ونظر الفكر إنما يعدى بفى قال الله تعالى : ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:١٨٥] فصار المعنى ففكر فى علم النجوم أو فى حال النجوم .

٩٢٩ - **فإن قيل** : كيف استجاز إبراهيم عليه السلام أن يقول : ﴿ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات:٨٩] ولم يكن سقيماً ؟

قلنا : معناه سأسقم كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ﴾ [الزمر:٣٠] فهو من معاريض الكلام قاله ليتخلف عنهم إذا خرجوا إلى عيدهم فيكيد أصنامهم ، وقال ابن الأنبارى : أعلمه الله تعالى أنه يمتحنه بالسقم إذا طلع نجم كذا ، فلما رآه علم أنه سيسقم ، وقيل معناه : إنى سقيم القلب عليكم إذا عبدتم الأصنام وتكهنتم بنجوم لا تضر ولا تنفع ، وقيل : إنه عرض له مرض وكان سقيماً حقيقة، وقال الزمخشرى : قد جوز بعض الناس الكذب فى المكيدة فى الحرب والتقية وإرضاء الزوج والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين ، قال : والصحيح أن الكذب حرام إلا إذا عرْض وروى إبراهيم صلوات الله عليه عرض بقوله وروى : فإنه أراد أن فى عنقه الموت سقيم ، كما قيل فى المثل : "كفى بالسلامة داء" وقال لبيد:

ودعوت ربى بالسلامة جاهدًا ليُصحنى فإذا السلامة داء [1]

وروى أن رجلاً مات فجأة فاجتمع عليه الناس وقالوا : مات وهو صحيح فقال أعرابي : أصحيح مَنْ الموت فى عنقه ؟

٩٣٠ - **فإن قيل** : لم لا يجوز النظر فى علم النجوم مع أن إبراهيم عليه

---

(١) سبقت ترجمته .

الصلاة والسلام قد نظر فيه وحكم منه ؟

قلنا : إذا كان المنجم كإبراهيم فى أن الله تعالى أراه ملكوت السموات والأرض أبيح له النظر فى علم النجوم والحكم منه .

٩٣١ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ۝ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:٩٣، ٩٤] أى : يسرعون ، يدل على أنهم عرفوا أنه هو الكاسر لها ، وقوله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء:٥٩] وما بعده يدل على أنهم ما عرفوا أنه الكاسر لها ، فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : يجوز أن يكون الذى عرفه وزف إليه بعضهم ، والذى جهله وسأل عنه بعض آخر ، ويجوز أن الكل جهلوه وسألوا عنه ، فلما عرفوا أنه الكاسر لها زفوا إليه كلهم .

٩٣٢ - **فإن قيل** : ما معنى قوله صلوات الله عليه : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات:٩٩]؟

قلنا : معناه : إلى حيث أمرنى ربى بالمهاجرة وهو الشام ، وقيل : إلى طاعة ربى ورضاه ، وقيل : إلى أرض ربى ، وإنما خصها بالإضافة إلى الله تعالى تشريفًا لها وتفضيلاً لأنها أرض مقدسة مبارك فيها للعالمين ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن:١٨] وقوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] .

٩٣٣ - **فإن قيل** : ما معنى قوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] وهو كان مهتديًا ؟

قلنا : معناه سيثبتنى على ما أنا عليه من الهدى ويزيدنى هدى ، وقيل: معناه : سيهدين إلى الجنة ، وقيل إلى الصواب فى جميع أحوالي ، ونظيره قول

موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء:٦٢] .

٩٣٤ - فإن قيل : كيف شاور إبراهيم ولده عليهما السلام فى ذبحه بقوله : ﴿ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات:١٠٢] مع أنه كان حتمًا على إبراهيم لأنه أمر به ، لأن معنى قوله : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ ﴾ [الصافات:١٠٢] أنه أمر بذبحه فى المنام ، ورؤيا الأنبياء حق فإذا رأوا شيئًا فى المنام فعلوه فى اليقظة كذا قاله قتادة ، والدليل على أن منامه كان وحيًا بالأمر بالذبح قوله : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ [الصافات:١٠٢] ؟

قلنا : لم يشاوره ليرجع إلى رأيه فى ذلك ، ولكن ليعلم ما عنده من الصبر فيما نزل به من بلاء الله تعالى ، فيثبت قدمه إن جزع ، ويأمن عليه الزلل إن صبر وسلم ، وليعلم القصة فيوطن نفسه على الذبح ، ويهونه عليها فيلقى البلاء وهو كالمستأنس به ، ويكتسب الثواب بالانقياد والصبر لأمر الله تعالى قبل نزوله ، وليكون سنة فى المشاورة ، فقد قيل : لو شاور آدم الملائكة فى أكل الشجرة لما فرط منه ذلك .

٩٣٥ - فإن قيل : كيف قيل له : ﴿ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ [الصافات:١٠٥] وإنما يكون مصدقًا لها لو وجد منه الذبح ولم يوجد ؟

قلنا : معناه : قد فعلت غاية ما فى وسعك مما يفعله الذابح من إلقاء ولدك وإمرار الشفرة على حلقه ، ولكن الله تعالى منع الشفرة أن تقطع ، وقيل : إن الذى رآه فى المنام معالجة الذبح فقط لا إراقة الدم ، وقد فعل ذلك فى اليقظة فكان مصدقًا للرؤيا .

٩٣٦ - فإن قيل : أين جواب "لما" فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا ﴾ [الصافات:١٠٣] ؟

قلنا : قيل هو محذوف تقديره : استبشرا واغتبطا وشكرًا لله تعالى على ما.

أنعم به عليهما من الفداء ، سعدا ، أو أجزل ثوابهما ، وقيل : الجواب هو قوله تعالى : ﴿وَنَـٰدَيۡنَـٰهُ﴾ [الصافات:٦] والواو زائدة كما فى قول امرئ القيس :

فلما أجزنا ساحة الحى وانتحى بنا بطن خبت ذى خفاف عقنقل

أى : فلما أجزنا ساحة الحى انتحى ، كذا نقله ابن الأنبارى فى شرحه :

٩٣٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى قصة إبراهيم عليه السلام : ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:١١٠] وفى غيرها من القصص قبلها وبعدها : ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:٨٠] ؟

قلنا : لما سبق فى قصة إبراهيم عليه السلام مرة : ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات:٨٠] طرحه فى الثانى تخفيفًا واختصارًا واكتفاء بذكره مرة بخلاف سائر القصص .

٩٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِذۡ نَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ﴾ [الصافات:١٣٣، ١٣٤] وهو كان من المرسلين قبل زمان التنجية؟

قلنا : قوله : ﴿إِذۡ نَجَّيۡنَـٰهُ﴾ [الصافات:١٣٤] لا يتعلق بما قبله بل يتعلق بمحذوف تقديره : واذكر لهم يا محمد إذ نجيناه أو أنعمنا عليه إذ نجيناه ، وكذا السؤال فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الصافات:١٣٩، ١٤٠].

٩٣٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَرۡسَلۡنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] و " أو " كلمة شك والشك على الله محال ؟

قلنا : قيل أو هنا بمعنى بل فلا شك ، وقيل بمعنى الواو كما فى قوله تعالى : ﴿أَوۡ لَـٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء:٤٣] وقوله تعالى : ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ [المرسلات:٦]

وقيل : معناه أو يزيدون فى تقديركم ، فلو رآهم أحد منكم لقال هم مائة ألف أو يزيدون ، فالشك إنما دخل فى حكاية قول المخلوقين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩].

٩٤٠ - **فإن قيل** : ما فائدة تكرار الأمر بالتولية والإبصار فى قوله تعالى : ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات:١٧٤، ١٧٥] الآيات ؟

قلنا : فائدته تأكيد التهديد والوعيد .

٩٤١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ [الصافات:١٧٥] ثم قال ثانيًا: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ [الصافات:١٧٩] ؟

قلنا : طرح ضمير المفعول تخفيفًا واختصارًا واكتفاء بسبق ذكره مرة ، وقيل: معنى الأول : وأبصرهم إذا نزل بهم العذاب .

ومعنى الثانى : وأبصر العذاب إذا نزل بهم ، فلا فرق بينهما فى المعنى .



سورة ص

٩٤٢ - فإن قيل : أين جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص:١]؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها : أنه لما ذكر حرفًا من حروف المعجم على سبيل التحدي والتنبيه على الإعجاز كما قيل فى كل سورة مفتتحة بحرف أتبعه القسم محذوف الجواب لدلالة التحدي عليه ، كأنه قال : والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز ، وكذلك إذا كان الحرف مقسمًا به كأنه قال : أقسمت بص والقرآن ذي الذكر إن هذا الكلام معجز .

الثانى : أن ص خبر مبتدأ محذوف على أنه اسم السورة ، كأنه قال هذه ص: يعنى هذه السورة التى أعجزت العرب والقرآن ذي الذكر كما تقول : هذا حاتم والله ، تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله .

الثالث : أن جواب القسم (كم أهلكنا) ، وأصله لكم أهلكنا ، فلما طال الكلام حذفت اللام تخفيفًا كما فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس:١] ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩] .

الرابع : أن قوله تعالى : ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص:٦٤] وهو قول الكسائى ، وقال الفراء : وهذا لا يستقيم فى العربية لتأخره جدًا عن القسم.

٩٤٣ - فإن قيل : ما وجه المناسبة والارتباط بين قوله تعالى : ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ص:١٧] وبين قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ [ص:١٧]؟

قلنا : وجه المناسبة بينهما أنه أمر أن يتقوى على الصبر بذكر قوة داود عليه

السلام على العبادة والطاعة .

الثانى : أن المعنى عرفهم أن داود عليه السلام مع كرامته وشهرة طاعته وعبادته التى منها صوم يوم دون يوم وقيام نصف الليل كان شديد الخوف من عذابي لا يزال باكيًا مستغفرًا ، فكيف حال هؤلاء مع أفعالهم .

٩٤٤ - فإن قيل : كيف قال الملكان لما دخلا على داود عليه السلام : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢٢] والملائكة لا يوجد منهم البغي والظلم ، وكيف قال : ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ [ص:٢٣] إلى آخره، ولم يكن كما قال ؟

قلنا : إنما قالا ذلك على سبيل الفرض والتصوير للمسألة ، ومثل ذلك لا يعد كذبًا كما تقول فى تصوير المسائل ، زيد له أربعون شاة وعمرو له أربعون وأنت تشير إليهما ، فخلطاها وحال عليها الحول ، كم يجب فيها وليس لهما شيء، وتقول لى : أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها وما لكم شىء .

٩٤٥ - فإن قيل : كيف حكم داود عليه السلام على المدعى عليه بكونه ظالمًا قبل أن يسمع كلامه ؟

قلنا : لم يحكم عليه إلا بعد اعترافه كذا نقله السدى ، إلا أنه حذف ذكر الاعتراف فى القصة اختصارًا لدلالة الحلال عليه ، كما تقول العرب : أمرته بالتجارة فكسب الأموال ، أى فاتجر فكسب الأموال .

٩٤٦ - فإن قيل : ما معنى تكرار الحب فى قوله عليه السلام : ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص:٣٢] وما معنى تعديته بعن وظاهره أحببت حبًا مثل حب الخير ، كما تقول أحببت حب زيد: أى أحببت حبًا مثل حب زيد ؟

قلنا : أحببت فى الآية بمعنى آثرت ، كما يقول المخير بين شيئين ، أحببت

هذا ، أى آثرته ، وقد جاء استحب بمعنى آثر ، قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ أى آثروه: لأن من الحب شيئًا فقد آثره على غيره ، وعن بمعنى على كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد:٣٨] فيصير المعنى : أى آثرت حب الخير على ذكر ربى.

الثاني : وهو اختيار الجرجانى صاحب معانى القرآن أن أحببت بمعنى قعدت وتأخرت مأخوذ من أحب الجمل إذ برك ، ومنه قول الشاعر :

دعتك إليها مقلتاها وجيدها فملت كما مال المحب على عمد [1]

فالمحب هنا الجمل ، والعمد علة تكون فى سنام الجمل ، وكل من ترك شيئًا وتجنب أن يفعله فقد قعد عنه ، فتأويل الآية : إنى قعدت عن ربى لحب الخير ، فيكون انتصاب حب على أنه مفعول له .

٩٤٧ - فإن قيل : كيف قال سليمان عليه السلام : ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥] وهذا أشبه بالحسد والبخل بنعم الله تعالى على عبيده بما لا يضر سليمان عليه السلام ؟ .

قلنا : قال الحسن وقتادة رحمهما الله ، المراد به لا ينبغى لأحد أن يسلبه منى فى حياتى كما فعله الشيطان الذى لبس خاتمه وجلس على كرسيه .

الثانى : أن الله تعالى علم أنه لا يقوم غيره من عباده بمصالح ذلك الملك ، فاقتضت حكمته تخصيصه به فألهمه أن يسأله تخصيصه به .

الثالث : أنه أراد بذلك ملكًا عظيمًا فعبر عنه بتلك العبارة ، ولم يقصد بذلك إلا عظم الملك وسعته كما تقول لفلان : ما ليس لأحد مثله من الفضل أو من المال ، وتريد بذلك عظم فضله أو ماله ، وإن كان فى الناس أمثاله .

---

(١) البيت لأبى ذؤيب الهذلى .

٩٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف أيوب عليه السلام : ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾ [ص:٤٤] مع أن الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى على ما قيل وهو قد شكا؟

قلنا : الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر ولا تسمى جزعًا لما فيها من إظهار الخضوع والعبودية لله تعالى والافتقار إليه ، ويؤيده قول يعقوب عليه السلام : ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦] مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:١٨] وقولهم : الصبر ترك الشكوى ، يعنى إلى العباد .

الثانى : أنه ﷺ إنما طلب الشفاء من الله تعالى بعد ما لم يبق منه إلا قلبه ولسانه خيفة على قومه أن يفتنهم الشيطان بما كان يوسوس إليهم به ويقول : إنه لو كان أيوب نبيًا لما ابتلى بما هو فيه ولدعا الله تعالى بكشف ضره ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال فى مناجاته : "**إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ، ولم يلهنى ما ملكت يمينى، ولم آكل إلى ومعى يتيم، ولم أبت شبعان ولا كاسيًا ومعى جائع أو عريان ، فكشف الله تعالى ضره**" .

٩٤٩ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص:٧٨] يدل على أن غاية لعنة الله لإبليس يوم القيامة ثم تنقطع ؟

قلنا : كيف تنقطع وقد قال تعالى : ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ يعنى يوم القيامة : ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤] وإبليس أظلم الظلمة ، ولكن مراده فى الآية أن عليه اللعنة فى طول مدة الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة اقترن له باللعنة من أنواع العذاب ما تنسى عنده اللعنة وكأنها انقطعت .

*** *** ***

سورة الزمر

٩٥٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣] وكم من كاذب كفار قد هداه الله تعالى فأسلم وصدق ؟

قلنا : معناه لا يهديه إلى الإيمان ما دام على كفره وكذبه ، وقيل معناه : لا يهديه إلى حجة يلزم بها المؤمنين .

٩٥١ - فإن قيل : كيف يصلح قوله تعالى : ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الزمر:٤] ردًا لقول من ادعى أن ولدًا وإبطالاً لذلك، مع أنه كل من نسب إليه ولدًا قال : إنه اصطفاه من خلقه بجعله ولدًا ، فاليهود يدعون أنه عزير ، والنصارى يدعون أنه المسيح عليهما السلام ، وطائفة من مشركى العرب يدعون أن الملائكة بنات الله تعالى ؟

قلنا : هذا إن جعل ردًا على اليهود والنصارى كان معناه لاصطفى الولد من الملائكة لا من البشر ، لأن الملائكة أشرف من البشر بلا خلاف بين اليهود ولا بين النصارى ، وإن كان ردًا على مشركى العرب كان معناه لاصطفى له ولدًا من جنس يخلق كل شيء يريده ليكون ولدًا موصوفًا لصفته ، ولم يصطف من الملائكة الذين لا يقدرون على إيجاد جناح بعوضة ولا يرد على هذا خلق عيسى عليه السلام الطير لأنه ليس بعام ، أو لأن معنى خلقه التقدير من الطين ، ثم الله تعالى يخلقه حيوانًا بنفخ عيسى عليه السلام وإظهارًا لمعجزته .

٩٥٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:٦] وخلق حواء من آدم عليه السلام سابق على خلقنا منه ، فكيف عطفه عليه بكلمة (ثم) ؟

قلنا : ثم هنا للترتيب فى الإخبار لا فى الإيجاد ، كما تقول لصاحبك : أعطيتك اليوم كذا ثم أعطيتك أمس أكثر منه ، أي : ثم أخبرك بكذا ، ومنه قول الشاعر :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده (١)

الثانى : أن ثم متعلقة بمعنى واحدة وعاطفة عليه لا على خلقكم ، فمعناه: خلقكم من نفس واحدة ، وأفردت بالإيجاد ثم شفعت بزوج .

الثالث: أن ثم على ظاهرها ، لأن الله تعالى خلق آدم ثم أخرج أولاده من ظهره كالذر ، وأخذ عليهم الميثاق ثم ردهم إلى ظهره ثم خلق منه حواء ، فالمراد بقوله تعالى : خلقكم خلقًا يوم أخذ الميثاق دفعة واحدة لأن هذا الخلق الذى نحن فيه بالتوالد والتناسل .

٩٥٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر:٦] مع أن الأنعام مخلوقة فى الأرض لا منزلة من السماء ؟

قلنا : قيل : إن الله تعالى خلق الأزواج الثمانية فى الجنة ثم أنزلها على آدم عليه السلام بعد إنزاله .

الثانى : أن الله تعالى أنزل الماء من السماء ، والأنعام لا توجد إلا بوجود النبات ، والنبات ، لا يوجد إلا بوجود الماء ، فكأن الأنعام منزلة من السماء ، ونظيره قوله تعالى : ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ [الأعراف:٢٦] وإنما أنزل الماء الذى لا يوجد القطن والكتان والصوف إلا به .

٩٥٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف الذى جاء بالصدق وصدق به: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟

---

(١) البيت لأبي نواس .

﴿يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر:٣٥] مع أنه سبحانه وتعالى يكفر عنهم سيئ أعمالهم ويجزيهم بحسنها أيضًا ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى سورة التوبة .

٩٥٥ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر:٤٤] مع أنه جاء فى الإخبار أن للأنبياء والعلماء والشهداء والأطفال شفاعة يوم القيامة؟

قلنا : معناه : أن أحدًا لا يملكها إلا بتمليكه ، كما قال تعالى : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقال تعالى : ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] .

٩٥٦ – **فإن قيل** : كيف ذكر الضمير فى أوتيته وهو للنعمة فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾ قال : ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ [الزمر:٤٩] ؟

قلنا : إنما ذكره نظرًا إلى المعنى ، لأن معنى نعمة شيئًا من النعمة وقسمًا منها، أو لأن النعمة والإنعام بمعنى واحد .

٩٥٧ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:٥٥] والقرآن كله حسن ؟

قلنا : معناه اتبعوا أحسن وحى أو كتاب أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن كله ، وقيل : أحسن القرآن الآيات المحكمات ، وقيل : أحسنه كل آية تضمنت أمرًا بطاعة أو إحسان وقد سبق نظير هذه الآية فى سورة الأعراف فى قوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] والأجوبة المذكورة ثم تصلح هنا، وكذا الأجوبة المذكورة هنا تصلح ثمة إلا الجواب الأول .

٩٥٨ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾ [الزمر:٦٥] مع أن الموحى إليهم جماعة ، ولما أوحى إلى من قبله لم

يكن فى الوحى إليهم خطابه ؟

قلنا : معناه ولقد أوحى إلى كل واحد منك ومنهم لئن أشركت .

الثانى: أن فيه إضمار تقديره : ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك التوحيد ، ثم ابتدأ فقال : لئن أشركت .

الثالث : أنه فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره : ولقد أوحى إليك لئن أشركت ، وكذلك أوحى إلى الذين من قبلك.

٩٥٩ - فإن قيل : كيف عبر سبحانه عن الذهاب بأهل الجنة النار بلفظ السوق فى قوله تعالى : ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا﴾ [الزمر:٧١] الآيتان وفيه نوع إهانة؟

قلنا : المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم حثا وإسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يشرف ويكرم من الوافدين على السلطان ، فشتان ما بين السوقين .

٩٦٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف النار : ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧١] بغير واو وقال فى وصف الجنة : ﴿وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر:٧٣] بالواو ؟

قلنا : فيه وجوه ، **أحدها**: أنها زائدة قاله الفراء وغيره .

الثانى : أنها واو الثمانية وأبواب الجنة ثمانية .

الثالث : أنها واو الحال معناه : جاؤوها وقد فتحت أبوابها قبل مجيئهم ، بخلاف أبواب النار فإنها إنما تفتح عند مجيئهم والحكمة فى ذلك من وجوه ، **أحدها** : أن يستعجل أهل الجنة الفرح والسرور إذا رأوا الأبواب مفتحة ، وأهل النار يأتون النار وأبوابها مغلقة ليكون أشد لحرها .

الثانى أن الوقوف على الباب المغلق نوع ذل وهوان ، فصين عنه أهل الجنة لا أهل النار .

الثالث : أن الكريم يعجل المثوبة ويؤخر العقوبة ، فلو وجد أهل الجنة بابها مغلقًا لأثر انتظار فتحه فى كمال الكريم بخلاف أهل النار .

*** *** ***

سورة المؤمن " غافر "

٩٦١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر:٤] مع أن الذين آمنوا يجادلون أيضًا فيها ، هل هى منسوخة أم محكمة ، وهل فيها مجاز أم كلها حقيقة ، وهل هى مخلوقة أم قديمة وغير ذلك ؟

قلنا : المراد الجدال فيها بالتكذيب ودفعها بالباطل والطعن بقصد إدحاض الحق وإطفاء نور الله تعالى ، ويدل عليه قوله تعالى عقيبه : ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر:٥] .

٩٦٢ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى فى وصف حملة العرش : ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر:٧] ولا يخفى على أحد أن حملة العرش يؤمنون بالله تعالى ؟

قلنا : فائدته إظهار شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه كما وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالصلاح والإيمان فى غير موضع من كتابه لذلك ، وكما عقب أعمال الخير بقوله تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد:١٧] .

٩٦٣ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١] كيف صح أن يسمى خلقهم أمواتًا إماتة؟

قلنا : هذا كما تقول سبحان من صغر جسم البعوضة وكبر جسم الفيل، وكما تقول للحفار : ضيق فم الركية ووسع أسفلها ، وليس فيهما نقل من كبر إلى صغر ومن صغر إلى كبر ، ولا من سعة إلى ضيق ولا من ضيق إلى سعة ، وإنما أردت الإنشاء على تلك الصفات ، والسبب فى صحة أن الصغر والكبر جائزان معًا على ذات المصنوع الواحد من غير ترجيح لأحدهما ، وكذلك الضيق والسعة ، وإذا اختار الصانع أحد الجائزين وهو متمكن منهما على السواء فقد

صرف المصنوع عن الجائز الآخر ، فجعل صرفه عنه كنقله منه .

٩٦٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر:١٦] بيان وتقرير لبروزهم فى قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ [غافر:١٦] والله تعالى لا يخفى عليه شىء برزوا أو لم يبرزوا ؟

قلنا : معناه : لا يخفى على الله منهم شىء فى اعتقادهم أيضًا ، فإنهم كانوا فى الدنيا يتوهمون إذا تستروا بالحيطان والحجب لا يراهم الله ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢] .

٩٦٥ - فإن قيل : كيف قال المؤمن فى حق موسى عليه السلام : ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] مع أن صادق فى زعم القائل لهذا القول وفى نفس الأمر أيضًا ، ويلزم من ذلك أن يصيبهم جميع ما وعدهم لا بعضه فقط ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدهما : أن لفظه بعض صلة .

الثانى : أنها بمعنى "كل" كما فى قول الشاعر :

إن الأمور إذا الأحداث دبرها دون الشيوخ ترى فى بعضها خللاً [1]

ومنه قول لبيد :

أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذامها

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يرتبط بعض النفوس حمامها

قلنا : ولقائل أن يقول : إن لفظة بعض فى البيتين على حقيقتها ، وكنى لبيد بعض النفوس عن نفسه كأنه قال : أتركها إلى أن أموت ، وكذا فسره ابن

---

(١) البيت للخريمى ، وهو إسحاق بن حسان ، خراسانى الأصل .

الأنبارى على أن أبا عبيدة قال : إن ﴿ بَعۡضُ ﴾ فى الآية بمعنى كل ، واستدل ببيت لبيد ، وأنكر الزمخشرى على أبى عبيدة هذا التفسير على أن غير أبى عبيدة قال فى قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام لأمته : ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِى تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ ﴾ [الزخرف:٦٣] أن بعضًا فيه بمعنى كل .

الثالث : أنها على أصلها ، ثم فى ذلك وجهان : **أحدهما** أنه وعدهم النجاة إن آمنوا والهلاك إن كفروا ، فذكر لفظة بعض لأنهم على إحدى الحالتين لا محالة .

الثانى : أنه وعدهم على كفرهم الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وكان هلاكهم فى الدنيا بعضًا ، فمراده يصيبكم فى الدنيا بعض الذى يعدكم .

الرابع : أنه ذكر البعض بطريق التنزل والتلطف وإمحاض النصيحة من غير مبالغة ولا تأكيد ليسمعوا منه ولا يتهموه ، فيردوا عليه وينسبوه إلى ميل ومحاباة بموسى عليه السلام ، كأنه قال : أقل ما يصيبكم البعض وفيه كفاية ، ونظيره قول الشاعر :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل (١)

كأنه يقول : أقل ما يكون فى التأنى إدراك بعض المطلوب ، وأقل ما يكون فى الاستعجال الزلل ، فقد بان فضل التأنى على العجلة بما لا يقدر الخصم على دفعه ورده ، والوجه الرابع هو اختيار الزمخشرى رحمة الله عليه .

٩٦٦ – فإن قيل : التولى والإدبار واحد فما فائدة قوله تعالى : ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ﴾ [غافر:٣٣]؟

قلنا : هو تأكيد كقوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ ﴾ [النحل:٢٦]

---

(١) البيت للقطامى .

ونظائره كثيرة .

الثانى : أنه استثارة لحميتهم واستجلاب لأنفتهم لما فى لفظ (مدبرين) من التعريض بذكر الدبر ، فيصير نظير قوله تعالى : ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥] .

٩٦٧ - **فإن قيل** : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر:٣٦ ، ٣٧] وهلا قال : أبلغ أسباب السموات ، أى : أبوابها وطرقها ؟

قلنا : إذا أبهم الشيء ثم أوضح كان تفخيماً لشأنه وتعظيماً لمكانه ، فلما أراد تفخيم ما أمل بلوغه من أسباب السموات أبهمها ثم أوضحها .

٩٦٨ - **فإن قيل**: مثل السيئة سيئة فما معنى قوله تعالى : ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [غافر:٤٠]؟

قلنا : معناه أن جزاء السيئة له حساب وتقدير لا يزيد على المقدار المستحق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير حساب كما قال تعالى فى آخر الآية .

٩٦٩ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦] ينافى ذلك ؟

قلنا : ذلك لمنع النقصان لا لمنع الزيادة كما قال الله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس:٢٦] .

٩٧٠ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر:٤٩] ولم يقل : وقال الذين فى النار لخزنتها مع أنه أخصر ؟

قلنا : لأن فى ذكر جهنم تهويلاً وتفظيعًا ، وقيل : إن جهنم هى أبعد النار قعرًا ، وخزنتها أعلى الملائكة الموكلين بالنار مرتبة ، فإنما قصدهم أهل النار

بطلب الدعاء منهم لذلك .

٩٧١ – فإن قيل : كيف قال المشركون : ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ [غافر:٧٤] مع قولهم : ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾ [النحل:٨٦]؟

قلنا : معناه : أن الأصنام التى كنا نعبدها لم تكن شيئًا لأنها لا تنفع ولا تضر.

الثانى : أنهم قالوا كذبًا وجحدوا كقولهم : ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣] .

٩٧٢ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٨٠] ولم يقل : وفى الفلك تحملون ، كما قال تعالى : ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠]؟

قلنا : معنى الوعاء ومعنى الاستعلاء كلاهما صحيح فى الفلك ، لأنه وعاء لمن يكون فيه وحمولة لمن يستعليه ، فلما صح المعنيان استقامت العبارتان معًا.

❊❊ ❊❊ ❊❊

سورة فصلت

٩٧٣ - **فإن قيل** : ما فائدة زيادة "من" فى قوله تعالى : ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] مع أن المعنى حاصل بقوله تعالى : ﴿وبَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] ؟

قلنا : لو قيل : كذلك لكان المعنى أن حجابًا حاصل وسط الجهتين ، وأما بزيادة (من) فمعناه : أن الحجاب ابتداؤه منا ومنك ، فالمسافة المتوسطة بيننا وبينك مستوعبة بالحجاب لا فراغ فيها .

٩٧٤ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِى يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت:٩] إلى قوله تعالى : ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت:١٢] يدل على أن السموات والأرض وما بينهما خلقت فى ثمانية أيام وقال تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفرقان:٥٩] فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : معنى قوله تعالى : ﴿فِىٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:١٠] فى تتمة أربعة أيام ، لأن اليومين اللذين خلق فيهما الأرض من جملة الأربعة ، أو معناه : كل ذلك فى أربعة أيام يعنى خلق الأرض وما ذكر بعدها فصار المجموع ستة ، وهذا لا اختلاف فيه بين المفسرين .

٩٧٥ - **فإن قيل** : السموات وما فيها أعظم من الأرض وما فيها بأضعاف مضاعفة فما الحكمة فى أن الله خلق الأرض وما فيها فى أربعة أيام ، والسموات وما فيها في يومين ؟

قلنا :لأن السموات وما فيها من عالم الغيب ومن عالم الملكوت ومن عالم

الأمر والأرض وما فيها من عالم الشهادة والملك ، وخلق الأول أسرع من الثانى، ووجه آخر وهو أنه فعل ذلك ليعلم أن الخلق على سبيل التدريج والتمهيل فى الأرض وما فيها لم يكن للعجز عن خلقها دفعة واحدة بل كان لمصالح لا تحصل إلا بذلك ، ولهذه الحكمة خلق العالم الأكبر فى ستة أيام ، والعالم الأصغر وهو الإنسان فى ستة أشهر .

٩٧٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف أهل النار : ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [فصلت:٢٤] مع أنهم إن لم يصبروا على عذاب النار وجزعوا فالنار مثوى لهم أيضًا ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره ، فإن يصبروا أولا يصبروا فالنار مثوى لهم على كل حال ، ولا ينفعهم الصبر فى الآخرة كما ينفع الصبر فى الدنيا ، ولهذا قيل : الصبر مفتاح الفرج ، وقيل : من صبر ظفر .

الثانى : أن هذا جواب لقول المشركين فى حث بعضهم لبعض على إدامة عبادة الأصنام : ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص:٦] فقال الله تعالى فإن يصبروا على عبادة الأصنام فى الدنيا فالنار مثوى لهم فى العقبى .

٩٧٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف الكفار : ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٧] أى : بأسوأ أعمالهم ، مع أنهم يجزون بسيئ أعمالهم أيضًا ؟

قلنا : قد سبق نظير هذا السؤال في آخر سورة التوبة ، والجواب الأول هناك يصلح جوابًا هنا .

٩٧٨ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ [فصلت:٣٧] بعد قوله تعالى : ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ﴾ [فصلت:٣٧] وهو مستفاد من الأول بالطريق الأولى ؟

قلنا : فائدته ثبوت الحكم بأقوى الدليلين وهو النص ، والله أعلم .

سورة الشورى

٩٧٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [الشورى:٣] بلفظ المضارع ، والوحى إلى من قبل النبى ﷺ ماض ؟

قلنا : قال الزمخشرى : قصد بلفظ المضارع كون ذلك عادة وسنة لله تعالى ، وهذا لا يوجد فى لفظ الماضى ، قلت : ويحتمل أن يكون باعتبار وضع المضارع موضع الماضى كما فى قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الجاثية:٢٦] أو بإضمار وأوحى إلى الذين من قبلك .

٩٨٠ - **فإن قيل** : إلى ماذا يرجع الضمير فى قوله تعالى : ﴿ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾ [اشورى:١١] أى : يكثركم، وقيل : يخلقكم ، وقيل : يعيشكم فيه ؟

قلنا : معناه فى هذا التدبير أو فى الجعل المذكور ، وقيل : فى الرحم الذى دل عليه ذكر الأزواج .

٩٨١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ [الشورى:١١] وظاهره يقتضى إثبات المثل ونفى مثل المثل ، كما يقال : ليس كدار زيد دار ، فإنه يقتضى وجود الدار لزيد؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها أن المثل فى لغة العرب كناية عن الذات ، ومنه قولهم : مثلى لا يقال له كذا ، ومثلك لا يليق به كذا ، فمعناه ليس كهو شىء .

الثانى : أن الكاف زائدة للتأكيد ، والمعنى ليس كمثله شىء .

الثالث : أن مثل زائدة ، فيصير المعنى ليس كهو شىء كما مر فى الوجه الأول ، والفرق بين الوجهين أن المثل فى الوجه الأول كناية عن الذات ، وفى الوجه الثالث زائد مطروح كأنه لم يذكر .

٩٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] ولم يقل : إلا مودة القربى، أي القرابة ، وإلا المودة للقربى ؟

قلنا : جعلوا محلاً للمودة ومقرًا لها للمبالغة ، كأنه قال : إلا المودة الثابتة المستقرة فى القربى ، كما يقال : فى آل فلان مودة ، ولى فيهم هوى وحب شديد .

٩٨٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى:٢٩] والدواب إنما هى فى الأرض فقط ؟

قلنا : فيهما بمعنى فيها ، باعتبار إطلاق لفظ التثنية على المفرد كما فى قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح ، وقيل: إن الملائكة لهم دبيب مع طيرانهم أيضًا وهو مبثوثون فى السماء ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣٨] فتقييده بالأرض يدل على جود الدابة فى غير الأرض من حيث المفهوم .

٩٨٤ - فإن قيل : كيف قدم سبحانه وتعالى الإناث على الذكور فى قوله تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] مع تقدمهم عليهن ، ثم رجع فقدمهم عليهن ، ولم نكر الإناث وعرف الذكور ؟

قلنا : إنما قدم الإناث لأن الآية إنما سيقت لبيان عظمة ملكه ونفاذ مشيئته، وأنه فاعل ما يشاء لا ما يشاء عبيده ، فكان ذكر الإناث اللاتى من جملة ما لا يشاؤه عبيده أهم ، والأهم واجب التقديم ، فلما قدمهن وأخر الذكور لذلك المعنى تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقديم بتعريفهم لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام المشهورين الذين لا يخفون على أحد ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم والتأخير ، فعرف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ولكن لمقتض آخر فقال تعالى : ﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ [الشورى:٥٠] كما قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم

مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات:١٣] وقال : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ [القيامة:٣٩] .

٩٨٥ - فإن قيل : قوله : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى:٥١] الآية ، كيف يقال : إن الله تعالى كلم محمدًا ﷺ ليلة المعراج ، مواجهة بغير حجاب ولا واسطة ، وقد خص الله تعالى تكليمه للبشر فى طريق الوحى وهو الإلهام ، كما كلم أم موسى ، والإسماع من وراء حجاب كما كلم موسى عليه السلام ، وإرسال الرسول كما كلم الأنبياء بواسطة جبريل عيه السلام ، وكما كلم الأمم بواسطة الرسل ؟

قلنا : قيل المراد بالوحى الأول هنا الإشارة ، ومنه قولهم : وحى العين ووحى الحاجب : أى إشارتهما ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ ﴾ [مريم:١١] فتكليمه لمحمد ﷺ ليلة المعراج كان مواجهة بالإشارة .

٩٨٦ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢] كيف كان لا يعلم الإيمان قبل أن يوحى إليه، والإيمان هو التصديق بوجود الصانع وتوحيده ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم كانوا مؤمنين بالله قبل أن يوحى إليهم بأدلة عقولهم ؟

قلنا : المراد بالإيمان هنا شرائع الإيمان وأحكامه ، كالصلاة والصوم ونحوها، وقيل : المراد به الكلمة إلى بها دعوة الإيمان والتوحيد وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والإيمان بهذا التفسير إنما علمه بالوحى كما علم الكتاب وهو القرآن لا بالعقل .

*** *** ***

سورة الزخرف

٩٨٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣] ولم يقل : قلناه أو أنزلناه، والقرآن ليس بمجعول لأن الجعل هو الخلق ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١] وقوله تعالى : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٩] ؟

قلنا : الجعل أيضًا يأتى بمعنى القول ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ [النحل:٥٧] وقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [إبراهيم:٧١] أى : قالوا ووصفوا لا أنهم خلقوا كذلك هنا .

٩٨٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف:٤٥] والنبى ﷺ ما لقيهم حتى يسألهم ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : واسأل أتباع من أو أمة من أرسلنا من قبلك.

الثانى : أنه مجاز عن النظر فى أديانهم والبحث عن مللهم هل فيها ذلك .

الثالث : أن النبى ﷺ حشر له الأنبياء عليهم السلام ليلة المعراج ، فلقيهم وأمَّهم فى مسجد بين المقدس ، فلما فرغ من الصلاة نزلت عليه هذه الآية والأنبياء حاضرون ، فقال : لا أسأل قد كفيت ، وقيل : إنه خطاب له والمراد به أمته .

٩٨٩ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف:٤٨] يعنى الآيات التسع التى جاء بها موسى ﷺ ، فإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر مما سواها لزم أن يكون كل واحدة فاضلة ومفضولة ، وإن كان المراد به أن كل واحدة منهن أكبر من أخت معينة لها فأتيها

هى الكبرى وأتيها هى الصغرى ؟

قلنا : المراد بذلك أنهن موصوفات بالكبرى لا يكدن يتفاوتن فيه ، ونظيره بيت الحماسة :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التى يسرى بها السارى

٩٩٠ – **فإن قيل** : كيف قال عيسى عليه السلام لأمته : ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف:٦٣] ؟

قلنا : كانوا يختلفون فيما يعنيهم من أمر الديانات وفيما لا يعنيهم من أمور أخرى ، فكان يبين لهم الشرائع والأحكام خاصة ، وقيل : إن البعض هنا بمعنى الكل كما سبق فى سورة المؤمن فى قوله تعالى : ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨] .

٩٩١ – **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [الزخرف:٦٦] بعد قوله : ﴿بَغْتَةً﴾ [الزخرف:٦٦] أى فجأة ؟

قلنا : فائدته أنها تأتيهم وهم غافلون مشغولون بأمور دنياهم ، كما قال تعالى : ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس:٤٩] فلولا قوله : ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون حذرون مستعدون لها .

٩٩٢ – **فإن قيل** : كيف وصف أهل النار فيها بكونهم مبلسين ، والمبلس هو الآيس من الرحمة والفرج ، ثم قال تعالى : ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] فطلبوا الفرج بالموت ؟

قلنا : تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة فتختلف فيها أحوالهم ، فيغلب عليهم اليأس تارة فيسكنون ، ويشتد ما بهم من ألم العذاب تارة فيستغيثون.

٩٩٣ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ﴾ [الزخرف:٨٤] ظاهره يقتضى تعدد الآلهة لأن النكرة إذا أعيدت تعددت كقوله: له على درهم ودرهم، وأنت طالق وطالق ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما : لن يغلب عسر يسيرين .

قلنا : الإله هنا بمعنى المعبود بالنقل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام:٣] فصار المعنى : وهو الذى فى السماء معبود وفى الأرض معبود ، والمغاير ثابتة بين معبوديته فى السماء ومعبوديته فى الأرض لأن العبودية من الأمور الإضافية فيكفى فى تغايرهما التغاير من أحد الطرفين فإذا كان العابد فى السماء غير العابد فى الأرض صدق أن معبوديته فى السماء غير معبوديته فى الأرض مع أن المعهود واحد .

*** *** ***

سورة الدخان

٩٩٤ - **فإن قيل** : الخلاف بين النبى ﷺ ومنكرى البعث إنما كان فى الحياة بعد الموت لا فى الموت ، فكيف قال تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٣٤، ٣٥] ولم يقل : إلا حياتنا ، كما قال تعالى فى موضع آخر: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٢٩] وما معنى وصف الموتة بالأولى كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الموتة الأولى ؟

قلنا : لما وعدوا موتة تكون بعدها حياة نفوا ذلك ، كأنهم قالوا : لا تنفع فى الوجود موتة تكون بعدها حياة إلا ما كنا فيه من موتة العدم وبعثنا منه إلى حياة الوجود ، وقيل : إنهم نفوا بذلك الموتة الثانية فى القبر بعد إحيائهم لسؤال منكر ونكير .

٩٩٥ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٨] والعذاب لا يصب ، وإنما يصب الحميم كما قال فى موضع آخر : ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج:١٩] ؟

قلنا : هو استعارة ليكون الوعد أهول وأهيب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر:١٣] وقوله تعالى : ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة:٢٥٠] وقول الشاعر :

صبت عليهم صروف الدهر من صبب

٩٩٦ - **فإن قيل** : كيف وعد الله أهل الجنة بلبس الإستبرق وهو غليظ الديباج فى قوله تعالى : ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الدخان:٥٣] مع أن لبس الغليظ من الديباج عند السعداء من أهل الدنيا عيب ونقص ؟

قلنا : كما أن رفيق ديباج الجنة وهو السندس لا يماثل رقيق ديباج الدنيا إلا في الاسم فقط ، فكذلك غليظ ديباج الجنة ، وقيل : السندس لباس السادة من أهل الجنة ، والإستبرق لباس العبيد والخدم إظهارًا لتفاوت المراتب .

٩٩٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف أهل الجنة : ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] مع أن الموتة الأولى لم يذوقوها فى الجنة؟

قلنا : قال الزجاج والفراء: إلا هنا بمعنى سوى كما فى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢] وقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧] .

الثانى : أن إلا بمعنى بعد كما قال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٢].

الثالث : أن السعداء إذا حضرتهم الوفاة كشف لهم الغطاء وعرضت عليهم منازلهم ومقاماتهم فى الجنة ، وتلذذوا فى حال النزع بروحها وريحانها ، فكأنهم ماتوا فى الجنة وهذا قول ابن قتيبة رحمه الله .

*** *** ***

سورة الجاثية

٩٩٨ - فإن قيل : كيف يطابق الجواب السؤال فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية:٢٥، ٢٦] ؟

قلنا : وجه المطابقة أنهم ألزموا بما هم مقرون به من أن الله تعالى هو الذى أحياهم أولاً ثم يميتهم ، ومن كان قادرًا على ذلك كان قادرًا على جمعهم يوم القيامة ، فيكون قادرًا على إحياء آبائهم .

٩٩٩ - فإن قيل : كيف أضاف الكتاب إلى الأمة ، وإليه فى قوله تعالى : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية:٢٩] ثم قال: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ [الجاثية:٢٩]؟

قلنا : الإضافة تصح بأدنى ملابسة ، وقد لابسهم الكتاب بكون أعمالهم مثبتة فيه ، ولابسه بكونه مالكه وكونه آمرًا للملائكته أن يكتبوا فيه أعمالهم.

*** *** ***

سورة الأحقاف

١٠٠٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٦] مع أن حسن ما عملوا يتقبل عنهم أيضًا ؟

قلنا : أحسن بمعنى حسن ، وقد سبق نظيره فى سورة الروم .

١٠٠١ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى وصف الفريقين : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف:١٩] مع أن أهل النار لهم دركات لا درجات ؟

قلنا : الدرجات الطبقات من المراتب مطلقًا من غير اختصاص .

الثانى : أنه فيه إضمارًا تقديره : ولكل فريق درجات أو دركات مما عملوا ، إلا أنه حذفه اختصارًا لدلالة المذكور عليه .

١٠٠٢ - فإن قيل : كيف طابق الجواب السؤال فى قوله تعالى : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحقاف:٢٢، ٢٣] ؟

قلنا : طابقه من حيث إن قولهم : ذلك استعجال للعذاب الذى توعدهم به بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف:٢٤] فقال لهم لا علم لى بوقت تعذيبكم ، بل الله تعالى هو العالم به وحده .

١٠٠٣ - فإن قيل : كيف قال بتعالى فى وصف الريح : ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف:٢٥] وكم من شىء لم تدمره ؟

قلنا : معناه : تدمر كل شىء مرت به من أموال قوم عاد وأملاكهم .

١٠٠٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف:٣١] ولم يقل : يغفر لكم ذنوبكم ؟

قلنا : لأن الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كمظالم العباد نحوها .

سورة محمد

١٠٠٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ [محمد:٣] ولم يسبق ضرب مثل ؟

قلنا : معناه : كذلك يبين الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيئات الكافرين ، وقيل : أراد به أنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، أو أنه جعل الإضلال مثلاً لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلاً لفوز المؤمنين .

١٠٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى فى حق الشهداء بعد ما قتلوا فى سبيل الله ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ ﴾ [محمد:٥] والهداية إنما تكون قبل الموت لا بعد ؟

قلنا : معناه : سيهديهم إلى محاجة منكر ونكير ، وقيل : سيهديهم يوم القيامة إلى طريق الجنة .

١٠٠٧ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ﴾ [محمد:١٥] إلى قوله تعالى : ﴿كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ﴾ [محمد:١٥] ؟

قلنا : قال الفراء : معناه أمن كان فى هذا النعيم كمن هو خالد فى النار.

وقال غيره : تقديره : مثل الجنة الموصوفة كمثل جزاء من هو خالد فى النار فحذف منه ذلك إيجازًا واختصارًا .

١٠٠٨ - فإن قيل : كيف قال تبارك وتعالى للنبى ﷺ : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩] وهو عالم بذلك قبل أن يوحى إليه وبعده ؟

قلنا : معناه : اثبت على ذلك العلم ، وقال الزجاج : الخطاب أنه ﷺ ، والمراد أمته كما ذكرنا فى أول سورة الأحزاب .

سورة الفتح

١٠٠٩ - **فإن قيل** : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة فقال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح:١، ٢] الآية ؟

قلنا : لم يجعله علة للمغفرة بل لاجتماع ما وعده من الأمور الأربعة ، وهى المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، وقيل : الفتح لم يكن إتمام النعمة والنصر العزيز حاصلاً وإن كان الباقى حاصلاً ، ويجوز أن يكون فتح مكة سببًا للمغفرة من حيث أنه جهاد للعدو .

١٠١٠ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢] إن كان المراد بها تأخر ذنبًا يتأخر وجوده عن الخطاب بهذه الآية فهو معدوم عند نزولها ، فكيف يغفر الذنب المعدوم ، وإن كان المراد به ذنبًا وجد قبل نزولها فهو متقدم فكيف سماه متأخرًا ؟

قلنا : المراد بما تقدم قصة مارية ، وبما تأخر قضة امرأة زيد ، وقيل : المراد بما تقدم ما وجد منه ، وبما تأخر ما لم يوجد منه على معنى أنه موعود بمغفرته على تقدير وجوده ، أو على طريق المبالغة كقولهم : فلان يضرب من يلقاه ومن لا يلقاه ، بمعنى يضرب كل أحد ، فكذا هنا معناه ليغفر لك الله كل ذنب ، فالحاصل أن الذنب المتأخر متقدم على نزول الآية ، وإن كان متأخرًا بالنسبة إلى شيء آخر قبله أو متأخرًا عن نزولها وهو موعود بمغفرته ، أو على طريق المبالغة كما بينا .

١٠١١ - **فإن قيل** : ما معنى قوله : ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢] وهو مهدى إلى الصراط المستقيم ، ومهدى به أمته أيضًا ؟

قلنا : معناه ويزيدك هدى ، وقيل : ويثبتك على الهدى ، وقيل : معناه : ويهديك صراطًا مستقيمًا فى كل أمر تحاوله .

١٠١٢ - فإن قيل : كيف يقال : إن الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وقد قال الله تعالى : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤] ؟

قلنا : الإيمان الذى يقال إنه لا يقبل الزيادة والنقصان هو الإقرار بوجود الله تعالى ، كما أن إلهيته لا تقبل الزيادة والنقصان ، فأما الإيمان بمعنى الأمن أو اليقين أو التصديق فإنه يقبلهما ، وهو فى الآية بمعنى التصديق لأنهم بسبب السكينة التى هى الطمأنينة وبرد اليقين كلما نزلت فريضة وشريعة صدقوا بها فازدادوا تصديقًا مع تصديقهم .

١٠١٣ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:٢٦] بعد قوله : ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ [الفتح:٢٦] ؟

قلنا : الضمير فى بها لكلمة التوحيد ، وفى أهلها للتقوى فلا تكرار .

١٠١٤ - فإن قيل : ما وجه تعليق الدخول بمشيئة الله تعالى فى أخباره سبحانه وتعالى حتى قال : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الفتح:٢٧] ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها: أن "إن" بمعنى إذا كما في قوله تعالى : ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] .

الثانى : أنه استثناء من الله تعالى فيما يعلم تعليمًا لعباده أن يستثنوا فيما لا يعلمون .

الثالث : أنه على سبيل الحكاية لرؤيا النبى ﷺ، فإنه رأى أن قائلاً يقول له: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح:٢٧] .

الرابع : أن الاستثناء متعلق بقوله تعالى : ﴿ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح:٢٧] فأما

الدخول فليس فيه تعليق .

١٠١٥ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ [الفتح:٢٧] بعد قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ ؟

قلنا : معناه : آمنين فى حال الدخول لا تخافون عدوكم أن يخرجكم منه فى المستقبل .

١٠١٦ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩] تعليل لماذا ؟

قلنا : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وقوتهم كأنه قال : إنما كثرهم وقواهم ليغيظ بهم الكفار .

١٠١٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٢٩] وكل أصحاب النبى ﷺ موصوفون بالإيمان والعمل الصالح وبغيرهما من الصفات الحميدة التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية فما معنى التبعيض هنا ؟

قلنا : من هنا لبيان الجنس لا للتبعيض كما فى قوله تعالى : ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ [الحج:٣٠] .

*** *** ***

سورة الحجرات

١٠١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١] والمراد به نهيهم أن يتقدموا على رسول الله ﷺ بقول أو فعل ، لا أن يقدموا غيرهم ؟

قلنا : قدم هنا لازم بمعنى تقدم كما فى قولهم بين وتبين ، وفكر وتفكر، ووقف وتوقف ، ومنه قول الشاعر :

إذا نحن سرنا صارت الناس خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

أى : توقفوا ، وقيل : معناه : لا تقدموا فعلاً قبل أمر رسول الله ﷺ .

١٠١٩ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ [الحجرات:٢] بعد قوله : ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات:٢] ؟

قلنا : فائدته تحريم الجهر فى مخاطبته ﷺ باسمه نحو قولهم : يا محمد ويا أحمد ، فهو أمر لهم بتوقيره وتعظيمه ﷺ فى المخاطبة ، وأن يقولوا يا رسول الله ويا نبى الله ونحو ذلك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣] .

١٠٢٠ - فإن قيل : كيف قال : ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الحجرات:٢] أى : مخافة أن تحبط أعمالكم مع أن الأعمال إنما تحبط بالكفر لا بغيره من المعاصى، ورفع الصوت فى مجلس النبى ﷺ ليس بكفر، كيف وقد روى أن الآية نزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما لما رفعا أصواتهما بين يدى رسول الله ﷺ وأنها نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس وكان جهورى الصوت ، فربما تأذى رسول الله ﷺ بصوته؟

قلنا : معناه لا تستخفوا به ، فإن الاستخفاف به ربما أدى خطؤه إلى عمده، وعمده كفر يحبط العمل ، وقيل : حبوط العمل مجاز عن نقصان المنزلة وانحطاط المرتبة .

١٠٢١ - **فإن قيل** : ما وجه الارتباط والتعلق بين قوله تعالى : ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات:٧] وبين ما قبله ؟

قلنا : معناه : فاتركوا عبادة الجاهلية فإن الله تعالى لم يترككم عليها ، ولكن الله حبب إليكم الإيمان ، وقيل : معناه : فتثبتوا فى الأمور كما يليق بالإيمان ، فإن الله حبب إليكم الإيمان .

١٠٢٢ - **فإن قيل** : إن كان الفسوق والعصيان بمعنى واحد ، فما فائدة الجمع بينهما، وإن كان العصيان أعم من الفسوق فذكره مغنٍ عن ذكر الفسوق لدخوله فيه فما فائدة الجمع بينهما ؟

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما المراد بالفسوق هنا الكذب ، وبالعصيان بقية المعاصى ، وإنما أفرد الكذب بالذكر لأنه سبب نزول الآية.

١٠٢٣ - **فإن قيل** : كيف يقال : إن الإيمان والإسلام بمعنى واحد ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] ؟

قلنا : المنفى هنا الإيمان بالقلب بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] يعنى لم تصدقوا بقلوبكم : ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤] أي استسلمنا وانقدنا خوف السيف ، ولا شك فى الفرق بين الإيمان والإسلام بهذا التفسير ، والذى يدعى اتحادهما لا يريد به ، أنهما حيث استعملا كانا بمعنى واحد ، بل يريد به أن أحد معانى الإيمان هو الإسلام .

١٠٢٤ - **فإن قيل** : كيف يقال : إن العمل ليس من الإيمان ، والله تعالى

يقول : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحجرات:١٥] الآية ؟

قلنا : معناه إنما المؤمنون إيمانًا كاملاً فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا﴾ [فاطر:٢٨] وقوله ﷺ : "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" وقولهم : الرجل من يصبر على الشدائد، ويرد على هذا الجواب أن المنفي فى أول الآية عن الإعراب نفس الإيمان بالكامل ، فلا يناسب أن يكون المثبت بعد ذلك الإيمان الكامل بل نفس الإيمان .

❊❊ ❊❊❊ ❊❊

سورة ق

١٠٢٥ - فإن قيل : أين جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق:١] ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه ضمير تقديره ، إنهم مبعوثون بعد الموت.

الثانى : أن قوله تعالى : ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾ [ق:٤] واللام محذوفة لطول الكلام تقديره ، لقد علمنا كما فى قوله تعالى : ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] .

الثالث : أنه قوله تعالى : ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ [ق:١٨] .

١٠٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ [ق:٩] وأراد به الحب الحصيد فأضاف الشيء إلى نفسه والإضافة تقتضي المغايرة بين المضاف والمضاف إليه ؟

قلنا : معناه وحب الزرع الحصيد أو النبات الحصيد .

الثانى : أن إضافة الشيء إلى نفسه جائزة عند اختلاف اللفظين كما فى قوله تعالى : ﴿ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴾ [الواقعة:٩٥] ﴿ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] ودار الآخرة ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ﴾ [الأحقاف:١٦] .

١٠٢٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] ولم يقل : قعيدان، وهو وصف الملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق:١٧] ؟

قلنا : معناه : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، إلا أنه حذف أحدهما لدلالة المذكور عليه كما قال الشاعر :

نحن بما عند وأنت بـما عندك راض والـرأى مختـلف

وقال آخر :

رمانى بأمر كنت ووالدى بريئًا ومن أجل الطوى رمانى

الثانـى : أن فعيلاً يستوى فيه الـواحـد والاثنـان والجمع ، قـال الله تعـالى : ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحـريم:٤] وقيل : إنـما لم يقل : قعيـدان رعـايـة لفواصل السورة .

١٠٢٨ - فإن قيل : كيف قـال تعـالى : ﴿أَلْقِيَا﴾ [ق:٢٤] والخطـاب لـواحـد وهو مالك خازن النار؟

قلنا : فيه وجوه : أحدهما : ما قاله المبّرد أن تثنية الفاعل أقيمت مقام تثنية الفعل للتأكيد باتحادهم حكمًا كأنه قال : ألق ألق ، ونظيره قول امرئ القيس :

قفا نبك : أى : وقف قف .

الثانى : أن العـرب كثيرًا ما يرافق الـرجل منـهم اثنين فكثر على ألـسنتهم خطاب الاثنين فقالوا : خليلى وصاحبى وقفا واسمدا وعوجا ونحو ذلك قال الفراء : سمعت ذلك من العرب كثيرًا قال : وأنشدنى بعضهم :

فقلت لصاحبى لا تحبسانا بنزع أصوله واجتز شيحـا

فقال : لا تحبسانا والخطاب لواحد ، بدليل قوله : لصاحبى قال : وأنشدنى أبو ثور :

فإن تزجرانى يابن عفان أنزجر وإن تدعانى أحم عرضًا ممنعًا

وقال امرؤ القيس :

خليلى مُرّ ابى على أم جندب نقضى لبانات الفؤاد المعذب

ثم قال :

ألم تر أنى كلما جئت طارقًا وجدت بها طيبًا وإن لم تطيب

الثالث : أنه أمر للملكين اللذين سبق ذكرهما بقوله تعالى : ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق:٢١] .

١٠٢٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق:٣١] ولم يقل : غير بعيدة وهو وصف للجنة؟

قلنا : لأنه على زنة المصادر كالزبير والصليل ، والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث ، أو على حذف الموصوف ، أى : مكانا غير بعيد، وكلا الجوابين الزمخشرى رحمه الله تعالى .

١٠٣٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بعد قوله : ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ [ق:٣١] بمعنى قربت ؟

قلنا : فائدته التأكيد كقولهم : هو قريب غير بعيد ، وعزيز غير دليل .

١٠٣١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] وكل إنسان له قلب بل كل حيوان ؟

قلنا : المراد بالقلب هنا العقل ، كذا قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، قال ابن قتيبة : لما كان القلب موضعًا العقل كنى به عنه .

الثانى : أن المراد لمن كان له قلب واع ، لأن من لا يعى قلبه فكأنه لا قلب له ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩] الآية .

*** *** ***

سورة الذاريات

١٠٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات:٥] والصادق وصف القائل لا وصف الوعد؟

قلنا : قيل صادق بمعنى مصدوق كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] ﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦] وقيل : معناه : لصدق ، فإن المصدر قد جاء على وزن اسم الفاعل كقولهم : قمت قائماً وقولهم: لحقت بهم اللائمة : أى : اللوم .

١٠٣٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات:١٥] والمتقون لا يكونون فى الجنة فى العيون؟

قلنا : معناه أنهم فى الجنات والعيون الكثيرة محدقة بهم من كل ناحية وهم فى مجموعها لا فى كل عين ، ونظيره قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر:٥٤] لأنه بمعنى أنهار، إلا أنه عدل عنها رعاية للفواصل .

١٠٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات:٣٧] أى : فى قرى قوم لوط ، وقرى قوم لوط ليست موجودة، فكيف توجد فيها العلامة؟

قلنا : الضمير فى قوله فيها عائد إلى تلك الناحية والبقعة لا إلى مدائن قوم لوط .

الثانى : أنه عائد إليها ، ولكن "فى" بمعنى من كما فى قوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل:٨٩] وقوله تعالى : ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء:٥] ويؤيد هذا الوجه مجيئه مصرحًا به فى سورة العنكبوت بلفظ من فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] ثم قيل الآية آثار منازلهم

الخربة ، وقيل : هى الحجارة التى أبقاها الله تعالى حتى أدركها أوائل هذه الأمة ، وقيل : هى الماء الأسود الذى يخرج من الأرض .

١٠٣٥ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩] أى : صنفين ، مع أن العرش والكرسى والقلم واللوح لم يخلق منها إلا واحد ؟

قلنا : قيل : معناه : ومن كل حيوان خلقنا ذكراً أو أنثى ، وقيل : معناه : ومن كل شيء تشاهدونه خلقنا صنفين كالليل والنهار ، والصيف والشتاء ، والنور والظلمة ، والخير والشر ، والحياة والموت ، والبحر والبر والسماء والأرض، والشمس والقمر ، نحو ذلك .

١٠٣٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] وقال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨] ؟

قلنا : معنى قوله : ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠] أى : الجؤوا إليه بالتوبة، وقيل : معناه : ففروا من عقوبته إلى رحمته ، ومعنى قوله : ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أى : يخوفكم عذاب نفسه أو عقاب نفسه وقال الزجاج : معنى نفسه إياه كأنه قال : ويحذركم الله إياه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨] أى : إياه ، فظهر أنه لا تناقض بين الآيتين .

١٠٣٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وإذا قلنا ، خلقهم للعبادة كان مريدًا لها منهم فكيف أرادها منهم ولم توجد منهم؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه عام أريد به الخاص وهم المؤمنون ، بدليل خروج البعض منه بقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ [الأعراف:١٧٩] ومن خلق جهنم لا يكون مخلوقًا للعبادة .

الثانى : أنه على عمومه ، والمراد بالعبادة التوحيد ، وقد وحده الكل يوم أخذ الميثاق ، وهذا الجواب يختص بالإنس ، لأن أخذ الميثاق مخصوص بهم بالآية ، وقيل : معناه : إلا ليكونوا عبيدًا لى ، وقيل : معناه : إلا ليذلوا ويخضعوا وينقادوا لما قضيته وقدرته عليهم فلا يخرج عنه أحد منهم ، وقيل : معناه : إلا ليعبدون إن اختاروا العبادة لا قسرا وإلجاء ، وقيل : إلا ليعبدون العبادة المرادة فى قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥] والعموم ثابت فى الوجوه الخمسة .

١٠٣٨ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات:٥٧] بعد قوله : ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات:٥٧] ؟

قلنا : معناه ما أريد منهم من رزق لأنفسهم ، وما أريد أن يطعمون ، أى أن يطعموا عبيدى ، وإنما أضاف الإطعام إلى ذاته المقدسة لأن الخلق عياله وعبيده ، ومن أطعم عيال غيره فكأنه أطعمه ، ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح : " **إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى** "[1] أى استطعمك عبدى فلم تطعمه .

*** *** ***

---

(١) مسلم (٤٦٦١) .

سورة الطور

١٠٣٩ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور:٢٠] مع أن الحور العين فى الجنة مملوكات ملك يمين لا ملك نكاح ؟

قلنا : معناه قرناهم بهن من قولهم : زوجت إبلى ، أى : قرنت بعضها إلى بعض ، وليس من التزويج الذى هو عقد النكاح ، ويؤيده أن ذلك لا يعدى بالباء بل بنفسه كما قال تعالى : ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧] ويقال : زوجه امرأة ولا يقال بامرأة.

١٠٤٠ – **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى فى وصف أهل الجنة : ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور:٢١] أى : مرهون فى النار بعمله ؟

قلنا : قال الزمخشرى : كأن نفس كل عبد ترهن عند الله تعالى بالعمل الصالح الذى هو مطالب به كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحًا فكها وخلصها وإلا أوبقها ، وقال غيره : هذه جملة من صفات أهل النار وقعت معترضة فى صفات أهل الجنة ، ويؤيده ما روى عن مقاتل أنه قال: معناه : كل امرئ كافر بما عمل من الكفر مرتهن فى النار ، والمؤمن لا يكون مرتهنًا لقوله تعالى : ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المدثر:٣٨ – ٤٠] .

١٠٤١ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى حق النبى ﷺ : ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور:٢٩] وكل واحد غيره كذلك لا يكون كاهنًا ولا مجنونًا بنعمة الله تعالى ؟

قلنا : معناه : فما أنت بحمد الله وإنعامه عليك بالصدق والنبوة بكاهن ولا

مجنون كما يقول الكفار ، وقيل : الباء هنا بمعنى مع كما فى قوله تعالى : ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[المؤمنون:٢٠]، وقوله تعالى : ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٥٢] ويقال: أكلت الخبز بالتمر ، أى : معه .

١٠٤٢ - فإن قيل : ما معنى الجمع فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨] .

قلنا : معناه التفخيم ، والتعظيم ، والمراد بحيث نراك ونحفظك ، ونظيره فى معنى العين قوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩] ونظيره فى الجمع للتفخيم والتعظيم قوله تعالى : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ [يس:٧١] .

*** *** ***

سورة النجم

١٠٤٣ - فإن قيل : الضلال والغواية واحدة ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢] ؟

قلنا : قيل : إن بينهما فرقًا لأن الضلال ضد الهوى والغى ضد الرشد وهما مختلفتان مع تقاربهما ، وقيل معناه : ما ضل فى قوله ولا غوى فى فعله ، ولو ثبت اتحاد معناهما يكون من باب التأكيد باللفظ المخالف مع اتحاد المعنى.

١٠٤٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٩] أدخل كلمة الشك والشك محال على الله تعالى ؟

قلنا : أو هنا للتخيير لا للشك ، كأنه قال سبحانه وتعالى : إن شئتم قدروا ذلك القرب بقاب قوسين ، وإن شئتم قدروه بأدنى منهما ، وقيل معناه: بل أدنى ، وقيل : هو خطاب لهم بما هو معهود بينهم ، وقيل هو تشكيك لهم لئلا يعلموا قدر ذلك القرب ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:٤٧] والكلام فيهما واحد .

١٠٤٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩، ٢٠] من رؤية القلب لا من رؤية البصر ، فأين مفعولها الثانى ؟

قلنا : هو محذوف تقديره ، أفرأيتموها بنات الله وأنداده ، فإنهم كانوا يزعمون أن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله عز وجل .

١٠٤٦- فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:٢٠] فوصف الثالثة الأخرى والعرب إنما تصف بالأخرى الثانية لا الثالثة ، فظاهر

اللفظ يقتضى أن يكون قد سبق ثالثة أولى ، ثم لحقتها الثالثة الأخرى فتكون ثالثتان ؟

قلنا : الأخرى نعت للعزى تقديره ، أفرأيتم اللات والعزى الأخرى ومناة الثالثة لأنها ثالثة الصنمين فى الذكر ،وإنها أخر الأخرى رعاية الفواصل كما قال: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ ولم يقل : أخر رعاية للفواصل .

١٠٤٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم:٢٨] أى: لا يقوم مقام العلم ، مع أنه يقوم مقام العلم فى صورة القياس؟

قلنا : المراد به هنا الظن الحاصل من اتباع الهوى دون الظن الحاصل من النظر والاستدلال ، ويؤيده قوله تعالى قبل هذا : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣] .

١٠٤٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] وقد صح فى الأخبار وصول ثواب الصدقة والقراءة والحج وغيرها إلى الميت ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور:٢١] معناه أنه أدخل الأبناء الجنة بصلاح الآباء ، قالوا وهذا لا يصح لأن الآيتين خبر ولا نسخ فى الخبر .

الثانى : أن ذلك مخصوص بقوم إبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام ، وهو حكاية ما فى صحفهم ، فأما هذه الآمة فلها ما سعت وما سعى لها .

الثالث : أنه على ظاهره ، ولكن دعاء ولده وصديقه وقراءتها وصدقتها عنه من سعيه أيضًا بواسطة اكتسابه للقرابة أو الصداقة أو المحبة من الناس بسبب التقوى والعمل الصالح .

١٠٤٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى بعد تعديد النقم : ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ [النجم:٥٥] والآلاء النعم ؟

قلنا : إنما قال سبحانه بعد تعديد النعم والنقم نعم لما فيها من الزواجر والمواعظ فمعناه : فبأى نعم ربك الدالة على وحدانيته تشك يا وليد بن المغيرة.

*** *** ***

سورة القمر

١٠٥٠ - فإن قيل : ما فائدة إعادة التكذيب فى قوله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ [القمر:٩] وهلا قال تعالى كذبت قبلهم قوم نوح عبدنا ؟

قلنا : معناه : كذبوا تكذيبًا بعد تكذيب ، وقيل : إن التكذيب الأول منهم بالتوحيد ، والثانى بالرسالة ، وقيل : التكذيب الأول منهم لله تعالى ، والثانى لرسوله ﷺ .

١٠٥١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : فى وصف ماء الأرض والسماء : ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ [القمر:١٢] ولم يقل : فالتقى الماءان ؟

قلنا : أراد به جنس المياه .

١٠٥٢ - فإن قيل : الجزاء إنما يكون للكافر لا للمكفور ، فكيف قال تعالى : ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤]؟

قلنا : جزاء مفعول له فمعناه ، ففتحنا أبواب السماء وما بعده مما كان يسبب إغراقهم جزاء لله تعالى لأنه مكفور به ، فحذف الجار ، وأوصل الفعل بنفسه كقوله تعالى : ﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ﴾ [الأعراف:١٥٥] والجزاء يضاف إلى الفاعل وإلى المفعول كسائر المصادر .

الثانى : أنه نوح عليه السلام إما لأنه مكفور به بحذف الجار كما مر من الكفر الذى هو ضد الإيمان ، أو لأن كل نبى نعمة من الله على قومه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقال رجل للرشيد: الحمد لله عليك ، فقال : ما معنى هذا ، فقال : أنت نعمة حمدت الله عليها ، فكأنه قال : جزاء لهذه النعمة المكفورة ، وكفران النعمة يتعدى بنفسه قال الله

تعالى : ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢] .

الثالث : أن "من" بمعنى ما فعلناه : جزاء لما كان كفر من نعم الله تعالى على العموم ، وقرأ قتادة : كفر بالفتح أى : جزاء للكافرين .

١٠٥٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠] أى : منقلع ، ولم يقل : منقعره؟

قلنا : إنما ذكر الصفة لأن الموصوف وهو النخل مذكر اللفظ ليس فيه علامة تأنيث ، فاعتبر اللفظ وفى موضع آخر اعتبر المعنى وهو كونه جمعًا فقال : ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧] ونظيرهما قوله تعالى : ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة :٥٢ - ٥٤] وقال أبو عبيدة : النخل يذكر ويؤنث ، فجمع القرآن اللغتين ، وقيل : إنما ذكر رعاية للفواصل .

*** *** ***

سورة الرحمن عز وجل

١٠٥٤ - **فإن قيل** : أى مناسبة بين رفع السماء ووضع الميزان حتى قرن بينهما ؟

قلنا : لما صدر هذه السورة بتعديد نعمه سبحانه على عبيده ، ذكر من جملتها وضع الميزان الذى به نظام العالم وقوامه ، لا سيما أن المراد بالميزان العدل فى قول الأكثرين ، والقرآن فى قول ، وكل ما تعرف به المقادير فى قول كالمكيال والميزان والذراع المعروف ونحوها .

١٠٥٥ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن:٨] أى : لا تجاوزوا فيه معدل مغن عما بعده من الجملتين فما فائدتهما ؟

قلنا : المراد بالطغيان فيه أخذ الزائد ، وبالإخسار فيه إعطاء الناقص وأمر بالتوسط الذى هو إقامة الوزن بالقسط ، ونهى عن الطرفين المذمومين .

١٠٥٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى هنا : ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤] وهو الطين اليابس الذى لم يطبخ لكن له صلصلة ، أى: صوت إذا نقر ، وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر:٢٦] وقال تعالى : ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات:١١] وقال تعالى : ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [الروم] ؟

قلنا : الآيات كلها متفقة فى المعنى ، لأنه تعالى خلقه من تراب ثم جعله طينًا ثم حمأ مسنونًا ثم صلصالاً .

١٠٥٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] فكرر ذكر الرب ولم يكرره فى سورة المعارج بل أفرده فقال تعالى :

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠] وكذا فى سورة المزمل : ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل:٩] : ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل:٩] ؟

قلنا : إنما ذكر الرب تأكيدًا ، فكان التأكيد بهذا الموضع أليق منه بذينك الموضعين ، لأنه موضع الامتنان وتعديد النعم ، ولأن الخطاب فيه مع جنسين وهما الإنس والجن .

١٠٥٨ - فإن قيل : بعض الجمل المذكورة فى هذه السورة ليست من النعم كقوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن:٢٦] وقوله تعالى : ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥] فكيف حسن الامتنان بعدها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] ؟

قلنا : من جملة الآلاء دفع البلاء وتأخير العقاب ، فإبقاء من هو مخلوق للفناء نعمة ، وتأخير العقاب عن العصاة أيضًا نعمة فلهذا امتن علينا بذلك .

١٠٥٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] والله تعالى لا يشغله شىء ؟

قلنا : قال الزجاج : الفراغ فى اللغة على ضربين ، أحدهما : الفراغ من شغل.

والآخر : القصد للشىء والإقبال عليه ، وهو تهديد ووعيد ، ومنه قولهم : سأتفرغ لفلان ، أى : سأجعله قصدى ، فمعنى الآية سنقصد لعقابكم وعذابكم وحسابكم .

١٠٦٠ - فإن قيل : كيف وعد سبحانه الخائف جنتين فقط ؟

قلنا : لأن الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل : لكل خائفين من الثقلين جنتان ،

جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى ، وقيل : المراد به أن لكل خائف جنتين ، جنة لفعل الطاعات ، وجنة لترك المعاصى ، وقيل : جنة يثاب بها ، وجنة يتفضل بها عليه زيادة لقوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] أى الجنة وزيادة .

١٠٦١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦] ولم يقل سبحانه : فيهما، والضمير للجنتين ؟

قلنا : الضمير لمجموع الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة وغيرهما مما سبق ذكره ، وقيل : هو للجنتين : وإنما جمعه لاشتمال الجنتين على قصور ومنازل ، وقيل : الضمير للمنازل والقصور التى دل عليها ذكر الجنتين ، وقيل : الضمير لمجموع الجنان التى دل عليها ذكر الجنتين ، وقيل : الضمير عائد إلى الفرش لأنها أقرب ، وعلى هذا القول "فى" بمعنى على ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور:٣٨] .

١٠٦٢ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن:٥٦] أى : لم يفتضهن، ونساء الدنيا لا يفتضهن الجان ، فما فائدة تخصيص الحور بذلك ؟

قلنا : معناه أن تلك القاصرات الطرف إنسيات للإنس وجنيات للجن ، فلم يطمث الإنسيات إنسى ، ولا اجنيات جنى ، وهذه الآية دليل على أن الجن يواقعون كما يوقع الإنس ، وقيل : فيها دليل على أن الجنى يغشى الإنسية فى الدنيا .

*** *** ***

سورة الواقعة

١٠٦٣ - **فإن قيل** : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠] ؟

قلنا : فيه وجهان : أحدهما أنه تأكيد مقابل لما سبقه من التأكيد فى : ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ [الواقعة:٨، ٩] كأنه قال تعالى : والسابقون هم المعروف حالهم المشهور وصفهم ، ونظيره قول أبى النجم :

أنا أبو النجم وشعرى شعرى

الثانى : أن معناه : والسابقون إلى طاعة الله هم السابقون إلى جنته وكرامته ، ثم قيل : المراد بهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ، وقيل : الذين صلوا إلى القبلتين ، وقيل : أهل القرآن ، وقيل : السابقون إلى المساجد إلى الخروج فى سبيل الله ، وقيل : هم الأنبياء صلوات الله عليهم ، فهذه خمسة أقوال .

١٠٦٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة:١٧] مع أن التخليد ليس صفة مخصوصة بالولدان فى الجنة ، بل كل أهل الجنة مخلدون فيها لا يشيبون ولا يهرمون ، بل يبقى كل واحد أبدًا على صفته التى دخل الجنة عليها؟

قلنا : معناه : أنهم لا يتحولون عن شكل الولدان وهى الوصافة ، وقيل : مقرطون ، وقيل : مسورون ، ولا إشكال على هذين القولين .

١٠٦٥ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الواقعة:٥٢ - ٥٤] أنث ضمير

الشجر ثم ذكره ؟

قلنا : قد سبق جوابه فى سورة القمر .

١٠٦٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة:٥٧] أى فهلا تصدقون ، مع أنهم مصدقون أنه خلقهم بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧] ؟

قلنا : هم وإن كانوا مصدقين بألسنتهم إلا أنهم لما كان مذهبهم على خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذبون به .

الثانى : أنه تحضيص على التصديق بالبعث بعد الموت بالاستدلال بالخلق الأول ، فكأنه قال تعالى : هو الذى خلقكم أولاً باعترافكم ، فلا يمتنع عليه أن يعيدكم ثانيًا فهلا تصدقون بذلك .

١٠٦٧ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى الزرع : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ [الواقعة:٦٥] باللام وقال تعالى فى الماء : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠]؟

قلنا : الأصل أن تغير اللام فى الموضعين ، إذ لابد منها في جواب "لو" إلا أنها حذفت فى الثانى اختصارًا ، وهى مؤدية لدلالة الأولى عليها .

الثانى : أن أصل هذه اللام للتأكيد ، فذكرت مع المطعوم دون المشروب ، لأن المطعوم مقدم وجودًا ورتبة ، لأنه إنما يحتاج إلى الماء تبعًا له ، ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب ؛ فلما كان الوعيد بفقد المطعوم أشد وأصعب أكد تلك الجملة مبالغة ، فى التهديد .

١٠٦٨ - **فإن قيل** : التسبيح التنزيه عن السوء ، فما معنى باسم فى قوله تعالى : ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤] وهلا قال تعالى : فسبح ربك العظيم ؟

قلنا : فيه وجوه ، أحدها أن الباء زائدة والاسم بمعنى الذات فصار المعنى: ما قلتم .

الثانى : أن الاسم بمعنى الذكر ، فمعناه : فسبح بذكر ربك .

الثالث: أن الذكر فيه مضمر ، فمعناه : فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك .

الرابع : قال الضحاك : معناه : فصل باسم ربك ، أى : افتتح الصلاة بالتكبير.

١٠٦٩ - فإن قيل : إذا كان القرآن صفة من صفات الله تعالى قديمة قائمة بذاته المقدسة ، فكيف قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٧، ٧٨] أى اللوح المحفوظ أو المصحف على اختلاف القولين ؟

قلنا : معناه : مكتوب فى كتاب مكنون ، ولا يلزم من كتابة القرآن فى الكتاب أن يكون القرآن حالاً فى الكتاب كما لو كتب إنسانًا على كفه ألف دينار لا يلزم منه وجود ألف دينار فى كفه ، وكذا لو كتب فى كفه العرش أو الكرسى ، وكذا كذا ، قال تعالى فى صفة النبى ﷺ:﴿ يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] .

الثانى : أن القرآن لو كان حالاً فى المصحف فإما أن يكون جميعه حالاً فى مصحف واحد ، أو فى كل مصحف ، أو فى بعضه، ولا سبيل إلى الأول لأن المصاحف كلها سواء فى الحكم فى كتابته فيها ، ولأن البعض ليس أولى بذلك من البعض ، ولا سبيل إلى الثانى وإلا يلزم تعدد القرآن وأنه متحد ، ولا سبيل إلى الثالث لأنه كله مكتوب فى كل مصحف ، ولأن هذا المصحف ليس أولى بهذا البعض من ذلك الصحف ، وكذا الباقى ، فثبت أنه ليس حالاً فى شىء منها ، بل هو كلام الله تعالى وكلامه صفة قديمة قائمة به لا تفارقه !!

١٠٧٠ - **فإن قيل** : فإذا لم تفارقه فكيف سماه تعالى منزلاً وتنزيلاً ، وقال سبحانه : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:٩٣] ونظائره كثيرة ، وإذا فارقه وباينه يكون مخلوقًا ، لأن كل مباين له فهو غيره ، وكل ما هو غيره فهو مخلوق ؟

قلنا : معنى إنزاله أنه سبحانه وتعالى علمه لجبريل فحفظه ، وأمره أن يعلمه للنبي ﷺ ويأمره أن يعلمه لأمته ، مع أنه لم يزل ولا يزال صفة الله تعالى قائمة به لا تفارقه .

*** *** ***

سورة الحديد

١٠٧١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [الحديد:٨] ثم قال سبحانه : ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد:٨] ؟

قلنا : معناه إن كنتم مؤمنين بموسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فإنَّ شريعتهما تقتضى الإيمان بمحمد ﷺ .

الثانى : إن كنتم مؤمنين بالميثاق الذى أخذه عليكم يوم أخرجكم من ظهر آدم عليه السلام .

الثالث : أن معناه : أى عذر لكن فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج ، وقد ركب الله تعالى فيكم العقول ونصب لكم الأدلة ومكنكم من النظر وأزاح عللكم ، فما لكم لا تؤمنون إن كنتم مؤمنين بموجب ما ، فإن هذا الموجب لا مزيد عليه .

١٠٧٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ﴾ [الحديد:١٠] ولم يذكر مع من لا يستوى ، والاستواء لا يتم إلا بذكر اثنين كقوله تعالى : ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ [المائدة:١٠٠] ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر:٢٠]؟

قلنا : هو محذوف تقديره ، ومن أنفق وقاتل من بعد الفتح ، وإنما حذف لدلالة ما بعده عليه .

١٠٧٣ - فإن قيل : كيف يقال : إن أعلى الدرجات بعد درجة الأنبياء درجة الصديقين، والله تعالى قد حكم لكل مؤمن بكونه صديقًا بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ

رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩]؟

قلنا : قال ابن مسعود ومجاهد : كل مؤمن صديق .

الثانى : أن الصديق هو كثير الصدق ، وهو الذى كل أقواله وأفعاله وأحواله صدق ، فعلى هذا يكون المراد به بعض المؤمنين لا كلهم ، وقد روى عن الضحاك أنها نزلت فى ثمانية نفر سبقوا أهل الأرض فى زمانهم إلى الإسلام، وهم أبو بكر وعثمان وعلى وحمزة بن عبد المطلب وطلحة والزبير وسعد وزيد ، وألحق بهم عمر رضى الله عنهم فصاروا تسعة .

١٠٧٤ - فإن قيل : كيف ذكر سبحانه هؤلاء المذكورين بكونهم شهداء ومنهم من لم يقل ؟

قلنا : معناه أن لهم أجر الشهداء .

الثانى : أنه جمع شهيد بمعنى شاهد، فمعناه أنهم شاهدوه عند ربهم على أنفسهم بالإيمان .

الثالث : أنه مبتدأ منقطع عما قبله لا معطوف عليه ، معناه : والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم .

١٠٧٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] والمسابقة من المفاعلة التى لا تكون إلا بين اثنين كقولك ، سابق زيد عمرًا ؟

قلنا : قيل : معناه سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم فى الميدان ، ويؤيد هذا القول مجيئه بلفظ المسارعة فى سورة آل عمران ، وقيل سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال التى توصلكم إلى الجنة . وقيل : سابقوا إبليس قبل أن يصدكم بغروره وخداعه عن ذلك .

١٠٧٦ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١] وقال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران:١٣٣] فكيف يكون عرضها كعرض السماء الواحدة وكعرض السموات السبع ؟

قلنا : المراد بالسماء جنس السموات لا سماء واحدة ، كما أن المراد بالأرض فى الآيتين جنس الأرضين ، فصار التشبيه فى الآيتين بعرض السموات السبع والأرضين السبع .

١٠٧٧ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] ولا أحد يملك نفسه عند مضرة تناله أن لا يحزن، ولا عند منفعة تناله أن لا يفرح ، وليرجع كل واحد منا فى ذلك إلى نفسه؟

قلنا : ليس المراد بذلك الحزن والفرح الذى لا ينفك عنه الإنسان بطبعه قسرًا وقهرًا ، بل المراد به الحزن المخرج لصاحبه إلى الذهول عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر ، نعوذ بالله منهما .

١٠٧٨ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥] والميزان لم ينزل من السماء ؟

قلنا : قيل المراد بالميزان هنا العدل ، وقيل : العقل ، وقيل : السلسلة التى أنزلها الله تعالى على داود عليه السلام ، وقيل : هو الميزان المعروف أنزله جبريل فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال له : مر قومك يزنوا به .

١٠٧٩ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ

بِرَسُولِهِ﴾ [الحديد:٢٨] مع أن المؤمنين مؤمنون برسوله ﷺ ؟

قلنا : معناه : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام آمنوا بمحمد ﷺ ، فيكون خطابًا لليهود والنصارى خاصة ، وعليه الأكثرون ، وقيل : معناه: يا أيها الذين آمنوا يوم الميثاق اتقوا الله وآمنوا برسوله اليوم ، وقيل: معناه : يا أيها الذين آمنوا بالله فى العلانية باللسان اتقوا الله وآمنوا برسوله فى السر بتصديق القلب .

*** *** ***

سورة المجادلة

١٠٨٠ - فإن قيل : لأى معنى خص الله تعالى الثلاثة والخمسة بالذكر فى النجوى دون غيرهما من الأعداد فى قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المجادلة:٧] الآية ؟

قلنا : لأن قومًا من المنافقين تخلفوا للتناجي على هذين العددين مغايظة للمؤمنين ، فنزلت الآية على صفة حالهم تعريضًا بهم وتسميعًا لهم وزيد فيها ما يتناول كل متناجيين غير تلك الطائفتين ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ ﴾ [المجادلة:٧] .

١٠٨١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [المجادلة:١٤] ؟

قلنا : فائدته الإخبار عن المنافقين أنهم يحلفون على أنهم ما سبُّوا رسول الله ﷺ وأصحابه مع اليهود كاذبين متعمدين الكذب فهى اليمين الغموس ، فكان ذلك نهاية فى بيان ذمهم .

*** *** ***

سورة الحشر

١٠٨٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الحشر:٩] والإيمان ليس مكانًا يتبوأ لأن معنى التبوء اتخاذ المكان منزلاً ؟

قلنا : فيه إضمار تقديره : وأخلصوا الإيمان كقول الشاعر :

وعلفتها تبنًا وماءً باردًا

أي : وسقيتها ماء باردًا .

الثاني : أنه على ظاهره بغير إضمار ولكنه مجاز ، فمعناه أنهم جعلوا الإيمان مستقرًا وموطنًا لتمكنهم منه واستقامتهم عليه ، كما جعلوا دار الهجرة كذلك وهى المدينة .

١٠٨٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ [الحشر:١٢] بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم وحرف الشرط إنما يدخل على ما يحتمل وجوده وعدمه ؟

قلنا : معناه ولئن نصروهم على الفرض والتقدير كقوله تعالى للنبى ﷺ : ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وقوله تعالى : ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] والله تعالى كما يعلم ما يكون قبل كونه ، فهو يعلم مالا يكون أن لو كان كيف يكون .

١٠٨٤ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى للمؤمنين : ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:١٣] أى : فى صدور المنافقين أو اليهود على اختلاف القولين ، وظاهره لأنتم أشد خوفًا من الله ، فإن كان "من" متعلقًا بأشد لزم ثبوت الخوف لله تعالى كما تقول : زيد أشد خوفًا فى الدار من عمرو ، وذلك

محال ، وإن كان من الله متعلقًا بالخوف فأين الذى فضل عليه المخاطبون ، وأيضًا فإن الآية تقتضى إثبات زيادة الخوف للمؤمنين، وليس المراد ذلك باتفاق المفسرين ؟

قلنا : رهبة مصدر رهب مبينًا لما لم يسم فاعله ، فكأنه قيل : أشد مرهوبية ، يعنى : أنكم فى صدورهم أهيب من الله فيها ، كذا فسره ابن عباس رضى الله عنهما ، ونظيره قولك : زيد أشد ضربًا فى الدار من عمرو ، يعنى مضروبية .

١٠٨٥ - **فإن قيل** : كيف يستقيم التفضيل بأشدية الرهبة مع أنهم كانوا لا يرهبون الله ، لأنهم لو رهبوه لتركوا النفاق والكفر ؟

قلنا : معناه أن رهبتهم فى السر منكم أشد من رهبتهم من الله التى يظهرونها لكم ، وكانوا يظهرون للمؤمنين رهبة شديدة من الله تعالى .

١٠٨٦ - **فإن قيل** : كيف قال إبليس : ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر:١٦] وهو لا يخاف الله تعالى لأنه لو خافه لما خالفه ثم أضل عبيده ؟

قلنا : قد سبق هذا السؤال جوابه فى سورة الأنفال .

١٠٨٧ - **فإن قيل** : ما فائدة تنكير النفس والغد فى قوله تعالى : ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] ؟

قلنا : أما تنكير النفس فلا استقلال الأنفس النواظر فيما قدمت الآخرة كأنه قال : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك ، وأين تلك النفس ، وأما تنكير الغد فلعظمته وإبهام أمره كأنه قال لغد لا يعرف كهنه لعظمه .

١٠٨٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] وأراد به يوم القيامة ، والغد عبارة عن يوم وليلة بينه وبيننا ليلة واحدة ؟

قلنا : الغد له مفهومان : أحدهما : ما ذكرتم ، والثانى : مطلق الزمان

المستقبل، ومنه قول الشاعر :

واعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

وأراد به مطلق الزمان المستقبل كما أراد بالأمس مطلق الزمان الماضى ، فصار لكل واحد منهما مفهومان ، ويؤيده أيضًا قوله تعالى : ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] ، وقيل : إنما أطلق على يوم القيامة ، اسم العد تقريبًا له ، كقوله تعالى : ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١] وقوله تعالى : ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] وكأنه تعالى قال : إن يوم القيامة لقربه يشبه ما ليس بينكم وبينه إلا ليلة واحدة ، ولهذا روى عن النبى ﷺ أنه قال : "**اعمل الليلة صبيحتها يوم القيامة**" وقالوا : أراد بتلك الليلة ليلة الموت .

١٠٨٩ - **فإن قيل** : ما معنى قوله تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر:٢١] الآية .

قيل : معناه : أنه سبحانه لو جعل فى جبل على قساوته تمييزًا كما جعل فى الإنسان ثم أنزل عليه القرآن ، لتشقق خشية من الله تعالى وخوفًا أن لا يؤدى حقه فى تعظيم القرآن ، والمقصود توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن ، وإعراضه عن تدبير قوارعه وزواجره .

١٠٩٠ - **فإن قيل** : ما الفرق بين الخالق والبارئ حتى عطف تعالى أحدهما على الآخر ؟

قلنا : الخلق هو المقدر لما يوجده ، والبارئ هو المميز بعضه عن بعض بالأشكال المختلفة ، وقيل : الخالق المبدئ والبارئ المعيد .

*** *** ***

سورة الممتحنة

١٠٩١ - **فإن قيل** : من ماذا استثنى قوله تعالى : ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ [الممتحنة:٤] ؟

قلنا : من قوله تعالى : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الممتحنة:٤] لأنه سبحانه أراد بالأسوة الحسنة قوله الذى حكاه عنه وعن اتباعه وأشباعه ليقتدوا به ويتخذوه سنة يستنون بها ، واستثنى سبحانه استغفاره لأبيه: لأنه كان عن موعدة وعدها إياه .

١٠٩٢ - **فإن قيل** : فإن كان استغفاره لأبيه أو وعده لأبيه بالاستغفار مستثنى من الأسوة ، فكيف عطف عليه قوله : ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [الممتحنة:٤] وهو لا يصح استثناؤه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:١٧] ؟

قلنا : المقصود بالاستثناء هو الجملة الأولى فقط ، وما بعدها ذكر لأنه من تمام كلام إبراهيم صلوات الله عليه لا بقصد الاستثناء ، كأنه قال : أنا أستغفر لك ، وما فى طاقتى إلا الاستغفار .

١٠٩٣ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة:١٢] ومعلوم أن النبى ﷺ لا يأمر إلا بمعروف ، فهلا اقتصر على قوله تعالى (ولا يعصينك) ؟

قلنا : فائدته سرعة تبادر الأفهام إلى قبح المعصية منهن لو وقعت من غير توقف الفهم على المقدمة التى أوردتم فى السؤال .

*** *** ***

سورة الصف

١٠٩٤ - **فإن قيل** : ما فائدة "قد" فى قوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾ [الصف:٥]؟

قلنا : فائدتها التأكيد ، كأنه قال : وتعلمون علمًا يقينًا لا شبهة لكم فيه هذا جواب الزمخشرى ، وقال غيره : فائدتها التكثير ، لأن قد مع الفعل المضارع تارة تأتى للتقليل كقولهم : إن الكذوب قد يصدق ، وتارة تأتى للتكثير كقول الشاعر :

قد أعسف النازح المجهود معسفة   فى ظل أخضر يدعو هامة البوم

وإنما يمتدح بما يكثر وجوده منه لا بما يقل .

١٠٩٥ - **فإن قيل** : كيف قال عيسى عليه السلام : ﴿ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ [الصف:٦] ولم يقل: محمد ومحمد أشهر أسماء النبى ﷺ؟

قلنا : إنما قال أحمد لأنه مذكور فى الإنجيل بعبارة تفسيرها أحمد لا محمد ، وإنما كان كذلك لأن اسمه فى السماء أحمد وفى الأرض محمد ، فنزل فى الإنجيل اسمه السماوى ، وقيل : إن أحمد أبلغ فى معنى الحمد من محمد من جهة كونه مبنيًا على صيغة التفضيل ، وقيل : محمد أبلغ من جهة كونه على صيغة التفضيل الذى هو للتكثير .

١٠٩٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف:٩] ولم يقل سبحانه هذه ، والمشار إليه البينات وهى مؤنثة؟

قلنا : معناه هذا الذى جئت به ، فالإشارة إلى المأتى به .

١٠٩٧ - **فإن قيل** : ما وجه صحة التشبيه وظاهره تشبيه كونهم أنصار الله بقول عيسى عليه السلام : ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤] ؟

قلنا : التشبيه محمول على المعنى تقديره : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصارًا لعيسى عليه السلام حين قال لهم : (من أنصارى إلى الله) .

*** *** ***

سورة الجمعة

١٠٩٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:٩] والسعى العدو ، والعدو إلى صلاة الجمعة وإلى كل صلاة مكروه ؟

قلنا : المراد بالسعى القصد ، وقال الحسن : ليس هو السعى على الأقدام ، ولكنه على النيات والقلوب ، ويؤيد قول الحسن قوله تعالى : ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٩] وقول الداعى فى دعاء القنوت : وإليك نسعى ونحفد، وليس المراد به العدو والإسراع بالقدم .

١٠٩٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة:١١] والمذكور شيئان اللهو والتجارة؟

قلنا : قد سبق جواب هذا فى سورة التوبة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة:٣٤] والذى يؤيده هنا ما قاله الزجاج معناه : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أو لهوًا انفضوا إليه ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه بضمير التثنية ، وعليه فلا حذف .

*** *** ***

سورة المنافقون

١١٠٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ [المنافقون:١] ؟

قلنا : لو قال تعالى : قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، ﴿ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون:١] لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، وليس المراد أن شهادتهم هذه كذب ، بل المراد أنهم كاذبون فى غير هذه الشهادة ، وقال أكثر المفسرين : إنه تكذيب لهم فى هذه الشهادة لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا ولم يعتقدوا أن رسول الله بقلوبهم ، فسماهم كاذبين لذلك ، فعلى هذا يكون ذلك تأكيدًا .

١١٠١ - فإن قيل : المنافقون ما برحوا على الكفر ، فكيف قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون:٣] ؟

قلنا : معناه : ذلك الكذب الذى حكم عليهم به ، أو ذلك الإخبار عنهم بأنهم ساء ما كانوا يعلمون بسبب أنهم آمنوا بألسنتهم : ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون:٣] بقلوبهم : ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [المنافقون:٣] كما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ ﴾ الآية [البقرة:١٤] ، الثانى أن المراد به أهل الردة منهم .

١١٠٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤] ولم يقل : هى العدو ؟

قلنا : عليهم هو ثانى مفعولى يحسبون تقديره : يحسبون كل صيحة واقعة عليهم ، أى : لجبنهم وهلعهم ، فالوقف على قوله تعالى عليهم وقوله سبحانه :

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤] ابتداء كلام ، وقيل: إن المفعول الثانى هو قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون:٤] ولكن تقديره : يحسبون أهل كل صيحة عليهم هم العدو ، والأول أظهر بدليل عدم نصب العدو .

*** *** **

سورة التغابن

١١٠٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢] قدم الكافر فى الذكر؟

قلنا : الواو لا تعطى رتبة ولا تقتضى ترتيبًا كما قال تعالى : ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:١٠٥] وقال تعالى : ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر:٢٠] وقال سبحانه : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر:٣٢] وقال تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] وقد ذكرنا فى الآية الأخيرة معنى آخر فى موضعها .

١١٠٤ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ [التغابن:٦] يوهم وجود التولى والاستغناء معًا بعد مجيء رسلهم إليهم ، والله تعالى لم يزل غنيًا ؟

قلنا : معناه : وظهر استغناء الله تعالى عن إيمانهم وعبادتهم حيث لم يلجئهم إلى الإيمان ولم يضطرهم إليه مع قدرته تعالى على ذلك .

١١٠٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] مع أن الهداية سابقة على الإيمان ، لأنه لولا سبق الهداية لما وجد الإيمان ؟

قلنا : ليس المراد ﴿يَهْدِ﴾ قلبه للإيمان ، بل المراد ﴿يَهْدِ﴾ قلبه لليقين عند نزول المصائب ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

الثانى : ﴿يَهْدِ﴾ قلبه للرضا والتسليم عند نزول المصائب .

الثالث : ﴿يَهْدِ﴾ قلبه للاسترجاع عند نزول المصائب ، وهو أن يقول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ .

الرابع: ﴿ يَهْدِ﴾ قلبه: أي يجعله ممن إذا ابتلى صبر ، وإذا أنعم عليه شكر ، وإذا ظلم غفرَ .

الخامس : ﴿يَهْدِ﴾ قلبه لاتباع السنة إذا صح إيمانه ، وقرئ : ﴿يهدأ﴾ بفتح الدال وبالهمز مَن الهدو وهو السكون ، فمعناه : ومن يؤمن بالله إيمانًا خالصًا يسكن قلبه ويطمئن عند نزول المصائب والمحن ولا يجزع ويقلق .

*** *** ***

سورة الطلاق

١١٠٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١] أفرد الخطاب أولاً ثم جمعه ثانيًا ؟

قلنا : أفرد سبحانه النبى ﷺ أولاً بالخطاب لأنه إمام أمته وقدوتهم إظهارًا لتقدمه ورياسته ، وأنه وحده فى حكم كلهم وسادّ مسد جميعهم .

الثانى: أن معناه : يا أيها النبى قل لأمتك : إذا طلقتم النساء .

١١٠٧ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣] ونحن نرى كثيرًا من الأتقياء مضيقًا عليهم رزقهم ؟

قلنا : معناه يجعل له مخلصًا من هموم الدنيا والآخرة ، وعن النبى ﷺ أنه قال : "مخرجًا من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة " وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة ، والصحيح أن هذه الآية عامة ، وأن الله يجعل لكل متق مخرجًا من كل ما يضيق على من لا يتقى ، ولهذا قال النبى ﷺ "إنى لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم" : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق:٢] وجعل يقرؤها ويعيدها لله وأما تضييق رزق الأتقياء فهو مع ضيقه وقلته يأتيهم من حيث لا يأملون ولا يرجون ، وتقليله لطف بهم ورحمة ليتوفر حظهم فى الآخرة ويخف حسابهم ، ولتقل عوائقهم عن الاشتغال بمولاهم ، ولا يشغلهم الرخاء والسعة عما خلقوا له من الطاعة والعبادة ، ولهذا اختار الأنبياء والأولياء والصديقون الفقر على الغنى .

١١٠٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ

حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣] أي من يثق به فيما نابه كفاه الله شر ما أهمه ، وقد رأينا كثيرًا من الناس يتوكل على الله في بعض أمورهم وحوائجهم ولا يكفيهم الله تعالى همها ؟

قلنا : محال أنه يتوكل على الله حق التوكل ولا يكفيه همه ، بل ربما قلق وضجر واستبطأ قضاء حاجته بقلبه أو بلسانه أيضًا ففسد توكله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٣] أى نافذ حكمه ، يبلغ ما يريده ولا يفوته مراد ولا يعجزه مطلوب ، وبقوله تعالى : ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣] أي : جعل لكل شيء من الفقر والغنى والمرض والصحة والشدة والرخاء ونحو ذلك أجلاً ومنتهى ينتهى إليه لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

١١٠٩ – فإن قيل : قوله تعالى : ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَـٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق:٤] علقه بشكنا مع أن عدتهن ذلك سواء وجد شكنا أم لا ؟

قلنا : المراد بالشك الجهل بمقدار عدة الآيسة والصغيرة ، وإنما علقه به لأنه لما نزل بيان عدة ذوات الأقراء في سورة البقرة قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : قد بقى الكبار والصغار لا ندرى كم عدتهن ، فنزلت هذه الآية على هذا السبب : فلذلك جاءت مقيدة بالشك والجهل .

١١١٠ – فإن قيل : إذا كانت المطلقة طلاقًا بائنًا تجب لها النفقة عند بعض العلماء، فما فائدة قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦] عند ذلك القائل ؟

قلنا : فائدته أن لا يتوهم أنه إذا طالت مدة الحمل بعد الطلاق حتى مضت مدة عدة الحامل سقطت النفقة ، ففى هذا الوهم بقوله : ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٤] .

١١١١ - **فإن قيل** : كيف قال هنا : ﴿ءَاتَنٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٧] وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح:٦] فكيف التوفيق بينهما ؟

قلنا : المراد بقوله تعالى : "مع" بعده لأن الضدين لا يجتمعان .

١١١٢ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ [الطلاق:٨] فنسب العتو إليها ، وقال تعالى: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا ـ وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾ [الطلاق:٨] بلفظ الماضى مع أن الحساب والعذاب المرتبين على العتو إنما هما فى الآخرة لا فى الدنيا ؟

قلنا : معناه : عتى أهلها ، وإنما جيء به على لفظ الماضى تحقيقًا له وتقريرًا لأن المنتظر من وعد الله تعالى ووعيده آتٍ لا محالة ، وما هو كائن فكأنه قد حصل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٥٠] وما أشبهه.

*** *** ***

سورة التحريم

١١١٣ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤] إن كان المراد به الفرد فأى فرد هو، وأيضًا فإنه لا يناسب مقابلة الملائكة الذين هم جمع، وإن كان المراد به الجمع فهلا كان مكتوبًا فى المصحف بالواو ؟

قلنا : هو فرد أريد به الجمع كقولك : لا يفعل هذا الفعل الصالح من الناس ، تريد به الجنس كقولك : لا يفعله من صلح منهم ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج:١٩] وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر:٢] وقوله تعالى﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة:١٧] وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ [غافر:٦٧] ونظائره كثيرة .

الثانى : أنه لا يجوز أن يكون جمعًا ، ولكنه كتب فى المصحف بغير واو على اللفظ كما جاءت ألفاظ كثيرة فى المصحف على اللفظ دون اصطلاح الخط .

١١١٤ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤] ولم يقل : ظهراء وهو خبر عن الجمع وهو الملائكة ؟

قلنا : هو فرد وضع موضع الجمع كما سبق .

الثانى: اسم على وزن المصدر كالزميل والدبيب والصليل ، فيستوى فيه الفرد والتثنية والجمع .

الثالث : أن فعيلاً يستوى فيه الواحد ، والاثنان والجميع بدليل قوله تعالى : ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] .

١١١٥ - **فإن قيل** : قوله تعالى ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [التحريم:٤] تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصرة الله تعالى وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله

سبحانه أعظم؟

قلنا : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله تعالى ، فكأنه فضل نصرته بهم على سائر وجوه نصرته لفضلهم وشرفهم ، ولاشك أن نصرته بجميع الملائكة أعظم من نصرته بجبريل وحده أو بصالح المؤمنين .

١١١٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ [التحريم:٥] إلى آخر الآية ، فأثبت الخيرية لهن باتصافهن بهذه الصفات ، وإنما تثبت لهن الخيرية بهذه الصفات لو لم تكن تلك الصفات ثابتة فى نساء النبى ﷺ وهو ثابتة فيهن ؟

قلنا : المراد به خيرًا منكن فى حفظ قلبه ومتابعة رضاه ، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن .

١١١٧ - **فإن قيل** : كيف أخليت الصفات كلها عن الواو وأثبتت بين الثيبات والأبكار ؟

قلنا : لأنهما صفتان متضادتان لا تجتمعان فيهن اجتمع سائر الصفات ، فلم يكن بد من الواو ، ومن جعلها واو الثمانية فقدسها ، لأن واو الثمانية لا يفسد الكلام بحذفها بخلاف هذه .

١١١٨ - **فإن قيل** : هذه الصفات إنما ذكرت فى معرض المدح ، وأى مدح فى كونهن ثيبات ؟

قلنا : التثييب مدح من وجه ، فإن الثيب أقبل للميل بالنقل وأكثر تجربة وعقلاً ، والبكارة مدح من وجه فإنها أطهر وأطيب وأكثر مراغبة وملاعبة .

١١١٩ - **فإن قيل** : ما فائدة قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] بعد قوله سبحانه : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ [التحريم:٦] ؟

قلنا : قيل المراد بالأمر الأول : الأمر بالعبادات والطاعات ، وبالأمر الثاني: الأمر بتعذيب أهل النار ، وقيل هو تأكيد .

١١٢٠ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨] ولم يقل: توبة نصوحة ؟

قلنا : لأن فعولاً من أوزان المبالغة الذى يستوى فى لفظه الذكور والإناث كقولهم : امرأة صبور وشكور ونحوهما .

١١٢١ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بعد قوله تعالى : ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ [التحريم:١٠] ؟

قلنا : فائدته مدحهما والثناء عليهما بإضافتهما إليه إضافة التشريف والتخصيص كما فى قوله تعالى : ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الفرقان:٦٣] وقوله تعالى : ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى﴾ [الفجر:٢٩] وهو مبالغة فى المعنى المقصود وهو أن الإنسان لا ينفعه إلا صلاح نفسه لا صلاح غيره ، وإن كان ذلك الغير فى أعلى مراتب الصلاح والقرب من الله تعالى .

١١٢٢ - فإن قيل : وكيف قال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] ولم يقل سبحانه : من القانتات ؟

قلنا : معناه : كانت من القوم القانتين ، أى : المطيعين لله تعالى ، يعنى: رهطها وأهلها ، فكأنه تعالى قال : وكانت من بنات الصالحين ، وقيل : إن الله تعالى لما تقبلها فى النذر وأعطاها مرتبة الذكور الذين كان لا يصلح النذر إلا بهم ، عاملها معاملة الذكور فى بعض الخطاب إشارة إلى ذلك ، وقال تعالى : ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران:٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم:١٢] أو رعاية الفواصل .

*** *** ***

سورة الملك

١١٢٣ - فإن قيل : ما فائدة تقديم الموت على الحياة فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك:٢] ؟

قلنا : إنما قدم سبحانه الموت لأنه هو المخلوق أولاً ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : أراد به خلق الموت فى الدنيا والحياة فى الآخرة ، ولو سلم أن المراد به الحياة فى الدنيا فالموت سابق عليها لقوله تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] .

١١٢٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ﴾ [الملك:٣] مع أن فى خلقه سبحانه تفاوتًا عظيماً ، فإن الأضداد كلها من خلقه عز وجل وهى متفاوتة ، والسموات أيضًا متفاوتة فى الصغر والكبر والارتفاع والانخفاض وغير ذلك ؟

قلنا : المراد بالتفاوت هنا الخلل والعيب والنقصان فى مخلوقه تعالى الذى هو السموات ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣] أى: من شقوق وصدوع فى السماء .

١١٢٥ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦] والله سبحانه وتعالى ليس فى السماء ولا فى غير السماء ، بل هو سبحانه منزه عن كل مكان ؟

قلنا : من ملكوته فى السماء ، لأنها مسكن ملائكته ومحل عرشه وكرسيه واللوح المحفوظ ، ومنها تنزل أقضيته وكتبه وأوامره ونواهيه .

الثانى: أنهم كانوا يعتقدون التشبيه ، وأنه سبحانه وتعالى فى السماء فخوطبوا على حسب اعتقادهم .

سورة ن " القلم "

١١٢٦ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ [القلم:١٨] أى : ولا يقولون : إن شاء الله فسمى الشرط استثناء ؟

قلنا : إنما سماه استثناء لأنه فى معناه ، فإن معنى قولك : لأخرجن إن شاء الله، ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد ، وقال عكرمة : المراد به حقيقة الاستثناء ، أى : أنهم لا يستثنون حق المساكين ، والجمهور على الأول .

١١٢٧ - فإن قيل : كيف سمى أوسطهم الاستثناء تسبيحًا فقال : ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨] أى : لولا تستثنون ؟

قلنا : إنما سماه تسبيحًا لاشتراكهما فى معنى التعظيم ، لأن الاستثناء تفويض إليه وإقرار بأنه لا يقدر أحد أن يفعل فعلاً إلا بمشيئته ، والتسبيح تنزيه له عن السوء .

الثانى : أنه كان استثناؤهم قول : سبحان الله .

الثالث : أن معناه : لولا تنزهون أنفسكم وأموالكم عن حق الفقراء .

١١٢٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم:٤٣] ولا تكليف فى الدار الآخرة ؟

قلنا : لا يدعون إليه تكليفًا وتعبدًا ، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركه فى الدنيا .

١١٢٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم:٤٣] وهم إنما كانوا يدعون إلى الصلاة ، فإن المراد بالآية دعاؤهم إلى الجماعات بأذان المؤذن حين يقول : حى على الصلاة؟

قلنـا : عبر سبحانه عن الصلاة بالسجود لأنه من أركانها ، بل هـو أعظم الأركان وغايتها ، كما عبر عنها بالركوع وبالقرآن .

١١٣٠ - **فـإن قيل** : كيف قـال تعالى : ﴿ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم:٤٣] أي: صحيحون ، مع أن الصحة ليست شرطًا لوجوب الصلاة ؟

قلنا : وجوب الخروج إلى الصلاة بالجماعة مشروط بالصحة وهو المراد .

*** *** ***

سورة الحاقة

١١٣١ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ [الحاقة:٦] ولم يقل: صرصرة، كما قال تعالى : ﴿عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦] وهو صفة لمؤنث ، لأنها الشديدة الصوت أو الشديدة البرد ؟

قلنا : لأن الصرصر وصف مخصوص بالريح لا يوصف به غيرها ، فأشبه باب حائض وطامث وحامل ، بخلاف عاتية فإن غير الريح من الأسماء المؤنثة يوصف به .

١١٣٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ ﴾ [الحاقة:٧] أى : فى تلك الليالى والأيام ، والنبى ﷺ ما رآهم ولا يراهم فيها ؟

قلنا : فيها ظرف لقوله تعالى صرعى ، لا لقوله تعالى : (فترى) ، والرؤية هنا من رؤية العلم والاعتبار ، فصار المعنى فتعلمهم صرعى فى تلك الليالى والأيام بإعلامنا حتى كأنك تشاهدهم .

١١٣٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة:١٣] إلى قوله سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة:١٨] والمراد بها هنا النفخة الأولى ، وهى نفخة الصعق بدليل ما ذكر بعدها من فساد العالم العلوى والسفلى ، والعرض إنما يكون بعد النفخة الثانية ، وبين النفختين من الزمان ما شاء الله تعالى فكيف قال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ ﴾ [الحاقة:١٨] ؟

قلنا : وضع اليوم موضع الوقت الواسع الذى يقع فيه النفختان وما بعدهما.

١١٣٤ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ

حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٠] ؟

قلنا : معناه تيقنت ، والظن يطلق بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦].

١١٣٥ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى فى وصف أهل النار : ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة:٣٥، ٣٦] وقال سبحانه فى موضع آخر: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية:٦] وفى موضع آخر : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣، ٤٤] وفى موضع آخر : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة:٥١ – ٥٣] وفى موضع آخر : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ [البقرة:١٧٤] ؟

قلنا : معناه إلا من غسلين وما أشبهه ، أو وضع الغسلين موضع كل طعام مؤذ كريه .

الثانى : أن العذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، لكل باب منهم جزء مقسوم .

١١٣٦ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤] يعنى أن القرآن قول جبريل عليه السلام مع أن قول الله تعالى لا قول جبريل ؟

قلنا : معناه عند الأكثرين أن المراد به النبى ﷺ ، والمعنى أنه يقرُّ له ويتكلم على وجه الرسالة من عند الله لا من تلقاء نفسه كما تزعمون .

١١٣٧ – **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٧] فوصف المفرد والجمع ؟

قلنا : قد سبق مثل هذا السؤال وجوابه فى آخر سورة البقرة .

سورة المعارج

١١٣٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج:١٩] ويفسره ما بعده الإنسان فى حال خلقه ما كان موصوفًا بهذه الصفات ؟

قلنا : هلوعًا حال مقدرة ، فالمعنى مقدار فيه الهلع كما فى قوله تعالى : ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ [الفتح:٢٧] وهم ليسوا محلقين حال الدخول .

١١٣٩ - فإن قيل : كيف قال تعالى أولاً : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣] ثم قال تعالى ثانيًا : ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج:٣٤] فهل بينهما فرق ؟

قلنا : المراد بالدوام المواظبة والملازمة أبدًا ، وقيل : المراد به سكونهم بحيث لا يلتفتون يمينًا ولا شمالاً ، واختاره الزجاج ، وقال : اشتقاقه من الدائم بمعنى الساكن ، كما جاء فى الحديث : "**أنه ﷺ نهى عن البول فى الماء الدائم**"(١) قلت: وقوله "على" ينفى هذا المعنى ، فإنه لا يقال هو على صلاته ساكن ، بل يقال : هو فى صلاته ساكن ، والمراد بالمحافظة عليها : أداؤها على أكمل وجوهها جامعة لجملة سننها وآدابها ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلاة والمحافظة إلى أحوالها .

*** *** ***

---

(١) البخارى (٢٣٢) ، ومسلم (٤٢٤) ، النسائى (٣٥) .

سورة نوح عليه السلام

١١٤٠ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ [نوح:٤] فإن كان المراد تأخيرهم به عن الأجل المقدر لهم فى الأزل فهو محال لقوله تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾ [المنافقون:١١] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ﴾ [نوح:٤] وإن كان المراد به تأخيرهم إلى مجىء الأجل المقدر لهم فى الأزل ، فما فائدة تخصيصهم بهذا وهم وغيرهم فى ذلك سواء على تقدير وجود الإيمان منهم وعدم وجوده ؟

قلنا : معناه : ويؤخركم عن العذاب إلى منتهى آجالكم على تقدير الإيمان فلا يعذبكم فى الدنيا كما عذب غيركم من الأمم الكافرة فيها .

الثانى : أنه سبحانه قضى أنهم إن آمنوا عمرهم ألف سنة ، وإن لم يؤمنوا أهلكهم بالعذاب لتمام خمسمائة سنة ، فقيل لهم : آمنوا يؤخركم إلى هذا الأجل.

١١٤١ – فإن قيل : كيف أمرهم بالاستغفار ، والاستغفار إنما يصح من المؤمن دون الكافر ؟

قلنا : معناه استغفروا ربكم من الشرك بالتوحيد .

١١٤٢ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧] والحيوان ضد النبات ، فكيف يطلق على الحيوان أنه نبات ؟

قلنا : هو استعارة للإنشاء والإخراج من الأرض بواسطة آدم عليه السلام.

١١٤٣ – فإن قيل : كيف دعا نوح عليه السلام على قومه بقوله : ﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح:٢٤] مع أنه أرسل ليهديهم ويرشدهم ؟

قلنا : إنما دعا عليهم بذلك بعد ما أعلمه الله تعالى أنهم لا يؤمنون .

١١٤٤ - **فإن قيل** : كيف قال نوح : ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧] وصفهم بالفجور والكفر فى حال ولادتهم وهم أطفال ، وكيف علم أنهم لا يلدون إلا فاجرًا كفارًا؟

قلنا : إنهم لا يلدون إلا من يفجر ويكفر إذا بلغ ، وإنما علم ذلك بإعلام الله تعالى ، أو وصفهم بما يؤولون إليه من الفجور والكفر ، وعلم ذلك بإعلام الله إياه .

*** *** ***

سورة الجن

١١٤٥ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن:١٩] ولم يقل سبحانه : رسول الله أو نبى الله المراد به النبى ﷺ ؟

قلنا : لأنه ﷺ لم يكن فى ذلك المقام مرسلاً إليهم ، بل اتفق مرورهم به وجوازهم عليه ، فلو قال تعالى : رسول الله أو نبى الله لأوهم ذلك قصد أداء الرسالة إليهم .

١١٤٦ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ [نوح:٢٥] مع أن الأمد اسم للغاية ، والغاية تكون زمانًا قريبًا وزمانًا بعيدًا ويؤيده قوله تعالى : ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠] ؟

قلنا : أراد بالقريب الحال ، وبالمجعول له الأمد المؤجل ، سواء كان الأجل قريبًا أو بعيدًا .

*** *** ***

سورة المزمل

١١٤٧ - فإن قيل : ما معنى وصف القرآن بالثقل فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] ؟

قلنا : فيه وجوه : أحدها : أنه كان يثقل نزول الوحى على النبى ﷺ حتى يعرق عرقًا شديدًا فى اليوم الشاتى .

الثانى : أن العمل بما فيه من التكاليف ثقيل شاق .

الثالث : ثقيل فى الميزان يوم القيامة .

الرابع : أنه ثقيل على المنافقين .

الخامس : أنه كلام له وزن ورجحان ، كما يقال للرجل العاقل ، رزين راجح .

السادس : أنه ليس بسفساف ، لأن السفساف من الكلام يكون خفيفًا .

١١٤٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل:١٨] ولم يقل سبحانه : منفطرة به والسماء مؤنثة ؟

قلنا : هو على النسبة ، أي ذات انفطار : وقيل : ذكر السماء على معنى السقف ، وقيل : معناه السماء شىء منفطر به ، وقيل : السماء تذكر وتؤنث .

١١٤٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل:٢٠] ولم يقل : أن لن تحصوها ، أى لن تعرفوا تحقيق مقادير ساعات الليل والنهار ؟

قلنا : الضمير عائد إلى مصدر يقدر معناه : لن تحصوا تقديرهما .

سورة المدثر

١١٥٠ - فإن قيل : ما فائدة قوله تعالى : ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:١٠] بعد قوله سبحانه : ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المدثر:٩، ١٠] ؟

قلنا : قيل : معناه أنه عسير لا يرجى أن يرجع يسيرًا ، كما يرجى تيسير العسير من أمور الدنيا ، وقيل : إنه تأكيد .

١١٥١ - فإن قيل : ما فائدة التكرار فى قوله تعالى : ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر:٢٨] ومعناهما واحد؟

قلنا : معناه لا تبقي للكفار لحمًا ولا تذر لهم عظمًا ، وقيل : معناه لا تبقيهم أحياء ولا تذرهم أمواتًا .

١١٥٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١] وما سبق من وصفهم بالاستيقان وازدياد الإيمان دل على انتفاء الارتياب ، والجمل كلها متعلقة بعدد خزنة النار ، والمعنى ليستيقن الذين أوتوا الكتاب أن ما جاء به محمد ﷺ حق ، حيث أخبر عن عدد خزنة النار بمثل ما فى التوراة ، ويزداد الذين آمنوا من أهل الكتاب إيمانًا بالنبى ﷺ والقرآن ، حيث وجدوا ما أخبرهم به مطابقًا لما فى كتابهم ؟

قلنا : فائدته التأكيد والتعريض أيضًا بحال من عداهم من الشاكين وهم الكفار والمنافقون ، فمعناه : ولا يرتاب هؤلاء كما ارتاب أولئك .

١١٥٣ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١] يعنى حصر عدد الخزنة فى تسعة عشر وذلك ليس بمثل ؟

قلنا : هو استعارة من المثل المضروب مما وقع غريبًا وبديعًا فى الكلام

استغرابًا منهم لهذا العدد واستبعادًا له ، والمعنى : أى شىء أراد الله بهذا العدد العجيب ، وأى حكمة قصد فى جعل الخزنة تسعة عشر لا عشرين .

الثانى : أن المثل هنا بمعنى الصفة كما فى قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد:٣٥] والمعنى: ماذا أراد الله بهذا العدد صفة للخزنة .

١١٥٤ - فإن قيل : كيف طابق قوله تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر:٤٢] وهو سؤال للمجرمين قوله تعالى : ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر:٤٠، ٤١] وهو سؤال عنهم ، وإنما المطابق يسألون المجرمين أو يتساءلون عن المجرمين ما سلككم فى سقر ، أى : يسأل أهل الجنة بعضهم بعضًا عن أهل النار ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ [المدثر:٤٢] ليس بيانًا للتساؤل عنهم ، وإنما هو حكاية قول المسؤولين عن المجرمين ، فالمسؤولون من أهل الجنة ألقوا إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين ، وذلك أن المؤمنين إذا أخرجهم الله تعالى من النار بعدما عذبهم بقدر ذنوبهم وأدخلهم الجنة يسألهم بعض أصحاب اليمين عن حال المجرمين وسبب تخليدهم ، فقال المسؤولون : قلنا لهم : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ الآية [المدثر:٤٢] ، وهؤلاء المؤمنون بعد إخراجهم من النار وإدخالهم الجنة صاروا من أصحاب اليمين ، وقيل : المراد بأصحاب اليمين الملائكة عليهم السلام ، وقيل : الأطفال لأنهم لا يرتهنون بذنوب إذ لا ذنوب لهم .

*** *** ***

سورة القيامة

١١٥٥ – فإن قيل: ما معنى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨] والقارئ على النبى ﷺ إنما هو جبريل عليه السلام .

قلنا : معناه فإذا جمعناه فى صدرك ، ويؤيده أول آية : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧] أى إن علينا جمعه وضمه فى صدرك فلا تعجل بقراءته قبل أن يتم حفظه ، وقيل : إنما أضيفت القراءة إلى الله تعالى ، لأن جبريل عليه السلام يقرؤه بأمره كما تضاف الأفعال إلى الملوك والأمراء بمجرد الأمر ، مع أن المباشر لها أعوانهم أو أتباعهم .

١١٥٦ – فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣] والذى يوصف بالنظر الذى هو الإبصار والإدراك إنما هو العين دون الوجه .

قلنا : قيل : إن المراد بالوجوه هنا السعداء وأهل الوجاهة يوم القيامة لا الوجه هو العضو ، ولا أرى هذا الجواب مطابقًا لقوله تعالى : ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٤] لأن العبوس والقطوب إنما يوصف به الوجه الذى هو العضو ومما يؤيد أن المراد بقوله تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢] الأعضاء المعروفة قوله تعالى : ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤] .

١١٥٧ – فإن قيل : النطفة المنى ، فما فائدة قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة:٣٧] ؟

قلنا : النطفة استعملت هنا بمعنى القطرة لأن النطفة تطلق على الماء القليل والكثير ، ومنه الحديث : "**حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوازًا**" [١] أراد بحر المشرق والمغرب .

(١) إسناده ضعيف : تاريخ دمشق (١/ ٣٩٢) .

سورة الإنسان

١١٥٨ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢] فوصف المفرد وهى النطفة بالجمع وهو الأمشاج لأنه جمع مشج ، والأمشاج: الأخلاط ، والمراد أنه مخلوق من نطفة مختلطة من ماء الرجل والمرأة .

قلنا : قال الزمخشرى رحمة الله تعالى عليه : أمشاج لفظ مفرد لا جمع ، كقولهم: برمة أعشار ، وبين أكباش ، وبر أهدام ، وقال غيره : الموصوف به أجزاء النطفة وأبعاضها .

١١٥٩ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:٢] والابتلاء متأخر عن جعله سميعًا بصيرًا.

قلنا : قال الفراء ، فيه تقديم وتأخير تقديره : فجعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه وقال غيره : معناه ناقلين له من حال إلى حال نطفة ثم علقة ثم مضغة ، فسمى ذلك ابتلاءً استعارة .

١١٦٠ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿قَوَارِيرَاْ ۝ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:١٦] والقوارير اسم لم يتخذ من الزجاج.

قلنا : معناه أن تلك الأكواب مخلوقة من فضة ، وهى مع بياض الفضة وحسنها فهى صفاء القوارير وشفيفها ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لو ضربت فضة الدنيا حتى جعلتها جناح الذباب لم ير الماء من ورائها ، وقوارير الجنة من فضة ويرى ما فيها من ورائها .

١١٦١ - **فإن قيل** : ما معنى قوله تعالى : ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ﴾ [الإنسان:١٥] .

قلنا : معناه تكونت ، فهى من قوله تعالى : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وكذا

قوله تعالى : ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥] .

١١٦٢ - **فإن قيل** : كيف شبه الله تعالى الولدان باللؤلؤ المنثور دون المنظوم .

قلنا : إنما شبههم سبحانه وتعالى باللؤلؤ المنثور لأنه أراد تشبيههم باللؤلؤ الذى لم يثقب بعد ، لأنه إذا ثقب نقصت مائيته وصفاؤه ، واللؤلؤ الذى لم يثقب لا يكون إلا منثورًا ، وقيل : إنما شبههم الله تعالى باللؤلؤ المنثور لأن اللؤلؤ المنثور على البساط أحسن منظرًا من المنظوم ، وقيل : إنما شبههم باللؤلؤ المنثور لانتشارهم وانبثاثهم فى مجالسهم ومنازلهم وتفريقهم فى الخدمة بدليل قوله تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ ﴾ [الإنسان:١٩] ولو كانوا وقوفًا لشبهوا بالمنظوم .

١١٦٣ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١] مع أن ذلك فى الدنيا إنما هو عادة الإماء ومن فى مرتبتهن .

قلنا : القرآن أول من خوطب به العرب ، وكان من عادة رجالهم ونسائهم من بيت المملكة التحلى بالذهب والفضة منفردين ومجتمعين .

الثانى : أن الاسم وإن كان مشتركًا بين فضة الدنيا والآخرة ، ولكن شتان ما بينهما قال النبى ﷺ : "**المثقال من فضة الآخرة خير من الدنيا وما فيها**"(١) وكذا كلام فى السندس والإستبرق وغيرهما مما أعده الله تعالى فى الجنة .

١١٦٤ - **فإن قيل** : أى شرف لتلك الدار يسقى الله عباده الشراب الطهور فيها مع أنه تعالى فى الدنيا سقاهم ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ ﴾ [الحجر:٢٢] .

قلنا : المراد به فى الآخرة سقيهم بغير واسطة ، وشتان ما بين الشرابين

---

(١) لم أقف عليه .

والآنيتين أيضًا والمنزلتين .

١١٦٥ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] الضمير لمشركى مكة بلا خلاف ، فما معنى تقسيمهم إلى الآثم والكفور ، وكلهم آثم وكلهم كفور .

قلنا : المراد بالآثم عتبة بن ربيعة ، فإنه كان كابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفسوق ، والمراد بالكفور الوليد بن المغيرة ، فإنه كان مغاليًا فى الكفر شديد الشكيمة فيه مع أن كليهما آثم وكافر ، والمراد به نهيه عن طاعتهم فيما كانوا يدعونه إليه من ترك الدعوة وموافقتهم فيما كانوا عليه من الكفر والضلال .

١١٦٦ - فإن قيل : ما معنى النهى عن طاعة أحدهما ، وهلا نهى عن طاعتهما .

قلنا : قال بعضهم إن أو هنا بمعنى الواو كما فى قوله تعالى : ﴿ أَوِ ٱلْحَوَايَآ ﴾ [الأنعام:١٤٦] .

الثانى : أنه لو قال تعالى ولا تطعهما جاز له أن يطيع أحدهما ، وأما إذا قيل له ولا تطع أحدهما كان منهيًا عن طاعتهما بالضرورة .

١١٦٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى هنا : ﴿ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان:٢٨] أى خلقهم ، وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا﴾ [الإنسان:٢٨] .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما والأكثرون ، المراد به أنه ضعيف عن الصبر عن النساء ، فلذلك أباح الله تعالى له نكاح الأمة كما سبق قبل هذه الآية ،وقال الزجاج : معناه أنه يغلبه هواه وشهوته فلذلك وصف بالضعف ، وأما قوله تعالى : ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان:٢٨] فمعناه ربطنا أوصالهم بعضها

إلى بعض بالعروق والأعصاب ، وقيل : المراد بالأسر العصعص ، فإن الإنسان فى القبر يصير رفاتًا إلا عصعصه فإنه لا يتفتت ، وقال مجاهد : المراد بالأسر مخرج البول والغائط ، فإنه يسترخى حتى يخرج منه الأذى ، ثم ينقبض ويجتمع ويشتد بقدرة الله تعالى .

*** *** ***

سورة المرسلات

١١٦٨ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات:٣٥] ينفى وجود الاعتذار منهم ؛ لأن الاعتذار إنما يكون بالنطق ، فما فائدة نفى الاعتذار بعد نفى النطق .

قلنا : معناه أنهم لا ينطقون ابتداء بعذر مقبول وحجة صحيحة ، ولا بعد أن يؤذن لهم فى الاعتذار ، فإن الأسير والجانى الخائف عادة قد لا ينطق لسانه بعذره وحجته ابتداء لفرط خوفه ودهشته ، ولكن إذا أذن له فى إظهار عذره وحجته انبسط وانطلق لسانه ، فكانت الفائدة فى الجملة .

الثانى : نفى هذا المعنى ، أى : لا ينطقون بعذر ابتداء ولا بعد الإذن .

١١٦٩ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر:٥٢] يدل على وجود الاعتذار منهم ، فكيف التوفيق بينه وبين ما نحن فيه.

قلنا : قيل : المراد بتلك الظالمون من المسلمين ، وبما نحن فيه الكافرون وآخر تلك الآية يضعف هذا الجواب ، أى قوله : ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢] .

*** *** ***

سورة النبأ

١١٧٠ - فإن قيل : كيف اتصل وارتبط قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ [النبأ:٦] بما قبله.

قلنا : لما كان النبأ العظيم الذى يتساءلون عنه هو البعث والنشور وكانوا ينكرونه ، قيل لهم : ألم يخلق من وعد بالبعث والنشور هذه المخلوقات العظيمة العجيبة الدالة على كمال قدرته على البعث .

١١٧١ - فإن قيل : لو كان النبأ العظيم الذى يتساءلون عنه ما ذكرتم لما قال الله تعالى الذى هم فيه مختلفون ؛ لأن كفار مكة لم يختلفوا فى أمر البعث ، بل اتفقوا على إنكاره .

قلنا : كان فيهم من يقطع القول بإنكاره ، وفيهم من يشك فيه ويتردد فثبت الاختلاف لأن جهة الاختلاف لا تنحصر فى الجزم ، بإثباته والجزم بنفيه .

الثانى : أن بعضهم صدق به فآمن ، وبعضهم كذب به فبقى على كفره ، فثبت الاختلاف بالنفى والإثبات .

الثالث : أن الضمير فى يتساءلون وفى هم عائد إلى الفريقين من المسلمين والمشركين ، وكلهم كانوا يتساءلون عنه لعظم شأنه عندهم ، فصدق به المسلمون فأثبتوه ، وكذب به المشركون فنفوه .

١١٧٢ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ:٣٩] هو جزاء الشرط فأين الشرط ، وشاء وحده لا يصلح شرطًا لأنه لا يفيد بدون ذكر مفعوله ، وإن كان المذكور هو الشرط فأين الجزاء .

قلنا : معناه فمن شاء النجاة من اليوم الموصوف اتخذ إلى ربه مرجعًا بطاعته.

الثانى : أن معناه فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآبا كقوله تعالى : ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] أى : فمن شاء الإيمان ، فليؤمن ، ومن شاء الكفر فليكفر .

*** *** ***

سورة النازعات

١١٧٣ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ [النازعات:١ ، ٢] ذكرها بلفظ التأنيث ، وكذا ما بعده، والكل أوصاف الملائكة ، والملائكة ليسوا إناثًا .

قلنا : هو قسم بطوائف الملائكة وفرقتها ، والطوائف والفرق مؤنثة .

١١٧٤ - فإن قيل : كيف أضاف الله تعالى الإبصار إلى القلوب فى قوله تعالى : ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ [النازعات:٨، ٩] أى : ذليلة لمعاينة العذاب ، والمراد بها الأعين بلا خلاف .

قلنا : المراد أبصار أصحابها بدليل قوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ﴾ [النازعات:١٠] .

١١٧٥ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات:٢٠] مع أن موسى عليه الصلاة والسلام أراه الآيات كلها بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ﴾ [طه:٦٥] وكل آية كبرى .

قلنا : الإخبار فى هذه الآية عن أول ملاقاته إياه ، وإنما أراه فى أول ملاقاته العصا واليد ، فأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحاد معناهما ، وقيل : أراد بالآية الكبرى العصا ، لأنها كانت المقدمة ، والأصل والأخرى كالتبع لها لأنه كان يتبعها بيده ، فقيل له أدخل يدك فى جيبك .

١١٧٦ - فإن قيل : كيف أضاف الله تعالى الليل إلى السماء بقوله تعالى : ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات:٢٩] مع أن الليل إنما يكون فى الأرض لا فى السماء.

قلنا : إنما إضافة إليها لأنه أول ما يظهر عند غروب الشمس إنما يظهر

في أفق السماء من موضع الغروب ، وأما قوله تعالى : ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٩] فالمراد به ضوء الشمس بدليل قوله تعالى : ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس:١] أى : وضوئها فلا إشكال فى إضافته إليها .

*** *** ***

سورة عبس

١١٧٧ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس:١١] ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [عبس:١٢] ولم يقل ذكرها .

قلنا : الضمير المؤنث لآيات القرآن أو لهذه السورة ، والضمير فى قوله تعالى ذكره راجع إلى القرآن ، وقيل : راجع إلى معنى التذكرة وهو الوعظ والتذكير لا إلى لفظها .

١١٧٨ - فإن قيل : فى قوله تعالى : ﴿وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١] روى أن عمر رضى الله تعالى عنه قرأ هذه الآية وقال ، كل هذا قد عرفنا فما الأب ، ثم قال : هذا لعمر الله التكلف ، وما عليك يا عمر أن لا تدرى ما الأب ، ثم قال: اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه ، وهذا شبيه بالنهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته .

قلنا : لم يرد بقوله ما ذكرت ، ولكن الصحابة رضى الله عنهم كانت أكثر هممهم عاكفة على العمل ، وكان الاشتغال بعلم لا يعمل به تكلفًا عندهم ، فأراد أن الآية مسوقة فى الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله تعالى للإنسان متاعًا له ولأنعامه ، فكأنه قال : عليك مما هو الأهم فالأهم وهو الشكر على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه تعالى ، ولا تتشاغل عنه بطلب معنى الأب ومعرفة النبات الخاص ، واكتف بمعرفته منه جملة إلى أن يتبين لك فى وقت آخر ، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه سئل عن الأب ؟ فقال : أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب الله بما لا علم لى به ، وأكثر المفسرين قالوا : الأب كل ما ترعاه البهائم .

سورة التكوير

١١٧٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨، ٩] والسؤال إنما يحسن للقاتل لا للمقتول .

قلنا : إنما سؤالها لتبكيت قاتلها وتوبيخه بما تقوله من الجواب ، فإنها تقول : قتلت بغير ذنب ، ونظيره في التبكيت والتوبيخ قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى﴾ [المائدة:١١٦] حتى قال سبحانك : ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة:١١٦] .

١١٨٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٤] فأثبت العلم لنفس واحدة ، مع أن كل نفس تعلم ما أحضرت يوم القيامة بدليل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران:٣٠] .

قلنا : هذا مما أريد به عكس مدلوله ، ومثله كثير في كلام الله تعالى وكلام العرب كقوله تعالى : ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فإن رب هنا بمعنى كم للتكثير ، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه الصلاة والسلام لقومه : ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف:٥] ، وقول الشاعر :

قد أترك القرن مصفرًّا أنامله ... كأن أثوابه مجت بفرصــاد

*** *** ***

سورة الانفطار

١١٨١ - **فإن قيل** : لأى فائدة تخصيص ذكر صفة الكرم دون سائر صفاته فى قوله تعالى : ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] .

قلنا : قال بعضهم ، إنما قال ذلك لطفًا بعبده وتلقينًا له حجته وعذره ليقول: غرنى كرم الكريم ، وقال الفضيل رحمه الله : لو سألنى الله تعالى هذا السؤال لقلت : غرنى ستورك المرخاة ، وروى أن عليًا كرم الله وجهه صاح بغلام له مرات فلم يلبه ، ثم أقبل فقال : ما لك لم تجبنى ؟ فقال : لثقتى بحلمك وأمنى عقوبتك ، فاستحسن جوابه وأعتقه ، ولهذا فقالوا : من كرم الرجل سوء أدب غلمانه ، والحق أن الواجب على الإنسان ألا يغتر بكرم الله تعالى وجوده فى خلقه إياه وإسباغه النعمة الظاهرة والباطنة عليه فيعصيه ويكفر نعمته اغترارًا بتفضله الأول ، فإن ذلك أمر منكر خارج عن حد الحكمة، ولهذا قال رسول الله ﷺ لما قرأها : "غره جهله" ، وقال عمر رضى الله عنه: غره حمقه وجهله ، وقال الحسن : غره والله شيطانه الخبيث الذى زين له المعاصى ، فقال له : افعل ما شئت فإن ربك كريم .

١١٨٢ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار:١٩] والنفوس المقبولة الشفاعة تملك لمن شفعت فيه شيئًا وهو الشفاعة.

قلنا : المنفى ثبوت النصرة بالملك والسلطنة والشفاعة ليست بطريق الملك والسلطنة فلا تدخل فى النفى ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٩] وقال مقاتل : المراد بالنفس الثانية الكافرة ، والأصح أنه على العموم فى النفسين .

سورة المطففين

١١٨٣ - **فإن قيل** : هلا قال الله تعالى إذا اكتالوا أو اتزنوا على الناس يستوفون كما قال سبحانه فى مقابله : ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين:٣] .

قلنا : لأن المطففين كانت عادتهم أنهم لا يأخذون ما يكالُ وما يوزن إلا بالمكيال ؛ لأن استيفاء الزيادة بالمكيال كان أمكن لهم وأهون عليهم منه بالميزان، وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فيهما .

١١٨٤ - **فإن قيل** : كيف فسر سبحانه وتعالى سجينًا بكتاب مرقوم فقال تعالى : ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٨، ٩] وكذا فسر تعالى عليين به مع أن سجينًا اسم للأرض السابعة ، وهو فعِّيل من السجن ، وعليين اسم للجنة أو لأعلى الأمكنة ، أو للسماء السابعة، أو لسدرة المنتهى .

قلنا : قوله تعالى : ﴿كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:٩] وصف معنوى لكتاب الفجار ولكتاب الأبرار ، لا تفسير لسجين ولعليين تقديره : وهو كتاب مرقوم .

*** *** ***

سورة الانشقاق

١١٨٥ – فإن قيل : أين جواب "إذا" فى قوله تعالى : ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق:١] .

قلنا : فيه وجوه ، أحدهما أنه متروك لتكرر مثله فى القرآن .

الثانى : أنه أذنت والواو فيها زائدة .

الثالث : أنه محذوف تقديره بعد قوله تعالى: ﴿وَحُقَّتۡ﴾ [الانشقاق:٢] بعثتم أو جوزيتم أو لاقيتم ما عملتم ، ودل على هذا المحذوف قوله تعالى : ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦] .

الرابع : أن فيه تقديمًا وتأخيرًا تقديره : يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه إذا السماء انشقت .

*** *** ***

سورة البروج

١١٨٦ – فإن قيل : أين جواب القسم .

قلنا : فيه وجوه ، أحدها : أنه متروك .

الثانى : أنه قوله تعالى : ﴿قُتِلَ﴾ [البروج:٤] أى لقد قتل ، أى لعن .

الثالث: أنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢] .

الرابع : أنه محذوف تقديره ، لتبعثن أو نحوه .

الخامس : أنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ [البروج:١٠] .

*** *** ***

سورة الطارق

١١٨٧ - **فإن قيل** : أين جواب القسم .

قلنا : ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ ﴾ [الطارق:٤] فإن بمعنى ما ، ولما بالتشديد بمعنى إلا ، فيكون المعنى: ما كل نفس إلا عليها حافظ ، ولما بالتخفيف ما فيه زائدة وإن هى المخففة من الثقيلة ، فيكون المعنى : إن كل نفس لعليها حافظ ، والقسم يتلقى بمعنى إن .

١١٨٨ - **فإن قيل** : ما وجه ارتباط قوله تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الطارق:٥] بما قبله .

قلنا : وجهه أنه لما ذكر أن على كل نفس حافظًا أتبعه بوصية الإنسان بالنظر فى أول أمره ونشأته الأولى ، ليعلم أن من أنشأه قادر على إعادته ومجازاته، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، فلا يملى على حافظه إلا ما يسره فى عاقبته .

١١٨٩ - **فإن قيل** : ما فائدة الجمع بين فمهل وأمهل ، ومعناهما واحد .

قلنا : بالتأكيد ، وإنما خولف بين اللفظين طلبًا للخفة .

*** *** ***

سورة الأعلى

١١٩٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩] مع أنه كان ﷺ مأمورًا بالذكرى نفعت أو لم تنفع .

قلنا : معناه إذ نفعت ، وقيل : معناه قد نفعت ، وقيل : إن نفعت وإن لم تنفع ، فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه ، وذكر الماوردى أنها بمعنى ما ، وكأنه أراد معنى ما الظرفية ، وإن بمعنى ما الظرفية ليس بمعروف .

١١٩١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى:١٣] مع أن الحيوان لا يخلو عن الاتصاف بأحد هذين الوصفين .

قلنا : معناه لا يموت موتًا يستريح به ، ولا يحيا حياة ينتفع بها ، وقال ابن جرير رحمة الله عليه : تصعد نفسه إلى حلقومه ثم لا تفارقه فيموت ولا ترجع إلى موضعها فى من الجسم فيحيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

*** *** ***

سورة الغاشية

١١٩٢ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٢-٤] مع أن جميع أبدانهم أيضًا تصلى النار.

قلنا : الوجه يطلق ويراد به جميع البدن كما فى قوله تعالى : ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه:١١١] وقيل : إن المراد بالوجوه هنا الأعيان والرؤساء ، كما يقال : هؤلاء وجوه القوم ، ويا وجه العرب ، أى ويا وجيههم ، ويؤيد هذا القول ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : إن المراد به الرهبان وأصحاب الصوامع .

١١٩٣ - فإن قيل : كيف ارتبط قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] بما قبله ، وأى مناسبة بين السماء والإبل والجبال والأرض حتى جمع بينهما ؟

قلنا : لما وصف الله تعالى الجنة بما وصف ، عجب من ذلك الكفار ، فذكرهم عجائب صنعه ، وقال قتادة ، لما ذكر ارتفاع سرر الجنة قالوا : كيف نصعدها ، فنزلت هذه الآية : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ [الغاشية:١٧] نظر اعتبار ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:١٧] للنهوض بالأثقال وحملها إلى البلاد البعيدة ، وجعلت تبرك حتى تحمل وتركب عن قرب ويسر ، ثم تنهض بما حملت ، فليس فى الدواب ما يحمل عليه وهو بارك ويطيق النهوض إلا هى ، وسخرت لكل من قادها حتى الصبى الصغير، ولما جعلت سفائن البر أعطين الصبر على احتمال العطش عشرة أيام فصاعدًا وجعلت ترعى كل نبات فى البرارى والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم ، وإنما لم يذكر الفيل والزرافة والكركند وغيرها مما هو أعظم من الجمل لأن العرب لم يروا شيئًا من ذلك ولا كانوا يعرفونه ، ولأن

الإبل كانت أنفس أموالهم وأكثرها لا تفارقهم ولا يفارقونها ، وإنما جمع بينها وبين ما بعدها لأن نظر العرب قد انتظم هذه الأشياء فى أوديتهم وبواديهم ، فانتظما الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم وكثرة ملابستهم ومخالفتهم ، ومن فسر الإبل بالسحاب والماء قصد بذلك طلب المناسبة بطريق تشبيه الإبل بالسحاب فى السير وفى النشط أيضًا فى بعض الأوقات ، لا أنه أراد أن المراد من الإبل السحاب حقيقة ، وقد جاء فى أشعار العرب تشبيه السحاب بالإبل كثيرًا، وقد شبه ابن دريد أيضًا بالسحاب فى قصيدته ، وقرأ أبى بن كعب وعائشة رضى الله عنهما الإبل بتشديد اللام ، قال أبو عمرو : وهو اسم للسحاب الذى يحمل الماء ، والله أعلم.

*** *** ***

سورة الفجر

١١٩٤ - **فإن قيل** : كيف نكر الليالى العشر دون سائر ما أقسم به ، وهلا عرفها بلام العهد وهى ليالى معلومة معهودة ، فإنها ليالى عشر ذى الحجة فى قول الجمهور .

قلنا : لأنها مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بفضيلة ليست لغيرها فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس ، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦١] ونظيره قوله تعالى : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد:١] فعرفه ثم قال: ﴿وَوَالِدٍ﴾ [البلد:٣] فنكره ، والمراد به آدم وإبراهيم أو محمد ﷺ أجمعين، ولأن الأحسن أن تكون اللامات كلها متجانسة ، ليكون اللام أبعد عن الألغاز والتعمية ، وهى فى الباقى للجنس .

١١٩٥ - **فإن قيل**: كيف ذم الله تعالى الإنسان على قوله:﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر:١٥] مع أنه صادق فيما قال ، لأن الله تعالى أكرمه بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ [الفجر:١٥] كيف وأن هذا تحدث بالنعمة وهو مأمور به .

قلنا : المراد به أن يقول ذلك مفتخرًا على غيره ومتطاولاً به عليه ومعتقدًا استحقاق ذلك على ربه كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٨] ومستدلاً به على علو منزلته فى الدار الآخرة ، وكل ذلك منهى عنه ، وأما إذا قاله على وجه الشكر والتحدث بنعمة الله فليس بمذموم ولا منهى عنه .

١١٩٦ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى فى الجملة الأولى : ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ [الفجر:١٥] ولم يقل فى الجملة الثانية : فأهانه .

قلنا : لأن بسط الرزق إكرام لأنه إنعام وإفضال من غير سابقة ، وقبضه ليس بالإهانة لأن ترك الإنعام والإفضال لا يكون إهانة بل هو واسطة بين الإكرام والإهانة ، فإن المولى قد يكرم عبده وقد يهينه ، وقد لا يكرمه ولا يهينه ، وتضييق الرزق ليس إلا عبار ة عن ترك إعطاء القدر الزائد ، ألا ترى أنه يحسن أن تقول : زيد أكرمنى إذا أهدى لك هدية ، ولا يحسن أن تقول : أهاننى إذا لم يهد لك .

١١٩٧ - **فإن قيل** : كيف قال الله تعالى : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر:٢٢] ؟ والحركة والانتقال على الله محالان لأنهما من خواص الكائن فى جهة .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : وجاء أمر ربك ، لأن فى القيامة تظهر جلائل آيات الله تعالى ، ونظيره قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام:١٥٨] وقيل : معناه : وجاء ظهور ربك لضرورة معرفته يوم القيامة ومعرفة الشيء بالضرورة تقوم مقام ظهوره ورؤيته ، فمعناه : زالت الشكوك وارتفعت الشبه كما ترتفع عند مجيء الشيء الذى كان يشك فيه.

*** *** ***

سورة البلد

١١٩٨ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد:٣] ولم يقل سبحانه وتعالى : ومن ولد .

قلنا : لأن فى "ما" من الإبهام ما ليس فى من ، فقصد به التفخيم والتعظيم كأنه تعالى قال : وأى شيء عجيب غريب ولد ، ونظيره قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران:٣٦] .

سورة الشمس

١١٩٩ - فإن قيل : كيف نكر الله تعالى النفس دون سائر ما أقسم به حيث قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٧] .

قلنا : لأنه لا سبيل إلى لام الجنس ، لأن نفوس الحيوانات غير الإنسان خارجة عن ذلك بدليل قوله تعالى : ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٨] ولا سبيل إلى لام العهد لأن المراد ليس نفسًا واحدة معهودة ، وعلى قول من قال : إن المراد منه نفس آدم عليه السلام ، فالتنكير للفتخيم والتعظيم كما سبق فى سورة الفجر .

١٢٠٠ - فإن قيل : أين جواب القسم ؟

قلنا : قال الزجاج وغيره : إنه قوله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] وحذفت اللام لطول الكلام ، وقال ابن الأنبارى : جوابه محذوف ، وقال الزمخشرى : تقدير ليدمدمن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ كما دمدم على ثموم لتكذيبهم صالحًا عليه السلام ، قال : وأما : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩] فكلام تابع لما قبله على طريق الاستطراد وليس من جواب القسم فى شىء .

*** *** ***

سورة الليل

١٢٠١ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل:١٥] مع أن الشقى أيضًا يصلاها : أى يقاسى حرها وعذابها .

قلنا : قال أبو عبيدة : الأشقى هنا بمعنى الشقى ، والمراد به كل كافر ، والعرب تستعمل أفعل فى موضع فاعل ولا تريد به التفضيل ، وقد سبق تقرير ذلك والشواهد عليه فى سورة الروم فى قوله تعالى : ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] ، وقال الزجاج : هذه نار موصوفة معينة ، فهو درك مخصوص ببعض الأشقياء ، ورد عليه ذلك بقوله تعالى : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل:١٧] والأتقى يجنب عذاب أنواع نار جهنم كلها ، والمراد بالأتقى هنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه بإجماع المفسرين، ولهذا قال الزمخشرى : إن الأشقى ليس بمعنى الشقى بل هو على ظاهره ، والمراد به أبو جهل أو أمية بن خلف ، فالآية واردة للموازنة بين حالتى أعظم المؤمنين وأعظم المشركين ، فبولغ فى صفتيهما المتناقضتين ، وجعل هذا مختصًا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له لوفور نصيبه منها وجاء قوله تعالى : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ [الليل:١٧] على موازنة ذلك ومقابلته ، مع أن كل تقى يجنبها ، قال بعض العلماء: هذه الآية تدل على أن أبا بكر رضى الله عنه أفضل الصحابة لأنه وصفه بالأتقى ، وقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] وإذا كان أكرم عند الله كان أفضل .

*** *** ***

سورة الضحى

١٢٠٢ - **فإن قيل** : كيف وصف ﷺ بالضال والنبى ﷺ معاذ الله أن يكون ضالاً، أى كافرًا لا قبل النبوة ولا بعدها ، والضال أكثر ما ورد فى القرآن بمعنى الكافر.

قلنا : المراد به هنا أنه تعالى وجده ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة فهداه إليها ، هذا قول الجمهور .

الثانى : أنه ضل وهو صغير فى شعاب مكة فرده الله تعالى إلى جده عبد المطلب .

الثالث : أن معناه : ووجدك ناسيًا فهداك إلى الذكر ، لأن الضلال جاء بمعنى النسيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:٢٨٢] .

١٢٠٣ - **فإن قيل** : لو كان الضلال بمعنى النسيان لما جمع بينهما فى قوله تعالى : ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طه:٥٢] .

قلنا : لا ندعى أنه حيث ذكر كان بمعنى النسيان ، فهو فى تلك الآية بمعنى الخطأ ، وقيل : بمعنى الغفلة .

الرابع : أن معناه ، ووجدك جاهلاً فعلمك.

١٢٠٤ - **فإن قيل** : كيف من سبحانه عليه بإخراجه من الفقر إلى الغنى بقوله تعالى : ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٨] أى : فقيرًا ، والعائل الفقير سواء كان له عيال أو لم يكن.

قلنا : قال ابن السائب ، واختاره الفراء ، أنه لم يكن غناه بكثرة المال ، ولكن الله أرضاه بما آتاه ، ولم يكن ذلك الرضا قبل غنى القلب ، وقال غيره: المراد به أنه أغناه بمال خديجة عن مال أبى طالب ، والمراد به الإغناء بتسهيل ما لابد منه وتيسيره ، لا الإغناء بفضول المال الذى لا يجامع صفة الفقر .

*** *** ***

سورة الانشراح

١٢٠٥ - فإن قيل : أى فائدة فى زيادة ذكر لك وعنك والكلام تام بدونها .

قلنا : فائدته الإبهام ثم الإيضاح ، وهو نوع من أنواع البلاغة .

فلما قال تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾ [الشرح:١] فهم أن ثم مشروحًا له ثم قال : ﴿صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١] فأوضح ما علم مبهمًا بلفظ ذلك ، وكذا كلام فى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ﴾ [الشرح:٢].

١٢٠٦ - فإن قيل : قال تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥] وكلمة مع للمصاحبة والقرآن ، فما معنى اقتران العسر واليسر .

قلنا : سبب نزول هذه الآية أن المشركين عيروا رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم بالفقر والضائقة التى كانوا فيها ، فوعدهم الله تعالى يسرًا قريبًا من زمان عسرهم ، وأراد تأكيد الوعد لتسليتهم وتقوية قلوبهم ، فجعل لليسر الموعود كالمقارن للعسر فى سرعة مجيئه .

١٢٠٧ - فإن قيل : ما معنى قول ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهم وابن مسعود رضى الله عنه : "**لن يغلب عسرٌ يسرين**"(١) ، ويروى ذلك عن النبى ﷺ أيضًا .

قلنا : هذا عمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء ، وإن وعد الله لا يحتمل إلا على أحسن ما يحتمله اللفظ وأكمله ، وأما حقيقة القول فيه فهو أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تأكيدًا للأولى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:٤٩] وما أشبهه ، وكما فى قولك ، جاءنى رجل جاءنى

---

(١) الموطأ (١٦٢١) ، وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٤٣٤٢) .

رجل ، وأنت تعنى واحدًا فى الجملتين ، فعلى هذا يتحد العسر واليسر ، أو يكون تعريف العسر لأنه حاضر معهود ، وتنكير اليسر لأنه غائب مفقود ، وللتفخيم والتعظيم ، ويحتمل أن تكون الجملة الثانية وعدًا مستأنفًا فيتعدد اليسر حينئذ على ما قيل، ويؤيد أن الجملة الثانية للتأكيد أنه ليس فى مصحف عبد الله بن مسعود إلا مرة واحدة .

١٢٠٨ - **فإن قيل** : وإذا ثبت فى قراءته غير مكرر ، فكيف قال : والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنه لن يغلب عسر يسرين .

قلنا : كأنه نزل ما فيه من التفخيم والتعظيم بالتنكير منزلة التثنية ، لأن المعنى يسرًا وأى يسر ، وأما من فسره بيسرين فإنه قال : أحد اليسرين ما تيسر من الفتوح فى زمن النبى ﷺ .

والثانى : ما تيسر بعده فى زمن الخلفاء وقيل : هما يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى : ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥٢] وهما حسن الظفر وحسن الثواب .

*** *** ***

سورة التين

١٢٠٩ - فإن قيل : كيف وجه صحة الاستثناء فى قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] .

قلنا : قال الأكثرون : والمراد بالإنسان هنا الجنس ، ويرده أسفل سافلين إدخاله النار ، فعلى هذا يكون الاستثناء متصلاً ظاهر الاتصال ، ويكون قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] قائمًا مقام قوله تعالى فلا نردهم أسفل سافلين ، وأما على قول من فسر أسفل سافلين بالهرم أسفل هؤلاء كلهم ، فعلى هذا يكون الاستثناء منقطعًا بمعنى لكن ، ومعنى قوله تعالى : ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] أى غير مقطوع بالهرم والضعف الحاصل من الكبر ، أى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى حال شبابهم وقوتهم ، فإنهم إذا عجزوا عن العمل كتب لهم ثواب ما كانوا يعملونه من الطاعات والحسنات إلى وقت موتهم ، وهذا معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر، وقال بعض العلماء : الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى شبابهم وقوتهم فإنهم لا يردون إلى الخرف وأرذل العمر وإن عمروا طويلاً ، وتمسك بظاهر قول ابن عباس رضى الله عنهما .

*** *** ***

سورة العلق

١٢١٠ - **فإن قيل** : أين مفعول خلق الأول ؟

قلنا : يحتمل وجهين ، أحدهما : أن لا يقدّر له مفعول ، بل يكون المراد الذى حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه ، كما قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك:١٤] فى أحد الوجهين ، وقولهم : فلان يعطى ويمنع ويصل ويقطع.

الثانى : أن يكون مفعوله مضمرًا تقديره : الذى خلق كل شىء ثم أفرد الإنسان بالذكر تشريفًا له وتفضيلاً .

١٢١١ - **فإن قيل** : كيف قال تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢] على الجمع ولم يقل : من علقة .

قلنا : لأن الإنسان فى معنى الجميع بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [العلق:٢، ٣] والجمع إنما خلق من جمع علقة لا من علقة .

١٢١٢ - **فإن قيل** : هذا الجواب يرده قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج:٥] .

قلنا : المراد فإنا خلقنا أباكم من تراب ، ثم خلقنا كل واحد من أولاده من نطفة ، وقيل : إنما قال من علق رعاية للفاصلة الأولى وهى خلق .

*** *** ***

سورة القدر

١٢١٣ - فإن قيل : ما معنى قوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر:٤] وتنزلهم من الأمر لا معنى له.

قلنا : من هنا بمعنى الباء كما في قوله تعالى : ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١] وقوله تعالى : ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [غافر:١٥] أى لكل أمر قضاه الله تعالى فى تلك السنة من ليلة القدر إلى مثلها تنزل الملائكة به من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وقيل: إلى الأرض .

*** *** ***

سورة البينة

١٢١٤ - فإن قيل : المراد بالرسول هنا محمد ﷺ بلا خلاف ، فكيف قال تعالى : ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾ [البينة:٢] وظاهره يدل على قراءة المكتوب فى الكتاب وهو منتفٍ فى حقه ﷺ لأنه كان أميًا .

قلنا : المراد يتلو ما فى الصحف عن ظهر قلبه ، لأنه هو المنقول عنه بالتواتر.

١٢١٥ - فإن قيل : ما الفرق بين الصحف والكتب حتى قال تعالى : ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ﴾ [البينة:٢، ٣] .

قلنا : الصحف القراطيس ، وقوله تعالى : مطهرة : أى من الشرك الباطل ، وقوله تعالى : ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:٦] أى : مكتوبة مستقيمة ناطقة بالعدل والحق ، يعنى الآيات والأحكام .

١٢١٦ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] أى النبى ﷺ أو القرآن ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، وهم مازالوا متفرقين مختلفين يكفر كل فريق منهم الآخر قبل مجىء البينة وبعدها .

قلنا : المراد به تفرقهم عن تصديق النبى ﷺ والإيمان به قبل أن يبعث ، فإنهم كانوا مجتمعين على ذلك متفقين عليه بأخبار التوراة والإنجيل ، فلما بعث إليهم تفرقوا ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وقال بعض العلماء : المراد بالبينة ما فى التوراة والإنجيل من الإيمان بنبوته ﷺ ، ويؤيد هذا القول أن أهل الكتاب أفردوا بالذكر فى هذا التفرق مع وجود التفرق من المشركين أيضًا بعدما جمعوا مع المشركين فى أول السورة ، فلابد أن يكون مجىء البينة أمرًا يخصهم ، ومجىء النبى ﷺ والقرآن العزيز لا يخصهم .

سورة الزلزلة

١٢١٧ - فإن قيل : قوله تعالى : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] ما معنى إضافة الزلزال الذى هو المصدرَ إلى الأرض ، وهلا قال زلزالاً كما قال تعالى : ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١] وما أشبهه .

قلنا : معنا الزلزال الذى تستوجبه فى حكمة الله تعالى ومشيئته فى ذلك اليوم ، وهو الزلزال الذى ليس بعده زلزال ، ونظيره قولك : أكرم التقى إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة ، ويجوز أن يكون المراد بالإضافة الاستغراق معناه زلزالها كله الذى هو ممكن لها .

١٢١٨ - فإن قيل : كيف قال تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة:٧] على العموم فيهما ، وحسنات الكافر محبطة بالكفر ، وسيئات المؤمن معفو عنها مغفورة باجتناب الكبائر ، فكيف تثبت رؤية كل عامل جزاء عمله .

قلنا : معناه فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا من فريق السعداء ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا من فريق الأشقياء ، لأنه جاء بعد قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة:٦] ، وذكر مقاتل أنها نزلت فى رجلين من أهل المدينة كان أحدهما يستقل أن يعطى السائل الكسرة أو الثمرة ويقول : إنما تؤجر على ما تعطيه ونحن نحبه، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول : إنما أوعد الله النار على الكبائر.

*** *** ***

سورة العاديات

١٢١٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات:١١]مع أنه تعالى أخبر بهم فى كل زمان، فما وجه تخصيص ذلك اليوم.

قلنا : معناه أن ربهم سبحانه مجازيهم يومئذ على أعمالهم ، فالعلم مجاز عن المجازاة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء:٦٣] معناه يجازيهم على ما فيها ، لأن علمه شامل لما فى قلوب كل العباد ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر:١٦] .

*** *** ***

سورة القارعة

١٢٢٠ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة:٨] أى : رجحت سيئاته على حسناته : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٩] أى فمسكنه النار ، وأكثر المؤمنين سيئاتهم راجحة على حسناتهم .

قلنا : قوله تعالى : ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٩] لا يدل على خلوده فيها ، فيسكن المؤمن بقدر ما تقتضيه ذنوبه ، ثم يخرج منها إلى الجنة ، وقيل : المراد بخفة الموازين : خلوها من الحسنات بالكلية ، وتلك موازين الكفار .

*** *** ***

سورة التكاثر

١٢٢١ - فإن قيل : أين جواب : ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٥] ؟

قلنا : هو محذوف تقديره : لو تعلمون الأمر يقينًا لشغلكم عن التكاثر والتفاخر ، ثم ابتدأ تعالى بوعيد آخر فقال سبحانه : ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦] .

١٢٢٢ - فإن قيل : كل أحد لا يخلو عن نيل نعيم فى الدنيا ، ولو مرة واحدة ، فما النعيم الذي يسأل عنه العبد .

قلنا : فيه سبعة أقوال ، **أحدها** : أنه الأمن والصحة .

والثانى : أنه الماء البارد .

الثالث : أنه خبز البر والماء العذب .

الرابع : أنه مأكول ومشروب لذيذان .

الخامس : أنه الصحة والفراغ .

السادس : أنه كل لذة من لذات الدنيا .

السابع : أنه دوام الغداء والعشاء ، وقيل : إن السؤال خاص للكفار ، والصحيح أنه عام فى كل إنسان وفى كل نعيم ، فالكافر يسأل توبيخًا والمؤمن يسأل عن شكرها ، ويؤيدها هذا ما جاء فى الحديث أنه ﷺ قال : **"يقول الله تعالى : ثلاث لا أسأل عبدى عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك ، بيت يكنه ، وما يقيم به صلبه من الطعام ، وما يوارى به عورته من اللباس "**[1] .

---

(١) الجامع الكبير للسيوطى (١/ ٢٦٢٤٣) .

سورة العصر

١٢٢٣ - **فإن قيل** : الاستثناء الذى فى السورة لا يدل على أن المؤمنين الموصوفين فى ربح مع أن الاستثناء إنما سيق لمدحهم بمضادة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء .

قلنا : الاستثناء وإن لم يدل بصريحه على أنهم فى أعظم ربح ، ولكن اتصافهم بتلك الصفات الأربعة الشريفة يدل على أنهم فى أعظم ربح ، مع أن لو قدرنا أنهم ليسوا فى ربح فالمضادة حاصلة أيضًا لأنهم ليسوا فى خسر بمقتضى الاستثناء .

*** *** ***

سورة الهمزة

١٢٢٤ - **فإن قيل** : ما الفرق بين الهمزة واللمزة ؟

قلنا : قيل : إنها بمعنى واحد لا فرق بينهما ، وإنما الثانى تأكيد للأول ، وقيل: إنهما مختلفان ، فقيل : الهمزة المغاب ، واللمزة العياب : وقيل : الهمزة العياب فى الوجه ، واللمزة فى القفا ، وقيل : الهمزة الطعان فى الناس، واللمزة الطعان فى أنساب الناس ، وقيل : الهمزة يكون بالعين ، واللمزة باللسان وقيل: عكسه ، فهذه ستة أقوال .

*** *** ***

سورة الفيل

١٢٢٥ - **فإن قيل** : ما معنى الأبابيل ؟ وهل هو واحد أو جمع ؟

قلنا : معناها جماعات فى تفرقة أى حلقة حلقة ، وقيل : التى يتبع بعضها بعضًا ، وقيل : الكثيرة : وقيل : المختلفة الألوان ، وقال الفراء وأبو عبيدة : لا واحد لها ، وقيل : واحدها أبال وأبول وأبيل .

*** *** **

سورة قريش

١٢٢٦ - **فإن قيل** : بأى شىء تتعلق اللام فى قوله تعالى : ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش:١] ؟

قلنا : قيل : إنها متعلقة بآخر السورة التى قبلها : أى فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، ويؤيد هذا أنهما فى مصحف أبى رضى الله عنه سورة واحدة بلا فصل ، والمعنى أنه أهلك أصحاب الفيل الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيها بوهم ويحترموهم ، فينتظم لهم الأمر فى رحلتهم ولا يجترئ أحد عليهم ، وقيل معناه : أهلكهم ليألف قريش رحلة الشتاء والصيف بهلاك من كان يخيفهم ويمنعهم : وقيل : إنها متعلقة بما بعدها وهو قوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَـٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش:٣] ﴿إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ [قريش:٢] ، معناه أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الظاهرة .

وقيل : هى لام التعجب معناه أعجبوا لإيلاف قريش ، وكانت لقريش فى كل سنة رحلتان للتجارة التى بها معاشهم ، رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى الشام ، ثم قيل : الإيلاف هنا مصدر بمعنى الإلف تقول: آلفته إيلافًا بالمد كما تقول ألفته إلفًا بالقصر كلاهما متعد إلى مفعول واحد ، فيكون لإيلاف قريش لإلف قريش : أى لحبهم الرحلتين ، وقيل : آلف بالمد متعدٍ إلى مفعولين ، يقال ألف زيد المكان وألف زيد عمرًا المكان ، فيكون معنى الآية لإيلاف الله تعالى قريشًا الرحلتين ، فعلى هذا الوجه يكون المصدر مضافًا إلى المفعول ، وعلى الوجه الأول يكون مضافًا إلى الفاعل ، وأما تكرار إضافة المصدر فى قوله تعالى : ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَـٰفِهِمْ﴾ [قريش:١، ٢] فقيل : إن الثانى بدل من الأول ،وقيل : إنه للتأكيد كما تقول : أعطتك المال لصيانة وجهك صيانة عن ذل السؤال .

*** *** ***

سورة الماعون

١٢٢٧ – **فإن قيل** : كيف توعد الله لساهى عن الصلاة ، والحديث ينفى مؤاخذاته وهو قوله ﷺ " **رفع عن أمتى الخطأ والنسيان** " .

قلنا : المراد بالسهو هنا التغافل عنها والتكاسل فى أدائها وقلة الالتفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ، وليس المراد ما يتفق فيها من السهو بوسوسة الشيطان أو حديث النفس مما لا صنع للعبد فيه ولا اختيار " وهو المراد فى الحديث " وكان النبى ﷺ يقع له السهو فى صلاته فضلاً عن غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ [الماعون:٥] ولم يقل : في صلاتهم ، وعن أنس رضى الله عنه أنه قال : الحمد لله على أن لم يقل فى صلاتهم.

سورة الكوثر

١٢٢٨ - فإن قيل : ما الكوثر ؟

قلنا : فيه قولان ، **أحدهما :** وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما أنه الخير الكثير فوعل من الكثرة كقولهم : رجل نوفل : أى كثير النوافل ، ومنه قول الشاعر :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا

قيل لأعرابية رجع ابنها من سفر : كيف آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر، ولقد أعطى النبى ﷺ خيرًا كثيرًا ، فإنه آتاه الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا ، ومنهم من فسر هذا الخير الكثير بالنبوة ، ومنهم من فسره بالعلم والحكمة ، ومنهم من فسره بالقرآن .

والقول الثانى : أن الكوثر اسم نهر فى الجنة ، وهو قول أكثر المفسرين ، وقد جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : " **الكوثر نهر وعدنيه ربى فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة** "[1] وعنه ﷺ أيضًا فى الحديث أنه قال " **بينا أنا أسير فى الجنة فإذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك ، فضرب الملك بيده فإذا طينه المسك الأذفر** " وروى عن صفته " **أنه أحلى من العسل ، وأشد بياضًا من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد** "[2] **حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء ، لا يظمأ من شرب منه أبدًا .**

(١) مسلم (٤٠٠) ، وأبو داود (٧٨٤) .
(٢) الترمذى (٣٣٦١) ، وصححه الألبانى .

سورة الكافرون

١٢٢٩ - فإن قيل : كيف قال الله تعالى : ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] ولم يقل "من" مع أنه القياس .

قلنا : فيه وجهان : **أحدهما** : أنه إنما قال "ما" رعاية للمقابلة فى قوله تعالى: ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢] .

الثانى : أن "ما" مصدرية : أى لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتى ، وقال الزمخشرى : إنما قال "ما" لأن المراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، وقال غيره : ﴿ مَآ ﴾ فى الكل بمعنى الذى ، والعائد محذوف .

١٢٣٠ - فإن قيل : ما فائدة التكرار .

قلنا : فيه وجهان ﷺ **أحدهما** : أنه للتأكيد وقطع أطماعهم فيما طلبوه منه.

الثانى : أن الجملتين الأوليين لنفى العبادة فى الحال ، والجملتين الأخريين لنفى العبادة فى الاستقبال فلا تكرار فيه ، وهذا قول ثعلب والزجاج ، والخطاب لجماعة علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون ، وقال الزمخشرى : يرد الوجه الثانى ، وذلك أن قال : ﴿ لَآ أَعْبُدُ ﴾ أريد به العبادة فى المستقبل ، لأن "لا" لا تدخل إلا على مضارع فى معنى الحال ، فالجلمتان الأوليان لنفى العبادة فى المستقبل والجلمتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى ، فقوله : ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون:٤] أى ما عهدتم من عبادة الأصنام فى الجاهلية ، فكيف يرجى منى بعد الإسلام ، وقوله : ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] أى ما عبدتم فى وقت ما أنا على عبادته ، ويرد على قوله والجملتان الأخريان لنفى العباده فى الماضى أن اسم الفاعل المنون العامل عمل الفعل لا يكون إلا

بمعنى الحال أو الإستقبال وعابد هنا عامل فى " ما " وكذلك عابدون ، وجوابه أنه على الحكاية كما قال تعالى : ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨] وأورد على هذا التقدير فقال .

١٢٣١ – فإن قيل : هلا قال تعالى : ولا أنتم عابدون ما عبدت ، بلفظ الماضى، كما قال : ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون:٤] .

قلنا : لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل بعثه ، وهو ما كان يعبد الله تعالى قبل بعثه ، بل بعد بعثه ، ويرد على هذا التقدير : أن أعظم العبادة التوحيد ، وكل الأنبياء كانوا موحدين بعقولهم قبل البعثة ، وقال بعض العلماء : إنما جاء الكلام مكررًا لأنه ورد جوابًا لسؤالهم مناوبة ، وكان سؤالهم مكررًا ، فإنهم قالوا: يا محمد تعبد آلهتنا كذا مدة ونعبد إلهك كذا مدة ، ثم تعبد آلهتنا كذا ونعبد إلهك كذا مدة ، فورد الجواب مكررًا ليطابق السؤال ، وهذا قول حسن لطيف .

*** *** **

سورة النصر

١٢٣٢ – فإن قيل : أى مناسبة بين الأمر بالاستغفار وبين ما قبله ، فإن مجيء الفتح والنصر يناسب الشكر والحمد لا الاستغفار والتوبة .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه السورة علم النبى ﷺ أنه نعيت إليه نفسه ، وقال الحسن : أعلم النبى ﷺ أنه قد اقترب أجله، فأمر بالتسبيح والاستغفار والتوبة ليختم له فى آخر عمره بالزيادة فى العمل الصالح، فكان يكثر من قوله : "**سبحانك اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم**" وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن هذه السورة تسمى سورة التوديع، وروى أن النبى ﷺ عاش بعد نزولها سنتين .

سورة تبت

١٢٣٣ - **فإن قيل** : كيف ذكره الله تعالى بكنيته دون اسمه ، مع أن ذلك إكرام واحترام .

قلنا : فيه وجوه ، أحدهما : يجوز أنه لم يعرف له اسم ولم يشتهر إلا بكنيته ، فذكره بما اشتهر به لزيادة تشهيره بدعوة لسوء عليه .

الثاني : أنه نقل أنه كان اسمه عبد العُزى ، وهو كان عبد الله لا عبد العزى، فلو ذكره باسمه لكان خلاف الواقع .

الثالث : أنه ذكره بكنيته لموافقة حاله لكنيته ، فإن مصيره إلى النار ذات اللهب ، وإنما كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما .

*** *** ***

سورة الإخلاص

١٢٣٤ - **فإن قيل** : فالمشهور فى كلام العرب أن الأحد يستعمل بعد النفى، والواحد يستعمل بعد الإثبات ، يقال : فى الدار واحد ، وما فى الدار أحد، وجاءنى واحد ما جاءنى أحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:١٦٣] وقوله تعالى : ﴿ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩] ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ [التوبة:٨٤] ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٣٦] ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ﴾ [الأحزاب:٣٢] ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الحاقة:٤٧] فكيف جاء هنا أحد فى الإثبات .

قلنا : قال ابن عباس رضى الله عنهم : لا فرق بين الواحد والأحد فى المعنى ، واختاره أبو عبيدة ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾ [الكهف:١٩] وقولهم : أحد وعشرون وما أشبهه ، وإذا كان بمعنى واحد لا يختص أحدهما بمكان دون المكان ، وإن غلب استعمال أحدهما فى النفى والآخر فى الإثبات ، ويجوز أن يكون العدول عن الغالب هنا رعاية لمقابلة الصمد .

*** *** ***

سورة الفلق

١٢٣٥ - **فإن قيل** : قوله تعالى : ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق:٢] يتناول كل ما بعده ، فما الفائدة فى الإعادة.

قلنا : خص شر هذه الأشياء الثلاثة بالذكر تعظيماً لشرها ، كما فى عطف الخاص على العام تعظيماً لشرفه وفضله ، أو خصها بالذكر لخفاء شرها ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به ، ولهذا قيل : شر الأعداء المداجى ، وهو الذى يكيد الإنسان من حيث لا يعلم .

١٢٣٦- **فإن قيل** : كيف عرف سبحانه النفاثات ونكر ما قبلها وما بعدها.

قلنا : لأن كل نفاثة لها شر وليس كل غاسق وهو الليل له شر ، وكذا ليس كل حاسد له شر ، بل رب حسد محمود وهو الحسد فى الخيرات ، ومنه قوله ﷺ "لا حسد إلا فى اثنتين" الحديث .

وقال أبو تمام :

وما حاسد فى المكرمات بحاسد

وقال : إن العلا حسن فى مثلها الحسد.

سورة الناس

١٢٣٧ - **فإن قيل** : كيف خص الناس بالذكر فى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١] وهو رب كل شيء ومالكه وإلهه .

قلنا : إنما خصهم بالذكر تشريفًا لهم وتفضيلاً على غيرهم ، لأنهم أهل العقل والتمييز .

الثانى : أنه لما أمر بالاستعاذة من شرهم ذكر مع ذلك أنه ربهم ليعلم أنه هو الذى يعيذ من شرهم .

الثالث : أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذى هو إلههم ومعبودهم ، كما يستغيث بعض العبيد إذا اعتراه خطب بسيده ومخدومه وولى أمره .

١٢٣٨ - **فإن قيل** : هل قوله تعالى : ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٦] بيان الذى يوسوس على أن الشيطان الموسوس ضربان جنى وإنسى كما قال تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢] أو بيان للناس الذى أضيفت الوسوسة إلى صدورهم ، والناس المذكور آخرًا بمعنى الإنس .

قلنا : قال بعض أئمة التفسير ، المراد بالمعنى الأول ، كأنه قال : من شر الوسواس الجنى ، ومن شر الوسواس الإنسى ، فهو استعاذة بالله تعالى من شر الموسوسين من الجنسين ، وهو اختيار الزجاج ، وفى هذا الوجه إطلاق لفظ الخناس ، والنقل أنه اسم ، والنقل أنه اسم للجنى ، وقال بعضهم : المراد المعنى الثانى ، كأنه قال : من شر الوسواس الجنى الذى يوسوس فى صدور الناس من جنهم وإنسهم ، فسمى الجن ناسًا كما سماهم نفرًا ورجالاً فى قوله تعالى : ﴿أَنَّهُ

ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن:١] وقوله تعالى : ﴿ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن:٦] فهو استعاذة بالله من شر الوسواس الذى يوسوس فى صدور الجن كما يوسوس فى صدور الإنس، وهو اختيار الفراء ، والمراد من الجنة هنا الشياطين من الجن على الوجه الأول ، ومطلق الجن على الوجه الثانى ، لأن الشيطان منهم هو الذى يوسوس لا غيره ، ومطلقهم يوسوس إليه ، واختار الزمخشرى الوجه الأول وقال : ما أحق أن اسم الناس ينطلق على الجن ، لأن الجن سموا جنًا لاجتنانهم ، أى لاستتارهم ، والناس سموا أناسًا لظهورهم من الإيناس وهو الإبصار ، كما سموا بشرًا لظهورهم من البشرة ، ولو صح هذا الإطلاق لم يكن هذا المجمل مناسبًا لفصاحة القرآن قال : وأجود منه أن يراد بالناس الأول الناسى كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ ﴾ [القمر:٦] وكما قرئ : ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسِى﴾ بين الجنة والناس، لأن الثقلين هما الجنسان الموصوفان بنسيان حقوق الله تعالى والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

تم بحمد الله تعالى

*** *** ***


الفهرس

الفهرس

السورة الصفحة

السورة	الصفحة

السورة	الصفحة

السورة	الصفحة

السورة | الصفحة

السورة الصفحة

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر – منية سمنود – دقهلية
هاتف : ٠١٢٢٧٥١١٠٠٣ – ٠١٠٦٦٩٨٤٠٥٥